بدر الدين حامد الهاشمي

السُّودان بعيون غربية

الجزء الثاني



بطاقة فهرسة

مكتبة جزيرة الورد

اســم الكتاب : السُّودان بعيون غربية (الجزء الثاني)

المـــــــؤلف : بدر الدين حامد الهاشمي

تصميم الغلاف: إيفيناش رامكومار

رقـــم الإيداع :

مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان حليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٠٤٠٤٦ ـ ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_٥@yahoo.com

الطبعة الأولى ٢٠١٣

الإهداء

إلى والدي...كما ربياني صغيرا

وإلى كل من علمني حرفا

وإلى وطني الكبير وعائلتي الصغيرة...

وإلى روح ابنتي «تسنيم» التي رحلت ولما تبلغ سن العشرين

محتويات الكتاب

بطاقة فهرسة ٢
الإهداء ٣
محتويات الكتاب ٤
تقديم مصطفى عبد العزيز البطل ٦
تقديم جمال محمد إبراهيم ٨
تقديم السفير/ د. خالد محمد فرح ١١
مقدمة ١٤
من الأمثال السودانية هنري. سي. جاكسون ١٦
سك العملة في عهدي المهدي والخليفة اتش. إس. جوب ٢٠
أمراء المهدي ٢٦
سليم أغا: ملحمة عبد مسترق جيمس ماكارثي ٣١
عرض لكتاب: «الرشايدة: رعاة عرب في شرق السودان» ٣٦
حول التاريخ السياسي للمساليت دينيس تيللي ٤٣
من عادات الرباطاب جون ونتر كروفوت ٤٦
عادات واحتفالات الرباطاب ٥٠
مجاذيب الدامر ٥٤
محس العيلفون هنري سي جاكسون ٥٨
نمر: ملك شندي الأخير ٦١
المماليك في السودان أ. أي. روبنسون ٧١
تجربة باحثة أمريكية مع مترجمين محليين من قبيلة الدينكا مارثا بيرد ٧٥
بعض الطقوس الاجتماعية عند الدينكا جيفري ديل ٧٩
بين علمين: حياة البارون سير ردولف سلاطين ٨٦
لمحات عن الخرطوم في العشرينات سطور من كتاب «الإبل» بقلم دانيال إستريتر ٩٥
قصة الخرطوم ٩٩
عرض لكتاب:« بورتسودان: نشوء وتطور مدينة استعمارية» ١١١
السودان: أيام وعادات ١١٤

أغنيات جنود السودانSudanese Soldier's Songs ١٢١
القطاع الخاص السوداني: لمحة تاريخية ١٣٢
السودان الإنجليزي المصري (١٨٩٨ - ١٩١٤م).................... ١٣٥
العهد الاستعماري الكلاسيكي (١٩٢٠ - ١٩٥٠م).................... ١٣٧
من ذكريات البريطانيين في السودان: الوصول إلى المكتب هارولد وليامز ١٤١
من يوميات البريطانية إيزماي توماس في السودان.................... ١٤٤
السياسة البريطانية حيال «الأنصار» في السودان.................... ١٥٤
العلاقات بين السودانيين في الشمال والجنوب من وجهة نظر بعض الأدباء.................... ١٦٢
عبيد السودان السابقين: دراسة عن «عرس الزين» للطيب صالح.................... ١٦٨
عرض لكتاب «عبيد الحظ: الجنود السودانيين وحرب النهر ١٨٩٦ - ١٨٩٨م».................... ١٧٣
عرض لكتاب «أول قطار سكة حديد في السودان»: بعثة إغاثة غردون وحملة دنقلا».................... ١٧٧
عشرون عاما كمفتش سياسي في السودان الانجليزي- المصري ١٧٩
الحزب الشيوعي في السودان (١٩٤٦ - ١٩٧١م) ١٨٦
حول كتاب «في داخل السودان: الإسلام السياسي والصراع والكوارث» ٢٠٣
للسفير الأمريكي السابق بالخرطوم دونالد بيتريسون.................... ٢٠٣
بحارة السودان من المهاجرين مقتطفات من كتاب:.................... ٢١٢
الثبات على المبدأ: رحلات مع نساء السودان د/ ليليان كريغ هاريس.................... ٢٢٣
فندق الأكروبول بالخرطوم ليليان كريق هاريس.................... ٢٣٣
العنف والسلطة والدولة في جبال النوبة إبان الحكم الثنائي.................... ٢٤٢
من تاريخ الممارسات والمخالفات الانتخابية في السودان منذ عام ١٩٥٣م.................... ٢٤٩
اغتيال في الخرطوم.................... ٢٥٥
لمحة من تاريخ اليهود في السودان مقتطفات من كتاب «قاموس السودان التاريخي» ٢٥٩
الطباعة في قرن: الصحافة العربية والحركة الوطنية في السودان (١٨٩٩- ١٩٩٩م).................... ٢٦١
ذكرى أيام امتحانات الشهادة في الإقليم الشمالي إيان مارشال.................... ٢٧٠



تقديم
مصطفى عبد العزيز البطل

البروفيسور بدرالدين حامد الهاشمي واحدٌ من الذين اختصهم الله بقضاء حوائج الناس. وقد جاء في الأثر عن نبينا الصادق المصدوق عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم: (إن لله عباداً اختصهم بقضاء حوائج الناس، حببهم في الخير وحبب الخير إليهم، أولئك الآمنون من عذاب يوم القيامة). وبخلاف ما استنام إليه البعض من أن عبارة «حوائج الناس» تقتصر علي المتطلبات الحياتية ذات الأشكال والمضامين المادية، مما يشغل الناس في دارج حيواتهم اليومية وحسب، فالحقيقة أنها تتجاوزها فتطال أيضاً ثمرات المعرفة والتنوير والوعى، وتستغرقها استغراقا كاملاً. وتلك أجلُّ وأسمى حاجات العقل والنفس في مسعاهما الأبدي إلى الوفاء بواجب الخلافة في الأرض.

وأحبّ أن أزيد، فأقول عن صاحبي هذا، المتبتل في محاريب المعرفة، أنه من المُحسنين وأهل الهمم العالية، من العُصبة أولي العزم الذين إذا نهضوا إلى منهض طلبوا من ورائه الأجرين، فتوسلوا إلى الكمال الوسائل، وتكلفوا في غايته التكاليف. شأن العلماء، ورثة الأنبياء، الذين يأخذون العلم بحقه، فيؤدون أمانته كأفضل ما تؤدى الأمانات، ويبلغون رسالته كأوفى ما تبلّغ الرسالات.

مما يدهشني دائماً وأنا أتأمل أحوال صاحبي بدر الدين، موالاته ومثابرته علي البذل والعطاء، مع التدقيق والإتقان، في مجال الترجمة والتوثيق، علي نحو يكاد، بل لعله يفوق ويتجاوز - بما لا يقاس - كسب كثير من أولئك الذين جعلوا من هذا المضمار ميداناً أوحداً للتخصص. مصدر الدهشة – والإعجاب المستبطن – هو أن للبروفيسور الهاشمي ميداناً أصلياً لتخصصه العلمي حصّل في صحنه ذرا الإجازات العلمية من كبريات الجامعات الغربية، ثم توغل في شعابه فبلغ شأواً عظيماً، إذ أصبح بفضل الله سلطةً دولية في مجال الأدوية والسموم، ومحاضراً وباحثاً وزميلاً في عدد من الجامعات والمؤسسات الأكاديمية الأمريكية والأوربية والعربية. هو ينهض إذن إلى شؤون الترجمة وشجونها في وارد الوقت وفضوله، فيُحسن ويُجيد، فلا عجب أن يكون هذا المنتوج العلمي والثقافي الذي ما برح يرفد به المكتبة السودانية والعربية، تارةً بعد تارة، موئلاً للإعجاب والدهشة.

تغص المكتبات بالعديد من الترجمات والأعمال المنقولة من لغاتها الأم. غير أنّ كثيراً من هذه الترجمات والنقولات محايدة ورطبة وباهتة، لا تحس في نصوصها روح المتون الأصلية. وأفضل التراجم هي التي تغفل عقل القارئ ووجدانه عن حقيقة أن النص الذي يقرؤه منقول عن أصل أجنبي.، فتجعله يحس وكأنه ينعم النظر ويتماهي مع منتوج الكاتب الأصل بغير وسيط. وتعرّف بعض المدارسّ الغربية الترجمة الجيدة على أنها (الترجمة التي تفي بنفس الغرض في اللغة الجديدة، مثلما فعل الغرض الأصلى في اللغة التي كتب بها). وتصف عملية الترجمة بأنها مطابقة لعملية الرسم إلي حدٍ ما (إن الرسام لا يستخرج كل تفصيل المنظر، فهو ينتقي الأفضل. إنها الروح – وليس المعني الحرفي – التي يسعي المترجم لتجسيدها في ترجمته الخاصة).

وقد اجتمع عدد من حملة الهم المعرفي من صفوة السودانيين علي أن ترجمات بدرالدين تعكس معاني وروح النصوص الأصلية بحيويةٍ عالية، وأسلوبية تلقائية وسلسة، تولد استجابةً مشابهة للنصوص الأصلية في ذهن القارئ. ولا غرو أن مثقفاً فحلاً في مقام الدكتور منصور خالد، يشكل بذاته المفردة مرجعيةً ثقافيةً وعلميةً بحجم جبل التوباد، استشعر الحاجة إلى التنويه بأفضال البروفيسور بدرالدين الهاشمي وإضاءاته الثقافية الباهرة فأفرد للوفاء بهذا

الغرض جانباً من محاضـرة غراء ألقاها في الذكري الخامسـة والعشـرين لرحيل خدنه الوريف جمال محمد أحمد، أمام حشد المحتفلين بجامعة الخرطوم في صيف العام ٢٠١١. وأ سبغ منصور في محا ضرته تلك علي البروفيسور الهاشمي صفة «الباحث المحقق»، فأضاف لقباً جديداً إلى ألقابه المتعددة.

كما وقعت بين يدي مادةٌ منشـورة خطها كف الأسـتاذ عبد المنعم خليفة خوجلي في وارد التعريف بالبروفيسـور بدرالدين الهاشمي والاحتفاء بإحدى منتوجاته التنويرية التي صدرت في وقت سابق. وقد جاء في متنها: (إن المنطلق الحقيقي من وراء هذا الفيض الدافق من العطاء هو الإسهام في قضية البعث الثقافي من خلال التزامه [أي البروفيسور الها شمي] الأ صيل بالحداثة والا ستنارة، وتلك لعمري هي القضية المحورية التي تمثل المرتكز الرئيس للمستقبل الذي ننشده لوطننا). وأحسب أن تلك العبارة جمعت فأوعت، وبلغت المبلغ فأغنت، و ضربت المسمار في المكان الصحيح علي أمّ رأسه، كما يسير المثل عند الفرنجة!

هي إذن هواجس الهوية الوطنية وهموم النهضـة بهذه الأمة التي تؤرق بدرالدين وأمثاله، من الذين يؤمنون بدورٍ كل من نال حظاً من التعليم، في بلد ما يزال الملايين من أبنائه يرزحون تحت وطأة الجهل ويكابدون ذل المسغبة، في أن يرد من موقع الالتزام الخلقي والواجب الوطني قسطاً من دين هذا البلد وشعبه عليه.

مصطفى عبد العزيز البطل

منيابوليس – مينيسوتا

فبراير ٢٠١٣

تقديم
جمال محمد إبراهيم

لم تكن معرفتي بالبروفيسور بدر الدين الهاشمي إلا عبر مترجماته التي برع في إخراجها ونشرها عبر أروقة الإنترنت ، فكنت من بين الذين التفتوا إليها باكراً، وكانت معيناً غير ناضب، نهلتُ منه الكثير وأعانني في عملي ككاتب راتب، ينظر أكثر نظره إلى التاريخ السياسي والاجتماعي والأدبي في السودان وفضائه الواسع . وما أسَرَ نظري إلا اختصاص الهاشمي بترجمة مقالات تتناول تاريخ السودان في سنوات الحكم التركي في القرن التاسع عشر، وعقود الاستعمار السبعة التي تلته، بدءاً باتفاقيةِ الحكمِ الثُنائي عام ١٨٩٨ وانتهاء بنيلِ السّودان استقلاله عام ١٩٥٦، فهي سنوات التلاقح والتصاهر الثقافي على طريق استقامة الهوية، واستواء عناصر مكوّناتها على عود تنوّعها الخلاّق.

وإنّي لمِن المهتمين بالترجمة من الإنجليزية إلى العربية، وإن كنت من غير المتخصصين فلي أن أعترف هنا بأنّ الترجمة علمٌ له قواعده ومعايير أدائه، وإني أحسب نفسي متغوّلاً دخيلاً، وعليّ أن أتحسّب كون انشغالي بالترجمة ليس محض هواية طارئة، ولا ممار سة مزاجية لـ ضربٍ من صنوف الأدب، وأنّ عليّ أن أ سعى لتجويد إتقانها بالإم ساكِ بقواعدها، واتّباع السبل المعينة للإجادة والسمو بالمنتوج المترجم. وفيما شغلت بترصين ما أترجم، صادفتني محاولات البروفسور بدر الدين الهاشمي، وأوّل ما أثار دهشتي كونهُ يمارس الترجمة كممارسةٍ موازيةٍ لمهنته الأساسية وهي تدريس علوم الأدوية والسموم في عدد من الدول وله مساهماته الأكاديمية الرصينة في حوليّات علمية محكمة نشر فيها ما يفوق المائتي ورقة علمية في مجال تخصصه. وما أثار ذلك عجبي، فأنا القادم من عالم الدبلوماسية مارست الترجمة ونقل بعض الأعمال الأدبية من الإنجليزية إلى العربية، ولعلّ الدخول إلى عوالم الترجمة عبوراً من تخصصات أكاديمية أو مهنية مختلفة، يضفي على الترجمات روحاً إضافية ، لكن ليس سهلا بالطبع تمييع الفواصل بين التخصصات، كما أن ابتناء جسور التواصل بينها ليتطلب قدرات تدعمها الموهبة والمزاج قبل الصقل الأكاديمي.

وأكثر ما أعجبني من وصف للترجمة والمترجمين، ما جاء من المفكر الدبلوماسي الرّاحل جمال محمد أحمد يُحدّث عن المُترجم ، فيراه «سفيراً» من لغةٍ إلى لغة أخرى. يقول جمال بلغته الساحرة :

« يحملني هذا الذي أقول عن أسلوبي في الترجمة إلى الظنّ بأن المترجم والسفيركليهما، إنْ كبتْ حرية اختياره ، فقدَ طريقه لمبتغاه . مقام الرجلين في السفارة والترجمة، أوسع قدرة من حرية اختيار الوسائل . سيرميني البعض بالإسراف لأني أقابل بين مقام السّفير وهو كبير ذو خطر و شأن ، ومقام المُترجم ، وأكثرُ الناس لا يعرفون لعلمه مقاماً ذا ذكر.»

ذلك ما دعا كاتباً عبقرياً آخرَ هو الأستاذ الرّاحل علي المك ليمضي ويلتقط خيط جمال معلّقاً فيقول :

« إنّ المُترجم سفيرٌ . سفيرٌ هو من طراز آخر . هو مبعوثنا إلى اللغاتِ الأخر . . يعود إلينا بجواهرها وبلآلئها الباهرات . . » .

وهو كلامٌ مُبينٌ، وقولٌ سديدٌ، دونَ شك . .

وإنّي لأضيف إليهِ هُنا، أنّ الترجمة في وصفٍ صادقٍ أمين هيَ السَّعيُ بينَ لغةٍ وأخرى، ولأنّها ليستْ محضَ انتقالِ أصواتٍ وحروفٍ مُركّبة في مبناها ، فهيَ بما حوَتْ من معاني ومحمولات، تشكّل سعياً بين ثقافة وأخرى في معناها . هيَ إذاً مما يجوز أن نقول عنه «دبلوماسية اللغات».

تجدني أنحاز لما أورد صــديقي الرَّاحل عثمان أحمد عبدالرحيم (أبو ذكرى) في مقدمة عن الترجمة زيَّنَ بها ترجمته لمقالين لعالِمِ الآثار القديم البريطاني أ.ج. آركل، صــدرا في كتيبٍ عن دار عزة عام ٢٠٠٣، ومال فيها ميلاً قوياً نحوَ اعتماد الترجمة كعلمٍ أكاديمي لا تقف مرجعيّاته إلى علوم اللسانيات مما شاع في القرن العشرين، بل ترجع إلى عهد الدولة العباســية ، غير أننا في العالم العربي لن نغلق الباب أمام من يمارســون الترجمة كفنٍ يخرج عن موهبة وهواية تحفّ بها المتعة. لا يريد صــديقي الرّاحل عثمان أحمد عبدالرحيم (أبو ذكرى) للترجمة أن تكون هواية الكســالى، بل يقول عنها أنّها علمٌ و ابداع، يحذقها من ينقطع لها. لكنهُ إلى ذلك، لا تأخذه أحاســيس عداءٍ لما يقوم به أمثالنا، مِن تغوّلٍ خجولٍ على الترجمة. صديقي عثمان رؤوف بنا، فهو يرى للموهبة احترامها وهي الأساس، وأكثر ممارساتنا أنا وصديقي البروفسور الهاشمي للترجمة، هيَ ما يصدر عن محبَّة للسعي مراوحةً بين لغةٍ ولغة، أوبين علمٍ وعلمٍ أو بين أدبٍ وأدب . هي «دبلوماســية اللغات» نبحر عبرها في مياه الأدب والتاريخ وبقية العلوم الإنســانية، نُّشــداناً لمتعة خاصة ولكن أيضاً تحقيقاً لفائدة مُبتغاة، يشاركنا فيها الآخرُ فيجد حصاداً مثمراً دائما، لا هشيماً ضامراً زائلا . ما أضرَّ بالترجمات على قول صديقي الرّاحل عثمان، إلّا الموظفون يمتهنون الترجمة، كما يمارسها كُتّاب العرضحالات في زوايا دواوين الحكومة. . !

أحمد لصــديقي الهاشــمي جنوحه لترجمة مقالات علمية وتاريخية حواها هذا السـفر الممتع، وتطرقت إلى أحوال السودان الحديث في مشوار تشكله ، ثقافته وتاريخه الاجتماعي والسياسي، بأقلام بريطانية في الغالب الأعمّ، وربّما هي ممّا لا يقع عليه المؤرخون الرّاتبون عادة ، أو يشغل نظرهم واهتمامهم. لأعطيك مثلاً وأقرّب لك الصورة، فقد أعجبني ما ترجم الهاشــمي عن الســيدة البريطانية إيزماي توماس، إذ كتاباتها لم تتعدّ الملاحظات السـطحية، غير أنها مشحونة بصدقية عالية وبطرافة مسلية وبعفوية في التعبير، عن الانطباع الأوّلي تلتقطه بعينها وهيَ الأجنبية الغريبة عن أحوال البلاد. يُعدّ زوجها الســيد توماس، من أصــدقاء الزعيم الكبير الإمام عبدالرحمن المهدي المقرَّبين، وأتذكّر كيف شاركنا في العزاءِ يوم رحيله في ضاحية لندنية عام ٢٠٠٠ ، وكان بين الحضور السيد الإمام الصادق المهدي.

ثم تفاجؤك فيما ترجم الهاشــمي، كتابات بقلم ليليان كريغ عن فندق الأكروبول في قلب الخرطوم، والدكتورة ليليان هي زوجة المبعوث البريطاني الخاص في الســودان الســفير ألان قولتي الذي لعب دوراً بارزاً في مفاوضــات نيفا شا (٢٠٠٣-٢٠٠٥) . أما ما جاء من مقالات عن المحس وعن المجاذيب في الدامر وبعض عادات الرباطاب ، فهي كتابات لا أثر لمثيلاتها في كتب التاريخ الرّاتب. ينظر طلاب التاريخ والدارســون لكتابات كرومر وونجت وب.هولت وماكمايكل وجاكسون ونعوم شقير وأضرابهم، ومن المؤرّخين السودانيين المتأخرين دون حصرٍ: مكي شبيكة والقدال وأبو سليم ومدثر عبدالرحيم، غير أنك لن تجد ضالتك إن كنت تسعى لتعرف شيئاً عن تفا صيل التاريخ الاجتماعي للبلاد، تلك التفاصيل التي تكون وراء الكواليس لا أمامها. إن المقالات التي في هذا السِّفر هي

التي تكمّل ما غاب عن الذّكر في الكتابات الرّسـمية . من يقصـدون كتابة التاريخ الرَّسـمي قد لا يعيرون نظراً فاحصاً لكتابات من قبيل ما ترجم الها شمي، ولا يتوقفون عندها. عندي أن مثل كتابات إيزماي وكتابات البريطانيين العابرين، وإن كانوا زواراً مؤقتين، أو إداريين أو حُكّامَ كولونياليين في السّودان، هي شهادات نضحتْ عن عقل وافدٍ غريبٍ دلف إلى السّودان وهو يرزح في الواقع تحت ميسم ا ستعماري، وأفصحتْ بجلاءٍ عن انطباعات هذا العقل الوافدٍ، وعن حالة تلقّيه لواقع وبيئة يراها مُمعنة في التخلّف، ويحسـب أن العناية الإلهية أودعته أمانة إخراج سـكان البلاد منه. هي شهادات ومشاهدات عن البلد المُستعمَر (بفتح الميْم)، مثلما هي شهادات ومشاهدات عقل مُستعمِر (بكسرِ الميْم). التاريخ الرّسمي لا يحكي لك تفصيلاً عن ملبس الزعيم الديني أولون حذائه أوطريقة لبسه للعمامة ، ولكنها أمور تقرؤها الآن فتجد لها دلالات وطرافة ذات مغزى .

إنّي لا أخفي ما وجدت من متعة حقيقية عمّا رأت هذه «العيون الغربية» ونقلها لنا الهاشـمي إلى اللغة العربية في ترجمة أمينة، وإن لم يبخل على القراء بحواشي تعين على فهم النصوص أو تقوّم بعض ما حملت أقلام هؤلاء «الغربيين» من تحامل في بعض المواضع لا مبرر له إلّا وقوعهم أسرى لنظر استعلائي مريب.

لا أفسد عليكم متعة الاطلاع على هذه الشهادات الطريفة ، وإني لعلى ثقة أن القارئ سيجنى فوائد جمَّة تُعين على التعرّف على نظر الآخر الغريب لأحوالنا ، فيما تتوا صل اجتهاداتنا ومساعينا لصياغة بلاد وا ضحة المعالم ، سواءاً على صعيد الثقافة أو الاجتماع أو السياسة .



تقديم
السفير/ د. خالد محمد فرح

لقد شرفني أخي و صديقي البروفيسور بدر الدين علي الها شمي حقّاً ، عندما طلب إليّ أن أكتب تقديماً لكتابه: « السـودان بعيون غربية – الجزء الثاني » ، وتلك هي واحدة من آيات أريحية هذا العالم والكاتب و البحاثة المثابر ، وتواضعه ، وإخلاصه ، وسلامة صدره ، وصدق مودته ، وخصوصاً حسن ظنه بشخصي إذ جعلني في مصاف أولئك النفر من أعلام الفكر والثقافة وأرباب الأقلام الذين دبجوا أروع المقدمات للجزء الأول من هذا السـفر المفيد والممتع ، ألا وهم الأسـاتذة الكرام: الشـاعر السـفير محمد المكي إبراهيم ، والأسـتاذ الدكتور عبد الله حمدنا الله ، والأ ستاذ عبد المنعم خليفة خوجلي. وأحسب أيضا أنني قد وقفت في مكان ما على تقريظ جيد لكتابات الدكتور بدر الدين الهاشمي بقلم الكاتب والمفكر الكبير الدكتور منصور خالد. فأين أنا من هؤلاء ؟ قال حاج الماحي رحمه الله:

شوف الدقوني الفوق نجحْ

رحَمَ اللهُ للعاقبْ بَرَحْ

في وصفي أنا الدون والأشحْ

وبعد ، فهذا هو الجزء الثاني من كتاب « السـودان بعيون غربية » ، وهو عبارة عن توليفة منتقاة ، تضـم عدداً من المقالات والرسـائل والبحوث الموجزة التي تخص الشـأن السـوداني حصـراً ، وتشـمل مجالات عديدة ومتنوعة ، علمية وأدبية وثقافية و سيا سية واجتماعية ، كتبها مؤلفون أجانب باللغة الإنجليزية ، ونشروها في كتب وإ صدارات مختلفة ، وفي تواريخ متفاوتة ، بعضها يعود إلى ما يزيد عن القرن ، وبعضها حديث ومعا صر ، عمد البروفيسور بدر الدين الها شمي إليها فاقتطفها من مصادرها ، وترجمها إلى اللغة العربية ، ثم نشرها أولاً منجمة من خلال الصحافتين الورقية والإلكترونية في السودان ، وعقب على مجموعة منها فجمعها ونشرها في الجزء الأول من هذا الكتاب ، وها هو يضع الجزء الثاني منه بين أيدي القراء.

يدور التخصـص العلمي والأكاديمي للدكتور الهاشـمي، حول علوم الأدوية والسـموم ، التي حصـل فيها على درجة الدكتوراه من جامعة إدنبرة ببريطانيا، مما أهله إلى المزيد من الأخذ والعطاء العلمي في مجال تخصصه ذاك في جامعة الخرطوم ، والجامعات البريطانية والأمريكية ، حتى نال درجة الأسـتاذية عن جدارة وتميز. وهو يعمل الآن أ ستاذاً في تلك المجالات بكلية الطب بجامعة السلطان قابوس بسلطنة عمان ، وما يفتأ يتنقل ويسافر على الدوام ، إلى مختلف العواصـم العالمية أسـتاذاً زائراً ، أو باحثاً مشـاركاً في مختلف المؤتمرات والملتقيات العلمية في مجال تخصصه ، الذي أضحى فيه علماً يشار إليه بالبنان على مستوى العالم.

ولئن كان البروفيسـور الهاشـمي هو كما وصـفنا ، من حيث التأهيل العلمي ، والتخصـص الأكاديمي ، والتميز المهني ، فلهو أيضاً كاتب ظل يضرب بسهم وافر في مختلف ضروب الفكر والكتابة والتأليف ، وخصوصاً الترجمة ، التي لا ربما لا نغالي إذا ما و صفناه بأنه واحد من أغزر السودانيين إنتاجا ، وأميزهم عطاءً كماً وكفياً في هذا المجال ، على الأقل خلال العقد المنصرم.

وقد نشر له بخلاف كتاب « السودان بعيون غربية » بجزئه الأول ، وهذا الجزء الثاني الذي نحن بصدده ، نشر له في مجال الترجمة كتابان هما ترجمته قبل بضـــعة أعوام لكتاب الأمريكي كلايف تومســـون عن ثورة أكتوبر ، وترجمته مؤخراً إلى العربية لروايتي Minaret أو « مئذنة في ريجنت بارك » و The Lyrics Alley أو « حارة المغنى » للروائية السودانية العبقرية التي تكتب بالإنجليزية « ليلى أبو العلا ». هذا فضلاً عن ترجماته غير المنشورة لعشرات المقالات والبحوث والرسائل في مختلف المواضيع من اللغة الإنجليزية إلى اللغة العربية.

وهكذا حُق للبروفيسـور الهاشـمي أن ينضـم إلى ركب ميمون ، وكوكبة نيرة من الرواد السـودانيين الذين اهتموا بالترجمة والنقل ، خاصة من الإنجليزية إلى اللغة العربية ، كالأساتذة: أحمد الطيب أحمد ، وجمال محمد أحمد ، وعبد الله الطيب ، والجنيد علي عمر ، وعمر مصطفى المكي ، وهنري رياض سكلا ، ومحجوب عمر با شري ، وعلي المك ، و صلاح أحمد إبراهيم ، وغيرهم. ويمثل الها شمي مع صديقنا سيف الدين عبد الحميد – في تقديرنا – طبقة لوحدها من المترجمين الهواة المجيدين في عصــرنا الحاضــر ، وذلك دون أن نغفل بالطبع ، جهود أســاتذتنا الكرام بوحدة الترجمة والتعريب بجامعة الخرطوم وبالمعهد الإسلامي للترجمة.

وللحق فإنه قد اتفقت للبروفيســور بدر الدين الهاشــمي براعة ملحوظة في الترجمة ، وتفنن معجب في النقل إلى العربية ، بأسلوب واضح وسلس وسهل ورفيع في آن واحد معا ، زانه حرص على سلامة اللغة ، ونصاعة ورصانة في الأ سلوب ، وإ شراق في الديباجة. وتلك هي لعمري خصائص تنم عن معرفة مو سوعية ، وامتلاك لنا صيتي اللغتين الانجليزية والعربية كليهما ، واطلاعاً حسناً على أسرارهما. وقديماً قيل:

وإذا المترجمُ حازَ أسرار اللّغى   روّى عباداً من حياضِ عبادِ

هذا ، وقد لاحظت أن الجزء الأول من هذا الكتاب ، قد ركّز على المواضــيع التاريخية والثقافية والأنثربولوجية ، بينما يشــتمل هذا الجزء الثاني على مقالات يدور جلها حول جملة من القضــايا المعاصــرة ذات الصــلة بالمجتمع السوداني وبالسيا سة السودانية ، وإن لم يخل من بعض الموا ضيع الأدبية ، مثل ترجمة الها شمي للمقال الذي نشره الكاتب «مايك فيلبس » بتاريخ ١١ يونيو ٢٠٠٥ بصــحيفة القارديان البريطانية عن رواية Minaret أو « مئذنة » ، التي ترجمها البروفيسور نفسه كاملة من بعد ، ونشر ترجمته لها ، كما سعدت أنا على المستوى الشخصي ، بأن نشر الهاشمي من ضمن مواد هذا الكتاب مقال Sudanese Soldiers Songs أو: أغنيات الجنود السودانيين للدكتور هى ثورنبيرن Hay Thournburn الذي كنت قد اشــتركت معه في ترجمته. وبهذه المناســبة فإنني ما زلت أتطلب بإلحاح من الدكتور الهاشـمي، وهو الذي يتردد كثيرا على أمريكا بحكم إقامة أسـرته هناك ، أن يبحث في محفوظات قوات البحرية فيها عن أي توثيق للخبر الذي رواه الفنان الرائد إســماعيل عبد المعين ذات مرة عن زيارته لإحدى بوارج الأسـطول الأمريكي الذي كان راسـيا قبالة ميناء طبرق بليبيا في أثناء الحرب العالمية في حوالي سـنة ١٩٤٣ ، وتسجيله مارشاً سودانياً لصالح المارينز تقول كلماته:

أخوان البنات ربطوا الكلام

الطير بحوم فوق الرخمْ... إلخ

وأود في ختام هذه الكلمة الموجزة في حق الدكتور بدر الدين الهاشمي وسفره القيم هذا ، أن أعبر عن تطلعي وأملي في قيام هيئة أو لجنة علمية لترجمة مواد مجلة « السودان في رسائل ومدونات » جميعها ، من لدن صدورها في عام ١٩١٨ م ، وحتى يوم الناس هذا ، إلى اللغة العربية ، حتى يسهل اطلاع غير الملمين باللغة الإنجليزية من السودانيين بصفة خاصة عليها ، بغرض الاستفادة مما فيها ، وذلك على النحو الذي تم به تعريب: « جمهرة المعارف الإسلامية » ، أو The Encyclopedia of Islam ، وانتهز هذه السانحة – بطبيعة الحال – لكي أقترح اسم البروفيسور بدر الدين الهاشمي ، لكي يكون عضواً مؤسساً لهيئة أو لجنة تعريب مواد مجلة السودان في رسائل ومدونات ، التي آمل من جانبي ، أن ترى النور في يوم الأيام بإذن الله ، والله ولي التوفيق.

خالد محمد فرح

ضاحية نويي سير سين

باريس ، فرنسا

٣/ مارس ٢٠١٣م

مقدمة

جاء في قول نسب إلى الرسول الكريم ﷺ (ولعلي بن أبي طالب أيضا) «**ما أتى الله أحدا علما إلا أخذ عليه الميثاق ألا يكتمه أحد**».

تجد بين يديك مجموعة مقالات متنوعة كنت قد جمعتها من بين مقالات كثيرة نشرت بعضها في الجزء الأول من هذا الكتاب الذي اسـميته «السـودان بعيون غربية»، وهذه المقالات تسـير في ذات اتجاه الجزء الأول، والذي كان الهدف الرئيس منه هو اطلاع القراء (خاصـة السـودانيين) على جانب من تاريخ بلادهم مما قد يكون حالت بينهم وبينه حواجز اللغة أو عسر الحصول على المراجع أو غير ذلك من العقبات عن الوصول إلى بعض ما وجدته مصادفة عن السـودان، أو بعض ما سـعيت له سـعيا ونقبت عنه تنقيبا في بطون الكتب والمجلات القديمة من كتابات بأقلام أجنبية (جلها بريطاني) في تاريخ بعض أعلام السـودان (مثل تاريخ المك نمر) و تاريخ و عادات القبائل (مثل الرباطاب) والجاليات الأجنبية (مثل تاريخ الجالية اليهودية) وتاريخ المدن فيه (مثل تاريخ الخرطوم) وغير ذلك. لا أ ستطيع بالطبع أن أزعم أن عر ضي لهذه المقالات التاريخية بأقلام غربيين يجعل من كتابي هذا كتابا في علم التاريخ (أو «أبو العلوم» كما يسـمى) فهو لا يقدم دراسـة تاريخية ذات منهج علمي محدد، إنما هو عرض لمقالات وكتب قرأتها ونالت اعجابي، ويجمع بينها أنني تناولت تاريخ جوانب محددة في الحياة السـودانية غالبها في النصـف الأول من القرن العشـرين، فقمت بعرضـها مشـاركة متواضـعة مني في نشـر الوعي التاريخي وحب الاطلاع علي ما كتبه الآخرون عنا لما في ذلك من الفوائد التي لا تخفى على أحد، وقد سبق نشر هذه المقالات كافة في موقع «سودانايل» الإسفيري ونشر بعضها في صحيفتي «الأحداث» و «الخرطوم».

وتمثلت في جمعي لهذه المقالات المتفرقة ما قصده الشاعر محمد المكي إبراهيم في تقديمه لكتاب الأ ستاذ عبد المنعم خوجلي «الأناشيد القديمة» حيث ذهب إلى أن جمع المقالات المنشورة بين دفتي كتاب من الأمور التي تشجع القارئ على الاسـتمرار في القراءة وتجنبه الملل، خاصـة في زمن تناقص فيه المدى الزمني اللازم للانتباه (attention span)، وقد تزوده بقراءة ممتعة (إن كان بالكتاب ما يمتع بالطبع!) وربما مفيدة أيضا.

إن أملي كقارئ وكاتب غير متخصـص وكهاو لتاريخ السـودان، من خلال هذا العرض لمقالات قصـيرة عن موضوعات تاريخية محددة، أن ألفت نظر القارئ لوجهات نظر (غربية) قد لا تتفق قليلا أو كثيرا مع ما كنا نقرؤه من تاريخ مدر سي يمجد أ شخا صا ويحط من قدر آخرين ربما بدافع الغيرة الوطنية (والتي و صفها صمويل جونسون بقوله أنها «آخر معاقل الأوغاد»)، لذا فإن البعض قد يجد في قليل من هذه المقالات ما لا يرضـيهم عن بعض زعمائهم «المقدسـين»، بيد أن الكاتب في نظري ينبغي أن يكون كما أشـار إبراهيم المازني في «حصـاد الهشـيم»: «صـريحا جريئا يقتحم على الناس بآرائه ولا يبالي من رضـي ممن سـخط منهم، الذين لا يروق لهم أن يرون كلامه مطبوعا». وكما أ شار المؤرخ المرحوم م. س. القدال في كتابه «الانتماء والاغتراب» إلى ما أ صاب شيخ المؤرخين السودانيين من مضايقات وصل بعضها للتعدي الجسدي حين تعرض بالنقد لبعض الزعماء الدينين / السياسيين إذ أن «النقد عندنا ضـعيف إن لم يكن معدوما أصـلا... ويفهم النقد فهما ذاتيا بحتا، فهو إما تحامل أو هدم أو تقليل من شأن الآخرين..» بيد أن الأمل كبير في أن يقرأ الشباب والشيوخ من أهل السودان عرضي لمقالات الغربيين عن

جوانب مختلفة من تاريخ الـ سودان بعقل واع و شهية منفتحة ورغبة صادقة في معرفة ما يقوله الغربيون عنا وعن زعمائنا دون عظيم انبهار أو شديد بغض.

الشكر موصول لكل الأصدقاء ممن شدوا من أزري وقدموا لي يد العون في ترجمة بعض الكلمات أو التعابير وتوضيح بعض ما غمض علي في جوانب تاريخ قليل لما عرضت له، ولا مجال هنا لذكر أسمائهم جميعا فهم كثر. ولا بد لي بالطبع من أن أشكر في الختام زوجتي وأفراد عائلتي على تشجيعهم المعنوي لي وهم في مهجرهم البعيد.

والله من وراء القصد

بدر الدين حامد الهاشمي

من الأمثال السودانية
هنري. سي. جاكسون

تقديم: نشر هذا المقال في العدد الثاني من «السودان في ر سائل ومدونات» (والمطبوعة في المعهد الفرنسي لعلم الآثار الشـرقية بالقاهرة) في عام ١٩١٩م. والكاتب هو أحد ر جال الإدارة في عهد الحكم الثنائي (البريطاني/المصـري)، وهو مؤلف كتاب شـهير قدم له هارولد ماكمايكل بعنوان : Behind the Modern Sudan وله كتاب آخر بعنوان: Sudan Ways and Days .

من الواجب تذكر أن هنالك كتابا عنوانه «أمثال العوام في مصر والسودان والشام» لبولين سنجر صدر مترجما في القاهرة عام ١٩٤٣م، وصدر للشيخ بابكر بدري كتاب«الأمثال السودانية» عام ١٩٦٣م، وحديثا عثرت على عدد من المواقع الإسفيرية لمجموعات تهتم بنشر تراث ومعاني وقصص الأمثال السودانية في الشبكة العنكبوتية؛ منها علمت أن الدكتور صبري محمد خليل مقالة عن «الأمثال السودانية: تحليل منهجي».

السـودانيون مغرمون بالأمثال، خاصـة ذات القافية والوزن. يشـيع كثير من هذه الأمثال في السـودان، وفي بعض الأقطار الأخرى التي تتحدث بالعربية. لكنا آثرنا هنا أن نقصر مقالنا هذا على الأمثال السودانية فقط، مع تفسيراتها، خاصـة كما تفهم في منطقة النيل الأزرق، إذ قد يختلف التفسـير في هذه المنطقة عنه في المناطق الأخرى، مما قد يجعل أمر الفهم المقارن للأمثال في مختلف مناطق السودان موضوعا مثيرا للدراسة فيما بعد. يجب علي أن أذكر أن أول من جمع الأمثال السودانية هي السيدة (بولين) سنجر، ولن أكرر ما جمعته هنا، بل سأورد فقط من الأمثال التي جمعتها ما أخطأت في تفسيره، أو تركته دون تفسير.

إن للعرب (وكذلك السـودانيين) حسـا فكاهيا مميزا...ولعل ذلك القول يعد من البدهيات. إنهم قوم حاضـري البديهة، يجيدون الردود السـريعة المفحمة، ويفهمون لغة «المطاعنات»، ويقدرون الحكمة ومن سـرعة الجواب، ويتمتعون بخفة الدم. كل هذه الصفات تفتح أمام الإداري (البريطاني) ما انغلق من عقول وقلوب وعواطف من تحته من الأهالي، وتجعل من إدارة شئونهم عملا ميسورا. لذا فإن معرفة بعض الأمثال المحلية للسكان الناطقين بالعربية عمل لا شـك فيه كثير من النفع للإداري (الأجنبي). هذا ما يجعلهم يضـحكون، وبذا ينفتح ما انغلق من نفوسـهم، وكما يقول المؤرخ والمفكر الأسـكتلندي توماس كارلايل (١٧٩٥ – ١٨٨١م) فإن الضـحك هو المفتاح لقلب الرجل «It is the cipher-key wherewith we decipher the whole man»

رغم صعوبة اللغة العربية، فإنه يمكن للمرء أن يحفظ بعض الأمثال عن ظهر قلب ليستعملها في الوقت المناسب (للأسف كثيرا ما يخالف الأجانب ذلك، وتكون العواقب غير ما يشتهي القائل. المترجم).

١- الأمو عريانة، ما يكسـي خالته: وهو يعني أن العمل الخيري يجب أن يبدأ من البيت، وهذا هو ما يقوله المثل المصري القائل: «الزيت إن ما كفي أهل البيت، حرام على الجيران»، والمثل الإنجليزي القائل Charity begins at home

٢- ملكين (مكين) فوق كركر، كان دا غاب، داك حضـر: والكركر هو صـولجان سـلطان الفونج...وكلمة صولجان هنا تقال على سبيل المجاز، فما كان يجلس عليه سلطان الفونج ما كان سوى شيء شبيه بصندوق السكر

الذي أزيل منه جانبان. بعد نحو ٢٠ عاما من زوال سـلطنة الفونج اتخذ الفكي حمد النيل عبد الباقي (في طيبة) في عام ١٨٤٠م له كركرا من نوع آخر. والمثل يقال لرجل عظيم دائم الحضور. يمكننا مقارنة هذا المثل بمثل إنجليزي يصف بريطانيا بأنها الإمبراطورية التي لا تغيب عنها الشمس. The sun never sets upon the British Empire

٣-الما يخدم ضراعه لمن النهار يحمر، يخدموه الرجال لمن يعمى: وهو مثل يحث على العمل والاجتهاد في الصغر، حتى لا يضطر المرء ليعمل عند الآخرين (حتى عندما يكبر ويصاب بالعمى). والمثل يشبه المثل المصري القائل: «القرش الأبيض ينفع في اليوم الأسود»، والآخر الذي يقول: «الحس مسني، وانوم متهني»، والمثل الإنجليزي Heaven helps those who help themselves

٤- منشان عين تكرم ألف عين: ويضرب عادة لمصاحبي الفكي الذي يزور قرية ما، فيكرم أهل القرية الجميع إكراما للفكي. ومثله في الإنجليزية:Love me, love my dog

٥- الكلب ينبح والجمل يفوت: وهو من أفيد أمثلة السودانيين، خاصة لدى الإداري الذي قد يستعمل المثل ليطيب خاطر النبيل السوداني عندما يثور بدعوى أن «شرفه» قد مسه رجل وضيع. ليس واضحا تماما لي إن كان المقصود هو الجمل بذاته أم راكبه. يعني المثل على وجه العموم أن الرجل العظيم يجب ألا يلقي بالا لما يقوله عامة الناس. ذكر الجمل في هذا المثل لأنه حيوان عظيم في أعين العرب، فلقد قيل أنه يعرف الاسم المائة من أسماء الله الحسنى (وهذا ما يجهله الإنسان)!

٦- يا ساعي وين الراعي: يعني المثل إنه إذا كان لديك قطيع من الحيوانات، فيجدر بك أن تتخذ لها راعيا.

٧- جزا المعروف أربعة كفوف: هذا مثل يسخر من الطبيعة البشرية الناكرة للجميل. وهنالك مثل مشابه هو «ايدي في خشمك، صباعك في عيني». وهو عكس المثل العربي القائل: «إن أخا الوفاء من يسعى معك ويضر نفسه لينفعك» (وفي رواية «إن أخا الهيجاء من يسعى معك ويضر نفسه لينفعك». المترجم).

٨- وطني ولا ملو بطني: وهو مثل يحض على حب الوطن وهجر العيش خارجه، حتى وإن كان عيش الخارج رغدا. ويقابله بالإنجليزية There is no place like home، وبالفرنسية Où peut on être mieux qu'au sein de sa famille.

٩- جمل الحوش ولا شيخ العرب: يقال إن هذا المثل يستعمل بكثرة في المدن (وقلما يستعمل في القرى)، ويفيد بأن العيش مع رجل مدينة فقير لكنه نظيف، خير من العيش مع بدوي غني ليس له في النظافة نصيب. إن تقدم رجل من (العرب) الرحل لخطبة فتاة من المدينة، وعرض على والدها ٢٠٠ من الإبل مثلا، فقد يرفض والد الفتاة العرض السخي، ويستشهد بهذا المثل، والسبب هو أن أهل المدينة أهل نظافة وحضارة ورقي، بعكس أهل القرى والبوادي. بيد أن معايشتي لأهل المدن في السودان تجعلني أقول أن نظرة أهل المدن لأنفسهم ولمقدار نظافتهم فيها الكثير من المبالغة. ذكر أحد المآمير البريطانيين في كردفان أنه عرض على بدوي من الرحل أن يشتري منه ثورين بثمن مغر جدا، بيد أن الرجل رفض العرض مستشهدا بالمثل المذكور، وأردف قائلا: إنه يعرف ثوريه جيدا، وهما يحملان ابنيه بأمان دون أن يقعا، ولا يريد أن يجرب حظه مع ثورين جديدين. وهذا الموقف يذكر بمثل (مصري) آخر يقول: «قرد يسليني ولا غزال يبكيني».

١٠- كوس لك غرابا جزو: هذا هو الجواب المثالي لرجل يسـألك أن تؤدي له خدمة تصـب في مصـلحته هو، لكنها قد تضر بك.

١١- كثرة النقر تكسر الحجر: ليس هنالك اتفاق على معنى كلمة «النقر» هنا، إذ يمكن أن تعني «النقة» المشهورة عند الزوجات! ويمكن أن تعني سقوط نقاط الماء المستمر على الحجر. وهنالك مثل مشابه هو «الماء مع رقته يقطع الحجر مع شدته».

١٢- ابن العبدة منه الخير جبدة، ومنه الشر يبدا: هنالك مثل مشابه لهذا المثل هو «ابن الخادم لئيم»، وهو يشابه المثل الإنجليزي: You cannot gather grapes from thorns, nor figs from thistles

(لا بد من التأكيد على خطل وعنصرية هذين المثلين وسوئهما، وعدم مناسبتهما لزماننا هذا.المترجم)

١٣- البان لك بان للكماتير في أم صـويبينا: بدأت مملكة الفونج في بداية سـنوات القرن الرابع عشـر الميلادي في الاضمحلال، وسلم سلاطينهم أمرهم لمستشاريهم الهمج. وفي وقت من الأوقات حاول بعض سلاطين الفونج استعادة حكمهم، فقام شـيخ كمتور في عام ١٨٠٥م بالهجوم على أحد حلفاء الهمج وهو محمد أبو ريش. نجح الزعماء الدينيون في إقامة صلح بين المتحاربين، لكن كمتور غدر بمحمد أبو ريش في معركة في قرية ا سمها أم صويبينا قرب وادمدني، فقد فيها ١٢ رجلا من جيشـه. يضـرب المثل لمن يغدر بمن عقد معه صـلحا، ثم يهزم. حرف هذا المثل قليلا واسـتعمل في مديرية النيل الأزرق لوصف ما قام به ود حبوبة من تمرد ضد حكومة السودان في عام ١٩٠٨م.

١٤- ما كل مرة تسلم الجرة: والمعنى القريب للمثل واضح، وهو أن ضررا ما لابد أن يصيب الآلة المستخدمة دوما، أو أن «الحظ» لا يمكن أن يكون في جانب المرء دوما. وهذا يشـبه المثل القائل: «الحجر الداير لابد من كسره».

١٥- أرباب الدرت، مسـكين الرشـاس: سـمعت هذا المثل يقال عن موظف سـوداني في مدني كان لا يسـارع بالزراعة في موسمها، ثم يأتي ليتكفف الناس إبان حصادهم لزرعهم. والمثل يقول ببساطة إن من لا يزرع (في الوقت المناسب) لا يحصد. ومثله بالإنجليزية The sluggard will not plow by reason of cold, therefore shall he beg in harvest and have nothing.

١٦- أبيض جناح أسود مراح: يصف المثل الرجل الذي يرتدي فاخر الثياب البيضاء، وتكون داره مسودة من القذارة. ومثله بالإنجليزية: All is not gold that glitters All , OR Fine feathers do not make fine birds

١٧- الما بتاكلو ما بيخنقك: إن كنت قد اتهمت – زورا- بسرقة خروف مثلا، ولم تكن الفاعل، فستقف أمام القاضي بثبات وضمير مستريح. وفي هذا إشادة بالعدالة في السودان، على عكس ما هو حادث في مصر حين يشيع المثل القائل: «يا ما في الحبس مظاليم».

١٨- إن غلبك سدها، وسع قدها: وتعني حرفيا أنه إن عجزت عن سد حفرة ما، فعليك بتوسيعها. ويعني ذلك إن كنت مدانا لكثير من الدائنين، ولم تسـتطع السـداد، فعليك بمواصـلة بل وزيادة الإنفاق. لهذا المثل ما يقابله في الإنجليزيةIn for a penny, in for a pound.

١٩- إن ضـــاق بيك الأمر، اشـــرب زجاجة خمر: يســـتعمل هذا المثل بكثرة عند الجعليين والكواهلة والخوالدة والعركيين في منطقة واد مدني (بحســـب زعم الكاتب طبعا. والمثل مرفوض دينيا وطبيا وعلميا ومنطقيا كذلك. المترجم) يوافق هذا المثل القول المذكور في الإنجيل منسوبا لسليمان:

Let him drink and forget his poverty
.And remember his trouble no more

٢٠- الناقة النباحة حارسة لجناها من المرفعين: إن كان للرجل زوجتان، إحداهما ولود، والأخرى عاقر، فسوف تقوم الولود بإزعاج الزوج بكثرة الطلبات لها ولعيالها، كي لا تدع للمرأة العاقر أن تأخذ من مال زوجها شـيئا. (لا تخفى سذاجة وخطل هذا التفسير للمثل الذي يؤكد ببساطة أن الوالدة تحمي وليدها. المترجم).

٢١- بليلة المباشر ولا ضبيحة (طبيخة) المكاشر: والمعني أن من يعطيك شيئا يسيرا بحب وابتسامة، خير ممن يعطيك الكثير ولكن من غير طيب نفس. وعند المصريين «لاقيني ولا تغديني». وفي الإنجليزية يقال

.Better is a dinner of herbs where love is, than a stalled ox and hatred therewith

٢٢- القرد الكبير ما بيتعلم الرقيص: والمعنى أن التعليم في الكبر عســير وغير مجد. وهنالك المثل المصــري المشابه: «بعد ما شاب ودوه الكتاب». هنالك مثل غربي مشابه هو : You cannot teach an old dog new trick



سك العملة في عهدي المهدي والخليفة
اتش. إس. جوب

تقديم: هذا هو الجزء الأول لعرض وترجمة مختصرة لشذرات قليلة من مقال طويل من عشرين صفحة أو تزيد، نشر في العدد الثالث من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» (والمطبوعة هذه المرة ليس في المعهد الفرنسي لعلم الآثار الشرقية بالقاهرة، بل في مطبعة دار نشر السودان بالخرطوم) في عام ١٩٢٠م، للكاتب اتش. اس. جوب، ولا علم لي الآن بوظيفة الرجل أو مؤهلاته أو أي معلومات أخرى عنه، رغم البحث الدؤوب في المواقع السودانية وفي موقع جامعة درام البريطانية، وفيها أرشيف غني عن السودان وتاريخه. المترجم

قام مهدي الخرطوم، ومن بعده خليفته في أم درمان أثناء الاحتلال المهدوي للسودان (هكذا! المترجم) بين عامي ١٣٠٢ -١٣١٦ هجري (١٨٨٥ – ١٨٩٨م) بسك عملة معدنية خلال عهدهما. تعد هذه المجموعة من المسكوكات المعدنية إضافة مثيرة للعملة المحمدية في أفريقيا، وتوفر أيضا مثالا معاصرا لوضاعة النقد في يد حاكم طاغية.

لم يكن المهدي – فيما يبدو- على علم بالقوانين المنظمة للعملات، والتي أتت بعد تراكم خبرات طويلة، بيد أنه بلا ريب نجح – بإحساس فطري – في سك عملة من نوع جيد. أدرك الخليفة عبد الله ومستشاروه، وبسرعة، أن عمل وتجارة التعدين يمكن أن يدر عليهم مكاسب شخصية، ولكن يلاحظ أن مستوى وقيمة المسكوكات المعدنية الحقيقة في عهد الخليفة عبد الله قد شهد انخفاضا بائنا، حتى أن الدولار الفضي المسكوك في عهد المهدي قد تم استبداله بآخر مصنوع بالكامل من النحاس (يذكر الكاتب كلمة دولار في هذا المقال، بينما الشائع هو كلمة الريال. المترجم).

حاولت في هذا المقال جمع كل المعلومات المنشورة في هذا الموضوع، وأن أدعم تلك المعلومات بما استقيته من مصادر محلية. سجل الراحل يعقوب باشا آرتن في مقاله المنشور في «نشرة المعهد المصري» عددا من العملات المعدنية التي لفتت نظره بين عامي ١٨٨٧ – ١٨٩٤م. وكذلك قام الراحل صامويل اسمث في عام ١٩٠٢م بنشر مقال قيم عن العملة المعدنية للمهدي والخليفة في المجلة المسماة «مجلة الجمعية البريطانية للنقود». كذلك توجد إشارات للعملة السودانية في كتاب «المهدية والسودان المصري» لكاتبه ف. ر. وينجت، وكذلك في كتابات سلاطين والأب أوهير فالدر ونيو فيلد وآخرين.

لقد ضاعت أو تفرقت كثير من العملات التي سكها الخليفة عبد الله والتي تم العثور عليها بعد احتلال السودان في ١٨٩٨م، إذ تهافت على اقتنائها زوار البلاد باعتبارها تذكارات نادرة، وغدا الحصول عليها أمرا عسيرا.

لحسن الحظ توفرت مجموعتان من المسكوكات المعدنية في عهد الخليفة، إحداهما عند العقيد/ ب. ر. فيبس (السكرتير الإداري السابق لحكومة السودان)، ولقد تكرم ذلك العقيد بإطلاعي على كاتلوج لمجموعته، وبشرح وبمعلومات قيمة عن تلك العملات المعدنية. أما المجموعة الأخرى فهي بحوزة الجمعية الأميركية للنقود المعدنية في نيويورك (وهي – كما يقول موقعها الإليكتروني- جمعية تهتم بدراسة العملات الورقية والمعدنية والميداليات والتذكارات وما يعرف بالتوكنز، وهي الماركات المعدنية من كل صنف، في كل العهود وفي كل أرجاء العالم، والحفاظ عليها. المترجم)، وقد أهدى هذه المجموعة لتلك الجمعية الأميركية إندريه سالي، الضابط الفرنسي في حملة فشودة، والبريطاني صوميل أسمث.

لا تزال بعض الماكينات الأصــلية التي اســتعملت في أمدرمان لســك العملة محفوظة في متحف كلية غردون التذكارية بالخرطوم، ويؤمل أن تكتمل في يوم ما هذه المجموعة لعملات السودان.

عند سقوط الخرطوم في يناير ١٨٨٥م (١٣٠٢هجري) (المقصود طبعا تحرير الخرطوم من وجهة النظر الوطنية الســودانية. المترجم) كانت النقود المســتخدمة في الســودان تتكون من العملات الذهبية المصــرية والإنجليزية، والدولار المجيدي (يعرف أيضا بالريال المجدي. لمزيد من التفاصيل هنا ينصح بقراءة مذكرات يوسف ميخائيل. المترجم)، ودولار ماريا تريزا (أبو نقطة)، والأخير هذا يستخدم في التجارة مع الحبشة وسواكن ومصوع، إضافة إلى العملة المصرية من الفئات الصغيرة. ذكر الأب أوهير فالدر (في كتابه «عشرة أعوام في أسر معسكر المهدي») أنه كان من العملات المستعملة في تلك الفترة العملة الفرنسية من فئة الخمسة فرانك، والدولار الأسباني (أبو مدفع)، وعملة نمساوية ذهبية، وعملات نحاسية أخرى لا حصر لها.

عند ســقوط الخرطوم نهب المهدويون كميات كبيرة من تلك العملات والحلي المصــنوعة من الذهب والفضــة وخزنوها في الخرطوم (ربما في قصر غردون) تحت حراسة الرجل المحسي أحمد ود سليمان، والذي عينه المهدي كأمين لبيت المال (أي وزير المالية).

قرر المهدي، وعوضا عن استعمال عملات الحكم التركي السابق التي تراكمت عنده، أن يسك عملة خاصة به، وذلك لتأكيد اســتقلاليته عن مصــر، ولتوطيد أركان حكمه. أمر المهدي أمين المال أحمد ود ســليمان أن يدعو كل صاغة الفضة في الخرطوم للعمل في سك العملة الجديدة، وعين رجلا كان يعمل « ساعاتيا» اسمه إلياس أبو عبد الله (يعرف أيضا باسم إلياس الكردي) ليرأس مصنع سكة العملة المهدية.

تقرر في البدء أن تسك عملتان، هما الجنيه الذهبي، والدولار الفضي. أضيفت لهما فيما بعد عملة فئتها نصف دولار. استخدم للجنيه الذهبي نمط (قالب سبك) جنيه السلطان عبد المجيد الذهبي المصري في ١٢٥٥هجري والذي كانت قيمته ١٠٠ قرش. أما بالنسبة للدولار الفضي فقد استعمل نمط (قالب سبك) الدولار (الريال) التركي المجيدي، والذي كان معروفا وواسع الانتشار في السودان، مع تغيير ما هو مكتوب أو مرسوم على جانب من العملة، فاستبدلت رسمة اليد في الدولار المجيدي التركي بعبارة «بأمر المهدي»، واستبدلت عبارة « ضرب في القسطنطينية» بعبارة « ضرب في الهجرة» والمقصود هو التاريخ الهجري لسك تلك العملة (مثلا في ١٣٠٢). كانت العملة المهدوية من فئة نصف الدولار تماثل في التصميم الدولار المجيدي غير أن كلمتي «محمد المهدي» قد كتبت على جانب منها، وعلى الجانب الآخر كتب العام الهجري والعدد ٥. ولهذا العدد (٥) دلالة مهمة عند المهدويين، فهم يعدون أن حكم المهدي قد بدأ منذ خروجه من جزيرة أبا في ١٨٨١م (١٢٩٨هجري)، وهي ما يسميه المهدي لأتباعه «الهجرة». كان المهدي بإثباته للسنة التي سكت فيها العملة يتبع التقليد التركي والمصري في سك النقود.

كانت النقود في عهد المهدي تسك في الخرطوم، وذلك بوزن المعدن أولا وإذابته، ثم ضربه على شكل أقراص حسب الحجم المطلوب. كانت بقية العمليات الفنية تتم بشـكل يدوي. ثبت أن المهدي حرص على أن يماثل جنيهه الذهبي ودولاره الفضـي نظيرهما الجنيه المصـري والدولار المجيدي من حيث الوزن والحجم والجودة ودرجة نقاء المعدن. وبالنظر إلى تفاوت نسبة المعادن في العملات المعدنية التي نهبها المهديون بعد سقوط الخرطوم، وطرق الوزن والتحليل البدائية المتوفرة لديهم، لم يكن غريبا أن يجد المرء تفاوتا بين مختلف العملات التي سكت في العهد المهدوي، مقارنة بما حاولوا تقليده.

كان الوزن المعياري للجنيه المصـري هو ٨,٣ جرامات، وعياره ٢١ قيراطا، بينما كان الجنيه المهدوي يزن ٨,٢١ جرام، وعياره ٢٣ قيراطا، أي أنه كان من حيث النوعية أفضل من الجنيه المصري. كان الوزن المعياري للدولار المجيدي التركي هو ٢٤,٠٥٥ جراما، بينما كان نظيره المهدوي يزن ٢٣,٥ جرامًا، مع اختلاف طفيف جدا في الرهافة.

رغم أن العملات التي أصـدرها المهدي كانت جيدة النوعية، إلا أنها قوبلت من طرف المواطنين بالارتياب، وكان التجار يقبلونها بأقل من قيمتها الاسـمية، وكانت عملات العهد السـابق (والتي بدأت في الاهتراء) أكثر تداولا بين الناس، خاصـة وأن المهدي لم يمنع اسـتعمالها. اكتشـف الصـاغة أن نسـبة المعدن في عملة المهدي تفوق ما في العملة التركية والمصـرية، لذا لم يكن من المسـتغرب أن تختفي العملة المهدوية من التداول سـريعا، وأن تزدهر عمليات تصدير سبائك الذهب والفضة المصنوعة من عملة المهدي إلى سواكن وأسوان وكورسكو. تبين للمهدي لاحقا أن سـك عملة خاصـة به لم يكن أمرا هينا كما كان يؤمل، فأصـدر أمرا مشـددا وتهديدا قويا لكل من لا يقبل بالعملة المهدوية (وغيرها) حسب قيمتها الاسمية المعلنة. لم تؤت تلك التهديدات أكلها، وبدأ مخزون المهدي من الذهب والفضة في النفاذ فأصدر أمرا بإيقاف سك العملة.

توفي المهدي في يوم ٢٢/ ٦/ ١٨٨٥م (الموافق لعام ١٣٠٢هجري) بعد خمسة شهور فقط من سقوط الخرطوم. عند وفاته كان المعروض من العملة في السـودان قد بدأ في التناقص، إذ كان الصـاغة يذيبون النفيس من تلك العملة ويصـدرون سـبائكها لخارج البلاد، أو يصـدرون العملة نفسـها عبر المدن الحدودية أو سـواكن، كما تقدم ذكره، ويقايضـون بها مختلف أنواع البضـائع. يمكننا الافتراض بأن بعضـا من تلك العملات كان أحيانا يعود مرة أخرى للبلاد نظير بيع الصـمغ العربي. ولكن، وبما أن الترحيل كان يعتمد بصـورة كاملة على الإبل، فإن العملة القيمة والمفضلة للترحيل – إن وجدت- كانت هي الجنيه والدولار، وليست العملات ذات الفئات الصغيرة. لهذا السبب شح وجود تلك الفئات الصغيرة (مثل نصف دولار) في السودان، إذ لم يقم المهدي بسك عملة أقل فئة من نصف دولار. ذكر الأب اوهير فالدر أنه عندما قدم لأمدرمان عام ١٨٨٦م (١٣٠٣هجري) وجد فيها أزمة طاحنة في فئات العملات الصغيرة مما دعا الناس لاتخاذ قطع الدمور كعملة من فئات ١٠ و٥ و ٢ قرش. بالطبع صارت تلك الخرق متسـخة جدا من كثرة التداول، فعافها الناس وأبوا اسـتعمالها، مما دعا الخليفة لتهديد من يرفض قبولها كعملة بالحبس ومصـادرة الممتلكات. أيقن الخليفة فيما بعد باسـتحالة تنفيذ تهديده، فسـحبت قطع الدمور من التداول كعملة.

بعد أن تولى الخليفة عبد الله زمام الحكم بعد وفاة المهدي (حوالي عام ١٣٠٢ هـــ) كان من أهم قراراته هو عزل أمين بيت المال أحمد ود سليمان (المحسي القبيلة. المترجم)، والذي كان يشك في ولائه له. قيل أن أحمد ود سليمان قتل ضربا بالعصي على يد الزاكي طمل بأمر مبا شر من الخليفة (ورد في بعض المصادر أن الزاكي طمل نفسه مات عطشا في محبسه بعد سنوات من هذه الواقعة بأمر من الخليفة. المترجم). عين الخليفة في عام ١٣٠٣ هـ - إبراهيم ود عدلان (الكواهلي الذي كان يعمل تاجرا في كردفان)كأمين لبيت المال خلفا لأحمد ود سليمان.

لم يقم الخليفة بين عامي ١٣٠٢-١٣٠٤هـــــ بسـك أي عملة جديدة، بل تم في هذا الأثناء نقل ما نهبه (غنمه . المترجم) المهدويون من عملات الحكم التركي الســابق من مخزنها في الخرطوم لبيت المال في أمدرمان. كتب سلاطين في «السيف والنار في السودان» أن كمية ضخمة من الحلي الفضية جمعت في بيت المال بأمدرمان، وبيع سرا كثير منها بأقل من قيمته الحقيقية، وأن بعضــها كان يؤخذ – من وقت لآخر- ويباع للتجار ليبيعوه في مصــر. لهذا السبب قرر الخليفة أن يبطل العملات السابقة، وأن يسك عملته الخاصة. سعى إبراهيم ود عدلان لإقامة دار لسك النقود في عام ١٣٠٤ هـــ، وكان ذلك العام هو العام الذي بدأ فيه إصدار عملات فضية جديدة. وبأمر من الخليفة لم تسـك أبدا في عهده عملة ذهبية. كانت عملات الخليفة الفضـية تتكون من عملات ذات فئات صـغيرة (١ و٥ و١٠ و٢٠ قر شا)، وا ستبدلت عبارة «بأمر المهدي» بكلمة واحدة هي «مقبول» في جهة «الطرة» (للعملات المعدنية وجه يسميه العامة «طرة»، وآخر يسمونه «كتابة». المترجم). وكتب على جهة «الكتابة» عبارة « ضرب في أمدرمان ١٣٠٤ هـ». كان مستوى «رهافة» العملة أقل مما كانت عليه في زمن المهدي.

ظل (إلياس) أو من أ سماه المهدي (عبد الله الكردي) هو المسؤول (الفني) عن سك العملة في عهد الخليفة، وكان يســاعده في ذلك العمل الحاج عبد الله غراندال (من بخاري)، وكان من تجار الذهب بالخرطوم، وخلفه فيما بعد عبد الله الكردي في ذلك العمل الفني. كان الحاج عبد الله أيضــا مسـئولا عن كتابة وســك كل ما يخص الخليفة من أمور. كان الكردي وغرندال من الرجال الأكفاء المهرة، وكان يساعدهما بلا ريب عدد من المساعدين المدربين. من هؤلاء عبد الله سليمان، وقد اشتهر أيضا بمهارة إصلاح البنادق.

ظل التاريخ المضــروب على العملة (١٣٠٤ هجري) مثبتا على كل عملة أصــدرت بعد ذلك التاريخ حتى عام ١٣٠٩ه. وحدث – من كثرة تكرار سك العملة بنفس القالب- أن برز سطح العملة المعدنية إلى الأعلى في و سطها، فلم تعد عملة الريال مستوية السطح، ولذا أطلق عليها الأهالي «أبو سدر» (أي ذو الصدر .(كانت تلك العملات ذات السطح غير المستوى شائعة جدا في الإصدارات اللاحقة .

لا شك في أن العملات التي أ صدرها الخليفة كانت متدنية المستوى مقارنة بما سبقها من إ صدارات في العهد التركي أو عهد المهدي، ولذا قابل الناس – بحســب رواية الأب أور فالدر- عملات الخليفة تلك بكثير من الريبة وعدم الارتياح .كان التجار لا يقبلون الدولار (الريال) المسمى«مقبول» إلا بقيمة عشرين قر شا فقط. وكان التجار وغيرهم من المتعاملين بالعملة يتحاشــون اســتخدام عملة الخليفة «ريال مقبول» ما وســعتهم الحيلة، رغما عن التهديد بالحبس ومصادرة الممتلكات. لا شك أن مثل تلك الظروف كانت مدعاة لرفع أ سعار السلع المعروضة .
تزامن كل ذلك مع ظهور موجة من تزوير العملة ، وبدأ الخليفة – ربما محقا هذه المرة- يشك في أن عامله عبد الله

الكردي يسك النقود لصالحه، وليس لبيت المال. نال الرجل – كما هو متوقع- عقابا قاسيا تمثل في قطع يده ورجله (من خلاف؟ المترجم) وذلك في عام ١٣٠٦هـ. علق نيوفيلد (سجين الخليفة) على ذلك الحكم القاسي بأنه كان رادعا لكثير من الناس – على الأقل لفترة من الزمن -وجعل كل ما يسك من عملة يذهب لبيت المال فقط، وليس لغيره. رغم ذلك كانت هنالك سوق رائجة لتزييف العملة خلال عهد الخليفة، وساهم العاملون في مصنع سك العملة في ذلك بتوفير «قوالب السك» والأدوات المطلوبة الأخرى للآخرين للقيام بضرب النقود. جعل ذلك التفريق بين العملة الحقيقية (المعتمدة من الدولة) والعملة المزيفة أمرا عسيرا.

خلف حاج عبد الله غرندال إلياس عبد الله في الإشراف على مصنع سك العملة، وتم كذلك تعيين ابنه عبد الله الياس معه في ذات المصنع في حوالي عام ١٣٠٦ هجرية، بينما نقل رئيس الورشة عبد الله سليمان إلى مستودع الأسلحة، وسرعان ما خلفه فيها ابنه أحمد عبد الله سليمان، ومساعداه وقيع الله وعبد الماجد. ظل إبراهيم ود عدلان في منصبه كأمين لبيت المال حينا من الزمان، وغدا مشهورا ومحبوبا من الكثيرين، فأدركته غيره الخليفة وحسده فلم يعدم سببا للتخلص منه، فتم شنقه في عام ١٣٠٧هـ. بعد ذلك عين الخليفة الزاكي كأمين لبيت المال (وصار أميرا لبربر فيما بعد، بيد أنه ترك الوظيفة بسبب المرض). عين الخليفة من بعد ذلك الرجل التكروري نور ود إبراهيم (المعروف بنور الجريفاوي) كأمين لبيت المال. حافظ نور الجريفاوي على ذات قوالب السك التي كان يستخدمها إبراهيم ود عدلان حتى عام ١٣٠٩ هـ، حين أدخلت قوالب جديدة، كانت أصغر حجما وأقل جودة مما سبقها، وضرب عليها التاريخ الجديد (١٣٠٩هجري). كانت كمية الفضة في العملة الجديدة أقل من سابقتها.

نشر صامويل أسمث في عام ١٩٠٢م مقالة في «دورية النقود» عن قطعة نقود نحاسية تم العثور عليها في سواكن، تعد العملة الوحيدة من عهد الخليفة التي تقل عن قرش واحد، وليس هنالك من دليل على أن مثل هذه العملة موجود اليوم.

قام الخليفة في عام ١٣١٠هجري (١٨٩٢م) بتغيير قوالب سك العملة مرة أخري، وأصدر دفعة جديدة من العملات من مختلف الفئات. سميت هذه الإصدارة «أبو كبس» (تشبيها لها بحربة عريضة كانت تستخدم في تلك الأيام)، وأصدرت بعهدها عملة أقل جودة منها، عرفت بالـ «عملة جديدة». كانت كلتا الإصدارتين أقل جودة من تلك التي سكها إبراهيم ود عدلان. كانت عملة «أبو كبس» تشبه في التصميم عملة الخديوي محمد توفيق الصادرة في ١٣٠٣ – ١٣٠٤ هجري. رغم أن تلك الإصدارة من العملات (والتي سكها عبد الله غرندال وأحمد عبد الله سليمان (لم تلق قبولا واسعا في باديء الأمر، إلا أن استعمالها انتشر بعد فترة من إصدارها، ولعلها كانت أكثر الإصدارات استخداما، وأكثر عملات الخليفة انتشارا. تم بعد ذلك في أعوام ١٣١٠ و١٣١١ و١٣١٢ و١٣١٥ هجري إصدار نسخ جديدة من ذات الفئات. اختفت تدريجيا العملة الفضية، وحلت محلها العملات النحاسية، مخلوطة بقليل من الفضة، ثم اختفت الفضة نهائيا من العملات وغدت مصنوعة من النحاس بالكامل. ورغم صعوبة (بل ربما استحالة) الحصول على آخر عملة من فئة نصف الدولار (الريال)، إلا أن هنالك عينة واحدة لدي السيد ماكمايكل، أعارني إياها مشكورا للتصوير.

كتب أسـير الخليفة نيوفلد أن أمين بيت المال نور ود إبراهيم الجريفاوي (والذي خلف إبراهيم ود عدلان) توصل لقناعة مفادها أن العملة المعدنية إنما هي «أرموزة» (ماركة)، وليس مهما البتة من أي مادة تصنع طالما طبع عليها شيء ما! لا عجب إذن إن تناقصت كمية الفضة في عملته شيئا فشيئا، حتى صارت في نهاية المطاف مصنوعة من النحاس (الخالص) رغم احتجاج المتعاملين على إصدار ريال نحاسي يجبر الناس على اعتبار قيمته تعادل الريال الفضي. كان كل من يعلن سخطه على ذلك الوضع يعاقب بمصادرة ممتلكاته أو بفقدان يده أو رجله. بيد أن التجار دوما يفوقون زبائنهم ذكاء، فكانوا يسـألون المشـتري عن عملته التي يود دفع قيمة السـلعة بها، ويحددون السـعر حسب نوع العملة! مع تناقص أعداد الريالات الفضية في السوق ارتفعت قيمتها حتى صار الريال الفضي يعادل في السعر خمسين أو ستين ريالا نحاسيا، مما يعني أنه لشراء سلعة سعرها ريال واحد يجب أن يدفع المشتري ستين ريالا من الإصـدارات) النحاسـية) الجديدة. حاول أمين بيت المال أن يعالج هذا الوضـع فمنع تبادل الريال الفضـي والنحاسي على ذلك النحو، وصار يشتري الريالات النحاسية من السوق، ويذيبها مرة أخري، ويصدرها في شكل عملة ذات شكل مختلف، وقرر أنها تعادل الريال الفضي القديم، وقرر أن أيضا أن لا يقبل بيت المال التعامل بالريال النحاسي القديم! سئم الناس من استخدام الريال النحاسي، فأطلقوا عليه من باب التهكم كلمة «بازوغري»، ويظن أن هذه كلمة كردفانية تعني «عديم القيمة»!

أصدر الخليفة في عام ١٣١٠هجري أيضا «عملة جديدة» ضرب عليها عبارة «عز نصره»، وهي عبارة ظلت تكتب في العملة التركية منذ القرن السابع عشر .كتب أيضا كلمة «جيد» على الجانب المقابل لتك الإصدارة من العملة. (سنك ريال جيد ودقاقه مو بليد.. أني ماشة بنعيد في سوق الأبيض..!! ذكرني هنا صديق بهذه الأغنية الكردفانية. المترجم).

في عام ١٣١١هجري (١٨٩٣م) سـقط نور الجريفاوي من جواده فأصـيب إصـابة معيقة، فخلفه على أمانة بيت المال عوض المرضي (والذي أقيل في عام ١٣١٥هــ)، بينما ظل عبد الله غرندال وعبد الله الياس ومساعدوهم في مناصـبهم. ظهر في تلك السـنة ريال أسـماه بعض الناس «أبو هلال» وذلك لوجود رسـم أهلة على حوافه، وأسـماه آخرون «عبد الماجد» نسبة للرجل الذي سكه. وفي العام التالي (١٣١٢هجري) ظهر ريال آخر اسماه الناس «وقيع الله» نسبة أيضا لمن ضربه. وفي هذه الإصدارة بالذات اختفت كلمتا «عملة جديدة» وحلت محلهما كلمة «مقبول» في جهة «الطرة»، واختفت من جهة «الكتابة» كلمتا «عز نصره». ظهرت في السنوات التي تلت ذلك عدة إصدارات متتالية من العملات أحدثت فوضى وارتباكا عظيمين. فكانت هنالك في عام ١٣١٢هــ ٦ أنواع من الريالات، كانت جمعيها مصدر تهكم وسخرية لتدني قيمتها بصورة مستمرة.



أمراء المهدي

The Mahdi’s Emirs

جي. أ. ريدJ. A. Reid

تقديم: هذا هو عرض مختصر لمقال عن أمراء المهدية نشر في مجلة «السودان في رسائل ومدونات»، الصادرة عام ١٩٣٧م في العدد رقم ٢٠. والهدف من هذه الترجمة والتلخيص للمقال هو التعريف برجال كان لهم كبير الأثر في حقبة من أهم حقب التاريخ السوداني، ألا وهي فترة المهدية. ولعله صار الآن من مكرور القول أن الجهل بالتاريخ (وبغيره) قد غدا هو السمة الغالبة والملازمة عند شبابنا (وأضيف من عندي **عند الكبار** منهم أيضا)، وعملا بالمقولة القديمة من أنه «من الخير أن توقد شمعة بدلا عن أن تلعن الظلام»، فهذه محاولة متواضعة لتسليط الضوء (بصورة مختصرة جدا، قد تلامس السطحية) على أمراء من ذلك الزمان، ولا يعيبها إن أتت من أجنبي مستعمر، فالعلم والحكمة هما الضالة المنشودة، من أي مصدر أتت. ولكن لا بد من الحذر مما رواه الكاتب من روايات شفهية، وعدم أخذها كمسلمات، فالحقيقة تبقى في بلادنا دوما عزيزة المنال، ودونك تاريخنا القريب (مثل ما حدث في «بيت الضيافة عام ١٩٧١م) التي لا يزال الناس حول جناتها يختصمون، فما بالك بما حدث قبلها بعشرات السنين**!**

وعلى ذكر جهل الشباب لتاريخ بلادهم، فقد شاهدت قبل أيام قليلة في إحدى القنوات التلفزيونية السودانية أستاذة جامعية تعيب على طلابها جهلهم بالتاريخ المعاصر والقريب جدا لبلادهم، فذكرت أنها سألت ذات مرة طلابها في الفصل (لسبب ما**!**) عن تاريخ قيام «ثورة الإنقاذ»، فلم يحر أحد جوابا، وبعد عدد من المحاولات الفاشلة قال أحدهم أن السنة المقصودة **ربما** كانت هي ١٩٨٩م دون أن يتذكر اليوم أو الشهر، فتأمل**!**

المترجم

بموت يونس (ود) الدكيم قبل أكثر من عامين في أم درمان (أي في عام ١٩٣٥م أو نحوها. المترجم)، انطوت صفحة آخر أمير من أمراء ذلك العهد. كان أمراء المهدية، والذين عينهم المهدي شخصيا، قادة للجيش، ويتمتعون فوق ذلك بسلطات تنفيذية مطلقة عندما عينوا كحكام للولايات أيضا. كان أمراء المهدية، ولأسباب عسكرية محضة، تحت إمرة ثلاثة من الخلفاء هم عبد الله محمد، وعلي الحلو، ومحمد شريف، وكان لهؤلاء الخلفاء ثلاثة جيوش منفصلة، لكل منها علم (راية) بلون مميز. ما سيأتي من معلومات تم أخذها مباشرة من أفواه شهود أحياء قبل أن تضمحل ذاكرتهم. لم آت للأمير عثمان دقنة على ذكر في هذا المقال إذ أن جاكسون قد أرخ لذلك الأمير في كتاب كامل (المقصود هو كتابOsman Digna by H. C. Jackson, المترجم).

قائد الراية السوداء: الخليفة عبد الله محمد

الأمير يعقوب محمد: هو الأخ غير الشقيق للخليفة عبد الله، وينتمي للجبارات، وهي فرع من فروع البقارة التعايشة. كان رجلا حسن الهيئة، ممتلئ الجسم، يميل لونه للسمرة الفاتحة، وذا عينين لامعتين. تميز الرجل بطيب المعشر والرقة، فقد تلقى تعليما معقولا مقارنة بغيره. التحق بالمهدية إبان (هجرة) المهدي إلى جبال النوبة، ولعب دورا هاما في حصار الأبيض، وفي هزيمة (هكس باشا) في معركة شيكان. لم يشارك بفعالية في حصار الخرطوم، إذ أن المهدي كان قد كلف الجيش الذي كان يقوده الخليفة شريف بتلك المهمة. عقب وفاة المهدي صار الأمير يعقوب

القائد العام لقوات المهدية، فصـار ترتيبه الثاني بعد الخليفة عبد الله مباشـرة. فيما أقبل من سـنوات قلت أهمية (الأمير يعقوب) بفعل ابن أخيه (شيخ الدين)، ابن الخليفة عبد الله الأكبر، والذي صار قائدا للجهادية، ومتحكما في كل الأسلحة النارية عند الجيش. لقي (الأمير يعقوب) حتفه في معركة كرري، وكان عمره حينها ٤٣ عاما.

الأمير حمدان أبو عنجة: كان ذلك الأمير رجلا قصير القامة، كبير الرأس. يعد من ناحية القبيلة «نصف تعايشي»، إذ كان من جماعة محررة تسـمى المُنضـله كانت قد خدمت مع «الزبير باشـا» في غزواته في جنوب السـودان لجلب الرقيق، واكتسـبت بذلك خبرة عسـكرية أفادت المهدي في حروبه كثيرا. كان الأمير حمدان هو أكثر أمراء المهدية مشاركة في حروبها. فبعد سقوط مدينة الأبيض تم تعيينه كقائد للجهدية (جيش السود)، بيد أن المهدي لم يشركه في الهجوم على الخرطوم مخافة أن يعيث السود فيها فسادا (هكذا. المترجم). بعد تهديم الخرطوم، بعث به المهدي إلى جبال النوبة لكبح جماح (المتمردين) فيها، ولكن سـرعان ما طلب منه الذهاب شـمالا للأبيض لاعتقال الأمير (محمد خالد زقل)، والذي كان يريد أن يسير بقواته لينضم للمقاتلين مع الخليفة شريف ضد الخليفة عبد الله. نجح الأمير (محمد خالد زقل) في اجتياز مدينة الأبيض قبل أن يصـل إليها حمدان أبو عنجة، وذكر بعض الشـهود أنه قال متعجبا: «أين هذا العبد حمدان، جرو الخليفة الصـغير؟» كان حمدان في الواقع يتعقبه، ولحق به في (بارا) وحاصـره، فاسـتسـلم . كانت أولى كلمات (حمدان أبو عنجة) لأسـيره هي : «الجرو الصـغير وصـل». في عام ١٨٨٨م بعث به للقلابات لنجدة الأمير

يونس ود الدكيم، ولإخماد تمرد صـغير قام به مدع للنبوة في تلك الأنحاء. بعد ذلك قاد معارك عديدة ضـد الأحباش. مات فجأة لمرض ألم به، قيل هو الكوليرا أو التيفود. كان الأمير حمدان أبو عنجة من أفضـل محاربي المهدية، وكان موته ضربة مؤلمة وفقدا عظيما للخليفة.

الأمير يونس الدكيم: كان (يونس ود الدكيم) من أعمام/ أخوال الخليفة عبد الله التعايشـي، وعمل في شـبابه صائدا للأفيال. كان رجلا وسيما، دقيق الجسم له عينا صقر، مثل كثير من البقارة. كان حاذقا لفنون الفروسية، وقائدا لسلاح فرسان الخليفة. قبل سقوط مدينة الأبيض بعث به المهدي للتعامل مع قبيلة الرزيقات في دارفور، ودعوتهم للانضمام للمهدية. نجح في ذلك بعد أن أسر زعيمهم شيخ عقيل الجنقاوي، وبعث به للأبيض حيث تم إعدامه. بعد وفاة المهدي، بعث به الخليفة إلى كردفان لإخماد عدد من حالات التمرد والثورات بين القبائل العربية، والتي منها قبيلة الجِمِع بقيادة الشيخ عساكر أبو الكلام (وهؤلاء جعليون يسكنون غرب النيل الأزرق و شرق كردفان وقصبة بلادهم هي مدينة تندلتي. المترجم نقلا عن خبير).كان أبو الكلام حبيسـا في سـجن الخليفة في أمدرمان، لكن الأمير ود الدكيم قتل أخاه الفكي عرقوب في حربه التي هاجم فيها قبيلة الجِمِع ونهب ممتلكاتها. عبر ود الدكيم النيل الأبيض، وأذاق العرب من أفراد قبائل (دار محارب) من ذات الكأس.بعد فراغه منهم سار بجيشه نحو كسلا، ولكن الخليفة اسـتدعاه من القلابات، وعيره بعد أن فشـل في إخماد التمرد هناك. بقي بجوار الخليفة في أم درمان حينا من الدهر، إلى أن تم تعيينه أميرا على دنقلا. كثرت شكاوى الدناقلة منه بسبب ابتزازه لهم. قيل – ربما على سبيل الطرفة- أن الأمير ود الدكيم هددهم بشرب ماء النيل كله (وتركهم عطشى) إن لم يدفعوا له كي لا يفعل ذلك! (سمعت صغيرا أحد الأعمام يحكي عن يونس ود الدكيم، وعن استدعاء الخليفة له من دنقلا بما يشبه السجع من شاكلة: «يونس ود

الدكيم... قل شــاكرك... وكثر شــاكوك... احضــر أمام الخليفة الخ الخ». المترجم). شــهد الأمير ود الدكيم معركتي «كرري» و«أم دبيكرات»، ولم يصــب فيهما بخدش. بقي في أم درمان حتى أدركته المنية في صــيف عام ١٩٣٥م عن عمر ناهز ١٣٠ سنة (لعل يعني ذلك أنه شارك في كرري وعمره ٩٣ سنة؟!المترجم)

الأمير الزاكي طمل: كان الزاكي – مثله مثل حمدان أبو عنجة- من «المُنضله»، وشارك في غزوات جلب الرقيق في دارفور، وخدم في فترة المهدية تحت إمرته، ثم خلفه بعد وفاته. كان الزاكي رجلا داهية، واســع الحيلة. اهتم ذات مرة بمحاولته تسـليم كسـلا للطليان، فأمر الخليفة به فزج في السـجن – كإجراء وقائي- انتظارا لمزيد من التقصـي والتثبت. أصــدر الخليفة أمرا مشــددا بأن يرســل للزاكي في محبســه طعامه اليومي من بيت الأمير يعقوب، ولكن القا ضي أحمد، والذي كان بينه وبين الزاكي ما صنع الحداد، أمر حراس الأمير الزاكي بمنع الطعام عنه، فمات جوعا (تقول روايات منشورة أخرى أن الماء قد منع عن الزاكي في محبسه حتى مات عطشا، وكان الحراس يسمعون صوته الخافت وهو يقول: موية ..موية ...موية. المترجم). قيل أن سبب الكراهية بين القا ضي أحمد وحمدان، هو أن حمدان مر بمجموعة من الجياد، فسـأل عن صـاحبها، وأخبر بأنها للقاضـي أحمد. صـاح الزاكي بأن القاضـي لا ينبغي له أن يملك خيلا، بل له فقط أن يركب حمارا. لم يكن الخليفة على علم بما جرى لحمدان، ولكنه عندما علم بحقيقة ما جرى له غضب غضبا شديدا، وتقول إحدى الروايات أنه أمر بالقاضي أحمد فأشرب ذات الكأس التي تجرعها حمدان (أي الموت جوعا/ عطشا). في رواية أخرى يقال: إن القاضي أحمد حبس لفترة قصيرة، ثم أطلق سراحه، بيد أنه مات من فرط الأكل والشراب بعد إطلاق سراحه مباشرة!

قائد الراية الصفراء: الخليفة محمد شريف

الأمير عبد الرحمن النجومي: هو رجل من قبيلة الجعليين، كان يشتغل قبل المهدية بالتجارة في المسلمية، الواقعة على النيل الأزرق. قيل أنه يعد من (أبكار المهدية)، إذ أنه أنضم للمهدية يوم أن قتل المهدي قائد الجيش التركي (أبو سعود) في الجزيرة أبا. كان الخليفة محمد شريف ولدا صغيرا عندما حدد المهدي خلفاءه الثلاثة في السودان (كان رابعهم هو ســنوســي ليبيا، والذي رفض العرض)، ولذا عين النجومي وليا ووكيلا عنه. لعب دورا هاما في حصــار الخرطوم، وقاد الهجوم الحاســم على (بوابة المســلمية) في الخامس والعشـرين من يناير ١٨٨٥م. بعد وفاة المهدي قيل أن الخليفة – خوفا منه- بعثه لغزو مصر ليقود معركة كان يعلم إنها خا سرة سلفا. في الحقيقة أن المهدي نفسه كان قد خطط لغزو مصر والحجاز، وحدد النجومي (عميد سلك الأمراء) كقائد لتلك الحملة، بل ورافقه شخصيا لخارج أم درمان مع ثلة من نواة جيشــه. كان المأمول أن تزداد قوات الجيش المهدوي بقيادة النجومي بمدد من الرجال والمال مع تقدمها شــمالا في بربر ودنقلا، وكان قد تم تعيين النجومي أميرا مؤقتا على تلك المدينتين لذلك الغرض. واجه النجومي الكثير من المضايقات والمعاكسات والدسائس من سكان المناطق التي مر بها، ومن قواد جيشه أيضا، والذي كان سيئ التدريب والإعداد. قتل في معركة «توشكي»، وبقي ذكره كأمهر وأشجع شجعان أمراء المهدية وقوادها.

الأمير الحاج محمد أبو قرجة: هو دنقلاوي من (القطينة)، ولكنه كان يقطن في قرية ا سمها (أم غنيم)، والتي تبعد نحو عشرة أميال شمال الفشا شويا الواقعة على الضفة الغربية للنيل الأبيض. عمل تحت إمرة الزبير با شا وآخرين في تجارة الرقيق، وكان يبدو كعربي وكقاطع طرق. عد محمد أبو قرجة – مثله مثل النجومي- من (أبكار المهدية)، وأظهر شـجاعة فائقة وقدرة عظيمة على القتال ضـد متمردي جبال النوبة. بعد سـقوط الأبيض، عهد لأبي قرجة بملاحقة جيش هكس باشـا من الدويم إلى الغرب، وعندما تم سـحق ذلك الجيش في شـيكان، نسـب إلى أبي قرجة معظم الفضل في النصر.

كان دور أبي قرجة في حصـار الخرطوم دورا مهما، يأتي في المرتبة الثانية فقط بعد دور النجومي. وبعد سـقوط الخرطوم، عين أميرا لما بين النهرين، و شمل ذلك بالطبع الجزيرة. شك الخليفة عبد الله في ولائه، وخشي أن ينضم للخليفة شريف فبعث به لسواكن، حيث دخل مبا شرة في صراع مع عثمان دقنة. ا ستدعاه الخليفة لأمدرمان حينا من الزمان، ثم بعثه بعد ذلك إلى كسلا، حيث تشاجر فور وصوله مع أميرها الهباني مساعد قيدوم. زادت شكوك الخليفة عبد الله تجاهه، واتهمه بالتضامن مع الخليفة شريف الذي أراد الانقلاب عليه ، فنفى أبا قرجة لجبل الرجاف، حيث بقي هنالك كسجين، حتى أطلق سراحه البلجيك بعد (ا ستعادة) السودان. توجه أبو قرجة من بعد ذلك شرقا (لعل الصحيح هو غرباً. المترجم) لدارفور، حيث بقي مع الأمير خالد زقل، ولكن بعد أن أعدم السلطان علي دينار الأمير زقل، شد أبو قرجة الرحال للفاشر وبقي فيها لشهور قليلة. لم يطب له المقام فيها، فآثر الرحيل إلى موطنه (أم غنيم)، ولكنه أصيب بالسل هنالك، فذهب به إلى أم درمان حيث توفي في عام ١٩١٣م.

الأمير محمد خالد زقل: هو ابن عم/ ابن خال المهدي. كان بديناً ذا بسطة في الجسم، مغرماً بقدور اللحم. عمل أثناء فترة الحكم التركي كمسؤول إداري في دارفور. أرسله سلاطين با شا حاكم دارفور لمقابلة المهدي في الأبيض، وكان هو الوسيط الذي سهل عملية استسلام سلاطين للمهدي، الأمر الذي جعل كل غرب السودان يؤيد المهدية. بعد وفاة المهدي كتب مؤيدو الخليفة شريف إلى خالد كتاباً يطالبونه فيه بتسيير جيشه إلى أمدرمان للإطاحة بالخليفة عبد الله . وشـاء حظه العاثر أن يقع رده على تلك الرسـالة في أيدي أنصـار الخليفة عبد الله، فتم اعتقاله في بارا وهو في طريقه لأمدرمان (انظر لما كتب أعلاه عن الأمير عبد الرحمن النجومي)، ونفي للرجاف حيث لبث في السـجن سـنينا حتى أطلق البلجيك سراحه (مع أبي قرجة)، فآب إلى دارفور حيث كان قد عمل في إدارتها في عهد المهدي. تزوج في الفاشر من الميرم عرفات بنت السلطان حسين. لسبب ما غضب عليه السلطان علي دينار فأمر بإعدامه.

الأمير محمد الطيب البشير: من قبيلة الحلاويين في شمال الجزيرة. قابل المهدي أول مرة عندما أتى محمد أحمد (المهدي لاحقا) لشيخ القر شي ود الزين في طيبة (قرب الحصاحيصا) طالبا للعلم الشرعي. تزوج المهدي من ابنة محمد الطيب البشـير، وجعله وكيله الرئيس في الجزيرة، بل وكان يتلقى البيعة من الناس هناك نيابة عن المهدي. لعب دورا بارزا في حصار الخرطوم، وبعث به الخليفة إلى الحدود الحبشية قائدا من قواد جيش المهدية، وظل هناك حتى (اسـتعادة) السـودان. انضـم لقوات (أحمد فضـيل)، ولكن الإدارة البريطانية اعتقلته قرب الرنك، وأحضـر لأمدرمان كأسـير حرب. سـمح له لاحقا بالعودة إلى موطنه في الحلاويين في شـمال الجزيرة، حيث بقي هنالك حتى توفي بعيد انتفاضة ود حبوبة في عام ١٩٠٨م.

قائد الراية الصفراء: الخليفة محمد شريف

الأمير موسى الحلو: كان الأمير موسى الحلو (أخ الخليفة علي ود حلو) رجلا قصيرا عريض المنكبين، صاحب ابتسامة عذبة، ينتمي إلى البقارة الشانخاب (فرع الدغيم) في النيل الأبيض. لا توجد صلة دم للشانخاب مع البقارة، ولكنهم عدوا منهم بسبب الجوار والعيش المشترك. كانت عائلة الحلو عائلة شديدة التدين والزهد، وليس في تاريخهم الطويل ما يشين، حتى في عهد المهدية (هكذا! المترجم). لم يلعب الأمير موسى دورا كبيرا في حروب المهدية قبل حصار الخرطوم، بيد أنه أرسل للشمال كقائد لحملة تعقب السفن المصرية التي بعثت لإنقاذ غردون في الخرطوم. توفي الأمير موسى في ساحة الحرب في «أبو كلي؟ Abu Klea



سليم أغا: ملحمة عبد مسترق
جيمس ماكارثي

هذا عرض مختصر لكتاب صدر في عام ٢٠٠٦م من دار نشر لاواث بمدينة إدنبرا ببريطانيا بقلم الكاتب الأسكتلندي جيمس ماكارثي (١٩٣٦م -؟) عن تاريخ حياة السوداني «سليم أغا» الذي عاش بين عامي ١٨٢٦م – ١٨٧٥م. وكتب ذات المؤلف مقالا مفصلا في مجلة اسمها The Journal of the Hakluyt Society.

عن حياة «سليم أغا» وأسفاره في غرب أفريقيا، قد نعرض له في وقت آخر. ويبدو أن للكاتب شغفا خاصا بموضوعين وحيدين هما موطنه أسكتلندا، وإفريقيا، إذ أنه كتب عن مغامرات رحالة ورسام خرائط ومستكشف أسكتلندي هو كيث جونسون، وعن المستكشف دونلاد مونرو ورحلته إلى تنجانيقا. بدأ تعلق جيمس مكارثي (خبير الغابات) بإفريقيا عندما ذهب لها محاربا مع الجيش البريطاني ضد الماوماو في كينيا، ودرس بجامعة ماكريري بيوغندا بين عامي ١٩٥٩ – ١٩٦١م، وعمل بعد ذلك في تخصصه الأصلي (الغابات) في تنجانيقا، وتقاعد عن العمل في ١٩٩١م.

يقول الكاتب في مقال إسفيري عن قصة كتابته لهذا الكتاب «سليم أغا» إنه كان يقرأ مقالا في «المجلة الجغرافية» الصادرة في عام ١٨٧٥م عن كيث جونسون، عندما لمح عامودا مجاورا لذلك المقال بقلم الكاتب والرحالة والمستكشف المشهور، والذي دخل مكة (وهو المسيحي) مختفيا في زي عربي، ريتشارد فرانسيس بيرتون ١٨٩٠ – ١٨٢١)م). كان ذلك المقال يتحدث عن عبد (مسترق) سوداني اسمه «سليم أغا». تضاعفت شهية جيمس مكارثي لمواصلة القراءة حين ذكر بيرتون أن ثريا أسكتلنديا اشترى سليم في الإسكندرية، وأحضره معه لأسكتلندا. غدا الكاتب بعد ذلك «مهووسا» بسليم أغا وقصته، خاصة وأن في قصته جانبين أثارا اهتمامه :حياته (في بداياتها وحتى نهاياتها) في أفريقيا، وحياته (في منتصفها تقريبا (في أبردين...تلك المدينة الاسكتلندية الجميلة (والباردة.(

يتكون الكتاب من مقدمة ضافية، و ١٤ فصلا وخاتمة، مع عدد من الخرائط والرسومات (غالبها بالأسود والأبيض) والصور ذات الصلة بموضوع الرق وبسليم ومؤلفه الوحيد، وكذلك صورة ملونة حديثة لحفيد الثري الأسكتلندي الذي أعتق سليم وأحضره لأسكتلندا، وهو يقف في قصره خلف صورة جده .

يبدأ الكتاب في فصله الأول بالتعريف بمملكة تقلي (مسقط رأس سليم أغا وموطنه حتى بلغ الثامنة من العمر). وفي الفصل الثاني يبدأ الكاتب قصة الرجل، وملخصها هو أن سليم أغا هو طفل سوداني ولد (مسلما) في مملكة تقلي (حاليا جنوب كردفان) في حوالي عام ١٨٢٦م (يقول سليم أغا نفسه في كتابه أنه ولد في دارفور، وربما كانت تقلي واقعة آنذاك تحت حكم دارفور؟ المترجم). كان ذات يوم، وهو في الثامنة من عمره، يرعى غنمه ومعزه عندما باغته تاجران (عربيان) من تجار الرقيق، فقيداه وأوسعه أحدهما جلدا حتى يصمت، حيث أخذاه (عاريا) في مسيرة منهكة طوال الليل حتى بلغا به بيتا شبه مهجور في مزرعة وتركاه فيه مقيدا حتى للصباح .أخذاه في مسيرة طويلة أخرى حتى وصلا قرية «تقلا»، حيث باعاه لشيخ القرية .من غرائب الصدف أنه وجد في تلك القرية صبية من قريته اسمها «مدينة» كان قد سبق اختطافها أيضا. بعد عدة أيام سيق سليم مع قافلة ضخمة متجهة نحو الشمال، حتى الأبيض عاصمة كردفان (وكانت حينها تحت الإدارة التركية) حيث بيع هو و«مدينة» لتاجر عربي، باعهما بدوره لضابط تركي (أغا). كان ذلك الرجل قاسي الطباع، متوحش السلوك، ذاق سليم على يديه الويل.

في الفصل الثاني يحكي المؤلف عن بيع أغا للصبي سليم إلى تاجر عربي (اسمه الجبالي) بدت عليه مظاهر الحنية والطيبة. أخذه التاجر في قافلة عبر الصحراء، سارت في ظروف بالغة العناء لعشرة أيام كاملة حتى وصلت لواحة في الصحراء، حيث وجد سليم فيها الخضرة ولحم الإبل والفواكه والمياه. ظلت القافلة في تلك الواحة (ربما لتسمين من كان فيها من العبيد والجواري). وصلت القافلة أخيرا لسنار حيث ركب الجميع في مراكب حتى وصلوا لنقطة بدأوا فيها رحلة العبور الشاقة عبر الصحراء الليبية.(هكذا وردت في النص! المترجم) حكى المؤلف عن الأهوال التي صادفتها القافلة، وعن إشراف من كان فيها على الهلاك حتى وصلت القافلة أخيرا دنقلا. أعطي سليم لزوجة التاجر الجبالي كـ«فرخ» صغير ليعمل على خدمتها، وتم بيعه بعد ذلك مرات عديدة حتى استقر به المقام عند تاجر عربي يهودي ثري)لا أدري هل المقصود رجل عربي الإثنية/ العرق، ويهودي الديانة أم ماذا؟ المترجم) للعمل في دكانه في سوق دنقلا. في هذه المدينة ساقت سليم الأقدار مرة ثانية للقيا صديقته القديمة «مدينة»، والتي أخذته لمنزل سيدها وعرفته بعدد من المسترقين فيه، بعضهم من دارفور، وآخرين ذوي ملامح عربية من منطقة سنار. بعد بيعه مرة أخرى، أخذ سليم – في رفقة مسترقين آخرين- إلى قرية كورتي، حيث أقام الجميع فيها لمدة ٣ أشهر انتظارا للسفر إلى مصر. في كورتي عهد لسليم برعاية ثوري ساقية. لاحظ سليم (كما سجل ذلك في كتابه لاحقا (اضطهاد الحكومة المصرية للنوبيين، والذين كانوا أشبه بالمستعبدين. كان كثير من النوبيين يعيشون مع حيواناتهم في نفس الزرائب في القرى. عهد سيده)واسمه حمد هيثر؟؟ حيدر؟) لولده هارون بتعليم سليم مبادئ الدين الإسلامي .بدأ هارون تعليمه لعبده الصغير بمد إصبعه السبابة، وأمر سليم بترديد أن «الله واحد». أصر سليم (كما يقول في مذكراته لاحقا) على أن الله اثنين، مما أضطر سيده لإرجاعه لشيخ الخلوة لتلقي تعليم مكثف. اكتفي شيخ الخلوة بجعل سليم يرعى أبقاره وغنمه ولم يعلمه شيئا! يقول الكاتب إن هذه الواقعة تؤكد أن سليم لم يكن قط مسلما في يوم من الأيام، وهو بهذه الصفة كان يمكن أن يخصى للعمل والعيش وسط حريم سيده. سافرت مركب الرقيق من كورتي حاملة سليم ورفاقه إلى مصر، حيث سجل سليم في كتابه لاحقا مشاهداته في داكي وأسوان وكلاباش والأقصر ومعبد الكرنك إلى أن وصلت المركب القاهرة. قبل الوصول للقاهرة، استراح الجميع لأيام حتى يبدو العبيد في أحسن حال استعداداً لبيعهم بأسعار عالية. كان سليم يؤخذ يوميا لسوق العبيد في القاهرة، حيث يفضل النخاسون شراء العبيد البالغين الأقوياء، وبما أن سليم كان صغيرا وضعيف البنية، فقد بقي معروضا للبيع في السوق لمدة شهرين دون أن يجد له مشتريا. بعد شهرين اشتراه (للمرة التاسعة) السيد/ بوزين، حيث ظل في بيته لمده أسبوعين، قبل أن ينتقل إلى بيت نسيبه الاسكتلندي (والقنصل البريطاني في الإسكندرية) روبرت ثيربيرن. كان سليم عند وصوله للإسكندرية قد قطع مسافة ٢٠٠٠ ميل في أقل من عام منذ يوم اختطافه واسترقاقه. أكسبته تلك التجارب المريرة التي مر بها قوة وشكيمة وعزما بدنيا ونفسيا أفادته فائدة عظيمة في ما أقبل من سنوات.

في الفصل الرابع يتناول الكاتب أمر الرق في شمال أفريقيا والشرق الأوسط. ولا يخلو هذا الفصل من كثير من التخليط، فيبدو إن الكاتب لا يفرق بين ما ورد القرآن والسنة. فهو يكتب مثلا إن القرآن لا يؤيد الخصي، وأن القرآن يذكر أن الأرقاء يجب أن يعاملوا كبشر، وليس كممتلكات، ويمنع فصل المرأة المسترقة من وليدها. وفي الجوانب التاريخية الخاصة بالرق في السودان يذكر الكاتب أن مئات الصبية قد تم خصيهم (على يد قساوسة مسيحيين) لتهيئتهم للعمل في أوساط الحريم، وأن مؤرخا ذكر أن أخا لملك دارفور (لم يذكر اسمه) كان يخصي سنويا ١٥٠ ولدا صغيرا لهذا الغرض (معلوم أنه للحصول على ١٥٠ من المخصيين، يتوقع أن تكون

العملية قد أجريت على أضعاف أضعاف ذلك العدد، نسبة لخطورة تلك العمليات على الحياة في ذلك الزمان. المترجم). كانت عملية الإخصاء ترفع من ثمن العبد الصبي إلى ٥ جنيهات كاملة)مقارنة بأقل من عشر ذلك المبلغ (خمسين قرش!) للصبي غير المخصي. المترجم .

ذكر الكاتب أيضا أنه في تلك السنوات من القرن التاسع عشر كان يمر على الأبيض نحو ١٠٠٠٠ -١٢٠٠٠ من العبيد سنويا. وكانت مدينة الفاشر مركزا كبيرا أيضا لتجميع العبيد، ولحقت بها الخرطوم فيما بعد. يقدر – بحسب رواية الكاتب- أن سوق الرقيق بالقاهرة كانت تستقبل سنويا نحو ٥٠٠٠ – ٦٠٠٠ عبدا من السودان، مع ملاحظة أن ٥٠% فقط أو أقل من أعداد العبيد المجلوبين للقاهرة يصلون إليها، إذ يموت واحد من كل أربعة في الرحلة المضنية من «المنبع» حتى «المصب»، حيث يجبر العبد على المشي على رجليه ٨ – ١٠ ساعات يوميا عبر الصحراء، وفي حالة قلة الماء قد يعطي للعبد دماء جمال نافقة أو مريضة !

كان سوق القاهرة للرقيق عامرا بالعبيد، ليس فقط من أفريقيا، بل أيضا بالجواري الحسان من تركيا والبلقان والشرق الأقصى والحبشيات (وهن المفضلات عند الشارين)، وكان في غاية التنظيم، يتقاضى القائمون عليه ضرائب ومكوسًا يفرضونها على «المبيعات». كان يسمح للشاري بتفحص «البضاعة» من الشعر حتى أخمص القدم، دون أدنى شعور بالخجل، وكثيرا ما كان العبد (أو الجارية) يسأل عن ديانته. يجدر بالذكر أن الأوروبيين كانوا يشترون أيضا ما يلزمهم من الجواري من ذلك السوق المصري، وذكر أن رتشارد بيرتون اشترى جارية من ذلك السوق عن طريق رجل أوروبي يرتدي زي الأتراك. لم تقم الحكومة البريطانية بمنع تجارة الرقيق إلا في عام ١٨٣٣م. كان هنالك سوق آخر للرقيق في مدينة الإسكندرية تراوحت فيه الأسعار بين جنيه واحد وخمسين جنيها، وتقتصر الأسعار العالية على المخصيين، وعلى الذين يعرفون العربية، وكثيرا ما كان العبيد يحتجون إن كان من اشتراهم مسيحي الديانة، فلقد كان العبيد يتداولون بينهم قصصاً مخيفة ورهيبة عن ما يلقونه من السيد إن كان «كافرا» !

ذكر الكاتب أن نحو ١٠٠٠٠ من النوبة قد استرقوا بين عامي ١٨٢٠ – ١٨٣٥م، وأن المنطقة عموما فقدت نحو ١٥٠٠٠٠ فرد في تلك الفترة.

في الفصل الخامس حكى الكاتب عن حياة سليم في الإسكندرية في حوالي ١٨٣٥م أو ١٨٣٦م. ما أن دخل العبد الصغير قصر ثيربيرن المنيف، حتى تلقته الخادمة الإنجليزية، وقامت بغسله بالصابون في حوض حمام ساخن، وأعطته ملابس نظيفة ووجبة ساخنة، ثم أخذ لغرفته الخاصة في دار الخدم الملحقة بالقصر. لم تكن أيام سليم في ذلك القصر إلا كطيف حلم جميل أعقب تلك الأيام السوداء التي عاشها متنقلا بين أسياد قساة القلوب. عاش سليم في أجواء مختلفة تماما في القصر البديع بحدائقه ذات البهجة، بمكتبته الضخمة، وأثاثه الخشبي الفخيم، والجنسيات المختلفة العاملة فيه من إيطاليين وإنجليز وأتراك.

كان سيد سليم الجديد، روبرت ثيربيرن تاجرا بالغ الثراء، ورث عن والده وجده كثيرا من المال، وكان متعهدا لنقل الركاب عبر الصحراء من القاهرة للسويس، ومالكا لعدد من السفن العاملة في نقل الركاب. بقي سليم في خدمة سيده الجديد لأربعة أشهر، ثم ذهب في رحلة مدتها شهر عبر النيل إلى حد الشلال الأول لمشاهدة الآثار المصرية القديمة. وفي مارس من عام ١٨٣٦م سافر ثيربيرن ترافقه ثلة من الخدم من بينهم سليم في رحلة لمدة سبعة أشهر بالسفينة إلى مالطا

ونابولي ثم إلى أسكتلندا، والتي أدهشت سليم أيما إدهاش، فقد كان في التاسعة أو العاشرة من العمر. ترك روبرت ثيربيرن خادمه الصغير في أبردين تحت رعاية أخت زوجه أليزابث، والذي شملته برعاية فائقة شملت تعليمه وتثقيفه في شئون الحياة الحضرية التي كان يجهلها تماما. عبر سليم عن عظيم امتنانه لتلك السيدة في كتابه المعنون : Incidents connected with the life of Selim Aga. والصادر في عام ١٨٤٦م

آب روبرت ثيربيرن إلى الإسكندرية، وهنالك بدأ في مساعدة ريتشارد بيرتون للتحضير لرحلته الشهيرة لمكة والمدينة (والممنوعة لغير المسلمين) متخفيا في زي رجل تركي.

في الفصل الثامن يحكي المؤلف عن حياة سليم الرغدة الهانئة في «قصر ميرتل» في بيتر كتلر التي لا تبعد أكثر من عشرة أميال من أبردين الواقعة على نهر دي. تعلم اللغة الإنجليزية بصورة ممتازة، وتمكن منها، بل وقرض بها الشعر الذي كان في الغالب يدور حول تمجيد الإمبراطورية البريطانية، وفي وصف ما يعجبه فيها، مثل وصفه مثلا لجمال غرفة الطعام في قصر ميرتل. لابد أن سليم كان قد بهر بحياة الأثرياء في أسكتلندا، ولكن لم يفت عليه مقارنتها بحياة الفقراء والمعدمين فيها، بل ومقارنتها بما رآه من بؤس ومسغبة في بلده الأصلي: السودان.

ظل سليم في أسكتلندا لسنوات عديدة، وفيها فكر في مستقبل قارته التي هجرها، فكتب إلى (وقابل لاحقا) وزير الخارجية البريطاني في عام ١٨٤٩م (لاحظ أن سليم يخاطب ويقابل وزير الخارجية البريطانية وعمره ٢٣ سنة حول مقترح إستراتيجي! المترجم) مقترحا القيام ببناء خط سكة حديد من شرق القارة إلى غربها (من زيلا على البحر الأحمر إلى كالابار القديمة على المحيط الأطلسي الجنوبي) (لا علم لي بالأسماء الحديثة لهذين الميناءين. المترجم). سجل سليم في خطابه للوزير البريطاني وبلغة مؤثرة تجربته القديمة كعبد مسترق، وعن تحريره على يد ثيربيرن، وأغدق فيها الثناء والعرفان للشعب البريطاني لعطفهم علي «شعبه»، وحمايتهم لهم كبشر وكأخوة. يقول الكاتب إنه ليس من المعلوم إن كان سليم يعني بالفعل ما قال، أم أنه كان يتملق ويتذلل فقط للوزير لينال مبتغاه !يشير الكاتب إلى أن فكرة ذلك الخط الحديدي قد يكون مبعثها سيده القديم، والتاجر الثري ثيربيرن، والذي لعله كان يأمل في أن تصغي الحكومة البريطانية لاقتراح يأتي من أفريقي محرر من الرق بأكثر مما تصغي لاقتراحه هو، الذي كان سيدر عليه بالقطع أموالا طائلة.

كما ورد في الفصلين التاسع والعاشر، أبحر سليم في عام ١٨٥٧م مع البريطاني الدكتور الأسكتلندي وليام بيكي في رحلة استكشافية لنهر النيجر، ومنها صاحب الملازم (الأسكتلندي أيضا) إلى جون قلوفر في رحلة لاغوس بنيجيريا لإنقاذ من نجوا من تحطم سفينة هنالك اسمها «ذي اسبرنق» .

ظل سليم أغا بعد ذلك في خدمة ريتشارد بيرتون في أفريقيا بين سنوات ١٨٦١م – ١٨٦٤م. كان بيرتون معجبا به ويسميه مداعبا «الأخ الأسود»، ووقف إلى جانبه عندما تشكك الكثيرون في صحة نسبة الكتاب الذي ذكرنا آنفا لسليم، إذ زعم البعض أن الكتاب من تأليف بيرتون. أكد ريتشارد بيرتون أن الكتاب هو بالفعل من تأليف سليم، بل وأشاد بلغته وبقدرته، كما قال، «على فعل كل شيء»، فهو ماهر في عشرات المهن والصناعات، وفي ذات الوقت مجيد للغة الإنجليزية.

في ١٨٦٣/٨/٢٢م بدأ سليم أغا رحلته لاستكشاف نهر الكنغو، وبذا تحقق له شرف القيام برحلات استكشافية لثلاثة من أكبر أنهار أفريقيا: النيل والكنغو النيجر. وفي ذات العام سار مع بيرتون في رحلة لاستكشاف مملكة داهومي (وملكها جليلي كان من تجار الرقيق، ومن أكلة لحوم البشر في الاحتفالات). زعم بيرتون أن من أهداف رحلته تلك هي «إقناع» ذلك الملك بالتخلي عن تلك التجارة، وبالقطع ألا يقوم بمثل تلك الاحتفالات أثناء زيارة الأوربيين لمملكته.

حكى المؤلف في الفصل الأخير لكتابه عن نهاية سليم أغا. قضى سليم سنوات عمره التسع الأخيرة في ليبيريا منقبا عن المعادن، وكانت حينها تلك البلاد مسرحا لمعارك وحرب أهلية بين المواطنين وبين المسترقين العائدين لبلدانهم من أمريكا (لم تخل تلك الحرب الأهلية من تدخلات بريطانية مريبة قام بها القنصل البريطاني في سيراليون. المترجم .(عمل سليم أيضا في ليبيريا كمساعد طبي، ولكنه وقع ضحية للحرب الأهلية هنالك عندما وقع في أسر المواطنين الغاضبين ومات على أيديهم ميتة تراجيدية. قيل أن الرجل طلب أن يمهل حتى يؤدي صلاته (المسيحية) الأخيرة، قبل أن تمزقه حراب وسيوف ومدي آسريه إربا إربا، بعد أن حزوا رقبته، واحتفظوا برأسه.

في ختام الكتاب ذكر المؤلف أن سليم أغا أقام خلال سنواته في أبردين وما حولها علاقة عاطفية مع امرأة «محلية»، وأثمرت تلك العلاقة عن ميلاد طفل (غير شرعي) لهما في ٨/٦/ ١٨٤٧م أسمياه الكسندر أغا. لازالت شجرة عائلة هذا الكسندر موجودة في اسكتلندا والولايات المتحدة إلى يومنا هذا، وقد قابل المؤلف بعضا من المنحدرين من صلب سليم أغا في البلدين.

لا شك أن مادة هذا الكتاب تصلح لتكون فيلما سينمائيا مثيرا، ففيه كل عناصر الميلودراما والإثارة والتشويق، ففيه تختلط الحقائق بالأكاذيب، وبه تبرز علاقات متباينة بين مختلف الشخصيات من عبيد وسادة، وفيه بذرة قصة حب طفولي برئ بين «سليم» و«مدينة» في السودان، وحب من نوع آخر بين «سليم» و«المرأة الأسكتلندية» التي أقام معها علاقة أثمرت طفلا «غير شرعي».

إن رسالة الكتاب (والفيلم إن عمل) الرئيسة هي قبح استعباد الإنسان لأخيه الإنسان، لا فرق في ذلك بين استعباد يقوم به العرب أو العجم، فاستعباد الناس – وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا- جرم عظيم!

عرض لكتاب:
«الرشايدة: رعاة عرب في شرق السودان»

The Rashaayda Bedouin: Arab Pastoralists of Eastern Sudan

William C. Youngوليام يونق

هذا عرض مختصر لكتاب عن «الرشايدة» في شرق السودان صدر ضمن سلسلة «الأنثروبلوجيا الثقافية» التي تصدر عن دار نشر Cengage Learning الأمريكية في عام ٢٠٠٢م. بدأ اهتمام المؤلف بالعالم العربي وهو طالب في مرحلة الدراسة الثانوية حين شجعته معلمة اللغة الإسبانية على دراسة الحضارة الإسلامية في إسبانيا (الأندلس). حصل المؤلف على درجة البكالوريوس والدكتوراه في الأنثروبلوجيا (علم الإنسان) من جامعة جنوب كالفورنيا، ثم قام بعمل أبحاث في مجالات القرابة والطقوس ومجتمعات الرعاة وتعلم العربية أيضا. قام بزيارات ميدانية في تونس ومصر والأردن والسودان، وعمل أستاذا زائرا في جامعة اليرموك بالأردن، وأستاذا لعلم الأنثروبلوجيا في جامعة بولاية جورجيا.

شكر المؤلف في مقدمته عددا من الذين ساعدوه من الأكاديميين السودانيين المتخصصين في علم الأنثروبلوجيا وغيرهم، وخص بالشكر والعرفان عمر بلال صديق، والذي وصفه بصديقه الأول في السودان، وقال إن يفتقد، وبشدة، ذلك الرجل الكريم الذي قدم له صورة مشرفة عن أنبل ما في السودانيين من كرم وحسن خلق وإيثار، وختم ثناءه بكلمتي «رحمه الله» (وكتبها كما تنطق بالعربية).

قسم الكتاب إلى خمسة أقسام، **الأول** منها يتحدث عن الحياة اليومية لبعض الرشايدة بعد نهاية موسم الهجرة. عنون الكاتب الفصل **الثاني** الرعي والتنظيم الاجتماعي عند الرشايدة، والفصل **الثالث** عن الثقافة وتكوين المجتمع الرشايدي، والفصل **الرابع** عن تاريخ وهوية الرشايدة. في الفصل **الخامس** لخص المؤلف في خاتمة بحثه ما قام به في بحثه الميداني، وسجل معاني بعض الكلمات والتعابير العربية الواردة في الكتاب، ومعجم للكلمات المستعملة في علم الأنثروبلوجيا وثبت للمراجع ذات العلاقة. لم تخل المراجع التي أوردها المؤلف من بعض الأخطاء، فكتاب بيتشي المعروف والمعنون

The slave trade of Eastern Africa صار عنده The slave trade of Eastern Sudan! هذا فضلا عن عديد الأخطاء في كتابة أسماء البشر والأماكن في سائر أجزاء الكتاب.

قام المؤلف بعمل دراسة حقلية إثنوغرافية (أنثروبلوجية وصفية) لقبيلة الرشايدة التي تقطن في الجزء الشمالي الشرقي للسودان، وعاش بينهم بين عامي ١٩٧٨ – ١٩٨٠م (ضمن الكاتب مؤلفه عددا من الصور الشخصية له منفردا ومع أفراد من تلك القبيلة وهو يرتدي زيهم). يقر المؤلف – في تواضع ينبغي أن يتصف به كل من يتصدى للبحث والنشر – بأنه لم يحط في بحثه بكل شيء عن هذه القبيلة (وأنى له !) ويقول بأنه ركز في بحثه (وكتابه)على ما يشغل علماء الأنثروبلوجيا حاليا من قضايا مثل مدي الاختلاف بين مجتمع وآخر فيما يتعلق بأمر هوية الجندر gender identity، وما هي أسباب العنصرية، وما هي أسباب تفاوت توزيع الثروة في مجتمع ما، وكيف يؤثر

توزيع تلك الثروة على العلاقات الاجتماعية في المجتمع. يقر الكاتب أيضـا أن ما كتبه في حينه (بداية الثمانينات من القرن الماضي) قد لا يصدق بعد عشرين أو ثلاثين عاما، ولا أعلم إن كانت دراسة شبيهة قد أجريت على تلك القبيلة في السـنوات الأخيرة، ولو من باب المقارنة مع ما أجراه مؤلف هذا الكتاب أو من سـبقه من الذين كتبوا عن قبيلة الرشايدة مثل بروفيسور يوسف فضل حسن في بحثه عام ١٩٧٥م عن هجرة الرشايدة إلى السودان.

الفصل الأول: كتب المؤلف في الفصل الأول عن الحياة اليومية عند الرشايدة، وقرر في البدء أن الأكل والشرب والنوم وبقية الممارسـات اليومية تأخذ عند القبائل الرعوية أهمية ثانوية، بينما تحظى بهائمهم وتوفير المرعى لها والاستفادة منها بالأهمية القصوى.

يسـتغرق رحيل الرشـايدة من مكان تخييمهم إلى مكان آخر (والذي يتم عادة في الأسـابيع الأخيرة من موسـم الهجرة) أكثر من ٢٤ ساعة. وصف ببعض التفصيل ما يحدث عادة في عملية الرحيل متخذا من ما تفعله إحدى نساء معسكر الرشايدة واسمها « سلوم» كحالة نموذجية. ففي يوم تفكيك المعسكر تصحو « سلوم» قبل بزوغ الشمس وتبدأ العمل وهي ترتدي قناعا ترتديه عادة النساء المتزوجات يغطي أنفها وفمها. رآها المؤلف تستخدم «هبابة» من القش لتؤجج جمر نار الليلة السـابقة في موقدها (وهو عبارة عن قطعة مقعرة من معدن خردة). على يمينها توجد قرب ماء وقدور طبخ مسودة اللون. صبت قدرا محسوبا من فم قربة ماء في إحدى القدور لتصنع الشاي، ثم صاحت في عيالها لتوقظهم. رفعت عقيرتها بالصياح منادية «نافع» ولدها المراهق ليقم للصلاة: «يا نافع. قم. قم واطلب ربك». كان عليهم الاستعداد للرحيل لموقع جديد بعد أن ينزلوا خيامهم

ويجرونها على الأرض إلى حيث تحمل على الجمال، مع بقية ممتلكات العائلة التي لا تتعدى حجر الرحى وجوالات الحبوب وقرب الماء وأكياس جلدية. عند الرحيل يقسـم العمل عند الرشـايدة بين الرجال والنسـاء، فالرجال عليهم رعاية الجمال ونوق اللبن وحمل بعض الأشياء الصغيرة، بينما يجب على النساء والأطفال حمل المتاع وجر الخيام إلى حيث الجمال. هذا الأعمال ضـرورية بالطبع كجزء من الانتاج الرعوي. ومن جهة أخرى فإنه يجب على كل أفراد العائلة أن يعملوا على حفظ حقهم في الماء والكلأ والأرض، حتى بالقوة إن لزم الأمر. وبلغة «الماركسـية الجديدة» فإن تقسـيم العمل بين أفراد العائلة عند الرشـايدة مبني على قواعد وسـائل الانتاج وعلاقتها الاجتماعية بالإنتاج. بعد الإفطار (والذي يسـمونه «فش (فك) الريق»)، والذي يتناوله الرجال بمفردهم بعيدا عن النساء والأطفال، يبدأ الجميع في التحرك إلى المعسكر (الفريق) الجديد. يصف المؤلف وبدقة شديدة، ما تقوم به المرأة عند الرشـايدة (ممثلة في سـلوم) في عملية الاسـتعداد للرحيل من فريق لآخر، ويبدو من وصـفه أن المرأة هي سيدة الموقف في كل عمليات التحضير والتجهيز لهذه العملية.

في **الفصل الثاني** تناول المؤلف ببعض التفصيل الاقتصاد الرعوي عند الرشايدة، مستعملا الفعل المضارع (خلافا لما استخدمه من الفصل الأول من فعل ماضي) لأن المؤلف يعتقد أن كثيرا مما سجله عن اقتصاد الرشايدة الرعوي بين عامي ١٩٧٨م و١٩٨٠م لم يتغير كثيرا عند نشـر كتابه في ٢٠٠٢م. بيد أنه يقر أيضـا بأن بعض التغيير قد حدث في حياة الرشايدة الاقتصادية استجابة لما حدث من تطورات سياسية واقتصادية في السودان وجيرانه مثل أرتريا وإثيوبيا ومصر.

تعد الملابس هي أكثر ما يمكن أن يميز هوية الرشـــايدة الثقافية، فرجال القبيلة يرتدون دوما عمائم طويلة (ضخمة) تختلف عن تلك التي يرتديها سكان شمال السودان، خاصة في المناسبات. قارن المؤلف عمائم رجال الرشايدة في صور التقطت لهم في العشرينات بعمائمهم اليوم ولم يشهد فرقا يذكر، غير أنه لاحظ أيضا أن الرشايدة المعاصرين قد اضافوا للعمامة طاقية ملونة يجلبونها من السعودية، لا يستخدمها السودانيون الشماليون. أشار المؤلف إلى أن السودانيين الشماليين يعدون ارتداء العمامة مظهرا عربيا يميزهم عن «الهدندوة» وتقاليدهم. فرجال الهدندوة يدهنون شعورهم ويسرحونه إلى أعلى مستخدمين أمشاطا لها أسنانا طويلة. خلص المؤلف إلى أن عمامة الرجل الرشايدي تميزه على مستويين مختلفين: العرب/ الهدندوة، والعرب السودانيين/ العرب الرشايدة. تداوم النساء المتزوجات على ارتداء «قناع» وصفه المؤلف وبدقة متناهية وذكر أنه يكون عادة أسود اللون، وقد يكون في أحيان قليلة ملونا، ويضـغط هذا القناع على الوجه لدرجة أنه يجعل من ترتديه تعجز عن أن تفتح فمها واسـعا. يؤكد المؤلف أن هذا القناع يميز امرأة الرشايدة ولا يوجد له نظير عند سائر نساء السودان أو الدول العربية.

بالإضـافة للزي، يتحدث الرشـايدة اللغة العربية بلهجة مميزة تشـابه اللهجة التي يتحدث بها عرب شـمال غرب الجزيرة العربية، وتختلف كثيرا عن لهجات عرب شـمال السـودان. أورد المؤلف عددا من الأمثلة عن تلك الاختلافات، فعلى سبيل المثال يقول بعض عرب شمال السودان: «كيف حالك؟» بينما ينطقها الرشايدة :«جيف حاليش؟»

أين يسكن الرشايدة؟ استقرت قلة من الرشايدة بصورة دائمة في منازل ثابتة في المقرن (وهي مدينة صغيرة بين الدامر وعطبرة) وأم تكنة جنوب الدامر، وتقع المدينتان قرب منطقة التقاء نهر عطبرة بنهر النيل. تعيش مجموعات الرشـايدة الرحل جنوب شـرق فريق التكنة في خيام تنصـب على ضـفاف نهر عطبرة أثناء موسـم الجفاف، ويرحلون بإبلهم للداخل في موسـم الأمطار حين يزرعون الحبوب في المناطق المروية جيدا مثل الصـافية وخور السـدرة وأم شـديدة، ثم يخزنون ما يحصـدونه لأطول فترة ممكنة، ولا يعودون إلى ضـفة نهر عطبرة مرة أخرى إلا في شـهور الجفاف.

أستقر بعض من أفراد قبيلة الرشايدة في مشروع خشم القربة الزراعي بقرب الخزان الذي أقيم في ستينات القرن الماضي على رأس نهر عطبرة، ورغم استقرارهم فهم يعدون أنفسهم من «الرعاة الرحل»، بينما يسمونهم الرشايدة الآخرون «العرب اللي عاشوا في الحواشات». هؤلاء الرشايدة يسكنون في بيوت المشروع ويعملون في الزراعة وتربية الضـأن غالب شـهور السـنة، بيد أنهم يغادرون المشـروع في منتصـف موسـم الأمطار بخيامهم وبهائمهم متوجهين للرعي في المناطق الخلوية المحيطة بالمشروع.، ولا يعودون له إلا عند موسم الحصاد في المشروع. إذن فهنالك رشايدة من الرعاة الرحل، وهؤلاء يعيشون في مناطق شرق مشروع خشم القربة في المنطقة بين نهري عطبرة والقاش. وهؤلاء يرحلون جنوبا حتى نهر سـتيت في بداية موسـم الأمطار.، ثم يرجعون شـمالا عند بدء موسـم الجفاف. لا يرحل الرشايدة أبدا جنوب الستيت خوفا من إصابة إبلهم بمرض الذبابة، ولا يرحلون شمالا إلى ما بعد «قوز رجب» لعدم كفاية الأمطار في تلك المنطقة. استقر ، ومنذ سبعينات القرن الماضي، نحو ٢٠٠٠ من الرشايدة بصورة دائمة في قرية «مستورة» الواقعة جنوب غرب كسلا .

لا يمكن الحديث بتعميم عن الاقتصـــاد عند الرشـــايدة. فليس كل الرشـــايدة من الرعاة الرحل، وليس كلهم يمارسون ذات النشاط الاقتصادي. غالب الرشايدة هم من الرعاة الذين يعتمدون في عيشهم على منتجات حيواناتهم (الإبل والغنم والمعز) من لبن ولحم وشـعر ووبر، ويبيعون أحيانا بعض حيواناتهم الحية في الأسـواق، بيد أنهم لا يبيعون منتجاتها بل يسـتهلكونها إضـافة لغذائهم الرئيس وهو الذرة والدخن (والذي يزرع على خيران المياه). بهذا فالرشايدة يعتمدون على الزراعة والرعي معا، بينما يعتمد قليل منهم على بيع المواشي، وعدد أقل على العمل بأجر في القطاع العام أو

الخاص. يهاجر عدد من رشايدة السودان للعمل في السعودية لعام أو عامين ثم يعودون بما جمعوه من مال (يجب تذكر أن هذا ما كتبه المؤلف في ثمانينات القرن الماضي).

يعيش الرشـايدة بحسـب المؤلف في واحدة من ثلاثة «وحدات سـكنية» هي **الأسـرة** (وهي أصـغر وحدة إنتاج) تعيش في بيت (خيمة) واحدة. المرأة هي التي تمتلك الخيمة (إذ أنها هي وحدها التي تسـتطيع صـيانتها دوريا) ويسميها الرشايدة «راعية البيت». ثم هناك **الأسرة الممتدة،** وهي تتكون عند الرشايدة من ٢ إلى ٩ من الأسر (سماهم المؤلف جماعة المخيم)، وتسمى الأسرة الممتدة باسم أكبر رجل فيها. وهناك أيضا **فريق (معسكر) موسم الجفاف،** وهو أكبر وحدة سكنية عند الرشايدة وتتكون من نحو ١٥ – ٣٠ أسر ممتدة تعيش حول بئر أو بقرب النهر من فبراير إلى منتصف يوليو. لكل فريق رئيس يسمونه «كبير الفريق».

في **الفصل الثالث** يصف المؤلف بعض المظاهر الثقافية والعادات عند الرشايدة. وكقارئ غير متخصص أرى أن هذا الفصل هو أضعف فصول الكتاب رغم أنه قد كتب في شكل قصصي وكأنه مذكرات زائر لجماعة غريبة الأطوار من عالم آخر. حكى وبتوسـع لا يخلو من إملال (خاصـة للقارئ المسـلم) عن الصـلاة وكيفية أداء حركاتها عند الرشايدة (وكأن صلاتهم تختلف عما يعرفه المسلم وغير المسلم) وعن مواقيتها، واكتشف أن أسماء أوقاتها (الفجر والظهر والعصر والمغرب والعشاء) تستخدم أيضا في التوقيت اليومي**!!!**

ورد في هذا الفصل سرد لبعض المعتقدات عند الرشايدة عن الأمور الغيبية مثل الملائكة والجن والسحر وغير ذلك مما هو سائد ومشهور في غالب المجتمعات الإسلامية. فعلى سبيل المثال كتب المؤلف يقول إن الرجل من الرشايدة عندما يجد نفسه في منطقة بعيدة وغير مأهولة فإنه يستعيذ من الشيطان ويقرأ سورة الفاتحة، ويقرأها كذلك عند دخوله للمقابر ترحما على الأموات، ويقرأها كذلك عندما يجد نفسه في خيمته لأسباب عديدة، بينما تذكر المرأة «راعية البيت» وهي تصنع أو تقدم القهوة الله أو أحد «الأولياء» فتردد مثلا: الفاتحة لله في سبيل الله * الله يفتح علينا الخير وأبوابه * ويقفل عنا الشر وشراكه. وقد تردد أيضا: يا الشاذلي أبو الحسن * والأنبياء والمرسلين.

يقوم من يستمعون إليها برفع أياديهم عاليا ويرددون سرا أول آية في القرآن، ثم تصب بعد ذلك المرأة القهوة. يعد الرشايدة الخيمة أنسب مكان لدعاء الرب وقراءة الفاتحة لأن الله لا يهجر مكانا مسكونا ولا يضيع ساكنيه. لذا يقوم الرشايدة بممارسة كل طقوسهم مثل القران والولادة وتسمية المولود والختان في داخل الخيمة (وليس خارجها).

في **الفصل الرابع** والأخير، تناول المؤلف التاريخ والهوية عند الرشايدة فيقرر أن الرشايدة هاجروا للسودان في عام ١٨٦٠م بعد سنوات طويلة جدا من دخول العرب للسودان، بيد أن لا أحد يعرف على وجه الدقة من أين أتوا. هنالك من يعتقد أنهم أتوا للسودان من الحجاز (تحديدا من منطقة قريبة من مكة) لأن هنالك إلى الآن أفرادا من الرحل في تلك المنطقة يطلقون على أنفسهم «رشايدة»، بل إن هنالك ما لا يقل عن ستة مجموعات سكانية تعيش في المنطقة المطلة على البحر الأحمر بين مكة وشمال السعودية تسمى نفسها أيضا «رشايدة». وفي الكويت أيضا توجد مجموعات مختلفة من «الرشايدة»، وفي الأردن توجد أربعة مجموعات تنصف نفسها على أنها «رشايدة» بيد أنه ما من واحدة من هذه المجموعات في كل البلدان المذكورة تزعم أن لها صلة نسب أو عرق بالمجموعات الأخرى رغم تشابه الملابس التي يرتديها «الرشايدة» حيثما وجدوا، خاصة «البرقع» الذي تحافظ نساء الرشايدة في كل مكان على وضعه. هنالك من ينفي أي صلة لرشايدة السودان برشايدة مكة إذ أن للفروع الثلاثة الرئيسة للرشايدة في السودان أسماء لا تجدها عند الرشايدة في الحجاز.

تناول المؤلف في هذا الفصل ببعض التوسع هوية الرشايدة المرتبطة بالبداوة والرعي، وهي هوية يحرص الرشايدة على إبرازها والتمسك بها. بيد أنه يجب ملاحظة التغيرات التي صاحبت الهوية المميزة لهم في العقود الماضية عند بعض من سكنوا بالقرب من البحر الأحمر واتخذوا من التجارة (بالمراكب الصغيرة) بين السودان والسعودية مصدرا لعيشهم.

يزعم الرشايدة أنهم، وعند هجرتهم للسودان، جلبوا معهم على ظهور القوارب أنواعا جديدة من الأبل لم تكن موجودة في السودان من قبل. عند وصولهم للسودان اشتغل الرشايدة برعي الحيوانات (ومنها الماشية، والتي تحتاج تربيتها لحفر آبار) وزراعة الذرة التي تحتاج لأرض خصبة . قاوم الهدندوة وبنو عامر دخول الرشايدة لأرضهم، وحدثت في الماضي مصادمات دموية بينهم انسحب على إثرها الرشايدة إلى الداخل بعيدا عن الساحل.

في فترة المهدية (١٨٨٤ – ١٨٩٨م) كان على الرشايدة أن يختاروا ما بين الانحياز للمهدويين (تحت إمرة الهدندوة، أعداء الرشايدة التقليديين لعقدين من الزمان) أو الوقوف مع الحكم التركي. كان ذلك هو ما وضعه أمامهم الأمير المهدوي «أبو قرجة» بعد أن قتل بعض رجال الرشايدة ممن صادفهم في طريق جيشه الذي كان يحاصر سواكن. لم يقبل كثير من الرشايدة بأي من الخيارين، وآثروا الهجرة لإرتريا، وبقوا فيها حتى عام ١٩٠٠م قبل الأوبة للسودان بعد زوال دولة المهدية، حيث استقروا في المنطقة بين نهري عطبرة والقاش كرعاة للإبل. ظل الرعي هو الصفة الملازمة

لمعظمهم حتى عام ١٩٦٢م، حين أنشأت حكومة الفريق عبود مشروع خشم القربة الزراعي، والذي حرم الرشايدة من الأراضي التي كانوا يرعون فيها إبلهم مما دعا كثيرا منهم لهجر مهنة الرعي.

ألمح الكاتب إلى أن بعض الرشايدة (وضرب مثالا لذلك بحالة واحدة!) يتعاملون مع «السودانيين الآخرين» بسلوك لا يخلو من «عنصرية racism» و«عرقية ethnocentrism» ، بيد أنه أشار أيضا أن الرشايدة قد يقعون ضحايا لذات السلوك العنصري/ العرقي من السودانيين الآخرين. ضرب المؤلف لذلك مثالا بما قاله له طلاب في

مدر سة كسلا الثانوية عندما علموا منه أنه يجري بحثا عن الر شايدة، فقالوا له: «تقصد الزبيدية؟»، لم يصدقوه عندما حاول لهم شرح الخطأ في تسمية الرشايدة بالزبيدية، بل مضوا يتحدثون عن أصل «هؤلاء الناس» ويسألونه: «هل هم من الحلب»؟ يقول المؤلف أنه أدرك لاحقا أن استخدام كلمة «حلب» قد لا تخلو من شبهة تحقير وانتقاص للأصل العرقي عند السودانيين. في الجانب الآخر يقول المؤلف أن الرشايدة يلجؤون في مواجهة محاولة الانتقاص من أصلهم بإطلاق الفاظ عنصرية مسيئة على من يهاجموهم، ويصفون أنفسهم بأنهم «احرار» وليسوا «عبيدا» (مثل مهاجميهم).

تناول المؤلف أمرا «ملتبسا» آخر وهو تجارة الرقيق عند الرشايدة، ويقول بأنه كان للرشايدة «عبيد» في حوالي عام ١٨٩٠م، إذا كانوا يعيشون في المناطق التي كانت معابر لقوافل الرقيق الذاهبة للجزيرة العربية من جنوب السودان وغرب أثيوبيا، وكانت تجارة الرقيق حينها تجارة مربحة ومغرية لهم، خاصة وأنهم يجيدون استخدام الأسلحة النارية، ويحتاجون لأيدي عاملة في عملية الانتاج الرعوي الذي كانوا يمارسونه. بالطبع لم يكن الرشايدة أول من مارس هذه التجارة، إذ أنها كانت رائجة و شائعة بين مصر والسودان قبل دخول الرشايدة للسودان، ولعلها بدأت في عهود فراعنة مصر منذ آلاف السنين. يختم الكاتب هذا الجزء من كتابه بتبرئة الرشايدة كقبيلة من وصمة تجارة الرقيق، ويقول إن عددا قليلا فقط من رجال الرشايدة هم من انغمسوا في عمليات الاتجار بالبشر، خاصة مع الجزيرة العربية. سطر المؤلف كل ذلك في يسر وجزافية دون إيراد معلومات أكيدة أو الاعتماد على مصادر موثوقة (ولا يملك المرء إلا يقارن بين ما أتى به المؤلف في كتابه مع ما كتب بتوثيق عن تاريخ الرق في السودان بقلم منصور خالد ومحمد أ. نقد وعدد كبير من الكتاب الغربيين).

أورد المؤلف أيضا في هذا الفصل طرفا من عادات الرشايدة في أمور العلاقات بين الرجال والنساء والزواج وطقوسه المختلفة مدعما بحثه بصور بالأبيض والأسود كثيرة ومتنوعة ولكنها متردية المستوى الفني.

يقول المؤلف إن ذكرى ر شايدة السودان (والإ سلام) ظلت عالقة بذهنه حتى بعد أن أكمل بحثه وقادته الأقدار للعمل في بلدان عربية وإسلامية أخرى، ولم يكف عن المقارنة – كما قال- بينهم وبين من صادفهم لاحقا من بدو رحل.

بالنظر إلى قلة المنشور من الدرا سات الأنثربولوجية عن الر شايدة، فإن هذا الكتاب يعد إ ضافة مفيدة لهذا النوع من الأبحاث عن مجتمعات البدو الرحل، ولعل مادة هذا الكتاب (رغم قدمها الزمني الان) تدرس في بعض الجامعات الأميريكية كمثال لاقتصاديات الرعي والرعاة الرحل. يحمد - بالطبع – للكاتب الأميركي قيامه بهذه الدراسة الميدانية تحت ظروف لا بد أنها كانت قاسية جدا (فلا غرو إن فر من هذا النوع من الدراسات الميدانية كثير من متعلمي السودانيين!). يعيب الكتاب كما ألمحنا فيما سبق ميله إلى التعميم الكاسح في بعض الأحيان، وقلة احتفائه بالتوثيق وإيراد المصادر والمعلومات المؤكدة (مثل حديثه المعمم عن الرق عند الرشايدة، واعتماده على حديث واحد أو اثنين من الرشايدة للوصول إلى نتيجة ما عن سائر القبيلة). كذلك برز عندي سؤال «أخلاقي» يتعلق بما صرح به المؤلف من تخوفه من العيش في بيئة مسلمة وهو رجل غير مسلم، الأمر الذي سيخلق حاجزا بينه وبين من سيقوم بدراسة حياتهم واقتصادهم وعاداتهم. كان حل تلك «المشكلة» عند أحد أساتذته يسيرا جدا. قال له:

«لماذا لا تغير دينك وتعلن عن إسلامك خلال إقامتك معهم؟» ولعل المؤلف استحسن ذلك الاقتراح وعمل به (تماما مثلما فعل السير ريتشارد بيرتون عندما قصد مكة في ١٨٦٣م!).

يتمنى المرء أن يقرأ دراسات حديثة مشابهة لدراسة الدكتور يونق، عن هذه القبيلة وغيرها، يقوم بها سودانيون (وأجانب) من أجل فهم أعمق لحياة ومعيشة المجموعات السكانية التي تضمها حدود هذا البلد المترامي الأطراف مما سيؤدي لتعايش سلمي وعلاقات إنسانية وفهم أعمق بين هذه المجموعات السكانية المختلفة.



حول التاريخ السياسي للمساليت
دينيس تيللي

تقديم: هذا عرض وترجمة مختصرة لشذرات قليلة من التاريخ السيا سي للمساليت، مما ورد في كتاب للباحث الأمريكي دينيس تيللي عنوانه Culture and Context in Sudan: the process of market incorporation in Dar Maslit صدر عن دار نشر جامعة نيويورك في ألباني عام ١٩٨٨م. ولعل هذا الكتاب – كما يستشف من باب «الشكر والعرفان» في الكتاب – هو ثمرة رسالة للدكتوراه قدمها الباحث لقسم الأنثروبولوجيا (علم الإنسان) في جامعة واشنطن.

كلما أمعنا النظر في تاريخ دارفور (الدامي في غالبه) يثبت عندنا خطل المقولة الخاطئة التي يكررها – دون تبصر- سياسيونا المعاصرون من ضرورة إعادة دارفور «سيرتها الأولى»!

المترجم

ظلت دار المساليت – ولمئات السنوات- منطقة حدودية تفصل بين دويلات تفوقها قوة. ففي شرقها كانت لها حدود مع دارفور، وعلى غربها كانت لها حدود مع وداي (وهي مملكة أفريقية قديمة كانت تقع غرب دارفور وشرق بحيرة تشاد، وأشهر مدينة فيها الآن هي أبشي .المترجم). دخلت دار مساليت في حروب متقطعة مع هاتين المملكتين القويتين، مما أفقدها أجزاء واسعة من أراضيها، وغدت في نهايات القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين نقطة التقاء بين المستعمرين البريطاني والفرنسي، وتناوشتها أطماعهما الإمبريالية التوسعية. تم في نهاية المطاف ترسيم حدود دار مساليت بعد محادثات مطولة ومضنية انتهت بعقد معاهدات في أوربا بين هذين المستعمرين .شكلت هذه الاتفاقيات فيما بعد التنظيم السياسي لدار مساليت، والذي مر فيما بعد بتحولات عديدة.

قامت الباحثة الهولندية المولد ليدفين كابتجينز (في سبعينات وثمانينات القرن الماضي. المترجم) بدراسة معمقة عن تاريخ المساليت السياسي بين عامي ١٨٧٠ – ١٩٣٠م، واعتمد الكاتب كثيرا على أعمال تلك الباحثة، وعلى نصائحها الكتابية والشفهية له قبل وأثناء وبعد الانتهاء من بحثه (كما سجل ذلك في باب «الشكر والعرفان» في الكتاب)، علما بأن هذا الباحثة ذكرت في مراجعها عمل المرحوم موسى المبارك عن «التاريخ السياسي لدارفور»، ولم أجد له ذكرا في ثبت مراجع كتاب دينيس تللي! كذلك اعتمد الكاتب على كثير من المقابلات الشخصية مع رجال المساليت الذين شهد أكثرهم تلك الفترة.

عرفت الباحثة ليدفين كابتجينز الفترة التي سبقت عام ١٨٧٤م بأنها فترة «النظام القديم .«Ancien Régime لا تعرف على وجه الدقة حالة دار مساليت في القرنين السابع عشر والثامن عشر، سوى أن تلك الفترة كانت فترة حروب توسعية وصراعات مستمرة بين وداي ودارفور، مما يؤيد فكرة أن دار مساليت قد احتلت إبان تلك الفترة مرات عديدة، إما من قبل دارفور أو مملكة وداي .وما أن حل القرن التاسع عشر حتى ساد بعض الهدوء والاستقرار تلك المنطقة المضطربة بعد أن دان الجزء الغربي من دار مساليت لسلطة مملكة وداي، بينما آل الجزء الشرقي منها إلى سلطة دارفور، وبقي سلطان الجزء الأوسط من دار مساليت لأهلها، دون ولاية لأي من الجارين القويين.

تغير الوضـــع في عام ١٨٧٤م حين احتلت قوات الأتراك دارفور وحررت دار مســاليت من قبضــة الفور (لاحظ المفارقة هنا. المترجم). ينبغي القول هنا بأن المســاليت الذين كانوا تحت حكم الفور لم يكونوا وحدة واحدة قبل الحكم التركي، بل كانوا موزعين على ثلاثة مناطق تقع جميعها تحت سلطة الفور. قام المساليت القاطنين في الأطراف بعقد مفاو ضات مع النظام التركي الجديد. ا ستغل هجام حـ سب الله (قائد المـ ساليت الواقعين تحت حكم دارفور) هزيمة الأتراك للفور، فعمل على توحيد المساليت بقوة السلاح تحت إمرته، و شمل ذلك أيضا المساليت في الغرب الذين كانوا تحت حكم مملكة وداي. نجح هجام في مســعاه لتوحيد وحكم المســاليت، بيد أنه لم يكن محبوبا من شعبه، فتم عزله في عام ١٨٨٣م، وتزامنت تلك الأحداث مع و صول قوات المهدية إلى دارفور (لم يتطرق الكاتب إلى ملابسات عزل هجام من قيادة المساليت. المترجم).

كان عهد المهدية فترة اســتقلال للســودان تحت قيادة محمد أحمد، والذي أعلن انه «المهدي المنتظر» في عام ١٨٨١م. كانت حركته حركة «إصلاحية» تدعو إلى «صحوة إسلامية» تقوم بتنقية المجتمع من المفاسد، وتهيئته ليوم الدين. كانت الدعوة المهدية الدينية لمحمد أحمد دعوة أيديولوجية مصوبة نحو الحكم التركي (الفا سد)، وتعتمد في الأســاس على إذكاء نار الكراهية لحكمهم. حكـمت المـهدية الســودان من ١٨٨٥ إلى ١٨٩٨م، حين «اســترد» البريطانيون والمصــريون الســودان. كان الحكم المهدي قد بدأ في الســيطرة على دارفور قبل الســيطرة على عاصــمة البلاد، حين استسلم لقائدها حاكم دارفور في عام ١٨٨٣م (لعل المقصود هو سلاطين. المترجم).

بعد إعلان محمد أحمد عن مهديته، ســارع رجال كثيرون من رجالات المســاليت بزيارته (لم يذكر الكاتب أين حدث ذلك. المترجم) ومبايعته، وكان بينهم الزعيم الديني إ سماعيل عبد النبي .لما عاد هؤلاء المـ ساليت لموطنهم نقلوا معهم تعاليم المهدي التي تدعو للالتزام بقراءة راتب المهدي، ومنع تناول المســكرات، وتقليل المهور، ومنع بعض الاحتفالات الدينية والمديح. كون إسماعيل عبد النبي جيشا من الأتباع قاموا بالسيطرة على دار مساليت خلفا لهجام المعزول، وأسسوا لسلطنة المساليت القائمة حتى اليوم. وجد إسماعيل عبد النبي قبولا واسعا من المهدويين كحليف مخلص، بيد أنه ضاق ذرعا بحكم المهدية بعد وفاة محمد أحمد وتولي خليفته عبد الله التعايشي حكم البلاد. كان الخليفة عبد الله يشك في إخلاص إسماعيل عبد النبي فا ستدعاه لأمدرمان حيث أبقاه (حبيسا؟) فيها حتى وافته المنية. تمرد أبكر إ سماعيل عبد النبي (والذي خلف أباه في حكم المـ ساليت) على حكم الخليفة عبد الله، وأعلن عن قيام ســلطنة المســاليت كســلطنة مســتقلة عن الحكم المهدوي .لم يكن ذلك ليمر دون ثمن، فدخل أبكر في حروب متصلة ضد قوات المهدي والفور والفرنسيين وجيوش أخرى. فقدت سلطنة المساليت جراء تلك الحروب الكثيرة منطقة المـساليت الغربية، والتي أحتلها الفرنسيون حتى عام ١٩١٢م، ولكنه ظل محتفظا ببقية سلطنته مـستقلة حتى عام ١٩٢٢م، حين أحتلها البريطانيون. ضــمت دار مســاليت في ذلك العام بواســطة الحكم الثنائي (البريطاني المـصري)، والذي أبقى على سلطانها كحاكم محلي ضمن منظومة الإدارة الأهلية. ظل الحال هكذا في دار مـساليت حتى قيام ثورة مايو في ١٩٦٩م، والتي ألغت الإدارة الأهلية في كافة أرجاء البلاد.

حدثت كثير من المتغيرات والتحولات في التركيب الإداري والتنظيم السياسي في دار مساليت منذ عهد «النظام القديم» إلى الوقت الراهن .ففي عهد «النظام القديم» كانت الوحدة الأساسية للتنظيم هي أرض العشيرة الأبوية؛ ولكل عشيرة أو قسم من العشيرة أراضي أخرى (بلدات/ ديار / حواكير) يتحكمون فيها

بيد أن أفراد العشيرة لا يلتزمون دوما بالإقامة في أراضيهم، وإنما يقيمون في كثير من الأحايين في غير بلداتهم. فصلت الدكتورة ليدفين كابتجينز في أمر ملكية الأرض والحواكير، ونشرت أكثر من بحث عن هذا الأمر، والذي يعده البعض أس كل ما نراه اليوم من صراعات مريرة في دارفور.

نختم هذا المقال بشيء مما أورده الكاتب عن الرق في أوساط المساليت. تذكر الدكتورة ليدفين كابتجينز أن تعريف الرقيق عند المساليت هم (ببساطة :(«الأشخاص غير المنتمين للأرض»، وذكر لها أحد مخبريها من رجال المساليت العواجيز أنهم يعدون المهاجرين المقيمين معهم (من غير المساليت) عبيدا .سادت تجارة الرقيق في أوساط المساليت قديما، ولكن يوجد أيضا في أوساطهم بعض الذين تم أسرهم في الغارات والحروب الكثيرة التي خاضوها، ومن يلجأ إلى ديارهم بسبب الجوع أو الفقر، وهؤلاء يسترقون «مؤقتا» حتى يتم البت في أمرهم، أو يؤوبوا لديارهم فينالوا حريتهم مجددا. فعلى سبيل المثال عندما غزا الأتراك دارفور، لجأ بعض كبراء رجالات الفور من السياسيين والتجار إلى دار المساليت، فتم منحهم اللجوء كعبيد. ولم يكن هذا بالأمر المستغرب، إذ أن رجال المساليت كانوا يستعبدون أيضا عندما يلجؤون لجيرانهم. خلص الكاتب إلى أن الرق (الا ستعباد) كان يعد صورة من صور إدخال / إدماج «الغرباء» من عرقيات مختلفة (من غير المساليت) في المجتمع. ينطبق ذات الشيء على العلاقة بين الدينكا والنوير (والتداخل بينهما)، كما ذكر ذلك كثير من الباحثين.

زعم الكاتب أن تجارة تصدير الرقيق كانت سائدة في أوساط الدينكا (وفي أوساط سكان دارفور ووداي في القرن التاسع عشر أيضا)، ولا أحد يعلم إن كان هذا هو الحال أيضا مع المساليت، رغم أن الدكتورة ليدفين كابتجينز تزعم أن العبيد المجلوبين من الجنوب كانوا يمثلون مصدرا هاما لتجارة الرقيق عند المساليت.

يقول كثير من المساليت (الأصليين) إن بعض عشائر المساليت هي من أصول غير مساليتية، وهذا ما يعرف الآن بالاستيعاب العرقي.

(ethnic assimilation)



من عادات الرباطاب
جون ونتر كروفوت

تقديم: هذا عرض وترجمة مختصرة لشذرات قليلة من مقال نشر في العدد الأول من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» (والمطبوعة في المعهد الفرنسي لعلم الآثار الشرقية بالقاهرة) في عام ١٩١٨م، للكاتب جون ونتر كروفوت (١٨٧٣- ١٩٥٩م). عمل الكاتب كمدير لمصلحة التعليم بين عامي ١٩٠٣ – ١٩٢٦م، وفي ذات السنوات عمل أيضا كعميد لكلية غوردن التذكارية خلال الفترة ما بين عامي ١٩١٤ - ١٩٢٦م.

لعل ما سجله الكاتب البريطاني عن الرباطاب (قبل نحو قرن من الزمان) كان من قبيل الإعجاب بهذه القبيلة، وبتقاليدها العريقة؛ بيد أنه يجب القول بأن غالب ما ذكره الكاتب عن قبيلة الرباطاب يصدق أيضا على كل قبائل السودان الأخرى تقريبا. ينبغي لك أن تتذكر تاريخ كتابة هذا المقال، فهو يحكي عن عادات واحتفالات قبيلة سودانية شمالية في بدايات القرن الماضي، وقد لا يصدق الكثير مما ذكره الكاتب على عالم اليوم. بيد أن التعرف على آراء «الأجانب» حول عاداتنا وتقاليدنا مفيد من نواحي عديدة لا مجال للتوسع في ذكرها هنا، رغم أن الكاتب اعتمد في مقالته على ما ذكره له شخص واحد من ذات القبيلة، وهذا – في نظري المتواضع- يضعف مصداقية ما ورد في المقال، إضافة إلى أنه يجنح أحيانا للتعميم المفرط.

طلبت من أحد الشيوخ أن يسرد لي قائمة بالعادات والاحتفالات التي تمارس منذ المولد حتى الممات عند قبيلته، والتي تصادف إن كانت قبيلة الرباطاب (وهي منطقة المفتش المقيم في «أبو حمد»). بدأ الشيخ الرباطابي مقالته – وبمبادرة منه- بمقدمة عن الخواص العامة المميزة للرباطاب، وعن شيوخهم الدينيين، مما يشير إلى استحالة فهم عادات الرباطاب دون مثل تلك المقدمة. اتفقت معه على ضرورة مثل هذه المقدمة، ولم أقم بأي تعديلات جوهرية على ما ذكره لي الشيخ الرباطابي، غير أني حذفت بعض الفقرات والإشارات التي قدرت أنها ليست على قدر كبير من الأهمية.

تجب الإشارة إلى أن ما سجله الشيخ الرباطابي عن العادات المحلية للرباطاب لا يقتصر على تلك القبيلة، بل يتعداه ليشمل عادات كثير من القبائل التي استقرت على النيل في مديريات الخرطوم وبربر ودنقلا، وتلك القبائل التي هاجرت من تلك المناطق إلى النيل الأبيض والنيل الأزرق ومدن في كردفان وكسلا، حيث يمثل الجعليون والشايقية والدناقلة غالبية السكان. لا يختلف الرباطاب كثيرا عن هذه القبائل المذكورة في العادات والاحتفالات، بيد أنهم يختلفون في «الشخصية» (character) وطريقة الحياة (way of life) مع بعض الخشونة والفظاظة (roughness) والبساطة (simplicity) التي تشابه ما هو معروف تاريخياً عن العرب.

كان الشيخ الرباطابي في نحو الخمسين من العمر، وله أكثر من زوجة، وعدد كبير من الأطفال، وهو بهذه الخواص لابد أن يكون صاحب معرفة عميقة وخبرة شخصية بكثير من العادات والاحتفالات التي وصفها. لقد قمت بالطبع بقدر ما أستطيع بفحص كل ما أتى به الشيخ الرباطابي لتفادى الأخطاء والمبالغات، بيد أنني متأكد من حكمة وذكاء ذلك الشيخ وصحة ما أتى به. لقد وصف مباشرة – بطريقة غريزية- أساسيات العادات والاحتفالات عند أفراد قبيلته، وفعل ذلك بحس فكاهي وباختصار غير مخل (وغير معتاد عند السودانيين عموما). أعجبني

شخصيا عرض الشيخ لآرائه الناقدة لأمور عامة، ولبعض ممارسات القبيلة. تعطي مثل هذه اللمسات الشخصية لما ذكره الشيخ الرباطابي حميمية يفتقدها المرء في كتابات الدارسين لعلم الإنسان (الأنثروبلوجيا).

إن الثقافة القبلية التي يصفها ذلك الشيخ الرباطابي، مثلها مثل الثقافات في الدول الأخرى، هي، بدرجة تقل أو تكثر، مجموعة من العادات المترابطة التي نمت بواسطة استيعاب عدد كبير من العوامل المختلفة. سيكون من المفيد دراسةبعض تلك العوامل المتباينة، ورصد مصادرها وأصولها، وترتيبها في تسلسل زمني محدد. لكني سأكتفي هنا بهذه الدراسة الوصفية، وأترك الدراسة الفكرية المعمقة في هذا الجانب لوقت آخر.

١- الصفات العامة

على الرغم من أن منطقة الرباطاب منطقة بالغة الفقر، وتصعب فيها الحياة، إلا أن أهلها يعشقونها ولا يرضون بها بديلا، بل ويسخرون أشد السخرية، ويهجون من يهاجرون منها، ولا يتخلون عن لهجتهم حتى عندما تضطرهم الظروف للعيش بعيدا عنها. هم قوم بسطاء متقشفون، لا يسرفون في المطعم أوالمشرب أو الملبس، ويؤثرون ادخار القرش الأبيض لليوم الأسود على الصرف البذخي. ينطبق المثل القائل «أبيض جناح، أسود مراح» على أي شخص سوى الرباطابي. يتوقع الرباطابي أن يسير الابن على خطا أبيه، وأن يمتهن نفس حرفته، وأن يحافظ على عادات وتقاليد أهله. نساؤهم لا يتحجبن، ويدخلن على منازل جيرانهن دون استئذان، وهن في حالة لوم وعتاب وتوبيخ دائم لرفيقاتهن، وقلما تلتقي نساء إحدى العائلات مع نساء أخريات في حفل عرس أو مأتم دون تبادل سيل من اللوم والتقريع. وكثيرا ما تحسم مثل هذه المنازعات عن طريق صديقة مشتركة تقوم بدور الوسيط النزيه والحكم العدل. يقوم الجانب المخطئ بتقديم «هدية» للجانب المتضرر، ولا يعد قبول مثل هذه تلك الهدية أمرا معيبا في حق مقدمتها. يمكن أيضا للجانب المتضرر أن يقطع كل علاقة له بالجانب المخطئ، دون قبول هديته. لا تمارس هذه العادة عند القبائل الأخرى كثيرا، ولعل الرباطاب قد أخذوا هذه العادة من البشاريين.

يتميز أفراد القبيلة بالحسد والغيرة من بعضهم البعض، وتفشو هذه العادة عند كبرائهم من شيوخ ورجال دين وقادة. لا توجد عند الرباطاب العادات الذميمة المخالفة للطبيعة، ويندر جدا حدوث حالات خيانات زوجية، كما تندر أيضا حالات السكر أو التدخين. لا يقدمون عادة لضيوفهم الكثير من أنواع التسلية. يعدون السرقة أسوأ الجرائم، ويكنون أشد الاحتقار للسارق. وعلى وجه العموم لا يقوم الرباطاب بتقسيم ميراث الميت، بل يدعونه ملكا جماعيا لكل الوارثين. للرباطاب غرام خاص بعلم الأنساب، ويحرصون على تحفيظ أبنائهم أنسابهم، ويحرصون على التفريق بين الرباطاب «الأصليين» وبين غيرهم من «الأغراب» حتى وإن عاشوا بين ظهرانيهم دهرا طويلا. نادرا ما يحتفظ الرباطاب بمحظيات، وهم يكنون أشد الاحتقار لذرية النساء من رقيقهم.

يتميز الرباطاب على وجه العموم بالذكاء، وهم مشهورون بحضور البديهة، وبراعة الإجابة وسرعتها. يتميزون أيضا بحدة الطبع و سرعة الغضب، ويؤثرون الانتقام على الغفران. يفتخر الرباطاب – رجالا ونساء- بتحمل الجلد بالسياط، والكي بالنار. إنهم قوم يحبون الألعاب والتمارين الرياضية خاصة المصارعة والسباحة. يجيد كل الرجال الرباطاب، وغالب نسائهم السباحة، ويحتقرون من لا يجيدها. يحبون ويجيدون نظم وإلقاء الشعر في مدح وهجاء بعضهم البعض. يقتصر تعليم أطفال الرباطاب من عوائل دينية على المدارس الدينية (الخلاوي)، بينما يذهب بقية

الأطفال للعمل بالزراعة. ما أن يبلغ الطفل عندهم الرابعة من عمره حتى يكون بإمكانه إطعام الأبقار، وفي الخامسة يرعى الغنم، وفي العاشرة يمكنه أن يملأ حمولة كاملة من الروث (السماد الطبيعي) على ظهر حمار، وأن يسوق الساقية. بعد عمر العاشرة يمكن للصبي الرباطابي أن يعمل كعامل في أي مجال. يزدري الصبي أخته حتى وإن كانت أكبر منه سنا. عندما يحي رجل امرأة في الطريق فهي تقبل يده (في احترام) وتخلع نعليها، ويمكن للرجل أن يرد التحية بتقبيل جبهتها.

تقع إدارة البيت والعائلة بالكامل على الزوجة، ويجب على الزوج استشارتها قبل التصرف بالبيع في أي من مقتنيات البيت، وتحمل نزواتها. وإن تمادت الزوجة في الإساءة له، فيجب عليه مقابلة كل ذلك بالرضاء والابتسام، ولن يلومه أحد على ذلك (بخلاف حالة الإساءة من رجل آخر، حيث ينبغي عليه رد الإساءة بمثلها). يمنع الرجل منعا باتا من ضرب زوجته مهما فعلت، ولكن بمقدوره أن يشكوها لأبيها أو وليها، والذي له حق ضربها وتأديبها، وقد تفتخر المرأة بذلك. إما إن ضربها الزوج بنفسه، فإن ذلك سيثير غضبها وغضب أهلها، وقد يطالبون بتعويضات عن الضرر الذي وقع على ابنتهم. تتوقع المرأة الرباطابية أن تشارك زوجها — وعلى قدم المساواة- في كل ما يخص حياتهما المشتركة، ولكنها تحرص على عدم إبداء أي شعور ظاهر بالحب له (حتى في خلوتهما) أو العطف عليه عند مرضه، أو الحزن على فراقه عندما يسافر بعيدا عنها، أو حتى عندما يطلقها، ويعد الرباطاب نحيب المرأة على زوجها المتوفى على مشهد من الناس أمرا مخزيا. يسمح للمرأة بالسفر (إما بالبر، أو سباحة في النهر) في صحبة الرجال إن كان هنالك ما يستدعي سفرها، وقد تسافر لتنوب عن زوجها في أداء واجب العزاء في من مات.

قد تحاكم المرأة المتهمة بالخيانة الزوجية بما يعرف بالمحاكمة بالتعذيب (ordeal) كما يلي: يحمى فأس على نار مشتعلة حتى يحمر، ثم يوضع على يدي المتهمة، ويفترض أن تحرك المتهمة الفأس من يد إلى أخرى، وأن تريها جميع المراقبين للمشهد. إن لم تترك الفأس المحمرة أي أثر على يدي المرأة، فستثبت براءتها. أما إن تركت الفأس أثرا، فإنها ستدان، وسيقوم وليها بقتلها سرا (وقد يكون هذا «الولي» امرأة أخرى). يحدثنا التاريخ بأنه حدث أن قتلت امرأة أختها المدانة بما ذكرنا.

تشابه زينة المرأة الرباطابية ومجوهراتها المرأة البشارية، بيد أن الرباطابية لا تسرح شعرها بذات الطريقة. وعلى وجه العموم لا تسرف المرأة الرباطابية في الزينة أو مظاهر التغنج.

من الحرف التي يجيدها الرباطاب، صناعة وطلاء البروش والحصائر والسلال من أغصان شجر الدوم، ونسج الحبال، وبيع الدوم وأغصان الدوم. يعمل الرباطاب المهاجرون في صناعة الأطواف (ply rafts)، وقد برعوا فيها مثل ما برع الشايقية في بناء بيوت الطين، والدناقلة في صناعة المراكب.

الأولياء الصالحون عند الرباطاب

لكل قبيلة أو عشيرة أولياؤها الصالحون الذين تقدم عند قبابهم الهدايا والنذور في المناسبات، مثل مناسبة الختان، والتي تحلق فيها رؤوس الأطفال. ويخشى الناس من تأخير تقديم هذه الهدايا حتى لا يضاروا أو يلاقوا حتفهم. يؤمن الرباطاب أيضا بأن الهدايا والنذور والقرابين التي يضعونها على قبور الصالحين تصل إليهم في قبورهم، بل ويأكلونها! وأن من يمس هذه الهدايا والقرابين أو يأكلها سوف يصاب بضرر عظيم على الفور. كما أنهم

يؤمنون أشـد الإيمان بأن التقاليد والمقولات الدينية القديمة التي آمنت بها الأجيال المتعاقبة هي عين الصـواب، وأنها أبدية لا يجب أن تغير، ويتحتم عليهم الإيمان بها دون سؤال.

تتلى باسـتمرار قصـص (خرافية لا تصـدق) لكثير من الأولياء الصـالحين، ويتهم كل من يبدي أي قدر من الاعتراض أو النقد لهذه القصـص في دينه أو خلقه أو عقله. يؤمنون على سـبيل المثال في أربعة أخوة من «الأولياء الصـالحين» يسـمون «أولاد البوش» بنوا مسـجدا في جزيرة «أرتو لي» له سـقف يقف على أعمدة أتى بها هؤلاء الصالحون من الصين، كل عامود منها نحت من صخرة واحدة دائرية، تشبه الرخام. تمضي القصة بالقول إن ثلاثة من أولئك الإخوة طاروا من الصـين عائدين للوطن ومعهم الصـخور، وتركوا أخاهم الأصـغر هناك. ضـحكوا منه سـاخرين، فأثار ذلك غيظه فرمى بصـخرته وهشـمهما. بقي عليه أن يعود مرة أخرى للصـين ويأتي بصـخرة أخرى بديلة، فقام بإحضار صخرة أخرى مختلفة في الشكل واللون. يؤمن الرباطاب بأن هذه الأعمدة مغرو سة في الأرض لبعد لا يعلمه أحد من العالمين، ويزعمون بأن لهذا المسجد ٩٩ نافذة لا تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ من أيها، وأن بقايا العامود المكسور لا يزال موجودا يتبرك به الزوار. يحلف كثير من الرباطاب بهؤلاء الأولياء الصالحين.

إن رغب أحد الرباطاب في زيارة قبر أولياء من الصـالحين المدفونين في مكان واحد وتقديم هدية ونذر لهم جميعا، فهو يقوم بوضـع ما أتى به في جرة موضـوعة خصـيصـاً لهذه الغرض اسـمها «اللامة». يزور أضـرحة هؤلاء الأولياء الرجال والنساء الذين لم يرزقوا بأطفال، والعذارى اللواتي يرغبن في الزواج، فيعقدن أطراف «رحاطتتهن» في الأعلام المنصوبة حول الأضرحة. يؤمن الجميع هنا بأن من يتمسح بهذه الأضرحة وأعلامها، فسيتحقق مراده، ولن يصيبه مكروه. كل من يرتكب ذنبا يهرع للأضرحة، فيغفر له ذنبه، بيد أنه يظل موصوفا بالجبن من بقية أفراد العشيرة للذنب المشـين الذي ارتكبه. كثيرا ما يؤتى بالمجانين للأضـرحة طلبا للعلاج، إما ببركات الأولياء الموتى، أو ببركات من يقوم على رعاية الأضـرحة من الشـيوخ والأتباع، والذي عادة ما يقرأ أحدهم على المريض بعض الآيات والتعاويذ، أو يجلده بسوط عنج، ويمنع عنه الطعام الطيب (أو أي طعام، في بعض الحالات) لأيام عديدة.

يؤمن الناس هنا أيضا في «بنات الجن» ويسمين «الحور»، وهؤلاء يعشن في النهر، ولهن وجوه بيضاء و شعور طويلة تتهدل على الكتفين. أحيانا تنسل الحورية من النهر، ولا يراها أحد سوى من تجره خلفها لعرض النهر. يسمع من كان حول المخطوف صـراخه وطلبه للعون، ولا أحد يقدر على جذبه لليابسـة، وقد تكسـر ذراعه إن حاول الإمساك بجذع شجرة ملقاة على شاطئ النهر. يزعم الأهالي أن هنالك من آبوا للبلدة بعد سنوات من خطف حورية ما لهم، وأخبروا الناس أن للحور بيوتا وقرى تحت النيل، وان هنالك عددا من رجال الرباطاب الأحياء من الذين خطفوا وعادوا لأهاليهم بعد سنوات.

يزعم الرباطاب أن «الشريف» (أي من نسل الرسول الكريم) لا تحرقه النار، ويزعمون أيضا أن هنالك شريفيا من الرباطاب يمكنه أن يستل إبرة موضوعة داخل إناء عميق فيه ماء يغلي، وأن هنالك من الأشراف من يطبخون اللحم على أيديهم العارية. قيل أيضـا أن الولي بإمكانه بلع لحم وعظم عدوه. فهنالك الفكي سـليمان بلاع الرجال، والفكي العجال (؟) الذين أمرا برنيقا (فرس النهر أو قرنتية في العامية. المترجم) بالخروج من النهر، وأن يقوم مقام الثور في سياقة الساقية. رفض البرنيق أن يفعل ما أمر به، فضربه الفكي بسيف خشب مقداره ذراع واحد كان يحمله، فبدأ العمل على الفور.



عادات واحتفالات الرباطاب

١ - تحضيرات الزواج: يتوقع عادة عند الرباطاب أن تتزوج الفتاة من ابن عمها، بغض النظر عن الفارق في السن أو الثراء بينهما، و ستتعرض الفتاة للضرب إن أبدت أدنى اعتراض على هذا الترتيب العائلي. وقد يفعل ذلك الشيء للفتي الذي يرفض الزواج من بنت عمه. من العادات المتبعة عندهم أن تتزوج المرأة التي يتوفى زوجها، أقرب الأقربين للزوج، حتى وإن كان صغير السن، فينبغي عليها الانتظار حتى يبلغ مبلغ الرجال ويتزوجها. إن لم تفعل فستفقد كل حق لها في تركة الرجل، وفي أطفالها. في غير ذلك، يختار الرجل عادة زوجة يتميز أهلها بالثراء أو الحسب والنسب، أو بحسن التربية.

عادة ما تتم الخطبة في البدء بلقاء الأبوين دون مشاورة الوالدتين. بعد ذلك يخبر والد الفتاة أمها. وإن كان الخاطب هو ابن أخيه، فلا داعي لانتظار موافقة الأم، بيد أن موافقتها ضرورية إن كان الخاطب غريبا. عند إعلان الخطبة، تمتنع الفتاة المخطوبة عن تناول الطعام مع والد عريسها المقبل، أو مقابلته، وتبتعد المخطوبة تماما عن خطيبها، والذي يجب عليه أن يرسل لها الملابس وبعض المال، وأن يؤدي كثيرا من الخدمات لأهلها، دون أن يكون له الحق في استرداد ما دفعه إن غير رأيه لاحقا في ذلك الزواج.

يجب على والد العريس تدبير أمر المهر والطُعْمة (ربما كان هذا مصطلحا طقوسيا رباطابيا قديما، ولعله يعادل «فتحة الخشم» او «قولة خير» عند غيرهم) . يتكون المهر من عدد من أشجار النخيل، وأرض زراعية تكون ملكا للزوجين، دون أن تكون تلك الأرض مما سيرثه العريس من أبيه لاحقا. أما الطُعْمة فهي مبلغ من المال يتفق عليه يعطيه والد العريس لوالد العروس حتى يشتري لها ما يلزمها من أغراض وملابس وحلي، وله أن يحتفظ ببعض ذلك المال لنفسه إن كان محتاجا، دون أن يعير بذلك العمل. لم يكن استعمال النقود شائعا فيما مضى، وكانت العملة المستعملة هي قطع من القماش القطني (الدمور).

٢ - **الزفاف**: يتميز حفل الزفاف بالرقص المصاحب للأغاني والطبول والتصفيق. يقف (أو يجلس) الرجال والنساء في صفين متقابلين تحت ظل الأشجار (في النهار)، وفي فضاء واسع (في الليل). يصفق الجميع ويخبطون بأرجلهم في إيقاع وتواتر معين مع أنغام الربابة. يدعو أحدهم امرأة بالاسم لتتقدم في الساحة ووجهها ورأسها مكشوفين، وتبدأ في الرقص بتحريك رأسها وصدرها في تناغم واتزان مع صوت الموسيقى والتصفيق. بعد نحو ربع ساعة من الرقص تعود المرأة من حيث أتت لتجلس مع صويحباتها دون أن يكون أحد من الرجال قد مسها. يسمح عادة للغرباء أن يشاهدوا الرقص، دون أن يشاركوا فيه. تستخدم الدلوكة في «السيرة»، وهي مسيرة موكب العريس من قريته (أو بيت أهله) لبيت العروس. يلاقي صبية وصبيات أهل العروس موكب أهل العريس قبل وصوله لدار العروس ويدخلون معهم في تحد و«معركة وهمية» يشاهدها الأهل وهم يبتسمون في رضاء وحبور. إن حدثت من هذه المعركة الوهمية بعض الإصابات، فإنها لا تسبب في أي مشاكل، ولا يطالب أحد بأي تعويضات مما قد يحدث له/ لها من إصابات (علمت من أحدهم أنه في جنوب هذه المنطقة تحدث بعض الاحتكاكات العنيفة في «السيرة» بين أهل العريس وأهل العروس، وقد تؤدي لإصابات خطيرة).

قبل «السيرة» يكون الجرتق (أو «الدهبة» عند الرباطاب، أو «الحنة» عند آخرين) وهي دعوة للطعام يدعو لها والد العريس. يوضع عنقريب ضخم مفروش بأجمل الفرش في وسط الحوش، ويجلس عليه العريس، حيث تقوم مغنية بترديد أغاني تمجد العريس وأباه وأهله (ولا يمكنها المبالغة هنا، فهي مراقبة بالسامعين الناقدين، والذين قد

يقاطعونها، وقد يغادروا المكان محتجين إن تمادت في المبالغة في المدح). تسمى هذه الأغنية المادحة «السومار» (وتسمى «البنينة» في أماكن أخرى). وأثناء أداء المغنية، يحضر أهل العريس عقدا من حبات «السوميت» (تسمى الكنار)، وسوارا مصنوع من ذات الحبات وأنواع أخرى من الخرز المصنوع من مواد مختلفة (سجل الكاتب في الهامش نبذة تاريخية قصيرة عن استعمال الأسورة والعقود في السودان ومصر وأثيوبيا منذ العهود الضاربة في القدم). تو ضع هذه الأ شياء على العريس مع انطلاق الزغاريد، والتي يتردد صداها في المكان. بعد ذلك يقدم الـ ضيوف من الرجال هداياهم المالية لوالد العريس، وتفعل النساء ذات الشيء لوالدة العريس. توضع هذه المبالغ المهداة في صحن كبير في و سط الدار، وكلما و ضع أحدهم في الصحن شيئا، أعلن ذلك القيم على الحفل بصوت عال، وتتعالى الزغاريد، ويعرض الرجال بالسيوف فرحين.

بعد «السيرة» يقام في منزل العروس حفل عشاء يتكون أساسا من عجين ذرة مخمر (عصيدة أم مريسة؟ المترجم) وكـ سرة مع نوع من الـ شوربة (وتـ سمى كامل الوجبة «كلاكاب»). أما الوجهاء والكبراء فتقدم لهم الكـ سرة مع ملاح الباميا الناشفة (الويكة؟).

يتم عقد القران (أو عقد الحبل) حسب القانون الإسلامي (الشريعة)، ويقرأه بصوت عال فكي (رجل دين) للحصول على البركة. يقدم والد العريس ما اتفق عليه من مهر، ويعلن والد العروس ما سيعطيه لابنته منه (إن كان سيعطيها أي شيء!). بعد ذلك ينصرف غالب الضيوف لمنازلهم، ولا يبقى إلا أقرباء العريس لمدة ٥ -٧ أيام قادمة، يكونون خلالها ضيوفا على والد العروس. يحضر الضيوف طقوس «قطع الرحط»، وهو يعد أهم جزء في حفل الزواج، ولا يقام إلا للعروس العذراء. تأتي العروس مرتدية أفخر الثياب، وعليها «الرحط» المصنوع من قطع من الجلد، ينزعها العريس وهي ترقص أمامه واحدة بعد الأخرى، بينما أصوات الزغاريد تعلو وتعلو. لا يقام «قطع الرحط» عند الرباطاب أمام الرجال (ربما لأن رجال الرباطاب لا يجيدون الرقص (العرضة) إلا على أصوات الربابة). بعد «قطع الرحط» تبقى العروس مع والدتها لمدة أسبوع كامل. (سجل الكاتب هنا مقارنات مطولة عن العادات والتقاليد الخا صة بالزواج وما بعد قطع الرحط في مناطق مختلفة من الـ سودان). تقـ ضي بعد ذلك العروس ليلة مع عريسها، وليلة مع أمها بالتناوب، لمدة ٤٠ يوما متتالية. لا يجب أن تدع العروس جيرانها أو أقاربها يسمعونها تتحدث مع زوجها إطلاقا أثناء هذه الفترة. كذلك يجب على العريس عدم مغادرة البيت لأي سبب سوى للذهاب للخلاء، وليس خلال الساعة التي تسبق الشروق، أو تلك التي تعقب المغيب (ويسمون تلك الفترة «الحمارين»)، وهي الساعات التي يدقون فيها الطبول لطرد الجن. يتم تدليك العروس بالدهن طوال هذه الأيام الأربعين صباحا ومساء، وعندما تغادر العروس دارها بعد هذه الأيام الأربعين، تبدو ملابس العروس وكأنها كانت معطونة في الدهن السائل، ويمكن لرجل قوي أن «يعصر» هذه الملابس لتقطر دهنا كثيرا. يعد هذا دليل ثراء وكرم أسرة العروس. كذلك تبخر العروس صباح مساء بحطب الطلح حتى يتفسخ جلدها، وتبدو مصفرة (حتى وإن كانت سمراء). يتم أيضا وشم (أو«دق») شفة العروس السفلى ولثتها العليا حتى تبدو خضراء اللون. بعد الأربعين يوما تبدأ العروس في الحديث مع عريسها (ولن تسكت بعد ذلك إلى أن تلقى وجه الله. المترجم)، ولكن ليس قبل أن تنال «رضوة التكلم»، وهي «هدية» تعطي لها لتباشر الحديث مع زوجها. تعطي العروس هذه الهدية لوالدتها لتسمح لها ببدء الحديث مع الزوج. يمكن من بعد ذلك للعريس نظريا- أن يأخذ زوجته، ويستقل بحياته، ولكن عمليا تظل العروس في بيت أهلها لمدة عام تقريبا قبل أن تذهب مع زوجها.

٣- **واجبات الزوج وأهل زوجته**: ينبغي على المرأة أن تتحاشى – ما أمكنها ذلك- مقابلة زوج بنتها **أو** الاختلاط به في أي محفل اجتماعي أو في مركب أو في الطريق، وأن لا تتحدث عنه بسوء، أو تنشر بين الناس خبر أي مكروه يصيبه، بل على العكس، فهي تشيد به دوما أمام الناس، وتأمر بنتها بطاعته (مخافة أن يتزوج عليها، وهو أمر عند الرباطاب معيب، ويعادل الخيانة الزوجية). ينبغي أيضا على المرأة أيضا المساعدة في تربية عيال بنتها دون انتظار مقابل. من الناحية الأخرى يجب على الرجل أن يظهر لوالدة زوجه كامل الاحترام، وألا ينظر ا إليها في عينيها، ولا يحدثها إلا عبر وسيط، ولا يأكل معها أو مع أبيها من صحن واحد، وأن لا يركب دابة أمامها.

٤- **الحمل والولادة**: عندما تحبل المرأة، يجب على زوجها أن يعمل كامل جهده لإحضار جميع ما تشتهيه من طعام وعطور وغير ذلك، وإن تخلف عن تلبية أي من طلباتها (حتى وإن بدت غريبة)، فسيأتي الطفل وفي جسده شامة، أو قد تجهض المرأة، فيلام الرجل على إهماله لمطالب زوجته.

عند بدء الطلق، يعلق حبل من سقف البيت، وتبرك المرأة وهي ممسكة بالحبل، ويسندها من الجانبين امرأتان، بينما تجلس القابلة أمامها لتقوم بعملية التوليد. يجب على المرأة الرباطابية أن لا تصرخ أو تبدي الجزع، حتى وإن كانت تلك هي الولادة الأولى لها. بعد الولادة تحرص القابلة على دفن المشيمة «التبيعة» إما في حوش الدار أو قريبا منه. بعد الولادة مباشرة يقدم للمرأة كوب من السمن الصافي لتشربه، وترفع إلى عنقريب، حيث ستظل راقدة لمدة ٤٠ يوما كاملة. عند قطع سرة (صرة) المولود، يعطي الزوج القابلة هدية معتبرة، ويتحدث الناس بأن سرة المولود قد دفع فيها كذا وكذا. في صباح يوم الولادة ينحر خروف يسمى «الحرارة»، والقصد هو تمني أن تمتلئ بطن المرأة باللحم والدهن. يعطى للقابلة من الذبيحة الفخذ والرأس والجلد. تقام بعد ذلك وليمة طعام للنساء فقط، ومن المعيب أن يطعم الرجال من تلك الوليمة شيئا. لا يقرب الرجل من امرأته إلا بعد ٦٠ يوما من الولادة.

٥- **تسمية المولود وحلاقة شعره:** عند بلوغ المولود اليوم السابع، يذبح كبش كبير، ولكن – وخلافا للتعاليم الدينية- لا يوزع الرباطاب لحم ذلك الكبش على الجيران، بل يقيمون به مأدبة تشبه مأدبة العرس. عادة ما يطلق على المولود اسم شخص من العظماء، سواء من الأحياء أو الأموات، تيمنا به. إن كان ذلك الشخص من الأحياء، فيجب عليه أن يرسل هدية لائقة لوالد الطفل. إما إن كان حدوث الحمل بسبب دعاء من فكي أو دعوة من رجل صالح، فعادة ما يسمي المولود باسمه. لا يحلق شعر المولود حتى تدفع كل الهدايا والنذور للرجل الصالح أو الفكي. يعطى من يحلق شعر المولود رغيفا كبيرا، أو يعطى من لحم سخلة تذبح بهذه المناسبة. كثيرا ما يترك «قنبور» (أو عرف) من الشعر في منتصف رأس المولود، إلى أن تتم عملية دفع كامل «مستحقات» الفكي أو الرجل الصالح. ويسود الاعتقاد بأن المولود سيموت إن لم يترك هذا «القنبور».

يعالج الطبيب الشعبي الرباطابي آلام التسنين عند الطفل، إما بحفر اللثة أو بكي منطقة أسفل الظهر بالنار.

٦- **الشلوخ**: الشلوخ (وهي آثار قطع بالموسى على خدي الطفل). عند الرباطاب (والجعليين) تكون الشلوخ رأسية، ولكن شلوخ الرباطاب عادة ما تكون أعرض وأكثر تقاربا مما هو عند الجعليين. تعد الشلوخ العراض عند نساء الرباطاب مظهرا جماليا. دخلت حديثا (في أو قبل ١٩١٨م. المترجم) أشكال جديدة للشلوخ، مثل «سلم الشيخ الطيب»، وهي تشبه الحرف الإنجليزي اتش، أو مطارق ود بدر، وهي تشبه الحرف الإنجليزي تي، أو درب الطير (لرؤية أشكال الشلوخ المختلفة يكمن الإطلاع على كتاب البروفسور يوسف فضل المعنون: الشلوخ).

٧- **الختان**: يمارس الختان (الطهارة) عند الأولاد بين عمر ١٤ و١٦ عاما. يقام حفل ومأدبة في هذه المناسبة. يتوقع من الصبي الرباطابي أن يرفع رأسه عاليا، والطهار يقطع بالموسى غلفته (قلفته)، والجميع حوله يصيحون به« ابشر»، فيرد عليهم بالقول «أنا باشر». إن بدا عليه التأثر، أو طأطأ رأسه، أو لم يرد على «المبشرين» فسيعد جبانا، وسيلحق العار بنفسه وبعائلته وعشيرته أجمعين. بعد الطهارة يتناول سيفا ويهز به على من حوله. ينظف الجرح بعد ٣ أيام بالماء الحار، وقد ينثر عليه مسحوق من أوراق النخيل الجافة المحروقة. إن بدا من المختون أي أثر للألم من تلك العملية فسيعيره الأطفال لسنوات طويلة.

تختن البنات دون حفل أو ولائم، ويعاب على البنت إبداء أي مظهر للألم عند الختان.

٨- **الجنازات**: يبالغ الرباطاب في مظاهر الحزن على الميت، فتمزق النساء شعورهن ويشققن ملابسهن. ينبغي على من يزور بيت العزاء أو «الفراش» (والذي يستمر لثلاثة أيام) أن يظهر مظاهر الحزن الشديد على الميت، والبكاء بصوت عالي (وكأنه قريبه)، وإلا سيقاطع. تقدم كثير من النذور لروح الميت بعد يومين أو ثلاثة، إيمانا بأن ثوابها سيصل للميت. بعد أيام «الفراش» يتفرق الناس عائدين لمنازلهم، ويبقي الأقربون لتلقي العزاء ممن يأتي متأخرا، أو من مكان بعيد. يعد من العار أن تظهر الأرملة حزنها الشديد على زوجها المتوفى.

ككثير من العرب، يقدم الرباطاب هدايا ونذور من اللحم وأنواع الطعام الأخرى لروح الميت في أيام الخميس في كل رمضان.



مجاذيب الدامر

The Megadhib of El Damer

ف. لوريمير F. Lorimer

تقديم: هذه ترجمة مختصرة لمقتطفات قليلة من مقال نشر في العدد التاسع عشر من مجلة «السودان في رسائل ومدونات» الصادرة في عام ١٩٣٦م، للكاتب ف. لوريمير عن تاريخ المجاذيب في الدامر. بالطبع ليس من أغراض ترجمة هذا المقال (أو غيره) عن القبائل السودانية إذكاء روح قبيلة «عنصرية» بغيضة (من النوع الذي فشا هذه الأيام حتى في الأوراق الثبوتية الرسمية)، ولكن من أجل معرفة خصائص التنوع القبلي والإثني في البلاد، فالسودان يتكون بحسب أحد المصادر السودانية من ٥٧٠ قبيلة تنقسم إلى ٥٦ أو ٥٧ فئة إثنية على أساس الخصائص اللغوية والثقافية والاثنوجرافية؛ وتتحدث ١١٤ لغة مكتوبة ومنطوقة، ومن الضروري البحث في تاريخ وأصول كل هذه القبائل المتنوعة، فهي ينبغي أن تكون منبع قوة ومنعة، وليست سببا للفرقة والشتات.

يعد فرع المجاذيب واحدا من أكثر فروع قبيلة الجعليين شهرة، وذلك لما تميز به أفرادها من عظيم تدين، و شدة ورع، وسعة علم شرعي. انحدر من فرع قبيلة المجاذيب عدد مقدر من العلماء، مما أكسب ذلك الفرع احتراما ومهابة وهيبة، بل ظن البعض أن لديهم من خارق القدرات ما يجعلهم يلجؤون إليهم لكشف الحجب والأستار، وفك عقد السحر، والتداوي بالقرآن والرقية الشرعية، ومعرفة ما استغلق عليهم من أمور غيبية عديدة.

لا يختلف تاريخ المجاذيب عن تاريخ بقية قبيلة الجعليين ككل. تسلل المجاذيب لداخل البلاد من الشمال والشرق مع غزو العرب للسودان (هكذا! المترجم)، واستقروا في وادي النيل. يعد المجاذيب أنفسهم – كبقية فروع الجعليين- من نسل العباس عم الرسول (مباشرة).

ينحدر المجاذيب من جدهم الكبير «عبد العال بن عرمان»، وهو ابن دواب Duab بن غانم بن حمدان، والذي يعد كبير قبيلة الجعليين. ومن ذات الأصل انحدر الجندلاب والكبوشاب والراشداب والتابراب والبدواب والحمداب والرزقلاب والزاكياب والعوازم والعامراب والجباراب والبرياب والحجراب والحسناب والحسبلاب والخليلاب والبلاب والقنديلاب والنقراب والقمردیناب واللميناب والبشراب والبرسياب والحريراب والبليلاب والفخرياب والمزيناب وغيرهم كثر.

ينتسب المجاذيب للفكي حمد بن محمد المجذوب (والذي يسمون باسمه)، ويبلغ عدد أفرادهم ٣٠٠٠ – ٤٠٠٠ ينتشرون في مختلف بقاع شمال السودان. استقر بعض هؤلاء في طوكر وبورتسودان و سواكن (حيث أقاموا مسجدا) وكسلا والقضارف واتبرا (عطبرة) والزيداب والدامر وما حولها من القرى. يسكن الآن نصف المجاذيب في الدامر وما حولها، وهي مركزهم وقصبتهم، ويعد ساكنوها هم نخبة المجاذيب وصفوتها، نسبة لوضع الدامر التاريخي المميز في تاريخ المجاذيب، و«البركة» التي يعتقد أنها حالة ومتأ صلة بها، وكذلك لنقاء أ صل من يسكنها. ينتسب للدامر كذلك المجاذيب الذين يسكنون على ضفاف نهر اتبرا والبحر الأحمر، إذ كان هؤلاء قد طردوا من ديارهم في الدامر من قبل إسماعيل باشا وجنوده في بدايات القرن التاسع عشر. ينتمي كثير من المجاذيب لطائفة

الأنصار، وغير قليل منهم يعدون من العلماء المشهورين، الذين تتلمذ على أيديهم مئات «الحيران» من الرشايدة، وهم من أتباع الطريقة الشاذلية في الجزيرة العربية.

عندما أتى العرب لأول مرة للسودان، استقر أسلاف المجاذيب في قرية تقع بالقرب من مدية الدامر الحالية كانت تسمي درو Darru،واسمها الحالي « الشعديناب»، وقد سميت على اسم شاع الدين، وهو أخ لعبد العال، والذي بقي هو وعائلته ونسله من بعده في القرية بعد أن هجرها غالب المجاذيب). عندما كان المجاذيب يسكنون في درو، كانوا يزورون با ستمرار ما يعرف الآن بالدامر من أجل أداء الصلوات، وقضاء بعض الواجبات الدينية الأخرى، ومن هنا جاء اسم «الدامر»، والتي غدت قصبة المجاذيب في السودان] لعل الصحيح هو ما جاء في موسوعة الويكبيديا من أن أصل تسمية (الدامر) يعود كما تقول الرواية الأشهر في المنطقة إلى أن الفقيه (حمد) كان قد تلقى علوم القران الكريم على يد والده (الفقيه عبد الله راجل درو- المدفون بقوز الشعديناب-) ومن عادة المشايخ أن يعطوا الإذن لمن يأنسوا فيه الكفاءة والقدرة على نشر العلوم التي اكتسبها بعد حفظ القران وتجويده بالرحيل إلى منطقة أخرى وإقامة (تقابة قرآن)- مدرسة لتعليم وتحفيظ القران الكريم وعلومه- فرحل (الفقيه حمد) عن والده واستقر في المنطقة الحالية والمقام عليها مسجد السهيلي الحالي، وفي الشعديناب ذهب أقرانه يسألون عليه شيخهم (والده الفقيه عبد الله) ويجيبهم بأن :(حمد دامر) أي (أن حمد استقر في المكان الذي ذهب إليه) فأصبحوا يتناقلون هذه العبارة فيما بينهم بصيغة (دامر حمد) بمعنى (استقر حمد) ولذلك فحمد هذا وكما يدعى: (حمد ضمين الدامر). المترجم[.

يرجح المؤرخون إلى أن حمد بن عبد الله هو مؤسس الدامر قبل ٤٥٠ عاما (كتب هذا الكلام في ١٩٣٦م. المترجم) في عهد مملكة الفونج. نشأ فيها سوق، قيل إنه حظي ببركات الشيخ حمد، وكان هذا سبب تقاطر العرب عليه من كل حدب وصوب. صارت المدينة محط أنظار الكثير من الناس، يزورنها طلبا للعلم والشفاء والبركة والفتاوى والتجارة ومختلف الحاجات. مع مرور سنوات ذلك العهد ازدهرت سمعة المجاذيب الدينية، وتقاطر علي مدينتهم (الدامر) المريدون، فكبرت المدينة وغدت مركزا تجاريا كبيرا وهاما. انتزعت الدامر أيضا إعجاب واحترام من مروا خلالها من الرحالة الغربيين، فكتبوا مشيدين بالمجاذيب ومدينتهم. كان لسمعتهم الممتازة جانبا عمليا أيضا، إذ كان سكان المدينة وزوارها أيضا يحترمون «قد سيتها»، فاختفت فيها الجريمة تماما أو كادت. ذكر بعض المؤرخين أنه بينما كان شائعا في تلك الأيام أن يقطع المجرمون والسراق طريق قوافل الحج، فلم يحدث أبدا أن هاجم هؤلاء قافلة واحدة إن علموا أن فيها واحدا من المجاذيب.

اشتهر المجاذيب كذلك بمسارعتهم بالتوسط في فض النزاعات التي تنشب بين القبائل المحيطة بهم، بل بلغ من احترام الفئات المتصارعة لشيوخ المجاذيب، أن الشيخ قد يرسل عكازه أو عصاه (كصولجان للمجاذيب) للفرقاء إن لم يتمكن لسبب ما من أن يحضر بنفسه، ويحترم المتصارعون ذلك الرمز للشيخ، وكأن الشيخ قد حضر بنفسه لفض النزاع (سبق أن ذكر في مقال سابق عن المك نمر أن شيوخ المجاذيب توسطوا بين الشكرية والجعليين في شندي، وقد كان الشكرية على و شك الانقضاض على شندي ومساواتها بالأرض، لولا نجاح و ساطة المجاذيب. المترجم).

زعم الرحالة بيركهاردت (المترجم) أن «عائلة» المجاذيب مشــهورة بقدرات خارقة للعادة، مثل اســتحضــار الأرواح، وكشف الغيب، وعمل «أعمال سحر» لا يمكن مقاومتها! فيلجأ مثلا من تعرض للسرقة للشيخ (أو حتى لفكي دونه في المرتبة) لمعرفة السارق ولاسترداد ما فقده، ويخشى الجميع قدرات الفكي اللامحدودة، فيسهل عليه السيطرة عليهم، ويجعلهم يؤمنون بقوة سحره.

يتبع المجاذيب على وجه العموم الطريقة الشاذلية، والتي دخلت عقيدتها وممارساتها للسودان عن طريق الشيخ حمد بن محمد المجذوب (١٦٩٣م – ١٧٧٦م)، والذي درس العلوم الشـرعية في مكة على يد سـيدي علي الديراوي الشاذلي إبان وجوده هنالك في الحج. يجب أن نتذكر أن طريقة والد الشيخ حمد كانت هي الطريقة القادرية.

توجد في الدامر وما حولها من القرى قباب لشـيوخ كثر، منهم «عرمان» في المكابراب، و«عبد العال» وجندل والحاج عيسى في الشعديناب، وكبوش (شقيق جندل) في الكبوشاب. وفي الدامر نفسها تجد قباب الشيخ حمد بن عبد الله، و الشـيخ حمد ابن محمد المجذوب، والشـيخ محمد المجذوب، والفكي عبد الله النقر، بينما دفن الفكي مدني والفكي أحمد في كسلا والقضارف، على التوالي.

يتميز المجاذيب بتلاحمهم وتوحدهم، وعدم ظهور أي انشقاق في صفوفهم، رغم الخلافات السياسية التي تطفو من حين لآخر. ولكن في عهد المهدية اختلف المجاذيب مع الحاكم لفترة وجيزة حول قيادة الجماعة، بيد أن ذلك الخلاف تم احتواؤه سريعا. أما قبل ذلك التاريخ، وعند غزو إسماعيل باشا للسودان عام ١٨٢٠م بعث حليفهم كبير الميرفاب (نصر الدين الصادق) من بربر بمبعوث للمجاذيب ينصحهم بتقديم الولاء لإسماعيل باشا حاكم البلاد الجديد. خشـي المجاذيب على دينهم وعقيدتهم وممارسـاتهم فرفضـوا تقديم البيعة لإسـماعيل باشـا بل وهددوا بمحاربته إن دخل مدينتهم.

تحرك إسماعيل باشا وجيشه من بربر إلى «المقرن» على نهر اتبرا حيث التقوا بالمجاذيب في «الكويب» (حيث بني كبري إتبرا الحالي). نشـب بين الفريقين قتال عنيف هلكت فيه أرواح كثيرة من الجانبين، ثم اسـتعان الجيش الغازي بمدد عظيم من الجنود اسـتطاع أن يلحق بالمجاذيب هزيمة ماحقة في معركة «أبو سـليم». تفرق بعض من تبقى من المجاذيب إلى أنحاء نهر إتبرا ، بينما توجه آخرون إلى البطانة. تعقبهم الأتراك، وأثخنوهم قتلا وأسـرا، وفر من نجا منهم إلى كسـلا والقضـارف. هجرت الدامر، ولم يعد إليها المجاذيب إلا بعد أن أصـدر محمد علي باشـا عفوا عاما عنهم. بقي بعض المجاذيب الذين هجروا بلادهم واستقروا في القضارف وكسلا في هاتين المدينتين، حيث لقوا كل احترام وتبجيل من أهاليهما.

عند وصـول غردون باشـا، قابله المجاذيب بالترحاب ومظاهر التأييد. رد غردون على التحية بمثلها فأصـدر أمرا بإعفاء الفكي أحمد بن جلال الدين من الضرائب والعشور، وأجرى عليه منحة سنوية قدرها عشرة جنيهات، وعشرة أرادب من العيش.

لم يرغب المجاذيب حقيقة في المشـاركة في الثورة المهدية، ولكن الظروف أجبرتهم على المشـاركة فيها. عينت المهدية خمسـة من رجال المجاذيب البارزين كأمراء في حكمها هم: أحمد بن جلال الدين، والحاج حامد، والفكي الطيب محمد، و مجدوب بن الفكي عبد الله النقر، وشيخ محمد مجدوب بن الشيخ الطاهر (شيخ طوكر). مثل

الشيخ البشير أمام الخليفة عبد الله التعايشي، وقدم له فروض الولاء والطاعة، وبايعه با سم كل المجاذيب. أوفى المجاذيب بتلك البيعة حتى بعد أن رفض الجعليون إطاعة أوامر الخليفة، مما دعاه لارتكاب مجزرة ضـــدهم بقيادة الأمير محمود ود أحمد التعايشي في المتمة في عام ١٨٩٧م.

قيل أن محمود ود أحمد، بعد أن فرغ من أمر الجعليين في المتمة توجه نحو الدامر ليســقي أهلها المجاذيب من ذات الكأس، بيد أنه حلم في منامه بحلم يثنيه عن ما كان يعتزم تنفيذه (لا ريب بفعل بركات شـيوخ المجاذيب!)، فتوجه نحو «النخيلة» حيث لقي الجيش البريطاني في معركة إتبرا، وهناك تلقى جيشه هزيمة ماحقة، وتم أسره.

بعد شـهور رسـت على ضـفاف النيل في الدامر بواخر نيلية كان على إحداها كتشـنر ووينجت وماكدونالاد وهنتر وســلاطين. قابل أهالي الدامر البواخر القادمة بفرح واســتبشــار، وقدموا لها كل ما كان بإمكانهم من عون. ظلت الصــداقة والإخلاص هي ديدن العلاقة بين المجاذيب والحكومة حتى يومنا هذا (١٩٣٦م. المترجم)، وقدمت الحكومة (البريطانية) للشيخ بشير أحمد جلال الدين كسوة شرف وو ساما من الطبقة الأولى، وكذلك لأخيه الأكبر الشيخ عبد الله النقر، والذي توفي في عام ١٩٣٥م.



محس العيلفون
هنري سي جاكسون

تقديم: نشر هذا المقال في العدد الثاني من «السودان في رسائل ومدونات» (والمطبوعة في المعهد الفرنسي لعلم الآثار الشـرقية بالقاهرة) في عام ١٩١٩م. والكاتب هو أحد رجال الإدارة في عهد الحكم الثنائي (البريطاني / المصـري)، وهو مؤلف كتاب شـهير قدم له هارولد ماكمايكل بعنوان : Behind the Modern Sudan وله كتاب آخر بعنوان Sudan Ways and Days

المترجم .

تستمد العيلفون (وتسمى أيضا «عيلة فونج»)، والتي تقع على الشاطئ الشرقي من النيل على نحو عشرين ميلا جنوب شرق الخرطوم، أهميتها من أنها مركز ديني هام لنشاط أحد كبار شيوخ السودان وهو الشيخ إدريس ود محمد الأرباب. تتكون العيلفون في الوقت الحالي (أي في أو قبل ١٩١٩م. المترجم) من نحو ٤٠٠ بيت من الطين، وخمس قباب فيها أضرحة شيوخ صالحين، وعدد سكانها ١٦٠٠ نسمة.

أنشـأ محمد الأرباب قرية العيلفون حوالي عام ١٥٠٠م، حيث لم يكن بذلك المكان غير ولده شـيخ إدريس، مع بعض أتباعه من المحس من دنقلا وأماكن أخرى من شـمال السـودان. تزايد عدد السـكان حتى وصـل للرقم الذي ذكرنا، وغدت قرية العيلفون واحدة من أكبر القرى على النيل الأزرق.

دفن كل واحد من سلالة محمد الأرباب في قباب العيلفون، وأهم هؤلاء النجمي حمد، و شيخ إدريس، ومضوي أبو شنب، وبركات المطرفي، وبركات أبو شريعة، وعبد الكافي وعركي الشيخ إدريس.

يتكون سكان العيلفون من قبيلة المحس (وهي من القبائل المعروفة في شمال السودان(، وتضم ثمانية أفرع هي بلاب، حسـيباب، نجماب، دهلاب، صـابحاب، وكافاب، وباركاب وإدريسـاب. ولهم جميعا أحفاد في مديرية النيل الأزرق. يعيش كل هؤلاء شـرق وغرب النيل الأزرق، ويمتون بصـلة القرابة لأعضـاء آخرين في القبيلة في الجيلي ومناطق الخرطوم بحري مثل الجريف و(الجزيرة) اسلانج وواويسي.

ليس لأي من هذه الأفرع أهمية معينة، غير أن الدهلاب يتميزون بأهمية خاصة، إذ أنهم يعتبرون مثالا يمكن مقارنته مع فرع قبيلة ينسب لا سم امرأة، هي زوجة فضل الله ود قرشي.كانت تلك المرأة في الأصل بنتا لإحدى النساء من رقيق (ومحظيات/ سريات) شيخ إدريس، وأعطيت كزوجة لفضل الله. اشتهرت تلك المرأة برجاحة العقل و شدة الفصاحة، وهما صفتان قلما تصلحان معا – للأسف- عند ذات الشخص. عند موتها نسب أولادها إليها .

وبا ستثناء الشيخ المشهور إدريس ود الأرباب (والذي سنعرض له لاحقا)، لم يترك أحد من أفراد القبيلة أي أثر يذكر في تاريخ القبيلة، إذ تميز أفراد هذه القبيلة بالجنوح إلى السـلم ونبذ الحرب، خلافا لجيرانهم الأشـاوس (في الأصـل «أكلة النار». المترجم) من قبائل البطاحين والشـكرية وحتى المسـلماب. اشـتهر – لأسـباب غير معلومة تماما- في تلك المنطقة شيخ يدعي شيخ المقابلي عمر، وقد عاش حتى وصل لسن الخامسة والتسعين، وشيخ آخر هو شيخ رحمة، من فرع الدهلاب اشتهر إبان حكم الفونج، إذ كان الحاكم المطلق على سكان منطقة الجزيرة. كان

شديد المراس، يقتل من يعصى أوامره، بل من يتباطأ في تنفيذها. كان يجمع العشور (أي عشر ما يحصده كل مزارع)، إضافة لعدد محدد من أثواب الدمور، وعدد معلوم من الخيول ليرسلها لسلطان الفونج في سنار. يبدو أن أعداد الخيول في منطقة الجزيرة وما حولها كانت في ذلك الوقت (أي قبل مئات السنوات) أكثر بكثير مما هي عليه اليوم (في أو قبل ١٩١٩م. المترجم). ويبدو أن الضرائب الباهظة التي كانت تفرض على الخيول والإبل كانت من أسباب تمرد العرب على مملكة المسيحيين (لعل المقصود مملكة سوبا المسيحية. المترجم) في نحو الخامس عشر ميلادي.

اشتهر شيخ رحمة بالشجاعة الفائقة، وبحسن قيادة قومه في الملمات، وكان كبار معاونيه من القادة يقيمون في الحاج ولد نمل والعزازي والعريجة وكلانج. وقد شارك في التمرد على سلطان الفونج، والذين خلفهم الهمج، وذلك في المعركة التي هزم فيها شيخ الأمين مسمار في قرية الهلالية في عام ١٧٨٤م. وبعد مرور عشرين عاما على تلك المعركة حارب الرجل الشيخ كمتور (وهو شيخ ما كان يعرف بخشم البحر، وأحد القلائل الذين ظلوا مخلصين لحكم الفونج حتى عند بدء أفول نجم حكمهم). لقب بالأرباب لشجاعته الفائقة، وهذا لقب يطلق على من يتولى حماية وقيادة شعبه.

كان محمد عبد القادر هو زعيم القبيلة وعمدتها، وكان جده «عبد الرحمن محمد» وكيل ناظر المنطقة الواقعة بين العيلفون و«أبو حراز»، بينما كان والده عبد القادر شيخ المنطقة الممتدة من العيلفون حتى «ود العباس» في مديرية سنار، وقد توفي في عام ١٨٨١م.

ظلت العائلة مخلصة لغردون إبان ثورة المهدي ضد الحكم التركي، إذ كان غردون صديقا لمعظم أفرادها. نشأت عدة صراعات في القبيلة فيما بعد لقرب سكنى القبيلة من عائلة الشيخ المشهور العبيد في أم ضبان (والتي عدل اسمها فيما بعد لتغدو أم ضوا بان. المترجم)، والتي كانت تناصر — وبقوة وإخلاص- المهدي. حاربت عائلة الشيخ العبيد تحت قيادته شخصيا وبرفقة الفكي مضوي، وعدد من أفراد قبيلة الحلاوين تحت قيادة محمد ود البشير قوات غردون وانتصرت عليها في ١٦ / ٣ / ١٨٨٤م. قيل أن سبب هزيمة جيش غردون كان مردها لخيانة قائده الضابط حسن با شا، مع سيد با شا حسين. تم لاحقا محاكمتهما في محكمة عسكرية قضت بإعدامها رميا بالرصاص. ولكن قام في ٣٠ أغسطس من ذات العام محمد علي با شا بالانتقام من الشيخ العبيد بهزيمته في الجريف والحلفاية، وكسب كثيرا من الغنائم (من الذرة والأبقار) في تلك المعركة. لم يدم نصر حكومة الترك زمنا طويلا، إذ ما أن حل يوم ٤/ ١٠/ ١٨٨٤م حتى هاجم جنود محمد علي باشا قوات الشيخ العبيد، وهزمتها وطاردتها حتى أم ضبان، حيث تعرضت قوات الأتراك لكمين نصبه لها الشيخ العبيد، قتل فيه القائد محمد علي باشا مع ٨٠٠ من جنوده.

ظل هنالك قدر من الاحتكاك بين العائلتين (عائلة الشيخ العبيد وعائلة محمد عبد القادر)، وزاد من حدة ذلك الاحتكاك الاختلاف المذهبي بين العائلتين. فقد كان الشيخ العبيد وعائلته يتبعون الطريقة الجيلانية، بينما يتبع أهل العيلفون الطريقة الختمية. كانت الاختلافات المذهبية تلك تجد طريقها للظهور في شكل اختلافات على ملكية الأرض. ظل المحس يتمسكون بملكية الأرض التي أقاموا عليها منذ ما يقرب من ٣٠٠ عام، بينما كان المسلميون يتمسكون بأرضهم «الجديدة» التي جاءوا لها منذ نحو ثلاثين عاما فقط.

تنبع أهمية العليفون الحقيقية من أن زوارها الكثر لقباب رجالها الصــالحين يتبعون طريقة الشــيخ الورع شــيخ إدريس ود محمد الأرباب، والذي ولد في عام ١٥٠٨م، وعمر حتى مات عن ١٤٧ عاما (بالحساب الهجري) في عام ١٦٥١م. درس هذا الولي (كما يعرفه أتباعه) العلوم الدينية على يد الشيخ البنداري، وهو شيخ مشهور مدفون الآن في وادي حلفا. تنبأ الشــيخ بمســتقبل عظيم لتلميذه النجيب شــيخ إدريس ود محمد الأرباب، وقد كان. أكمل شــيخ إدريس تعلمه للعلوم الدينية على يد شــيح حمد ود زروق، والذي علمه كثير من الأســرار التي تخفى على البشــر. يقال أيضا أن للشيخ القدرة على مخاطبة كل إنسان (غريب) بلغته، فقد أشيع أنه ملك قدرة معرفة اللغات.

قيل أن الشيخ إدريس زار بلاط ملوك الفونج ما لا يقل عن سبعين مرة خلال عمره الطويل. ومن ضمن القصص التي تروى عنه في أحد تلك الزيارات أنه صحب ذات مرة الشيخ بانقا للقاء ملك الفونج عمارة أبو سكاكن (والذي حكم بين عامي ١٥٥٥ – ١٥٦٥م). تصادف أن مرضت والدة الملك مرضا شديدا أثناء زيارة الشيخين، فطلب من الشــيخ بانقا أن يقرأ عليها شــيئا من القرآن طلبا للشــفاء .لم يســتجب جســد المرأة العليل لقراءة شــيخ بانقا، بيد أنها شفيت تماما عندما قرأ عليها الشيخ إدريس ود محمد الأرباب. تنبأ بعد تلك الحادثة شيخ بانقا لرفيق سفره بمستقبل عظيم. كان الملك قد خاطب الشيخ إدريس قائلا: « كنت في ما مضى جندياً من جنود الناس... ولكنك الآن جندي من جنود الله. أقسم بالله إن لم تشف والدتي، لأجعلن منك مرة أخري جندياً من جنود الناس»! لم يعر الشيخ إدريس تهديد الملك أي اعتبار، ومضــى يقرأ على والدة الملك ما تيســر له من آيات القرآن. ســر الملك أيما ســرور بشــفاء والدته، وبقدرة الشيخ إدريس، واتخذه صديقا يلجأ إليه عند الشدائد، وقيل أنه من فرط إعجابه به عرض عليه نصف ملكه. لم يقبل – بالطبع- شيخ إدريس بذلك العرض السخي، بل، على النقيض من ذلك، أقام في قريته أربعة ملاجئ يأوي فيها كل الخارجين عن سلطة الملك، ومن تطاردهم السلطات بسبب جرائم اتهموا بارتكابها. قد يسر العاملون علي بسط الأمن وحفظ النظام الآن عندما يعلموا أن تلك العادة لم تعد تمارس في البلاد!

من أعمال الشــيخ إدريس (الأكثر قانونية) هو تشــفعه للمحكومين والمدانين بأحكام قضــائية من أجل إطلاق ســراحهم أو تخفيف الحكم عنهم. وكغيره من أولياء الســودان الصــالحين، فقد كان الناس يعزون إليه القدرة على جلب المطر، رغم أن قدرات شيخ إدريس في هذا الجانب لا تسندها الوقائع. كان للشيخ عبد يسمى «مطر»، وأشيع أن الشيخ كان عندما ينادي عبده قائلا: «يا مطر» تهطل السماء! ولكنه عندما يقول الشيخ بأنه إنما كان ينادي على عبده «مطر» يتوقف هطول المطر على الفور !



نمر: ملك شندي الأخير

Nimir, the Last King of Shendi

E. A. Robinson اي روبنسون

هذا عرض مختصــر لمقال نشــر في العدد الخامس من مجلة «السـودان في رسـائل ومدونات» الصـادرة في عام ١٩٢٥م، للكاتب اي روبنسون عن تاريخ «نمر» مك شندي. . وبحسب الموقع الالكتروني http://www.sudanway.sd وفي «موسوعة السـودان الرقمية» فإن الملك نمر (؟ – ١٨٢٥م) هو ابن الملك محمد بن ادريس بن سليمان ابن سالم بن بشارة بن كمبلاوي بن الفحل بن عبدالسلام بن ادريس ابن سليمان المشـهور بالودار (العدار في رواية) بن الملك سعد أبو دبوس بن الملك محمد بن عدلان بن قصاص بن كرت بن هاطل بن ياطل بن ذي الكلاع الحميري. وقد تختلف هذه المعلومات عن تلك التي أورد الكاتب في مقالته الحالية. ومن المعلومات المدرسية المعروفة عن الملك نمر أنه كان قد نصب مكا في ١٨٠٢م وكان آخر ملوك الجعليين بشندي، وأنه هو الذي أحرق إسماعيل باشا بعد أن كان قد استسلم له في عام ١٨٢١م. سجل الكاتب في مقاله شجرة نسب الملك نمر ولخص تاريخ الحروب التي خاضها مع القبائل الأخرى، وعن استسلامه بادئ الأمر للجيش التركي الغازي، وعن أخذه، هو ومك المتمة كرهينتين إلى سنار مع الجيش التركي.

كاتب المقال هو إي روبنسون، الإداري البريطاني في حكومة السـودان، وهو مؤرخ هاوي يكتب في جوانب مختلفة من تاريخ السودان. اعتمد الكاتب في مقاله على عدد من الكتب التاريخية، جلها كتب مذكرات رحالة غربيين زاروا السـودان ومصر والحبشة في أو قبل فترة حكم الملك نمر، وعلى ما ورد في كتب شهيرة، مثل كتاب «تاريخ العرب في السودان» لماكمايكل. كذلك استمع الكاتب لشهادات أحفاد الملك نمر، مثل شيخ حسن نمر، وأحمد ود نمر، وأعيان شندي، مثل شيخ أحمد المرضي، قاضي شندي، و شيخ إبراهيم الحاج فرح، وعدد من شيوخ قبيلة الجوامعة.

لا أهدف من نشر هذا المقال عن الملك نمر إلا إلى تبيان ما يحاول البعض التغطية عليه من تاريخنا الدموي، وثاراتنا القبلية القديمة، ومن محاولة تصوير العلاقات القبلية والإثنية في البلاد وكأنها كانت « سمنا على عسل»، وأن الحروب الحالية أمر طارئ، و«الاستعانة بالأجنبي» ما هي إلا «حالة مستحدثة»، وأن علينا الآن أن نعيد تلك العلاقات «سيرتها الأولى»، وهل كانت« سيرتها الأولى» إلا حروبا ودماء؟ أظن أن علينا قبل نسيان أو تناسي الماضي أن نعترف به، وأن نشرح أسبابه ونوازعه، وأن ندرك أن غالب مشاكلنا الراهنة لها جذور تاريخية، وأن علينا نأخذ منها الدروس والعبر، وأن نعلم أن الجرح لا يبرأ على صديد كما تقول العرب.

لعل الملك نمر، آخر ملوك الجعليين، هو واحد من أهم الشخصيات المتميزة التي عاشت في السودان خلال فترة الاحتلال التركي للسـودان، والذي كان حكمه مثالا نموذجيا لانعدام اللباقة والدبلوماسية تجاه عرب السـودان المهزومين.

يقال إن سلالة ملوك الجعليين (والتي كان المك نمر آخرها) بدأت مع «سعد أبو دبوس» في حوالي القرن السادس عشر، في خضم خلافات عميقة وصراعات دموية بين العرب الذين كانوا يقطنون منطقة شمال الخرطوم.

المك نمر هو ابن المك محمد ود نمر ود المك عبد السـلام (مك شـندي)، ووالدته من عائلة ود عجيب. يعد المك عبد السلام هو الرابع في ترتيب ملوك الجعليين. تزوج المك نمر الكبير (جد المك نمر الذي نكتب عنه الآن) بنت برة (بضـم الباء) وهي بنت المك إدريس (حفيد المك عبد السـلام)، وبنت برة هذه هي أخت المك سـعد ود إدريس، أحد تابعي «رجب» وزير الهمج. قتل الوزير الهمجي «رجب» والفكي محمد مجذوب في معركة مع «عدلان» سـلطان سـنار في ترس Taras في عام ١٧٨٧م. شـهد سـعد ود إدريس تلك المعركة ولكنه لم يقتل فيها، وعاش بقية حياته مع الهمج إلى أن توفي.

لم يكن المك نمر الكبير ملكا على الجعليين، ولم يعش في شـندي قط. كان رجلا ثريا، وكبيرا لفرع من النافعاب. كان لهذا الفرع (خشم البيت) صلة قوية بنافعاب أبو دليق. لم يكن المك ود سعد ود إدريس في شندي (صهر المك نمر الكبير) أكبر أبناء المك إدريس، ولكن تصادف أن كان وريث الملك الشرعي (واسمه الفحل) قد توفي قبل أن يرث الملك. عند وفاة المك إدريس كان إدريس ود الفحل طفلا صـغيرا، لذا نصـب أحد وزراء الهمج عمه سـعد كمك.

كانت والدة إدريس ود الفحل أختا لمحمد الأمين ود عجيب، وكان بروس (المقصود هو الرحالة الأسكتلندي جيمس بروس والذي عاش بين ١٧٣٠ و ١٧٩٤م. المترجم) قد قابل ثلاثتهم في عام ١٧٧٢م أثناء رحلته الاستكشافية الشهيرة من مصر إلى سنار. عقب احتلال الهمج بقيادة نصر ود أبو لكيلك لسنار في عام ١٧٨٩م، فر كثير من جنود حاكمها السلطان عدلان، وكان من بين الفارين محارب شرس هو محمد الخامس الشهير بأبي ريدة Abu Rida (أم هي ابو رضـا؟ المترجم) الدارفوري الأصـل. قيل إنه كان من المسـترقين، ولكن الراجح إنه كان ضابطا في الكتيبة السوداء لسلاح فرسان السلطان عدلان.

كون أبو ريدة (ويعرف أيضا بالطريفي) جيشا من تلك الكتيبة السوداء قوامه ٥٠٠ جنديا من الفارين من جيش عدلان، وكانوا جماعة متمردة تبث الرعب والإرهاب حيث ذهبت، وتعمل كمرتزقة لمن يدفع أكثر، وتخصـصـت في قطع الطرق على المسـافرين على طرق النيل الأزرق وغيرها. من ضـحايا تلك الفرقة المتمردة كان العبدلابي عبد القادر ود مسمار الشهير بود عجيب.

كان محمد ود نمر حليفا للفونج، وارتبط (مثله مثل أبي ريدة) معهم برابطة نسـب. تآمر هؤلاء على عزل المك سعد ود إدريس من ملك الجعليين في شندي. وعد محمد ود نمر أبا ريدة ستين أوقية من الذهب الخالص إن نجح في عزل الملك سعد عن عرشه. انتهز المرتزقة غياب المك سعد عن شندي (إذ كان في زيارة لسنار) فهاجموا المدينة ومعهم جنود من النمراب، وقتلوا إدريس ود الفضل (وصي عرش المك سعد ود إدريس) وفر غالب السعداب إلى المتمة (غرب شندي). دان حكم الجعليين في شندي إلى محمد ود نمر وذلك في حوالي عام ١٧٩٠م. عاد المك سعد إلى المتمة قادما من سـنار، وبقي فيها مع ابنه مسـاعد. بعد ذلك نجح نصـر وزير الهمج (١٧٨٧ – ١٧٩٨م) ونائبه عدلان أبو لكيك في قتل أبي ريدة وتشتيت مجموعته المتمردة في عام ١٧٩٦م.

في حوالي عام ١٧٩٠م تزوج الملك محمد ود سـعد فتاة من عائلة ود عجيب، وأنجب منها عددا من الأبناء. كان نمر يعد وريث عرش أبيه وعمره عشـرة أعوام في عام ١٧٩٥م (هل يمكن أن يكون هذا صـحيحا؟ المترجم). قام الملك سـعد حاكم المتمة بمحاولات عديدة لعزل الملك محمد ود سـعد في شـندي، ولكن باءت جميع تلك المحاولات بالفشل الذريع. في إحدى تلك المحاولات ا ستنجد الملك سعد بالهمج لعزل مك شندي، بيد أنه توفي قبل وصـول جيش الوزير إدريس لنجدته تحت قيادة أخيه عدلان في عام ١٧٩٩م. ولى كبير الهمج ناصـر ود الأمين على جبل قري خلفا لعبد الله. خلف الملك سعد في المتمة ابنه مساعد.

تقدم جيش الهمج بقيادة عدلان شمالا وعسكر في ود بانقا، وأرسل العيون لشندي لمعرفة إمكانية نجاح الهجوم عليها. أفاده جوا سيسه بأن الهجوم على شندي سيصد لا محالة، فالجعليين كانوا مستعدين للمقاومة، ويفوقون المهاجمين عددا وعتادا وعدة. هنا لجأ قائد الهمج لحيلة ماكرة، إذ بعث (بصورة منفصلة) برسالتين إلى كل من الملك محمد (في شـندي)، والملك مسـاعد ود سـعد (في المتمة)، ووعد كل منهما بالمسـاعدة في توحيد ملك الجعليين في شندي العاصمة تحت إمرته! كان الملك محمد متحالفا مع الفونج منذ سنين، ولكنه – ربما بسبب صغر سنه– قد نسـي ما قام به بين عامي ١٧٨٧ – ١٧٩٠م مع السـلطان عدلان ضـد الهمج. صـدق مكا شـندي والمتمة عرض الهمج، وانتقلا برفقة أقربائهم وتابعيهم ومسـتشـاريهم إلى معسـكر الهمج في واد بانقا. تخلف عن الوفد القادم من شندي سعد ود نمر، وهو الأخ غير الشقيق للملك محمد، فقد بقي في مأمن بعيد نسبيا عن معسكر الهمج لرعاية ابن أخيه المسمى نمر. قام الهمج باعتقال الملك محمد وجميع أفراد وفده، ووضعوهم جميعا في الأغلال. عندما علم سعد بذلك فر برفقة نمر (ابن الملك محمد) راجعا إلى شـندي، ومنها إلى أبو دليق، وبقي في حماية محمد ود أمين كبير النمراب.

عين الهمج الملك سعد كملك وحيد على الجعليين، وقبل سكان شندي بالوضع الجديد. فرغ الهمج من مهمتهم فعادوا لسنار ومعهم أسراهم من الجعليين. قضى الملك محمد (ومجموعة كبيرة من مرافقيه) في الطريق إلى سنار من الجوع والحرمان privation وأثقال القيود الثقيلة التي قيد بها. لم ينج من الأسـرى سـوى إدريس أخ الملك، والذي افتدته أمه بثلاثمائة وقية من الذهب. حز الهمج في سنار أعناق من وصلوا أحياء من الأسرى الجعليين.

عاش سعد والصبي نمر حينا من الدهر مع البطاحين، وكان حينها سعد هو الوصي على نمر، وغدا فيما بعد وزيره وقائدا لجيشه.

تزوج نمر فتاة من قبيلة البطاحين، ولكن زوجه (الأساسية/ الرئيسة) كانت «شماء» من قبيلة الشكرية، وهي بنت الفارس عمارة ود دكين، وقسـم من البطاحين يعد أحد فروعهم. أنجبت شـماء لنمر عددا من الأبناء منهم محمد (يسمى أيضا أحمد) وعمارة وعمر وخالد.

كان البطاحون يغيرون على مناطق الجعليين بصورة متكررة. ولكن في إحدى غزواتهم لنهب الأبقار قرب شندي نجح الملك مساعد في صدهم وإجبارهم على إرجاع ما نهبوه، بل ونجح في استخلاص تعويضات منهم على غزوهم لبلاده.

في تلك الأيام كان الجعليون قبيلة مستقرة على جانبي النيل يبلغ عدد أفرادها نحو ثلاثين ألف نسمة، وكانت شندي هي عاصمتهم، وعدد سكانها نحو ستة ألف فردا.

في فترة غياب جيش الهمج في كردفان في حوالي عام ١٨٠٢م قام النمراب والبطاحين بالهجوم على شندي. صدهم جيشها، فتراجعوا إلى واد يقال له «وادي العواليب Wadi El Awalib ». هنالك هاجمتهم قوات السعداب (أبناء عم المك مساعد) في معركة شهيرة سميت «معركة وادي العواليب». خسر الجانبان المتقاتلان عددا كبيرا من الأرواح، وانتهي الأمر بتقهقر السعداب إلى المتمة. توسط بين الفريقين علماء المجاذيب وشيوخ الدامر لوقف العدائيات، وتم عقد هدنة بين الطرفين ، تم بموجبها تقسيم مملكة الجعليين إلي قسمين. أعطيت المتمة وما جاورها إلى السعداب بقيادة المك المك مساعد، وأعطيت شندي وما حولها في الضفة الشرقية للنيل للمك نمر.

كانت الدامر مملكة مستقلة تحت إمرة شيوخ المجاذيب، وغدت لسنوات طويلة مركزا للتعليم ليس فقط للجعليين، بل أيضا للشايقية والحسانية وقبائل أخرى مختلفة. بقيت الدامر محايدة رغم غارات الشايقية على المنطقة التي كانت بغرض نهب الماشية وسبي النساء. كان أطفال الشايقية والجعليين وأطفال القبائل الأخرى (وبينها جميعا من العداوات ما بينها) يدرسون في خلاوي الدامر في تآلف وسلام، إلى أن يبلغوا مرحلة الشباب ويغدروا تلك المدينة المسالمة.

في عام ١٨٠٣م هاجم الشكرية والهدندوة قبيلتي البطاحين والخوالدة. طردت القبيلتان البطاحين (الذين وصفوهم بسراق البقر) إلى شمال وشرق البطانة.

توفي وزير الهمج إدريس ود أبو لكيلك في عام ١٨٠٤م، وخلفه ولده عدلان، والذي تم اغتياله خلال العام الذي تلى تنصيبه نتيجة لتحالف بين سلطان الفونج رانفي والكماتير ومجموعات عربية أخرى عملت ضد حكم الفونج. انشغل حكام الفونج وغيرهم بأنفسهم (وببعضهم البعض) وتركوا الجعليين في شندي لشأنهم.

هرب السلطان هاشم، سلطان المسبعات، شمالا بعد أن طرده الهمج من كردفان وأعدموا ولده عيساوي في سنار. زوج ذلك السلطان اثنين من بناته لاثنين من مكوك الشايقية، والذين لديهم مع الجعليين ثارات دموية. فيما بعد اتهم الرجل بالضلوع في مؤامرة دبرها مع أخوة للمك نمر، وتم اعتقاله وأعدمه المك نمر – مع ثلة من أنصاره- قبل عام ١٨١٣م.

في عام ١٨١٣م عبرت بعثة أرسلها محمد علي باشا لسنار مدينة شندي (أكانت للتمهيد لغزو السودان في ١٨٢١م؟ المترجم). وفي تلك الأيام كانت تنقل شهريا من شندي ٤٠٠ جملا إلى الحجاز لتستخدمها قوات محمد علي باشا في حربها ضد الحملة الوهابية. وفي تلك الأيام أيضا كان مك بربر(المك نصر الدين ود عدلان ابو حجل) يقود قافلة خيول إلى سواكن لتنقل عبر البحر إلى الحجاز. انتهز الجعليون بقيادة المك نمر ومساعد فرصة غياب مك بربر فغزوا تلك المدينة، ونهبوها، ونصبوا فيها علي ود تمساح كمك جديد.

حل خديوي مصر محمد علي باشا في جدة يوم ٢١ أغسطس من عام ١٨١٣م. وفي تلك الأيام وصلت لمك بربر، نصر الدين ود عدلان أبو حجل (وهو في سواكن) الأنباء عن غزو مدينته وعزله وتنصيب غيره مكا. سعى الرجل

لمقابلة محمد علي باشا، ووعده بأن يجعل من بربر إقطاعية لمصر، وأن يكون مكوك الميرفاب من تابعي سلطان تركيا، شريطة أن يساعده الخديوي على استرداد حكم بربر. رافق مك بربر، نصر الدين ود عدلان أبو حجل خديوي مصر في رحلة العودة للقاهرة، وبقي هنالك حتى عام ١٨٢٠م. كذلك كان في القاهرة في ذات الأيام عدد من المطالبين بعروش كردفان (مثل دبلو ود هاشم من المسبعات، وأبو مدين من دارفور) بعد أن سبق وتقدموا بعروض للتبعية لمصر مثلما فعل مك بربر.

في عام ١٨١٤م زار شندي الرحالة بيركهاردت وهو في طريقه عبر التاكا (كسلا) إلى الجزيرة العربية، حيث التقي بالخديوي محمد علي باشا. وصف بيركهاردت الملك نمر بأنه كان في تلك الأيام يرتدي طاقية من جلد النمر (مثل البوق القرني عند ملوك الفونج). استقر في منطقة شندي عدد من المماليك الذي فروا من المذابح في مصر. اتخذ المك نمر له نحو عشرين من الحراس الشخصيين من هؤلاء المماليك، بيد أنه من غير المرجح أن يكون واحد من هؤلاء الحراس قد اضطر إلى إطلاق رصاصة واحدة. كان نصر الدين هو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من أخوة المك نمر (لعل الكاتب يشير لعدم وجود تهديد حقيقي للمك نمر من قبل أقربائه. المترجم). عندما مرت بشندي بعثة الخديوي محمد علي باشا (في عام ١٨١٣م كما تقدم الذكر) أعلن رئيس البعثة عن قدومه بإطلاق طلقة من مدفع نحاسي صغير كان موضوعا على ظهر جمل. ما أن سمع الجميع طلقة المدفع (بما فيهم المماليك حراس المك) حتى ارتموا على الأرض جميعا. كان المك نمر يجمع ما يفوق الألف جنيه إسترليني سنويا كضرائب ومكوس على ما كان يمر على منطقته من قوافل تحمل البضائع والعبيد. كانت كل قوافل التجارة المتجهة والقادمة من مصر تمر عبر الصحراء إذ إن المماليك في «العرضي» بقيادة عبد الرحمن، كانوا ينهبون القوافل التي كانت تمر إلى دنقلا.

في عام ١٨١٨م قتل علي ود برير كبير البطاحين الشيخ حامد ود اب سن قرب الصافية، ثم هرب إلى شندي، واستنجد بالمك نمر، وبقي في شندي تحت حمايته. طالب الشكرية المك نمر بتسليمهم القاتل الهارب، ولكنه أبى، ولم يسمع لنصح عمه (ووزيره) سعد. رد الشكرية على هذا الرفض بتسيير جيش يرافق أفراده عائلاتهم، وعسكروا بالقرب من شندي. كانت مرافقة العائلات للجيش تعني في تقاليد السودانيين من العرب الرحل أن يقتل الرجل حتى آخر قطرة من دمه، فإما أن ينتصر أو يقتل. من المحتمل أنه لو قامت فعلا حرب بين الشكرية والجعليين في شندي لحاق بتلك المدينة ما حاق بأربجي، والتي ساواها الشكرية بالأرض في معركة سابقة. توسط شيوخ دامر المجاذيب مرة أخرى لفض النزاع القائم بين الفريقين المتخاصمين. في أيام التفاوض تلك، هرب المطلوب (علي ود برير) من شندي، فحلت المشكلة تلقائيا. رجع الشكرية لديارهم عير النيلين الأبيض والأزرق وقتلوا من قابلهم في طريق العودة من رجال ونساء البطاحين (والذين كانوا في حالة عداء دائم لهم.).

بدأ الغزو المؤجل/ المتأخر للسودان من جيش محمد علي باشا في ١٨٢٠م. رافق الجيش الغازي المكان المنفيان: مك بربر ومك أرقو. استولى الأتراك على مدينة بربر، وعزلوا حاكمها الملك علي ود تمساح (الذي نصبه الجعليون)، ونصبوا مكانه الملك المعزول الذي أتى معهم (نصر الدين ود عدلان أبو حجل) في وظيفة كاشف تحت إمرة التركي ماحو بيه في يوم ٥/ ٣/ ١٨٢١م. قام الأتراك بعد أن استتب لهم الأمر بمحاكمة علي ود تمساح في سنار بتهمة التآمر ضد الأتراك، وحكم عليه بالإعدام في عام ١٨٢٢م.

بعد أن ا ستولى الأتراك على مدينة شندي، بعث الملك نمر بر سالة إلى الأتراك في معسكرهم بشندي مع ابنه محمد في ١٢/ ٣/ ١٨٢١م يعلن فيها استسلامه لإسماعيل باشا. رد عليه الأتراك بضرورة أن يحضر هو شخصيا لمعسكر الجيش التركي لتسليم رسالة الاستسلام. في يوم ٢٢/ ٣/ ١٨٢١م قدم موكب مك الجعليين مع حاشيته إلى معسكر الجيش التركي تحت حراسة ثلة من الجنود الأتراك. وصل الملك نمر للمعسكر على ظهر جواد مطهم، وهو في كامل الزي الملكي لسلاطين الفونج، وخلفه وحوله من يحملون مظلات تحميه من أشعة الشمس. حمل معه بعض الهدايا لإ سماعيل با شا، والذي يبدو أنه لم يثق فيه (وكأنه كان يحس بما سيحيق به علي يدي الملك. المترجم) وعامله بكثير من اللامبالاة. أدى الملك نمر قسم الولاء لسلطان تركيا، وتسلم من إ سماعيل با شا قفطانا قرمزي اللون، بيد أنه لم يعطه سيفا (كما فعلوا لمك بربر ومك أرقو وشيخ العبابدة) كحليف ومدافع عن حدوده ضد أعداء السلطان التركي.

عندما تحرك الأتراك جنوبا، تم إجبار الملك نمر والملك مساعد وحاشيتهما على مرافقة جيش إسماعيل باشا حتى سنار كرهائن. ظل هؤلاء «الرهائن» تحت حراسة مشددة من قبل جنود أتراك، مع جنود من الشايقية بقيادة عدوهم القديم الملك شاويش (من العدلاناب). كانت للجنود الأتراك تعليمات مشددة بإطلاق النار وقتل المكين عند أول بادرة خلاف أو عدم تعاون أو عصيان للأوامر. في أثناء مسيرة الجيش التركي عبر إحدى القرى اكتشف «فكي» مؤامرة للفتك بالجيش الغازي، فألقي القبض على الضالعين في تلك المؤامرة (مع عشرات من الأهالي الأبرياء) وأحرقوا أحياء، وشهد إحراقهم أهالي عدد من القرى المحيطة بتلك القرية.

بحسب تقاليد الجيش التركي فإن أذني العدو المحارب المقتول (من الأهالي) كانت تشترى من صراف الجيش بمبلغ خمسين قرشا. وبما أن مرتبات الجنود الأتراك لم تكن تدفع لعدة شهور، فقد كانت المبالغ التي كانت تدفع نظير قتل الأهالي (بدعوى أنهم من الأعداء المحاربين) وبيع آذانهم أشاعت مجازر وأعمالا وحشية لا يمكن وصف قسوتها. كذلك قام الشايقية المرافقون للجيش التركي بمهمة التفتيش عن المطامير. و شمل ذلك الحبوب التي كان يخزنها الأهالي كتقاوي للموسم الزراعي القادم. نهب الجيش التركي وهو يتقدم جنوبا كل ما عند الأهالي من ذهب أو فضة، وكل ما صادفه من بهيمة الأنعام.

ذكر الفرنسي «كايو» Cailliaud أنه رأى الملك نمر في سنار، وبعد رجوع إسماعيل باشا من فازوغلي، قفل المكان نمر ومساعد عائدين إلى موطنيهما.

فشل الموسم الزراعي في عام ١٨٢٢م، وفشل الأهالي في مملكة الفونج في الوفاء بما فرضه عليهم الغازي التركي من جزية. لسبب ما قبل إ سماعيل با شا بتخفيض الجزية على أهالي النيل الأزرق، ولكنه رفض تخفيضها في المناطق شمال الخرطوم. قام ماحو بيه بكثير من الغارات لجلب الما شية والحبوب في تلك المناطق مما أ شعل ثورة الأهالي هناك. كان من نتائج تلك الثورات أن قبض على كثير من المشايخ، واقتيدوا لشندي حيث تم إعدامهم. كتب الإيطالي (فيناتي)، والذي أرسل لشندي، أن الأتراك سمحوا للملك نمر بشراء جثمان أحد المشايخ الذين أعدموا في تلك الثورات، وهو الشيخ (جبل أبيض) .

قام إسماعيل باشا (والذي عين رسميا حاكما عاما للسودان) في بداية شهر نوفمبر من عام ١٨٢٢م برحلة العودة من سنار متجها شمالا، بعد أن أضر بصحته الهواء الوخيم هناك. كان يرافقه في تلك الرحلة طبيبه الخاص وحاشية يبلغ تعدادها ٢٥٠ فردا من الفرسان الأتراك. كان والده محمد علي باشا غاضبا من ابنه لقلة عدد العبيد الذين نجح في إرسالهم أحياء (؟) لمصر. كان الخديوي يتوقع أن يرسل ابنه لمصر عددا لا يقل عن ٤٠٠٠٠ من العبيد الأشداء الصالحين للجندية كل عام، لكنه، وخلال ثلاثة أعوام، لم يرسل إلا نحو ٣٠٠٠٠ رجلا فقط. كذلك لم يستلم أفراد الجيش التركي في السودان مرتباتهم لشهور خلت، وأصاب المرض والوهن كثيراً من أفراد ذلك الجيش في سنار، بسبب قلة وسوء الطعام وظروف السكن، ورداءة الطقس، خاصة في موسم الأمطار.

جاء في وصف الملك نمر بأنه كان في الأربعين من عمره (في حوالي ١٨٢٢م. المترجم)، وطوله نحو ستة أقدام، وكان أسمر اللون وذا شخصية آسرة طاغية. وصفه البعض بأنه من أصول زنجية، بيد أنه في الحقيقة من أصل عربي.

في رحلة عودته شمالا إلى مصر، خالف إسماعيل باشا نصيحة مستشاره، وأصر على ترك جيشه، والتقدم – مع نحو إثني عشر من حرسه – إلى شندي. عند وصوله للمدينة أمر بإحضار الملك نمر وعمه ومستشاره مساعد للمثول أمامه. كان إسماعيل باشا حينها في الحادي والعشرين من العمر، وكان الابن الوحيد الذي بقي على قيد الحياة لمحمد علي باشا. ولد إسماعيل في كافالا (Cavalla) (مدينة ساحلية بتركيا. المترجم)، وعاش مع والدته هنالك بضع سنين. اشتهر إسماعيل بالتهذيب ودماثة الخلق، إلا أنه في مقابلته تلك مع الملك نمر ومساعد، أظهر صلفا وغطرسة شديدتين، وطالب الملك بأن يجمع له من الجعليين – وعلى الفور – من المال والأبقار والخيول والإبل ما قيمته نحو ٢٠٠٠٠ جنيه إسترليني.

لم يكن بمقدور أهالي تلك القبيلة المستقرة أن يعطوا جزية ضخمة كهذه التي طلبها إسماعيل، لا سيما وأن غالب ممتلكاتهم كانت قد سلبها الجيش التركي الغازي إبان مرروه جنوبا، عدا ما تمكن البعض من إخفائه من أعينهم، مثل الذهب. كان الملك نمر قد نجح في دفن ما يعادل نحو ٥٠٠٠ جنيه إسترليني في داره، وكان هذا هو كل ما كان بمقدوره أن يقدمه لإسماعيل. رد الملك نمر – بسرعة وبعض من عدم اكتراث – على الأمر الشفهي لإسماعيل باشا بأنه من المستحيل عليه جمع مثل تلك الجزية الضخمة من أفراد قبيلته. كان إسماعيل يستمع لرد الملك نمر وهو يجذب أنفاسا من غليونه التركي الخشبي الطويل، فغلي الدم في عروقه لوقاحة ذلك «الزنجي»، فرمي بالغليون في وجهه. استل الملك نمر سيفه ليرد الاهانة، بيد أن يد الملك مساعد امتدت ومنعت الملك نمر من ذلك النوع من الرد السريع. تلى ذلك الموقف اعتذار الملك نمر ومساعد للباشا، مع الوعد بأن يقوما بجمع ما طلبه الباشا في نهار اليوم التالي. كان الملك نمر مصمما على الانتقام من إسماعيل وجنده للاهانة التي ألحقها به، فأستدعى معاونيه للمشاورة.

كان إسماعيل باشا قد أنزل في أحد بيوت الضيافة الكبيرة التي اشتهرت بها مدينة شندي. تقرر أن تقام في مساء ذلك اليوم مأدبة للباشا، مع حفل بالدلوكة على شرفه. أثناء الحفل، أحاط الجعليون المسلحون بمخارج الدار بعد أن وضعوا كثيرا من الحطب والمواد القابلة للاشتعال حولها، ثم أشعلوا المكان بالنار. هلك في ذلك الحريق إسماعيل باشا والخازندار (مصطلح تركي يعنى وكيل الخزانة، أو وكيل المال. المترجم) وآخرون ممن كانوا معه. نجا طبيب الباشا الخاص من الحريق، بيد أنه لم ينج من قبضه الجعليين، الذين عذبوه ووضعوا في جسده

«الخوازيق»، انتقاما من أعمال عدائية مستفزة قام بها من قبل ضـدهم. قيل أن بعض التجار نقلوا فيما بعد جسد إسماعيل المتفحم إلى القاهرة.

سرعان ما سرت لبربر أنباء مقتل البا شا، فأر سل الملك نصر الدين (والذي كان الملك نمر قد عزله قبل سنوات من ذلك التاريخ من ملك بربر) أحد أقربائه لمحاو بك، والذي نقل بدوره لمحمد علي باشـا الخبر الأليم. قوبل نبأ حريق الباشا بكثير من الذعر والغضب الشديد والرغبة في التشفي من الفاعلين: قبيلة الجعليين.

خير من و صف حملات الدفتردار الانتقامية هو ماكمايكل في كتابه الشامل «تاريخ العرب في السودان» ، وذلك في الفصل المو سوم «تاريخ سنار». تو سع ماكمايكل كذلك في مقاله عن «الفتح التركي للسودان» المنشور في مجلة «تاريخ المجتمع الأفريقي» في وصـف تلك الحملات الانتقامية وصـفا دقيقا. أحتج القناصـل في القاهرة على كثرة أعداد النساء العربيات اللواتي أحضرن كسبايا، مما دعا محمد علي با شا لإعادتهن لموطنهن (لم يحدد الكاتب من هم هؤلاء القناصل، ولا ريب أنه كان يقصد قناصل الدول الغربية... («عبء الرجل الأبيض» مجددا. المترجم).

فر الملك نمر نحو منطقة البطانة، وبعد معركة «نسـيب» في البطانة اتجه نحو منطقة نهر سـتيت، بينما توجه الملك مسـاعد نحو الدندر. قيل إن الملك مسـاعد وولده قتلا على يد جماعة من الجنود الأتراك. بدأ الشـكرية (أعداء الملك نمر التاريخيون) في تعقب البطاحين الهاربين من حملة الدفتردار الانتقامية، وقام الشـايقية بتعقب الجعليين، تسـوية لحسابات وثأرات قبلية قديمة. جازى الأتراك الشكرية على خدماتهم لهم بجعلهم مسؤولين عن كامل منطقة البطانة، وجعلوا لهم المدينة القديمة القريبة من القضارف «تيوة Tewawa» عا صمة لهم، وكان تسمى من قبل« سوق أبو سن».

أنشأ الأتراك قاعدة لهم في «دوكا» وعينوا لها كا شفا منهم، وقاموا، على سبيل المكافأة، بمنح حلفائهم الشايقية أراضاً كانت للجعليين في مناطق كثيرة، منها «حلفاية الملوك» و«الجزيرة» وغيرهما. لا يزال أحفاد هؤلاء يقيمون في تلك الأراضي إلى يومنا هذا.

نشـط «بشـير ود عقيد» الجعلي من فرع المسـلماب (وهو المتزوج من ابنة الملك نمر «برة») في تعقب واصـطياد «النمراب»، فقد نجح الدفتردار في ا ستقطابه وتعيينه كحاكم محلي لشندي تحت إمرة كا شف تركي في المتمة (غرب شندي). ورث بشير ود عقيد كذلك دار الملك نمر في شندي.

تقاطر آلاف من الجعليين إلى الحدود الحبشية حيث أنشأ الملك نمر دولة حاجزة (buffer state) أطلق عليها «دار ولكيت Dar Wolkait»، واضعا نفسه تحت حماية «راس يوبيRas Ubie » والذي غدا في عام ١٨٣١م ملكا للتقراي، وزوج ابن للملك نمر اسـمه محمد إحدى بناته. عرفت المنطقة التي حكمها الملك نمر بدار نمر، وكانت المدينة الرئيسة فيها هي «صوفي».

أصدر حاكم عام السودان خورشيد باشا، (وهو ابن أخت/ أخ محمد علي باشا) في عام ١٨٢٩م عفوا عاما عن من شارك في قتال الأتراك بين عامي ١٨٢١ و ١٨٢٤م، واستثنى من ذلك العفو الملك نمر وأفراد عائلته، وطالب كل من سـواهم بالعودة للبلاد. اسـتجاب الكثيرون من العرب الذين هاجروا مع الملك نمر لذلك العفو، إذ أن المقام في أرض الحبشة لم يرق لهم، ولم يصلح لبهائمهم. بعد ذلك تدهورت شعبية الملك نمر، وقل مناصروه، فتحرك نحو

مكان يسمى «غابات» على بحر السلام من بعد معارك مع قبيلة الدبانية Dabaina. كانت قوات الملك نمر حينها تضـم نحو ٤٠٠ – ٥٠٠ من الخارجين على القانون من المجرمين والفارين من خدمة الجيش، وكان يغير بهم على الأحباش ويسبي نساءهم. للرد على تلك الغارات حاول «راس يوبي» خيانة الملك نمر، والإيقاع به لتسليمه للأتراك للحصول على الثمن الذي وضعه الأتراك لرأسه.

قطع الملك نمر وجماعته الطريق التجاري بين قوندار وواد مدني و سنار، مما عطل التجارة تماما، فقرر محمد على باشـا قطع دابر النمراب جميعا، واسـتئصـال شـأفتهم، فغزا الجيش التركي في عام ١٨٣٢م القلابات واحتلها، وعين حاكما تركيا عليها. أعتبر الأحباش ذلك تعديا على أراضيهم، فقاموا بقتال الأتراك وطردوهم من القلابات.

في ذلك الأثناء كان البريطانيون والفرنسـيون يراقبون باهتمام ما يفعله الأتراك في المنطقة، خاصـة وقد كان ملك التقراي لابا قادس قد أرسل مستشاره البريطاني، السيد كوفن، لطلب عون بريطاني ضد الاعتداءات التركية. رفضت الحكومة البريطانية في حينها التدخل في ذلك الصراع.

في عام ١٨٣٤م هاجم النمراب (جماعة الملك نمر)، ومعهم الأحباش مدينة سـنار، بيد أنهم صـدوا عنها. وكرد انتقامي على تلك المحاولة قام كاشـف القضـارف التركي، واسـمه أحمد، بقيادة جيش من آلاف العرب السـودانيين دخل القلابات؛ ثم غزا قوندار وسـاواها بالأرض حرقا. في طريق عودتهم أوقع الأحباش الجيش التركي الغازي في كمين، وقتل أو قبض على معظمهم. بعد تلك المعارك اعترفت الحكومة الفرنسـية بالملك يوبي ملكا على التقراي، والذي قبل أن يبيعهم قرية حبـشية ا سمها «اتيت » في عام ١٨٣٦م. في العام التالي (١٨٣٧م) حاول الأتراك ا ستعادة القلابات، فسير خورشيد باشا جيشا عبر كسلا إلى الحدود مع القلابات، وأعاد احتلالها.

بعد رحيل الأتراك من السودان في عام ١٨٣٩م آب محمد ود نمر لمدينة شندي لاسترداد بعضا من ثروة أبيه التي كان قد خبأها تحت الأرض في دارهم (والتي اسـتولى عليها صـهره ود عقيد). كان الملك نمر يحتاج إلى المال كي يشتري به أسلحة وذخائر لتجابه أسلحة الأحباش التي زودهم بها الفرنسيون. خاب ظن ولد الملك نمر، فلم يجد في دارهم شيئا، إذ كان قد سبقه إليها خور شيد با شا، والذي كان قد حبس حليف الأتراك بشير ود عقيد وأخوته. هرب محمد ود نمر من شندي بعد أن حاول حاكم دنقلا التركي محمد أبو ودان الوصول إليه واعتقاله.

زار أحد الغربيين (وهو د/ ديليسـبس) في عام ١٨٤٤م القلعة التي كان يتحصـن بها الملك نمر، فوجده قد كبر في السن، واشتعل رأسه شيبا، وفقد البصر. كان محمد ولده قد توفي قبل ذلك اللقاء بنحو عام. توفي الملك نمر بعد ذلك بعام (في عام ١٨٤٥م) وحل محله في القيادة ولده عمارة، والذي تحالف مع الأحباش ضـد القوات التركية، والتي دخلت معها في مناوشـات وحروب صـغيرة أهلكت خلقا كثيرا من الجانبين. في عام ١٨٥٠م غزا عمارة ابن الملك نمر، وبمسـاعدة الأحباش، مدينة كسـلا ، وحارب الهدندوة فيها، ثم واصـل اندفاعه في المنطقة فاسـتولى على القـضارف، وأعلن المنطقة أرا ضي تتبع للحبـشة (مملكة التقراي). سبق لحاكم كـسلا التركي الياس با شا التعامل التجاري مع عمارة ود الملك نمر، فقد كان الأخير يبيع لذلك البا شا الفتيات ليضمهن لحريمه، مقابل إعطائه أسلحة وذخائر حكومية. كان الياس باشا رجلا فاسدا يستخدم ما يحصل عليه من نساء الأحباش في تسيير أموره الشخصية، والحصول على الأموال والترقيات.

في عام ١٨٥٧م أصدر الخديوي سعيد باشا عفوا عاما عن كل من حمل السلاح ضد الغزو التركي، و شمل ذلك كل أفراد عائلة المك نمر. لم يثن ذلك عمارة ود المك نمر عن مواصلة حربه ضد الأتراك، حتى عام ١٨٦٢م حين هاجم الأتراك مواقعه وأصابوه بجروح في إحدى المعارك، بيد أنه تمكن من الهرب والنجاة منهم. قابله السير بنجامين بيكر في يوم ٢١ مارس من عام ١٨٦٢م، وقدم بالإنابة عنه طلبا للعفو لحاكم الخرطوم التركي موسى باشا، ولكن تم رفض الطلب.

توفي عمارة ود المك نمر في عام ١٨٦٢م متأثرا بجراحه. بعد ذلك صدر عفو عام عن النمراب المحاربين.

مع ظهور المهدي، انضم إليه عدد كبير من نسل المك نمر. وبعد أن استولى كتشنر على السودان، طالب أفراد من عائلة المك نمر بقيادة قبيلة الجعليين. رفض البريطانيون طلبهم، إذ أن أراضيهم كانت قد صودرت منذ عام ١٨٢٢م، وتمت إدارة شؤون الجعليين على أساس أنهم مجموعة اجتماعية واحدة، وليسوا قبيلة واحدة.

في ختام مقاله شكر الكاتب القلم السياسي لحكومة السودان (Sudan Political service) واليوزباشي أحمد عبد الله وصمويل بيه (بك) عطية لمساعدتهم في مراجعة نسب المك نمر.



المماليك في السودان
أ. أي. روبنسون

تقديم: هذه ترجمة مختصــرة لشــذرات قليلة من مقال نشــر في العدد الخامس من مجلة «السـودان في رسـائل ومدونات» في عام ١٩١٨م، للكاتب أ. أي. روبنسون (وهو ليس جيمس ويلسون روبنسون، ذلك السكرتير الإداري المشــهور إبان الحكم الثنائي، والذي عاش بين ١٨٩٩ – ١٩٨١م). رغم أن العنوان يفيد بأن الموضــوع هو عن «المماليك في السودان»، إلا أن الكاتب تطرق ببعض التوسع إلى تاريخ المماليك من قبل فرارهم للسودان، وما حاق بهم على يد محمد على با شا في مذبحة القلعة الشهيرة. لاحظ المترجم في هذا المقال تخليطا كبيرا، وا ستطرادا كثيرا، وقفزا بين المراحل الزمنية. بيد أن ذلك يجب أن يؤخذ في سـياق تلك المرحلة وطريقة كتابة المقالات فيها، والتي تختلف عن الطرق الأكاديمية المعروفة الآن. لعل كثيراً من نسـل المماليك موجودون الآن في المناطق والمدن التي ورد ذكرها في هذا المقال.

في حوالي عام ١٧٩٥م بعث مراد بك حاكم مصــر بجيش من المماليك للسـيطرة على دارفور. كان من بين من بعثهم ذلك الحاكم رجل اســمه أحمد كاشــف. كان أحمد كاشــف جنديا منشــقا خبيرا بفنون المدفعية، وملما بعلوم الريا ضيات. أصله من جزيرة يونانية ا سمها زانتي. توفي أحمد كا شف في دارفور، ويعتقد أنه أخ لحسين بك الزانتوتي، وهو من عائلة كاشـف الذين عملوا تحت إمرة روحان بك المملوكي. كان هذان الأخوان قد وصـلا للقاهرة في عام ١٧٩٢م للانضمام كمتطوعين في جيش المماليك، واعتنقا الدين الإسلامي.

سجل عمر بن التونسي في كتاب له عن رحلته لدارفور نشر في باريس، أنه أثناء الاحتلال الفرنسي لمصر (بين عامي ١٧٩٨ – ١٨٠١م) وفد أحد مماليك مراد بك واسمه «زانونا» إلى دارفور وفي معيته عشرة رجال من المماليك، مع عدد كبير من الجمال والعبيد، والكثير من الأمتعة. وكانوا مزودين بمدفع. أحسن السلطان عبد الرحمن وفادتهم، ومنحهم عددا كبيرا من الأرقاء، و سمح لهم أيضا بتشييد منزل (يشبه القلعة) من الطوب المحروق يشبه مبانيهم في القاهرة، محاط بحائط ضـخم به فتحتان، في إحداهما وضـعت فوهة المدفع الذي جلبوه معهم، وفي الأخرى وضـع مدفع هاون لحراسة مسكن السلطان. قيل لنا أن ذلك المسكن و«حوشه» كانا تحت مرمى نظر المماليك في تلك القلعة!

خطط المماليك لاغتيال السـلطان عبد الرحمن للاسـتيلاء على مملكته. ولتنفيذ ذلك المخطط اتفق المماليك مع رجل اسمه الفكي الطيب ود مصطفي، له بنت لها ولد من السلطان الراحل تيراب. سرب أحد الدارفوريين للسلطان عبد الرحمن تفاصـيل ذلك المخطط، فدعا السـلطان القائد المملوكي «زانونا» لوليمة في قصـره واعتقله وقتله. بعد ذلك قام السلطان بمهاجمة قلعة المماليك وهدمها على رؤوس من كانوا فيها، وكان من بين الذين عوقبوا بالقتل عدد من تابعي المماليك، ومنهم الخزندار يوسف، والفكي الطيب الذي تآمر معهم ضد السلطان. كانت تلك المذبحة مشابهة لمذبحة المماليك المصرية (وتسمى مذبحة القلعة، وهي – كما جاء في الويكيبيديا العربية– واقعة شهيرة في التاريخ المصري، دبرها محمد علي با شا للتخلص من أعدائه المماليك، وذلك عندما جاءته الدعوة من الباب العالي بتركيا للقضاء على الوهابيين في الجزيرة العربية، دعا المماليك للقلعة بحجة التشاور معهم، ثم أغلق خلفهم الأبواب الضخمة، وأطلق النار عليهم جميعا. المترجم). كان محمد علي باشا يكرر لكل من يلقاه من الأوروبيين أن مذبحة

المماليك كانت قد تمت بطلب مبا شر من تركيا. كسرت تلك المذبحة شوكة تلك المجموعة القوية من الجنود المسترقين، فانتشروا في كافة أرجاء مصر وشمال أفريقيا والبحر الأحمر والسودان.

ذكر منجن (وهو المؤرخ الفرنسي فيليكس منجن، والذي أتى إلى مصر مع حملة نابليون بونابرت. المترجم) في الجزء الأول من كتابه «تاريخ مصر» أن ما يزيد على الألف من المماليك قد قتلوا في مذبحة القلعة في الأول من مارس عام ١٨١١م، وأن كل من وجد منهم في الأقاليم المصرية الأخرى كان مصيره القتل، بل إن ٧٠ من هؤلاء المماليك قد قتلوا في مديرية «سعيد» وحدها. كان من بين قتلى المماليك في القلعة ساهيم بك وسليمان بك البوابي، ويحيي بك، ومرزوق بك... ومراد بك الألفي. قبض على عمر بك الألفي في الفيوم وحز رأسه (مع ١٥ من زعماء المماليك) وأرسلت رؤوسهم إلى القاهرة والقسطنطينية. ولم يسمح بدفن جثمان أحد من المماليك عدا مرزوق بيه، والذي سلمت جثته لوالدته كي تقوم بدفنه.

لم ينج أحد من المماليك الذين كانوا في القلعة في ذلك اليوم من الموت عدا أمين بك، ولعل السبب كان هو تأخره في الحضور لتلك المأدبة (القاتلة)، ويقال أنه جازف بالقفز بحصانه عبر باب لم يحسن إغلاقه من أعلى سور القلعة. نفق الحصان بالطبع، وا ستسلم أمين بك بعد أيام وأحضر أمام محمد علي، والذي عفا عنه، ومنحه حصانا وا شترط عليه أن يغادر مصر — بلا رجعة- إلى سوريا. كذلك لم يقتل المماليك من أ صل فرنسي، بل حبسوا، عدا واحد من كبرائهم هو مراد بيه الألفي، والذي قتل ذبحا (الجدير بالذكر أن هؤلاء المماليك الفرنسيين انضموا لاحقا للحملة الأمريكية ضد حاكم طرابلس بليبيا، الداي حسن باشا في نهايات القرن الثامن عشر. المترجم). غنم جنود محمد على باشا نساء المماليك، وتزوج قادتهم الحسان الصغيرات منهن.

هرب كثير من المماليك متخفيين في أزياء الجنود الأكراد المرتزقة أو في زي النساء، وصوبوا رحلهم نحو بلاد النوبة جنوبا، بل أن عددا منهم ا ستولوا على مناطق في صعيد مصر، مما دعا مصطفي (صهر محمد على بك با شا) لإرسال حملة لصدهم.

كانت من أ سباب ونتائج سيا سة اجتثاث شأفة المماليك تلك هي منعهم — بصورة جذرية- من تجنيد الأجانب في مصر، ومنع السلطان تصدير العبيد (والسبايا) من جورجيا بمجرد مغادرة الفرنسيين لمصر (هل قصد الكاتب «استيراد» عوضا عن «تصدير» العبيد هنا؟ المترجم). على أن الفرنسيين كانوا قد أعادوا فتح تجارة القوافل مع السودان، وكان المماليك يشترون العبيد من سنار ودارفور بغرض تجنيدهم في جيشهم، بل إن أحد قادة المماليك كان له جيش من هؤلاء يفوق عددهم ألفي جندي من الرجال (السود) الأقوياء جيدي التدريب والتسليح (والذي أتى معظمه من السلاح الأوروبي الذي سرق أو غنم من جيش محمد علي باشا).

كتب بيركهاردت (هو المستشرق والرحالة السويسري جون لويس بيركهاردت الذي عاش بين ١٧٨٤ — ١٨١٧م ومؤلف كتاب «رحلات في بلاد النوبة» والذي صدر في ١٨٢٢م. المترجم) عن تعرض المماليك لمجزرة ثانية في الصحراء قرب «إسنا» حين وعدهم الحاكم بالعفو، ثم غدر بهم وقتل منهم أربعمائة شخص. كان من بين القتلى مئتان من جنود (رقيق) المماليك السود، بينما أبقى الحاكم على حياة اثنين من المماليك الفرنسيين (لعل ذلك من فوائد الجواز الأوروبي. المترجم!). تعرض الناجون من تلك المذبحة لمذبحة أخري في عام ١٨١٢م قرب

أسـوان، وتم القضـاء على معظمهم. التحق من نجا من المماليك الفارين (تحت قيادة إبراهيم بك الكبير وعثمان بك حسـن) بقبيلة العبابدة في منطقة «الحمر؟» حيث اكتشـفت بعض قباب من مات منهم قبل سـنوات قليلة. تجمع بعض الناجين من المماليك (بحسـب رواية المؤرخ الفرنسـي منجن) في منطقة إبريم في حوالي عام ١٨١٢م، وقاموا بالقضاء على السكان المحليين فيها، وقتلوا أيضا الكاشف فيها (لعل «الكاشف» هو الحاكم المحلي الذي ينوب عن السلطان العثماني)، ومن ذريته/ سلالته المبا شرة اليوم (حين كتابة المقال في عشرينات القرن الما ضي. المترجم) هو الشيخ/ أحمد محمد أغا كنيش في نوري.

طرد المماليك من بعد ذلك من إبريم بعد هجوم الأتراك على المدينة بجيش كان على رأ سه إبراهيم با شا، والذي كان حينها حاكم مديرية سعيد (وهو ربيب أي ابن لزوجة إ سماعيل با شا من زواج سابق) في ذات العام (١٨١٢م). تقدموا نحو مدينة دنقلا ومعهم ١٢٠٠ رأسـا من الأبقار ونحو ١٠٠٠٠٠ دولار (لعل المقصـود ريال. المترجم) كفدية انتزعوها من السكان النوبة. وبحسب رواية مؤرخ ا سمه جونفاني فيناتي (إيطالي جاب منطقة الشرق الأو سط متخفيا تحت اسـم الحاج محمد. المترجم) فقد اسـتقبلهم كاشـف منطقة دراو بكثير من الاحترام، بيد أنهم انتهزوا فرصة خلاف بين ذلك الكاشف وملك مدينة «أرقو» ، فهاجموا ذلك الملك واستولوا في تلك المعركة على مدفع تركي. كان عدد المماليك لا يتجاوز الثلاثمائة، ومعهم مثل ذلك العدد من المسترقين، وكلهم جنود مشاة (على أقدامهم)، إذ كانوا قد فقدوا كل خيولهم في الصحراء. أعادوا نساءهم لمصر في قافلة واحدة، بيد أن خيانة من مصدر ما أوقعت تلك القافلة في أيدي العبابدة، والذين لم يتورعوا حتى من نزع ملابس أولئك النسوة، واللواتي عشن معهم في الصحراء من قبل.

احتل المماليك أرقو بعد أن فر حاكمها (طمبل (تمبول) بن الزبير) لمصـر، وعين المماليك زبيرا آخر (من أحد أفراد عائلته) كمك للمنطقة، واستقروا في معسكر «العرضي» الذي غدا فيما بعد مدينة كبيرة اسمها دنقلا الجديدة.

قام الشايقية في ١٨١٠م (في المقال الأصلي كتبت خطأ ١٦١٠م. المترجم) بغزو أرقو، واسترقوا كثيرا من سكانها لإدخالهم في خدمة جيشـهم. وفي عام ١٨١٤م تقلد الملك شـاويش حكم الشـايقية بعد مقتل أبيه، وهزم جيش مك الزبير، والذي فر – مع جنوده المماليك- إلى منطقة مروي، والتي أعادوا تعميرها. هاجمهم الشـايقية مرة أخرى، وقتلوهم في معارك في أرقو والخندق وحتني (؟).

في عام ١٨١٣م زحف جيش إبراهيم با شا (ابن زوجة إ سماعيل با شا) نحو وادي حلفا واحتلها، وطرد المماليك منها، وحكم أجزاء من مناطق المحس مع مك الزبير، والذي كان يحكم المحس حينها مع مك آخر هو ود حاج عمر. يقول المؤرخ بيركهاردت: إن قائد المماليك إبراهيم بك الكبير توفي وهو في سن متقدمة في مدينة شندي معقل الجعليين. يبدو أن المماليك حينها كانوا متصـالحين، وعلى ود مع الجعليين، أعداء الشـايقية الألداء. خلف إبراهيم بك الكبير في قيادة المماليك في السودان عبد الرحمن بك.

في عام ١٨١٤م قامت معركة أخرى بين الشايقية والمماليك فقد فيها الشايقية ١٥٠ من رجالهم، بينما لم تتجاوز خسائر المماليك خمسين رجلا. في ذات العام نجح القائد المملوكي سليم بك الطويل في الهروب من مصر واجتياز الصحراء، واستقر في مدينة بربر.

في خلال السنوات الأولى التي قضاها المماليك في السودان أعادوا زوجاتهم المصريات والشركسيات لمصر، واشتروا حبشيات و/ أو تزوجوا من نوبيات أنجبن لهم ذرية ظلت مخلصة لآبائها حتى النهاية.

في عام ١٨١٧م، وبينما كان بعض علماء الآثار الأوروبيين يعملون في معبد أبي سمبل، شاهدوا قافلة قادمة من دارفور مكونة من ٤٠٠٠ من الإبل وهي تدخل إلى مصر. أجبر المماليك في دنقلا تلك القافلة على دفع فدية قدرها ٩٠٠٠ دولار (تعادل ٢٠٠٠ جنيه إسترليني) كرسم للعبور!

عرض محمد على با شا على المماليك في عام ١٨١٨م عفوا ا ستجاب له نحو ٢٥ منهم، ورجعوا للقاهرة. ا ستثنى محمد علي با شا من عفوه محمد بك منفوخ وعبد الرحمن بك زعيم المماليك في السودان. عاد للقاهرة أيضا ابن علي بك الفيومي ليطلب الأمان لوالده، ولكن من سوء حظه أن أحد المماليك اغتال الفيومي غضبا من قبوله بشروط محمد علي للرجوع لمصر والتوبة.

عند و صول إ سماعيل با شا لدنقلا فر نحو ٣٠٠ من المماليك نحو شندي، وتحا شوا بالطبع المرور عبر أرا ضي أعدائهم الشايقية. فر عبد الرحمن بك قائد المماليك في السودان إلى دارفور. أفادنا السيد إنجلش (وهو أمريكي عمل قائدا للمدفعية التركية) أنه بعد الاستيلاء على بربر جاء إلى تلك المدينة نحو ١٠٠ من المماليك ومعهم مئات من عبيدهم السود قادمين من شندي لمقابلة إ سماعيل با شا. قام إ سماعيل بمصادرة «ممتلكاتهم» من العبيد و ضمهم لجيشه التركي، وبعث بالمماليك المصالحين للقاهرة، حيث عفا عنهم محمد علي با شا، بل و ضمهم كقادة لجيشه من الزنوج، والذين بعث بهم إلى موري (شبه جزيرة جنوب اليونان)، وسواكن وطرابلس. مات منهم خلق كثير في الطريق لتلك الأماكن.

كان آخر رجال المماليك في السودان هو محمد بك فانفو. دام حكم المماليك في السودان بين أرض الشايقية ووادي حلفا ٩ سنوات، ويمكن القول بأنه لولا شجاعة الشايقية في التصدي لهم لحكموا كامل الأراضي السودانية. ينبغي القول أيضا أن قلة الرجال والسلاح والعتاد والذخيرة شكلت عائقا كبيرا أمام المماليك في السودان، بل وكان السودانيون المحاربون يزدرونهم – وهم في أيامهم الأخيرة في البلاد- لما يرونه من حقارة وبؤس تجهيزاتهم القتالية.



تجربة باحثة أمريكية مع مترجمين محليين من قبيلة الدينكا
مارثا بيرد

تقديم: قامت الدكتورة مارثا بيرد من مركز الأبحاث الطبية بجامعة كنساس الأمريكية بنشر مقال في مجلة طبية علمية اسمها «مجلة التمريض عبر الثقافات J. Transcultural Nursing في العدد رقم ٢٢ لعام ٢٠١١م عنوانه «الدروس المستفادة من (العمل مع) المترجمين التحريريين والفوريين من قبيلة الدينكا في جنوب السودان». ولن أنقل هنا ما ورد في المقال من محاور فنية وعلمية فهي للمتخصصين، ولكني أنقل هنا شذرات متفرقة لبعض الجوانب التي استرعت انتباهي – كقارئ غير متخصص- والتي رأيت فيها بعض الميل والتحيز (ولا أقول الاستعلاء) ضد المترجمين التحريريين والفوريين من قبيلة الدينكا، والضيق من تصرفاتهم غير المهنية، بل والسخرية المبطنة أحيانا من سلوكهم وطريقتهم في العمل وتعاملهم مع الوقت. فمثل ما ذكرت تلك الكاتبة ليس وقفا على الدينكا، بل هو سلوك و«طريقة حياة» لأغلب سكان عالمنا الثالث. لا شك عندي أن ذات الكاتبة كانت ستعاني أو تتعرض لمثل ما تعرضت له إن كانت تتعامل مع فرد أو أفراد من البجا أو الزاندي أو المحس أو الفور أو غيرها من المجموعات السودانية. لا يعني هذا بالطبع الرضاء عن مثل هذا السلوك المتسيب الذي لم نجن منه غير مزيد من التخلف والشقاء .

قامت الدكتورة مارثا بيرد بدراسة حول أحوال النساء من قبيلة الدينكا في جنوب السودان، واللواتي تم توطينهن مع أطفالهن في الولايات المتحدة. وتطلبت الدراسة أن تقوم الباحثة بتعيين مترجمين فورين وتحريريين من ذات القبيلة للقيام بترجمة وثائق بحثية (من الإنجليزية للغة الدينكا)، وتوظيف النساء المشاركات في البحث، وتنظيم وترتيب المقابلات معهن، وترجمة ما يقلنه في تلك المقابلات المباشرة من اللغتين العربية والدينكاوية للغة الإنجليزية، والقيام بدور «سماسرة/ وسطاء ثقافة» (إن صح التعبير) حيث يشرحون السياق الاجتماعي والثقافي للمقابلات، وتجارب النساء المشاركات وملاحظاتهن .

تقول الدكتورة إن تجربتها في العمل اللصيق مع المترجمين الفوريين والتحريريين من قبيلة الدينكا كانت مثمرة جدا لفهم أعمق، وتبصر أكثر بثقافة الدينكا، بيد أنها لم تخل من تحديات وعوائق كثيرة.

من ضمن الذين تم تعيينهم للقيام بالترجمة رجل دينكاوي (لم تسمه، فلنسمه هنا السيد «س») في الثالثة والثلاثين من عمره، يتحدث الإنجليزية، إذ كان قد هاجر للولايات المتحدة قبل خمسة أعوام، وأكمل دراسة المرحلة الثانوية، وكان قبل ذلك من «الأطفال الضائعين» في جنوب السودان (وهم جيل من الأطفال الأيتام ضحايا الحرب الأهلية من الذين لجأ معظمهم إلى الدول المجاورة، وتمت إعادة توطين معظمهم بعد سنوات في بلاد غربية). عهد إلي الرجل بترجمة استمارة التنصل/ التنازل القانونية (disclaimer) المعدة من قبل الجامعة، وأعطي التعليمات اللازمة، وحدد له موعد أقصى لاستلام الوثيقة مترجمة. مر أسبوعان دون أن يظهر الرجل أو يسلم ما طلب منه، ولم تتمكن الجهة المسؤولة عن البحث من الاتصال به هاتفيا أو عن طريق البريد الإليكتروني. بعد مرور أيام من انتهاء الفترة الممنوحة له ظهر الرجل المترجم وبرر تأخيره بأنه كان مشغولا جدا بالعمل، وبالعناية بابنه الصغير، وأنكر تماما استلامه لرسائل بالبريد الاليكتروني .أكمل الرجل ترجمة الوثيقة من الإنجليزية للغة الدينكا بخط اليد، إذ أنه قال أنه لا يتوفر برنامج في الكومبيوتر يسمح بطباعة بعض حروف لغة الدينكا. لما سألت الدكتورة الباحثة عن ما إذا

كان الرجل قد أكمل ترجمة الوثيقة، أفادتها المنسقة بأنه قد أعطى ما ترجمه لأحد أصدقائه لإعادة الترجمة التي قام بها من لغة الدينكا للإنجليزية، بيد أن صديقه اختفى فجأة! أضافت المنسقة أن المترجم يقول إنه سوف يقوم بإعادة الترجمة التي قام بها بنفسه من لغة الدينكا إلى الإنجليزية! (وهذا خطأ مهني فادح، بالطبع، إذ ينبغي أن يقوم بذلك العمل شخص لا صلة له البتة بالمترجم الأول، ولم ير الوثيقة الأصلية، وذلك لضمان صحة الترجمة ودقتها). بعد ذلك اضطرت المنسقة لتعيين شخص آخر من ذات القبيلة لإعادة ترجمة النص الأصلي للوثيقة حتى تضاهيه بما قام به المترجم الأول. كان ذلك الشخص امرأة دينكاوية قضت في الولايات المتحدة سبعة عشر عاما، ولم تبلغ من التعليم غير الصف الثامن، غير أنها عملت كمترجمة لجهات حكومية في الولايات المتحدة، وعملت كذلك كمترجمة فورية وتحريرية في دارفور بالسودان. فحصت الباحثة الأمريكية الترجمتين، وبعد المضاهاة تبين أن الترجمتين متطابقتان للحد البعيد. تقول الباحثة أنها تعلمت من تجربتها الأولى تلك أمرين: أولهما ضرورة معرفة وتقدير الاختلافات الثقافية الكبيرة بين الثقافة الأميركية وثقافة الدينكا فيما يتعلق بإدارة الوقت، وباحترام المواعيد النهائية المحددة سلفا، وأن لتعبير «إدارة الوقت» و«المواعيد النهائية» معاني وتفسيرات مختلفة في الثقافتين، والمثال على ذلك هو تخلف المترجم الأول عن الإيفاء بالموعد المضروب، وعدم اكتراثه بالرد على الاتصالات الهاتفية والإليكترونية العديدة التي تلقاها. كان الدرس الثاني الذي تقول الباحثة إنها تعلمته من تجربتها تلك هو ضرورة تلافي سوء الفهم في الوسائل العملية، والضوابط الواجب الالتزام بها عند الترجمة، وضرورة العمل مباشرة مع المترجم دون وسيط (مثل منسقة في وكالة تخديم .(استفادت الباحثة من تلك التجربة الأولية عند بدء الجزء الأكبر من الدراسة، والتي تطلبت عملا لصيقاً مع المترجمين التحريريين والفوريين من قبيلة الدينكا.

كان مضمون البحث يدور حول دراسة نوعية لآراء وملاحظات ١٠ من نساء الدينكا اللاجئات اللواتي تم إعادة توطينهن في الولايات المتحدة عن تجربتهن وفترة التحول في حياتهن. كانت أولئك النسوة قد أحضرن للولايات المتحدة مع أطفالهن في خلال العشرة سنوات الأخيرة بسبب ظروف الحرب الأهلية التي كانت تدور في السودان حينها، والتي أدت لمقتل مليونين، وتشريد ٤ ملايين من البشر. كررت الباحثة المقولة المعتادة من أن سبب الحرب هو الاختلافات الدينية والعرقية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية واللغوية (؟!) بين الشمال المسلم في غالبه، والجنوب المسيحي في غالبه. وذكرت أيضا أن الشمال يعد عربيا ومسلما (في غالبه) ويحكم بالشريعة، بينما يتكون الجنوب من قبائل نيلية من أصول أفريقية (غالبها مسيحي) ويعتمد علي الزراعة ورعي الأبقار.

ذكرت الباحثة بعض المعلومات الأولية المفيدة عن قبيلة الدينكا (ربما نقلا عن كتاب د/ فرانسيس دينق الشهير عن الدينكا الصادر في ١٩٨٤م) منها أن الدينكا من أكبر قبائل جنوب السودان، وهم شعب فخور بنفسه وشديد التدين. كانت لغة الدينكا لغة شفاهية (غير مكتوبة) حتى أربعينات القرن الماضي حين قام البريطانيون بتدوينها حتى يتمكن شعب الدينكا من قراءة الإنجيل. تم إنشاء أول مدرسة في أرض الدينكا عام ١٩٤٣م، بيد أن عدد المتعلمين من تلك القبيلة قليل نسبيا بسبب الحروب المتصلة، خاصة بين النساء اللاتي يتزوجن في سن الخامسة عشرة، وينجبن كثيراً من الأطفال. قالت الكاتبة إنه توجد أكثر من ٤٠٠ لغة قبلية في جنوب السودان، منها لغة الدينكا، واللغة العربية هي اللغة المستخدمة حصريا في السودان الشمالي (وهذا غير صحيح بالطبع، فلا العربية هي اللغة المستخدمة حصريا في السودان الشمالي، ولا يعني وجود ٤٠٠ لغة قبلية في جنوب السودان عدم استخدام العربية أو ما يعرف ب «عربي جوبا» في ذلك البلد كلغة تخاطب مشترك).

حكت الباحثة بعد ذلك عن تجربتها مع رجل وامرأتين من قبيلة الدينكا تم ضمهم لفريق البحث كمترجمين تحريريين وفوريين .كانت المترجمة الرئيسة هي «راشيل» (٣١ عام)، وهي أم درست في كلية التمريض العالي بالخرطوم، وتجيد الترجمة من وإلى اللغة العربية والإنجليزية والدينكاوية بالطبع. عملت راشيل مع الباحثة كوسيط ثقافي لتشرح لها وللمشاركين في الدراسة كثيرا من الأمور المعقدة المتصلة بالبحث في السلوك والمضامين وغير ذلك. عينت الباحثة ا الأمريكية زوج راشيل (واسمه جيمس (للقيام بترجمة ثلاثة وثائق من الإنجليزية للغة الدينكا، وجلست في اجتماعات مشتركة كثيرة معهما لبحث ومراجعة الوثائق وترجمتها للتأكد من دقة الترجمة وقدرتها على توصيل المطلوب للنساء الدينكاويات. اكتشفت بعد عدد من اللقاءات– لعجبها الشديد- أن جيمس هو نفسه من قام بترجمة الوثيقة الأولى التي بدأ بها البحث (وهو الشخص الذي أسميناه «س»)! اكتشفت أيضا عددا كبير من الهنات والاختلافات والأغلاط في الترجمات التي قام بها جيمس رغم إجادته للغتين الدينكاوية والانجليزية. استعانت الباحثة كذلك بسيدة أخرى اسمها «مارجريت»، وهي في الثالثة والعشرين من عمرها، وقد درست المرحلة الثانوية العليا بأمريكا (ورغم ذلك لا تجيد الكتابة بالإنجليزية ولا الدينكاوية بصورة جيدة!). كانت الباحثة تستعين بخدماتها عند ما تغيب المترجمة الرئيسة راشيل، بعد أن قامت بتقديم تدريب مكثف سريع في مجال الترجمة، وطلبت منها القيام بالترجمة الأمينة دون تلخيص أو تفسير أو نقص أو زيادة في ما تقوله النساء المشاركات في البحث.

من الدروس المستفادة من تعامل الباحثة ا الأمريكية مع هؤلاء المترجمين هو ضرورة التوافق بين المترجمين والمشاركين في البحث، وإدراك أن مجرد معرفة (أو حتى إجادة) اللغة لا يعني بالضرورة إجادة الترجمة منها وإليها. كذلك ذكرت الباحثة أنها وجدت أن الدينكا (هكذا في تعميم كاسح) لا يشاطرونها إدراكها ونظرتها للوقت وضرورة احترامه، وأن للمواعيد وقدسيتها! بل إن للدينكا تعبيرا مميزا لوصف نوع التوقيت هو «توقيت الدينكا » Dinka time وهو يعني بالطبع توقيت يفتقر إلى لدقة! (لعل ذلك يشابه تعبير«مواعيد خواجات» في شمال السودان للدلالة على الصرامة في التوقيت).

«اكتشفت» الباحثة أن كثيرا من رجال ونساء الدينكا لا يعرفون تاريخ ميلادهم بالتحديد (لعدم وجود شهادات موثقة للميلاد والوفاة في جنوب السودان) مما اضطرها لتغيير السؤال المعتاد : «ما هو تاريخ ميلادك؟» إلى «كم عمرك الآن؟». يقوم كثير من السودانيين بتلفيق تاريخ ميلادهم، أو الحصول على شهادات (تسنين) تقريبية من أطباء لتاريخ ميلادهم بناء على مظهرهم الخارجي. تعلمت الباحثة أيضا أنه يعد عند الدينكا من الوقاحة وعدم التهذيب سؤال المرأة (الدينكاوية) عن عمرها، ويساورها شك عظيم في أن أعمار الذين شاركوا في البحث أكبر مما ذكرنه لها .

أخيرا ذكرت الكاتبة أنه ما كان لها أن تكمل بحثها لولا اعتمادها علي قادة الكنيسة التي يرتادها رجال ونساء الدينكا؛ وذلك حيث أن الدينكا شديدو التدين. اعتبرت الباحثة أن قادة الكنيسة هم بمثابة «حراس أبواب» ثقافة الدينكا، فسلطتهم المعنوية لا نظير لها، وبدونهم لم تكن لتظفر بموافقة وتعاون المشاركات في بحثها.

لابد في الختام من القول أن جل ما ساقته الباحثة من نقد سافر ومبطن لسلوك من تعاملت معهم من قبيلة الدينكا كان سينطبق تمام الانطباق على أي قبيلة سودانية أو حتى أفريقية...وهذا بالطبع ليس من باب الدفاع عن الدينكا أو غيرهم، ولكنه من باب التأكيد على ضرورة فهم (وتقبل) الآخر صاحب الثقافة المختلفة، والمنظور المختلف لأشياء تعد «مقدسة» في الثقافة الغربية مثل التمسك بأصول «المهنية» و بالوقت وقيمته، وبالمواعيد واحترامها، وغير ذلك.



بعض الطقوس الاجتماعية عند الدينكا
جيفري ديل

تقديم :نشر الدكتور جيفري ديل هذه الدراسة المطولة في المجلة الأمريكية الرصينة المختصة بعلم الأجناس American Anthropologist في العدد ١١٢ عام ٢٠١٠م .يعمل المؤلف مديرا لمركز «دراسات علم الأجناس والمياه لصحة العالم» في كلية الطب بجامعة جنوب كارولينا بالولايات المتحدة.

اخترت من ذلك المقال الأكاديمي المعنون :

Torture by Cieng: Ethical theory meets social practice among the Dinka Agaar of South Sudan

شذرات قليلة عن بعض ممارسات فرع من فروع قبيلة الدينكا (من أكبر قبائل السودان القديم) هم دينكا اقار والذين ورد في بعض المصادر أنهم ثاروا على المستعمر البريطاني قرب مدينة رمبيك في ١٩٠٢م وقتلوا القائد البريطاني . مما يبعث على الرثاء ويثير الغيظ أن كثيرا من أهل التخصص (وحتى غيرهم) من السودانيين لا يقومون بمثل هذه الدراسات، ويؤثرون «السلامة» والقعود في المدن الكبيرة وممارسة هوايتهم المعتادة في التنظير الشفاهي، ويتركون «الرجل الأبيض» يؤدي عبئه القديم (الأبدي، فيما يبدو) في البحث في شؤون البلاد وشعوبه

نبذة تاريخية مختصرة: منذ أن نال السودان استقلاله في عام ١٩٥٦م كانت كل من الحكومة السودانية في المركز، والقوات المتمردة في الجنوب تحتفظ بنظم قانونية واقتصادية وقوات مسلحة وهوية ثقافية منفصلة. وظل السودان فعليا يعيش كدولتين منفصلتين، اقتصرت تداخلاهما على الصراع (وليس التعاون لمصلحة شعبيهما) والذي امتد ليغدو أطول حرب أهلية في التاريخ الحديث. استمرت الجولة «الأخيرة» من الحرب بين الشمال والجنوب ما يزيد عن ٢١ عاما، قتل فيها ما يزيد عن مليون ونصف من البشر بحسب تقديرات منظمة الصحة العالمية في عام ٢٠٠٥م. لأغراض هذا المقال سيستعمل تعبير «جنوب السودان» ليعني الولايات العشر التي أعطيت حق الحكم الذاتي بموجب اتفاقية الحكم الذاتي الموقعة في عام ٢٠٠٥م. يجب تذكر أنه، وبالإضافة للحرب الأهلية التي كانت قائمة بين القوات الحكومية الشمالية والقوات الجنوبية، فلقد كانت هنالك أيضا حروبا صغيرة عديدة أخرى تدور بين الأعراق المختلفة في جنوب السودان والتي ظلت لقرون في حالة عداء مستمر. كانت تلك الحروب القبيلة تستعر في الغالب بين قبيلة الدينكا وبين غيرها من العرقيات الصغيرة الأخرى مثل النوير والأتوت. تدخلت أحيانا قوات الحركة الشعبية لفض تلك النزاعات المسلحة، بيد أنها لم تصب إلا نجاحا قليلا في ذلك. في تلك الحرب ارتكب الجيش (لم يحدد المؤلف من/ ما هو المقصود هنا. المترجم) أعمالا وحشية ضد السكان، فسطا على أبقار الدينكا (وهي تعد عملتهم التي يتعاملون بها) وأخذها كبار الضباط كغنائم شخصية. جعلت الحملات المتكررة للقوات المسلحة الهادفة لإخماد النزاعات الإقليمية في أوساط الدينكا من استعمال القوة العسكرية ضد المدنيين شيئا معتادا، و ساهمت في توطيد دعائم سطوة قادة الجيش على المواطنين، وعلى حكومتهم المدنية الأخرى (أشار المؤلف هنا لمؤلف د/ فرانسيس دينق المعنون: «حرب الرؤى» الصادر في عام ١٩٩٥م).

عن عمل المؤلف: عمل د/ ديل منذ عام ٢٠٠٣م حتى بداية عام ٢٠٠٨م كطبيب وباحث مستقل في قرية تكاجوك Ticagok في جنوب السودان وفي ما حولها. أتى الرجل في بادئ الأمر للعمل في الجنوب كطبيب بدعوة من إحدى المنظمات غير الحكومية لمدة سبعة عشر شهرا، وجمع خلال عمله الحقلي كثيرا من القصص عن حياة الناس في المنطقة التي عمل بها، وقام بعمل استبانات عن معرفتهم وسلوكياتهم وممارساتهم (تعرف مثل هذه الدراسات اختصارا ب KAP Knowledge, Attitudes and Practices. -المترجم) وكذلك استبانات عن القرابات، وجمع كذلك صورا وتسجيلات كثيرة عن أحوال السكان في تلك المنطقة. سجل كذلك إفادات من أفراد وعائلات تعرضت للتعذيب، ومن القادة المحليين ومسؤولين حكوميين وقادة في الجيش، وكذلك من «مخبرين» وأفرادا عاديين من قبيلة الدينكا. ذكر المؤلف أنه قرأ لهؤلاء الناس ما كتبته، واستعان بكثير من تصويباتهم وإضافاتهم ونفاذ بصيرتهم. جمع د/ ديل نحوا من ٤٤٣ تسجيلا لمقابلات مع السكان المحليين، وللاجتماعات وللطقوس الممارسة، وجمع كل ما تحصل عليه في جداول وأشكال بعد أن أخضعها لعمليات إحصائية مناسبة. يقول المؤلف أنه (بالإضافة إلى هذه الأعمال «الجانبية» فقد نفذ – مع آخرين- وبعون سخي من متبرعين (لا ريب أنهم من غير بني جلدتنا. المترجم) بناء مستوصف صحي كبير، وساعد في بناء مدرستين وعدد من مشاريع المياه.

القصة الأولى: بعد مرور خمسة أيام من افتتاحنا لعيادتنا في تكاجوك تلقيت دعوة مكتوبة للمثول أمام كبير القوم وقاضيهم. امتثلت للأمر وذهبت إلى حيث كان الزعيم تحت شجرة ضخمة من أشجار التين مع ثلة من شيوخ القبيلة الذين بدؤوا في التقاطر على مهل. تمت مساءلتي عن أشياء من قبيل: لماذا لم أعين أناسا بعينهم، ولماذا لم أقم بذبح ثور عند افتتاح العيادة الطبية للظفر ببركات الرب «نيهلاك» Nhialac وهذا طقس من الطقوس التقليدية المعتادة عند قبيلة الدينكا)، وسئلت كذلك عن سبب حرقنا لمراتب قديمة بينما كان من الممكن إعطائها لبعض السكان. كان كبير القوم يخاطبني عند طرحه لأسئلته تلك باسمي الدينكاوي. رددت بالقول أننا عينا من نراه أهلا للمهمة، واتفق معي كل الحضور في أن هذا من حقي. كذلك شرحت لهم أننا قمنا بحرق المراتب لأنها كانت ملوثة بأمراض من كان ينامون عليها – دون غطاء- من المرضى. هز الجميع رؤوسهم دلالة التفهم والموافقة. أخبرتهم أيضا بأننا كنا قد خططنا لإقامة احتفال بمناسبة افتتاح العيادة الطبية، بيد أن نزاعا دمويا كان قد شجر بين طرفين مسلحين على بعد أقل من ٤٠٠ متر من بوابة العيادة، ورأينا أنه سيكون من عدم الحكمة أن نجمع عددا كبير من الناس في مثل تلك الأجواء. وافق الجميع على ذلك التفسير. يبدو أنهم لم يكونوا معترضين على أي من القرارات التي اتخذناها. كل ما في الأمر هو أننا لم نجلس مسبقا مع كبار الشيوخ في القبيلة للتشاور قبل أن نقدم على ما أقدمنا عليه . أحس هؤلاء الشيوخ ببعض الضيق من حالة أننا كنا نقوم بأعمالنا بصورة مستقلة عنهم، وهم يريدونا أن نعمل جماعيا مع أفراد المجتمع المحلي، وليس بمعزل عنه. للدينكا كلمة تفيد معاني مثالية للوحدة والقرارات الاجتماعية المتخذة جماعيا هي كلمة « سينق» cieng تعني الكلمة حرفيا «العيش في ود و صداقة مع بقية أفراد المجتمع» أو «العيش في مكان واحد، أو حي» أو « شخص يمكن تبادل الآراء (السياسية) معه». ذكر المؤلف أيضا تعريفا مطولا للكلمة أتى به د / فرانسيس دينق في كتابه الصادر في ١٩٧٢م عن الدينكا

خلصت إلى أنني ا ستدعيت لمقابلة زعيم القوم وكبرائهم، ليس نتيجة لقرار اتخذته، أو عمل قمت به، بل لتفسير عملية (process) اتخاذ هذا القرار أو تنفيذ ذلك العمل. كان القوم يعتقدون أن ما قمنا به يفتقد إلى «السـينق cieng»، وهو بالتالي عمل غير صالح، بغض النظر عن ما أفضى إليه ذلك العمل من خير عميم .

القصة الثانية: تتلخص القصة الثانية التي حكاها المؤلف عن نزاع مسلح شجر بين فرقتين من أفراد دينكا اقار هما البنيار والنيوي. بدأ النزاع في حفلة رقص شبابي. جرت العادة أن يأتي الشاب حاملا عصا صغيرة ويتقدم نحو الفتاة التي تعجبه ويدعوها للرقص معه بمسـها مسـا خفيفا بعصـاه على كتفها. حدث قبل عام كامل من ذلك النزاع أن قام شاب من النيوي باختيار فتاة من البنيار للرقص معه، لكن الفتاة رفضت العرض، وكررت رفضها عندما طلب منها الرقص معه في رقصة تالية، فأسرها الشاب في نفسه وقرر الانتقام لكرامته التي أهدرت أمام الآخرين. بعد مرور شـهور على ذلك الحفل، صـادف الشـاب الدينكاوي من فرع نيوي وهو مع أبقاره رجلا دينكاويا آخر من فرع بينار يمت بصـلة قرابة لتلك الفتاة، فعالجه بعصـاه بضـربة شـجت رأسـه. قام الشـاب البيناري المضـروب فيما بعد برد الهجوم عليه وانتقم لنفسه بضربات متتالية على ذلك الشاب النيوي أطاحت به أرضا وأسلمته سرير المستشفي أياما عديدة. ما أن شـفي الشـاب النيوي حتى قرر الانتقام، فدعي الشـاب البيناري للقتال. رفض الأخير الدعوة للنزال بذريعة أنه لم يعد يحس بغبن تجاهه، وأن لا داعي للقتال في أمر مضى. أصر الشاب النيوي على الانتقام، وتصاعدت الأمور وزادت تعقيدا عندما حملت فتاة أخرى من البينار من رجل من النيوي. معلوم أن الخطاب في قبيلة الدينكا يحبون الطول في الرجل ويقدرونه، لذا فإنهم لم يقبلوا بالرجل النيوي زوجا وصـهرا لهم، إذ أنه كان قصـير القامة لا يصـلح زوجا لفتاتهم. تعقدت الأمور أكثر عندما تنازع البنيار والنيوي على مرعى للأبقار، فحدثت المزيد من الصـراعات الدموية. حكي المؤلف باسـتفاضـة عن قصـة أخرى تلت القصـة الأولى أدت لمزيد من التعقيدات في الموقف عن خطبة رجل (آخر) من البنيار لفتاة من النيوي، قادت إلى مزيد من سفك الدماء، وعن فظائع وحشية منها أن رجلا قصـيرا من رجال النيوي قتل رجلا طويلا من رجال البنيار. أصـر رجال البنيار أن قتل الجاني النيوي وحده ليس كافيا، إذ لا يستوي الرجل الطويل والقصير عندهم، وطالبوا بقتل رجلين من رجال النيوي كعقاب «تعويضي» لما فقده ذلك الفرع القبلي.

القصـة الثالثة :تقول القصـة هذه والتي عنوانها «قتل في مؤتمر للسـلام» إن لام مالوك (وهو زعيم محترم من البنيار) حاول أن يصـلح بين فرعي القبيلة، فدعا لاجتماع لكبار القوم من الفرعين المتصـارعين. سـرت إشـاعة (شـائعة) مفادها أن البنيار يدبرون مكيدة لقتل كبار رجالات فرع النيوي عند قدومهم لذلك الاجتماع، وذلك انتقاما من مقتل عدد من أفراد فرعهم. تجاهل لام مالوك التهديدات والشائعات واستخدم نفوذه وسلطته لإجبار كبراء فرع النيوي لحضور ذلك الاجتماع. مضى الاجتماع بسلام، ونحرت الذبائح، وعبر شيوخ الفرعين عن ضرورة إيقاف ذلك الصـراع الدامي. عند قرب نهاية الاجتماع (في ذات الشـجرة الضـخمة التي أحضـرت للمثول أمام كبار القوم تحت ظلها بعد أسابيع) برز من بين العشب الكثيف المجاور رجل من البينار كان يراقب المشهد منذ بدايته، ومعه صاحب له، وانتزعوا بسرعة فائقة بندقية من يد جندي كان موجودا في المكان، وأطلقوا النار على شيوخ من النيوي، فقتلوا احدهم، وأصابوا آخر إصابة بالغة، ثم اختفوا في سرعة البرق في دغل مجاور.

حدثت هذه القصـــة بعد نصـــف عام من حمل الفتاة من البنيار من رجل من النيوي، وحدثت بعدها حوادث قتل عديدة. من اللافت للنظر في هذه الحوادث أن رجال القبيلة لا يذكرون اســـم قاتل بعينه عند رواية الأحداث، بل يذكرون أن «بنيارا» قتل «بنيويا». ليس هنالك من يلتفت لبراءة (أو إدانة) شـــخص بعينه، وإنما يذكر فقط فرع القبيلة كلها عند الحديث عن ما حدث من قتل أو جرم.

القصـــة الرابعة عن رجل برئ يجلد: كان القائد جون أويل هو من خطط وقاد الكمين (الناجح) الذي نصـــبه الجنوبيون في عام ١٩٨٥م للجيش الســـوداني، وفيه تم تدمير كامل الفرقة الحكومية، ولم يبق منها إلا نحو درزينة من العربات العســـكرية المدمرة والمحترقة، كانت مقدماتها متجهة نحو الشـــمال، وكأنها كانت في طريقها للهرب نحو الخرطوم. كان جون أويل – مع غيره من الجنوبيين المحاربين- يؤمن أشـــد الإيمان بأنه يحارب من مارســـوا عليه العســـف والظلم والاضـــطهاد طويلا. كان جون أويل يعد «بطلا قوميا» بين شـــعبه، حتى عين كحاكم في احدي الولايات الجنوبية. خاض في وظيفته الجديدة معارك أخرى... ليس ضد الشماليين هذه المرة، بل ضد بعضا من بني جلدته في حروب قبيلة صغيرة.

كنت في تلك الأيام التي قضيتها في الجنوب قد علمت عن مقتل ١١ من الشباب الجنوبيين في صراع دموي بين فرعي قبيلة الدينكا من البنيار والنيوي. ســـمعت فيما بعد أن هنالك أعدادا أخرى (لم تحدد) قد قتلت أيضـــا. هجر الناس قراهم وفروا منها للغابة عبر طرق وممرات طالما ألفوها. تجمع من بعد ذلك بعض الشـــباب من «معســـكر مالكي الأبقار» وحملوا الســـلاح وخرجوا لقتال «أعدائهم» في ســـلســـلة من الحملات الانتقامية. كانت الحصـــيلة (الرسمية) لتلك المعارك هي ٥٢ قتيلا. أسر لي نائب وزير الصحة الجنوبي إن الرقم الحقيقي للضحايا هو أضعاف ذلك الرقم، إذ أن قتلى شباب «معسكر مالكي الأبقار» لم يكونوا – كما هي العادة- يدخلون في الحساب!

كنا ذات يوم أنا وصديق لي في طريقنا من العيادة إلى خيام معسكر سكننا حين مرت بنا سيارة حكومية تحمل الوالي مع عدد من الضـــباط. مرت من بعد ذلك عدد من ســـيارات الجيش تحمل عددا كبيرا من الجنود. لمحت في المقعد الخلفي في سيارة SUV في وسط الموكب العسكري القائد لام مالوك، صديقي الجنوبي الصدوق. كان الجند قد أتوا بصديقي من معسكر الجيش الرئيس بعد جلده. كان الضحية يجلد بعنف شديد بسوط أو عصا خشبية بعد أن يربط حول جذع شـــجرة بحســـب عدد الجلدات التي تقررها المحكمة أو القائد العســـكري. كانت تلك المرة الأولى التي يجلد فيها لام مالوك، وسيجلد من بعد ذلك مرتين أخريين.

القصة الخامسة عن وصول الجنرال وموت شجرة مانجو :يعترف القادة المحليين والإقليمين بأن قرية تيكاجوك Ticagokفي جنوب السودان وما حولها منطقة عصية على الحكم، إذ أن سكان تلك المنطقة من دينكا اقار معرفون بأنهم محاربون يعتزون بأنفسهم وبقدرتهم على خوض الحروب والقتل من أجل أي قضية تقريبا، والقتال هو الطريقة (الوحيدة) لرجال تلك المنطقة من رعاة الأبقار لنيل سمعة طيبة وشهرة واسعة في الشجاعة والرجولة (الحقة .(لقد شـــاهدت بأم عيني رجال تلك المنطقة من المعتقلين وهم يســـبون جلاديهم ويزدرون بمن يقيدهم بالســـلاســـل الحديدية. لم يســـمحوا لجلاديهم قط بتحطيم روحهم المعنوية. كان ذلك يثير غضـــب جون أويل ويدعوه لمزيد من العنف ضد المعتقلين .قرر أويل أن لا بد من تعيين قائد عسكري للمنطقة يكون غاية في الشدة والصرامة والقسوة

حتى يتمكن من فرض السلام في تلك المنطقة المضطربة. وقع اختياره على الجنرال ملوال كوات، وهو دينكاوي من فرع مختلف ومنطقة أخرى. ما أن حط الجنرال رحاله في عاصـمة المنطقة (والتي كانت تبعد بنحو ٤٠ كيلومترا من معسـكرنا) حتى بدأ في العمل ليثبت أنه بالفعل «الرجل المناسـب في الموقع المناسـب»، وذلك بقطع شـجرة المانجو. كان تعبير «قطع شـجرة المانجو» هو التعبير المحلي لمثل ما قام به ذلك الجنرال. كانت هنالك شـجرة مانجو كبيرة على جانب الطريق في طرف المدينة الجنوبي يسـتخدمها الأهالي — ومنذ سـنوات –كمقر للاجتماعات، وللعب الورق (كونكان ١٤) وللدردشة حول « ساس يسوس» و سماع آخر الأخبار من المحطات العالمية، خاصة هيئة الإذاعة البريطانية، حتى أن رجال تلك الشجرة من مختلف الأعمار والاتجاهات كانوا يسمون شجرتهم «البي بي سـي». كانت تسـود بين جل مرتادي تلك الشـجرة روح من الحرية والانطلاق والتحرر من الخوف. كان بعض «الخواجات» (غالبا من البيض ومن غير رجال الدينكا (يغشون أحيانا تلك الشجرة، بيد أنه ليس من المؤكد إن كانوا يشاركون في ما يدور من نقاشات سياسية تحت ظلها الظليل. تشقق الحديث (السياسي) عند البعض وتفرع حتى طال صـراحة بعض الضـباط، وعن كيف أن الحال كان سـينصـلح لو تم عزل بعضـهم عن مراكز القوة والقيادة والسلطة. وصلت أنباء تلك الانتقادات التي كان يجهر بها بعض مرتادي تلك الشجرة لمسامع القائد جون أويل فقام بعمل ناجز وعلني لا يخلو من غرابة. قاد بنفسـه موكبا عسـكريا مع ثلة من الجنود المدججين بالسـلاح إلى تلك الشجرة وأحاط بها. خطب في المحاصرين تحت ظل الشجرة من لاعبي الورق بالآتي: «إن كان من بينكم أحد أعلى رتبة مني فليظل جالسا، ولتقف البقية ». هب بالطبع الجميع وقوفا. مشى القائد يتوكأ على عصاه بهدوء وتمهل نحو الرجال الواقفين وتفحص في وجوههم. أمر بأحد «الخواجات» فأخرج من وسـط رجال الدينكا وأوسـعه ضـربا مبرحا. ما أن فرغ منه حتى أمر جنوده بضرب كل الموجودين ففعلوا، ثم اعتقلوا بعضا منهم وأودعوهم السجن. لم يغادر المكان إلا بعد أن أصـدر أمره بقطع الشـجرة، وتم في نهاية ذلك اليوم تنفيذ الأمر باجتثاث الشـجرة. حتى يوم كتابة هذا المقال ظل جزع الشـجرة الضـخم المقطوع ملقي على الطريق، ربما لتذكير كل من تسـول له نفسـه نقد الحكومة بالأخطار المترتبة على فعلته!

عند وصول الجنرال ملوال كوات لقريتنا أمر بالقبض فورا على عشرات الأفراد من لهم أدنى صلة بالرجل الذي اغتال شيخ القبيلة في مؤتمر للسلام سبق الإشارة إليه. شهد الكثيرون ما حدث ذلك اليوم، وكان القاتل رجلا معروفا بين الناس. رغم ذلك أصـر الجنرال ملوال كوات على اعتقال كل فرد في أسـرة القاتل. كان القاتل قد فعل فعلته تلك ثم ذهب لمنزل أخته حيث حلق شـعر رأسـه (ليعطيه ذلك كما قال بعض الذكاء) وليتدبر في أمر تفادي القبض عليه. سمع الجنود بتلك القصة فاعتقلوا أخت الرجل وأوسعوها ضربا وتعذيبا. خلال التعذيب أقرت الأخت أن أخاها القاتل زار والدته لمدة قصـيرة وكان يتحدث عن تسـليم نفسـه للسـلطات. زعمت الأخت أن والدة القاتل أثنته عن تسليم نفسه، وأخذته إلى كاهنين لعمل سحر يقيه شر الاعتقال. تم على أثر ذلك اعتقال الأم كذلك وجلدت بالعصا — وعلى فترات– ما مجموعه ٣٠٠ جلدة (أفادت بعض المصـادر أن والدة القاتل جلدت نحو ألف جلدة)، وهذا أكبر رقم سـمعت به في حياتي. تم كذلك اعتقال الكاهنين وجلدهما. رأيتهما في السـجن، بيد أني لا اسـتطيع تأكيد حالتهم الصحية بعد الجلد، ولا علم لي بأنهما استطاعا تحمل الجلد، وعاشا بعده. صرح الجنرال ملوال كوات بأنه لن يتوقف عن الجلد والتعذيب إلا بعد أن يسلم القاتل نفسه للسلطات. سبق لي أن لاحظت أن السكان كانوا في حالة شكوى دائمة من الجنرال ملوال كوات لأنه كان يداوم غزو ديارهم ويسلب أبقارهم ويعذبهم بوسائل بشعة منها على

سبيل المثال أن يحفر للضحية حفرة يرمي فيها وتشعل حولها نار متقدة، أو أن يحصر الضحية في مكان بالغ الضيق ثم يرش عليه رماد روث الأبقار. لم تسلم عيادتنا الصغيرة من شرور ذلك الرجل وجنوده، الذين كانوا «يغزون» عيادتنا طلبا للسيارات والأدوية.

كان «مخبورنا» يتفهمون سلوك الجنرال ملوال كوات على أنه سلوك رجل شديد القسوة قد كلف بمهام عسيرة، وأنه كان يقوم بمهمة عقاب جماعي لجريمة ارتكبها فرد واحد من فرع للقبيلة، ويرون ذلك أمرا «معقولا» يسهل تفسيره عندهم.

القصة السادسة عن ذنب المؤتلفين: قام الجنرال ملوال كوات باعتقال كل من فر من مكان جريمة القتل التي حدثت في «مؤتمر السلام» الذي دعا له كبير القوم. فر من المنطقة أحد الرجال من دينكا البينار (كان يعمل ممر ضا) عندما سمع بأن دينكا النيوي ينوون الانتقام لمقتل كبيرهم. تم اعتقاله بدعوى أنه فر مع رجل يحمل بندقية رغم أن كثير من أصدقائه ومعارفه أكدوا للسلطات أنه لا يملك سلاحا. قابلت والد الرجل في مركز للشرطة، وكان في غاية الضيق وهو يحكي أن ولده بريء مما نسب إليه، وأنه يلقى أسوأ معاملة في السجن. حاولت التوسط لإطلاق سراحه، ولكن دون جدوى. بعد شهور من السجن والجلد المتواصل وافق الجنرال ملوال كوات على إطلاق سراح الممرض المسكين، وتركه في عهدتي الشخصية. دبرنا له وظيفة كممرض في عيادتنا لنضمن إطلاق سراحه. طالبني كثير من المسجونين بالتوسط لإطلاق سراحهم كما فعلت مع ذلك الممرض، بيد أني لم أنجح في ذلك إلا في حالات قليلة فقط. اكتشف الممرض عند إطلاق سراحه أن رجال الجيش قد استولوا على كل أبقاره وأكلوها، وبذلك نجحوا في القضاء عليه فعليا، إذ أنه فقد كامل ثروته ولم يعد له في الزواج من أمل .

كان موقف والد ذلك الممرض غريبا .فمن ناحية كان يؤمن ببراءة ولده ويدافع عنه، وطلب مني التوسط لإطلاق سراحه، ومن ناحية أخرى كان يؤمن أيضا أن فرع القبيلة التي ينتمي لها القاتل مسؤولة – بصورة جماعية- عما جرى. هذا ما اسميه «ذنب المؤتلفين».

بعد شهور من وقوع الحادثة وأسابيع من إطلاق سراح الممرض، وفي يونيو من عام ٢٠٠٧م سلم القاتل نفسه للسلطات. كان الرجل قد أصيب بطلق ناري في ساقه قامت بنتي الكبرى بعلاجه. وجدته حيث كنا نقوم بتطعيم الجنود والمساجين ضد داء التهاب السحايا (السحائي)، ذلك المرض الذي كان قد انتشر في المنطقة قبل شهور وقضى على المئات من الأطفال. استخدمنا الوباء كغطاء للوصول للسجناء، وحررنا بعضهم، ودافعنا عن آخرين. في يوم من الأيام كنت في السجن أقوم بالتطعيم حين شهدت مساجين يجلدون. لعل تلك كانت رسالة من السلطات لي لتذكرني بمن بيده القيادة. وبناء على نصيحة من منظم عالمية للدفاع عن السجناء سجلت خلسة في ورقة مخصصة للتسجيلات الطبية أسماء المساجين، وأريت المسؤولين ذلك السجل آملا أن تسهم معرفة العالم الخارجي بأسماء أولئك المساجين في حمايتهم على الأقل.

بعد ثلاثة أيام من القبض عليه، نجح ذلك السجين المتهم بالقتل في الفرار رغم أنه كان مربوطا بسلسلة حديدية إلى مسجون آخر. ما زال ذلك السجين فارا بعد مضي ٣ سنوات من القبض عليه أول مرة .أقامت الحركة الشعبية قاعدة دائمة لها في قريتنا «تيكاجوك»، وأمر قاضي هناك بإطلاق سراح جميع السجناء هنالك. لم تدفع أي تعويضات للأبرياء الذين تمت مصادرة ممتلكاتهم وجلدوا ظلما دون ذنب جنوه. تم نقل الجنرال ملوال كوات لمنطقة أخرى لمدة عام، ثم استدعى مرة أخرى لمنطقتنا بعد حدوث مزيد من الصراعات القبيلة المسلحة. قال لي أحد أبناء الجنرال: «إن المنطقة تحتاجه لأنه يعرف كيف يتعامل مع هؤلاء الناس»

أطلق سراح لام مالوك أخيرا بعد ثبوت براءته مما نسب إليه، وبعد أن شفيت الجراح التي نتجت عن الجلد المستمر. رحل الرجل إلى جوبا حيث بدأ في عمل تجاري متواضع. ظل كثير من دينكا النيوي يطالبون بقتل لام مالوك الدينكاوي البنيار جزاء على جريمة اغتيال كبير دينكا النيوي. رحل غالب دينكا بنيار من قرية «تيكاجوك» بعد الأحداث طلبا للسلامة، وانتقلوا لمنطقة بعيدة أقاموا فيها قريتهم الجديدة .توا صلت الحملات الانتقامية بين فرعي القبيلة، واستمرت معدلات القتل في التزايد. وفي هذا الأثناء نشب قتال عنيف بين دينكا اقار والأتوت لأسباب تشابه ما ذكرنا من قبل.

خاتمة: اختتم المؤلف مقالته بنقاش فلسفي عن «حقوق الإنسان» من وجهة نظر عدد من الفلاسفة من أمثال سيكتس إمبريكس وديفيد هيوم ونيشتة وهيجل، وبين الفروقات في مفهوم «حقوق الإنسان» عند أولئك الفلاسفة، وعن علاقة كل ذلك بالأحوال السياسية والواقعية العملية، وطرق التعامل مع «حقوق الإنسان» في ظروف وأوضاع مختلفة في أرجاء العالم. ناقش كذلك مفهوم الدينكا للعقاب، ومسؤولية الفرد (البريء) عن أخطاء فرد أو أفراد من قبيلته. يقول الكاتب أنه يجب تحليل وفهم «العنف» الوارد في القصص المذكورة ضمن فهم شامل لرؤية الدينكا لمفهوم «العقاب الجماعي» والأوضاع السياسية غير المستقرة وحالة الحرب التي تمر بها البلاد، وكذلك مفهوم «السينق « Cieng الذي سبقت الإشارة إليه، وهو مفهوم عند الدينكا يختلف عنه عند جيرانهم النوير.



بين علمين: حياة البارون سير ردولف سلاطين

Between two flags: The life of Baron Sir R. Slatin Pasha

غوردون بروك شيبيرد

تقديم: نَشر المؤرخ «غوردون بروك شيبيرد» في عام ١٩٧٢م هذا الكتاب عن سيرة وحياة الضابط النمساوي رودلف سلاطين (١٨٥٧–١٩٣٢م)، الذي عمل في خدمة الحكم التركي في السودان منذ ١٨٧٩م، ثم ادَّعى الإسلام وسلَّم نفسه لأنصار المهدي في دارفور في ١٨٨٢م بعد أن أيقن من عدم جدوى المقاومة، وظل أسيراً لدي المهدي، ثم خليفته عبد الله التعايشي، إلى أن تمكن من الفرار من أسره إلى مصر، وما لبث أن عاد مع جيش الجنرال كتشنر الذي أعاد احتلال السودان في عام ١٨٩٨م، وعمل في خدمة الحكم الثنائي (البريطاني/ المصري) إلى عام ١٩١٤م. يسرد الكتاب سيرة الرجل منذ طفولته المبكرة وحتى وفاته، بيد أن اهتماماتنا –كسودانيين - بتاريخ الرجل كثيراً ما يقتصر على عمله في بلادنا في العهود الثلاث المذكورة آنفاً وبكتابه الشهير المثير لكثير من الجدل «السيف والنار في السودان»، رغم أن كامل تاريخ الرجل يتصل اتصالاً عضوياً قوياً ببعضه البعض، ولا يمكن فهم شخصية الرجل والكثير من أفعاله دون معرفة كامل قصة حياته وجذوره العائلية.

شغفت (على المستوى الشخصي) بتاريخ سلاطين منذ أن وقع في يدي كتابه مُعرَّباً وأنا في نهاية المرحلة الوسطى، وما زلت بالسيرة الدرامية لهذا الرجل الاستعماري المثير للجدل كلفا، ولا أدري إن كان رجال السينما قد حولوا قصة حياته المثير لفيلم سينمائي طويل، رغم علمي أن فيلماً وثائقياً من ٩٠ دقيقة عن «السيف والنار في السودان» قد أنتج بالفعل في ربيع ٢٠١١م تجد بعض المعلومات عنه هنا:

http://www.filminstitut.at/en/slatin-pascha---feuer-und-schwert-im-sudan

وسبق أن أنتجت في عام ١٩٦٧م حلقات تلفزيونية عن حياة الرجل بعنوان:Slatin Pascha

ولا أدري لم تقاعس أهل الدراما عندنا عن الكتابة المسرحية أو التلفزيونية أو السينمائية عن هذا الرجل، فحياته في نظري المتواضع «كنز درامي» لمن أراد الكتابة... ولو من باب ما يسمى بـــ«إعادة كتابة التاريخ»، وهو مفهوم لنا فيه رأي ليس هذا مكانه

ولد رودلف سلاطين في قرية قرب فينيا في ٧/ ٦/ ١٨٥٧م، وكان الرابع بين أطفال والدته آنا، ووالده مايكل سلاطين التاجر النمساوي (والذي تحول لأسباب «عملية/ مصلحية» من اليهودية للمسيحية الكاثوليكية في ٢٥/ ٣/ ١٨٣٨م بتوصية من أحد المتنفذين في الحكومة). تعود أصول عائلته اليهودية إلى «بوهيميا» في دولة التشيك. بحث المؤلف مطولاً مستعيناً بمتخصصين في فينيا في نوعية التجارة التي كان يمارسها والد ردولف سلاطين، وخلص إلى أن ذلك الرجل تقلَّب كثيراً في المهن، فقد سجَّل مهنته في شهادة ميلاد ابنه كصبَّاغ مرخص للحرير، ثم سجل مهنته عند دخول ردولف للمدرسة كتاجر للفاكهة، ثم غدا بائعاً للثلج، وعند التحاق ابنه رودلف بالمدرسة الحربية كان مهنة الوالد هي «صاحب منزل»، وكانت تلك هي إحدى وظائف رجال الطبقة البرجوازية في فينيا. من المؤكد أن الرجل لم يكن له طيلة حياته عمل ثابت أو ثروة تذكر، فمات ولم يترك لأبنائه ما يورث، وهذا ما دعا كل أبنائه للتخلي عن تراثهم اليهودي في التجارة والأعمال، وانصرفوا لأعمال تدر دخولاً محدودة لكنها مضمونة، مثل مهنة التدريس أو الإدارة أو المحاماة.

كان ردولف طالباً ثانوياً متو سط المستوى، ولم يدُرْ بخلده أبداً أن يغادر بلاده ويغامر بالهجرة لبلاد بعيدة، أو على الأقل لم يصرِّح بذلك لأحد من العالمين. ولكن ما لبثت حياته أنْ تغيَّرت بالكلية عندما سمع عن بائع كتب في القاهرة يبحث عن م ساعد له يجيد لغات أجنبية وقليل من المعرفة بعلم التجارة. ترك سلاطين كل شيء و سافر للقاهرة – وهو في الســابعة عشــرة من عمره – للعمل مع ذلك البائع. لم يكن قد ســافر من قبل ذلك لأي مكان خارج بلاده في حياته، ولم يكن له معارف أو أصحاب خارج نطاق عائلته الصغيرة. لا أحد يعلم سبب اختياره للسفر للقاهرة، ولكن لعله كان مفتوناً بأفريقيا وسحرها الغامض، وبقصص المغامرين من الألمان في تلك السنوات. قضى سلاطين الفترة بين ١٨٧٤– ١٨٧٥م في جو القاهرة الكوزموبولتياني (العالمي) مع المهندســين والتجار والمســاحين والعلماء والجنود والمغامرين الذين جابوا صـحارى السـودان المضـطربة التي كان يحتلها، ولخمسـين عاماً خلت، خديوي م صر. سافر سلاطين مثلهم للسودان وجاب أنحاء كردفان وجبال النوبة، وكان يرغب في الذهاب إلى إقليم دارفور الم ضطرب، بيد أن الـسلطات الم صرية لم تعطه الإذن بالذهاب لأ سباب أمنية. قنع سلاطين بالبقاء في الخرطوم مع مغامر ألماني يدعى إدوارد إشنتسر كان يعمل في إدارة حكم الخديوي. كان سلاطين في التاسعة عشرة من عمره حين ا ستدعاه — وهو في الخرطوم – الجيش النمساوي المجري للخدمة الالزامية، فحزم حقائبه وآب لبلاده حيث عمل مجنداً في أرض البو سنة، ولكن ليس قبل أن يطلب من صاحبه الألماني ادوارد ا شنت سر أن يتو سط له عند الجنرال غوردون ليعود ويعمل في خدمة الخديوي. قضى سلاطين فترة خدمته في جيش بلاده، وعاد للقاهرة ثم للسودان في بداية عام ١٨٧٩م وعمره ٢١ عاما. وجد ســلاطين أن الحكومة وفَّرتْ له منزلاً وعدداً من الخدم، وكان غوردون حفياً بالشـاب النمسـاوي، ويكن له وداً خاصـاً، ولأهل النمسـا عامة، إذ كان عمل من قبل في «مفوضـية الدانوب» بالنم سا، وكان يحرص على لقائه يومياً ليختبره و«لي ضعه في الـ صورة». تم تعيينه كمفتش حـ سابات لفترة قـ صيرة في «المسلمية» بيد أنه لم ينجح في أداء وظيفته تلك لأنه — كما قال – وجد الفساد في تحصيل الضرائب شائعاً وتصعب السيطرة عليه. عُيِّن بعد ذلك مديراً لدارا في جنوب غرب دارفور. لم يأبه البتة للمرتب الضئيل الذي توفره الوظيفة، أو قائمة الأمراض الطويلة في تلك المنطقة التي تبدأ بالحمى الصــفراء والديســنوتاريا والملاريا وتنتهي بالكوليرا والجذام. في يومه الأخير بالخرطوم، قابله غوردون في باخرته الراسية على النيل الأبيض، وقضيا بمفردهما وقتاً طويلاً بالليل يناقشــان الأحوال المتردية في دارفور (رغم رداءة لغة ســلاطين الإنجليزية حينها). عند الصــباح الباكر بدأ سلاطين رحلته الطويلة غرباً على ظهر حـصان صغير أهداه إليه غوردون، وظل ذلك الحـصان رفيقاً له لأربعة أعوام قادمة. قابل في منتصف الطريق في الأبيض (عاصمة كردفان) مفتش الصحة السويسري زوربوخن، والذي كان أيضاً في طريقه لدارفور. ســافرا معاً لذلك الإقليم في يونيو ١٨٧٩م. خلال المســيرة الطويلة لدارا كان طلاب الحاجات يتقاطرون على سلاطين من كل حدب و صوب بعد أن سرت إ شاعة أنه ابن عم غوردون (ربما بـسبب عينيه الزرقاء اللون ووجهه الحليق). أورد المؤلف قصة (قال إنها طريفة) حدثت لسلاطين وهو في طريقه لدارا، حيث قابله شاب وســيم في التاســعة عشــرة من عمره شــغفت به (من جانب واحد) امرأة عجوز شــمطاء قبيحة ولكنها بالغة الثراء و«أغرته» بالزواج منها، رغم أنه كان يحب شابة في عمره في الخرطوم. جاء الشاب لسلاطين يرجو تخليصه من براثن تلك الشـمطاء الثرية. حكم له ســلاطين بما أراد، فإذا بالعجوز تقتحم عليه داره (مخالفة قواعد «الإتكيت» العربي) بوجهها المتغضن و شعرها الشائب المدهن وبصوتها الذي يشبه صوت ببغاء محموم، وكادت تفتك به لولا تدخل الحارس، والذي كان خارج الدار يسمح صراخ العجوز. كانت للقصة نهاية سعيدة، إذ يقول المؤلف أن سلاطين

قابل بعد سـنين عديدة ذات الرجل وقد تزوج من محبوبته الأولى وأنجب منها عدداً من الأطفال، وكان في غاية الامتنان لسلاطين لتخليصه من براثن تلك العجوز الشمطاء (عبء الرجل الأبيض في أنبل تجلياته!!! المترجم).

وصـل سـلاطين للفاشـر حيث قابل حاكم إقليم دارفور الإيطالي مسـيداقليا، ثم توجه جنوبا لدارا في رفقة مفتش الصـحة السـويسـري، والذي كان يحسـبه الناس – بسـبب مظهره وعمره – الحاكم القادم لدارا، وليس سـلاطين. استغل سلاطين ذلك الانطباع وتقدم موكب الرجل السويسري، وأعلن للأهالي من مستقبلي حاكم دارا القادم أنه رئيس حرس الحاكم القادم، وطفق يسـأل الناس عن الأحوال في دارا وعن إخلاص الموظفين والأهالي وغير ذلك من دقيق المعلومات. عند حضور الدكتور السويسري لدارا ظنه الناس بالفعل أنه حاكمهم الجديد فمضوا يدبجون أمامه الخطب الطويلة، والقصائد المادحة، والأهازيج المرحبة، وكان سلاطين مستغرقاً في الضحك والسخرية من موقف السويسري الذي كان في حيرة مما يجري أمامه، خاصة وهو لا يعرف العربية مثل سلاطين .

في أول أيامه في دارا، وبينما كان يتناول طعام إفطار رمضان مع جمهرة من كبار القوم جاءه رسول من حامية صغيرة في «بير قوي» تفيد بأن السلطان هارون (المتطلع لحكم دارفور) على وشك الهجوم عليهم ، لذا فقد جاءوا لسلاطين طلباً للعون. على الفور رمى ما بيده من لحم وركب حصـانه ومعه ٢٠٠ من العسـكر السـودانيين و٢٠ من الأتراك والمصريين واتجه صوب «بير قوي»، والتي وصلها عند المغيب بعد مسيرة يومين. أصيب سلاطين عند وصوله بحمى وصـداع قوي عالجه شـيخ (طبيب) المنطقة بالضـغط على جانبي رأسـه، وقراءة بعض الأدعية والتعاويذ بالعربية، والبصق على وجهه بين حين وآخر! غضب سلاطين من البصق على وجهه فدفع بالشيخ بعيداً عنه. عرض عليه الشيخ إحدى خدمه الحسان كممرضة وخبيرة بأمراض المنطقة، ولكن رفض سلاطين العرض شاكرا، ونام ليلته ليصحو في صباح اليوم التالي وهو في تمام العافية، مما رفع من أسهم الشيخ الطبيب عند الأهالي. بقي سلاطين في انتظار هارون وجيشـه دون جدوى، فقضـى وقته يتجول في الأسـواق حيث تباع الملابس والكبريت، والفتيات أيضـا. بعد يومين بلغته الأخبار بأن هارون سـمع بمقدم سـلاطين فولاه الدبر. لم يجد سـلاطين أمامه ما يفعله فآب لدارا. ما إن حلَّ عام ١٨٨٠م حتى كان سلاطين قد بسط سلطته على المنطقة وقضى تماماً على تمرد هارون. في أبريل من عام ١٨٨١م بعث الخديوي لسلاطين رسالة بالفرنسية يبلغه فيها بتعيينه حاكماً لكل إقليم دارفور بديلاً للإيطالي مسـيداقليا. بعد عامين من ذلك التاريخ قام شـيخ الرزيقات «مادبو علي» بالانضـمام لجيش المهدي والتمرد على سلاطين. حارب سلاطين التمرد، بيد أنه خسر في معركة «أم وريقات» ٨٠٠٠ من جنده، وتراجع مهزوماً لمركزه في دارا جريحاً بطلقة نارية في يده اليمنى فصلت أحد أصابعه. اعتنق سلاطين الإسلام – اسمياً – لكسب ود جنوده المسـلمين وسـمى نفسـه «عبد القادر» إذ كان قد سـمع من أفضـل مخبريه في دارا (وهن عاهرات البلدة) أن جنوده عندما يشبعون من «المريسة» تنحل عقد لسانهم (وملابسهم أيضا) ويصرحون بأن سبب هزيمتهم هو أن قائدهم كافر بالله ورسـوله. فرح الجنود والضـباط بإعلانه الدخول في الإسـلام وبتوزيعه للحم عشـرين ثوراً على الجنود ككرامة (عبء الرجل الأبيض وتضحيته ونبله أيضا. المترجم.)

عند تسـجيله للأحداث التي جرت أثناء حصـار المهدي الطويل للأبيض، سـرد المؤلف قصـة الجندي الألماني جو ستاف كلوتز والذي كان ضمن جنود هكس باشا، ثم قرر تسليم نفسه لجيش المهدي. أحضر الجندي الأبيض (والذي كان المهدي وجنوده يحسبونه ضابطاً إنجليزيا) إلى مجلس المهدي تحت ظل شجرة ضخمة من أشجار التبلدي خارج مدينة الأبيض، حيث تم استجوابه استجواباً دقيقاً أبلغ فيه الرجل المهدي بما يود أن يسـمعه من أن جيش هكس ضعيف منقسم على نفسه لا أحد فيه يؤمن بأنه سينتصر. سُرَّ المهدي أيما سرور بتلك الإفادات وكافأه، ليس فقط باستبقائه على قيد الحياة، بل وبإجلاسه بقربه على مائدة الطعام، وأخذه لقطع لحم مشوية مختارة بعناية، وإعطائها بيده له، وتلك إشارة نادرة الحدوث دالة على عظيم الامتنان.

عندما سمع سلاطين (عبد القادر) بسقوط الأبيض وهزيمة هكس باشا في شيكان قرر إعلان هزيمته واستسلامه للأمير مادبو، حيث كُبِّل بالأغلال وأرسـل للمهدي مخفوراً كأسـير حرب. قبل ذلك سـلم إدارة إقليمه لمسـاعده محمود خالد (وهو من أبناء عمومة المهدي). كانت الليلة التي سـبقت تسـليمه لنفسـه هي أتعس ليلة في حياته... كيف لا وقد كانت — للمفارقة الحزينة – هي عشـية ليلة الميلاد. مضـى يتذكر أيامه الخوالي في وطنه، وطافت بعيون عقله المسـافر في النمسـا ذكرى تقاليد احتفالات تلك الليلة في فينا الجميلة من شـجرة عيد الميلاد في كل بيت، والشـموع المضـيئة، وأجراس الكنائس، وصـناديق الهدايا المغلفة بأزهى الألوان. في صـبيحة اليوم التالي راقب — وبحزن عميق جنوده يسلمون أنفسهم وأسلحتهم لسيدهم المهدوي الجديد، ثم قام بمصالحة عدوه الماكر المراوغ مادبو، والذي كان في حالة عداء مستعر معه لعامين سابقين، والذي كان يعده «عدواً عاقلا» يستحق كامل الاحترام. أعاد سلاطين لمادبو طبول الحرب التي كان قد غنمها منه في غارة ليلية ذات صيف مضى، ووضع معها سيف من سيوفه دلالة على الكرم وحسن النية. رد مادبو التحية بإهداء سلاطين أفضل جواد في إسطبله.، بيد أن سلاطين اعتذر عن قبول الهدية واكتفى بقبول كلمات نصح قليلة من الشيخ الحكيم جاء فيها: «أنا مجرد رجل عربي، ولكن اسمع لنصحي. كن مطيعاً والزم الصبر. الصبر فضيلة عظيمة، وإن الله مع الصابرين». لسنوات طويلة قادمة علقت تلك النصيحة بعقل سلاطين، وكان يتحلى بالصبر آملاً في حدوث الفرج.

قضى سلاطين الأسابيع الأولى من عام ١٨٨٤م في معسكر محمود خالد (مرؤوسه السابق) في دارا يتفرج – في عجز – إلى عمليات التمشـيط والتطهير التي تحدث في المديرية التي كانت تحت إمرته ولوقت قريب. سـيطر المهدويون على الفاشر بعد أن سقطت دارا في أيديهم. كان سلاطين يعي دوماً أن القسوة المفرطة هي من الحقائق الثابتة في السودان مثلها مثل الرمل أو الشـمس. بيد أن عمليات التعذيب والفظائع التي يقول إنها ارتكبت على يد جنود المهدي في دارا والفاشـر فاقت الوصـف. شـمل التعذيب تعليق المرء من رجليه إلى أن يؤدي تراكم الدم في رأسـه (هكذا) لإصـابته بالإغماء. قام خالد محمود (حاكم دارفور الجديد) بجلد ضـابط مصـري ألف جلدة في اليوم لثلاثة أيام متتابعة حتى يعترف بالمكان الذي خبأ فيه ذهبه. تأثر سلاطين من ذلك التعذيب الفظيع فتوسط لإطلاق سراح الرجل. وافق خالد محمود شريطة أن ينبطح سـلاطين على الأرض أمامه (وتلك عندهم غاية الإهانة). فعل سـلاطين ذلك من أجل حماية الضـابط المصري فأطلق سراحه، ولكنه مات بعد أربعة أيام فقط من ذلك. حاول الضابط المصري في لحظات حياته الأخيرة أن يبوح بمخبأ ذهبه لسـلاطين، ولكن سـلاطين منعه من ذلك بحزم، وتم دفن المصـري مع سـره «الدفين» (عبء الرجل الأبيض ونبله مجددا). المترجم

كانت تلك مجرد «بروفة» فقط لما سيراه سلاطين من المهدي وجنوده لاحقا. في يونيو من عام ١٨٨٤م قابل سلاطين (وبعد مرور نصف عام من تسليمه لنفسه) المهدي. حدث اللقاء في معسكر مفتوح بمدينة الرهد جنوب شرق الأبيض. وصف سلاطين المعسكر بأنه بحر من قطاطي القش تمتد على مد البصر. أعطاه خادمة جبة قصيرة مرقعة تناسب لقاء المهدي، ووصفها سلاطين بأنها جعلته يبدو كـ«امرأة ترتدي ثوب استحمام تنكري»! قبل سلاطين (عبد القادر المسلم في هذه الحالة) يد المهدي بعد انتهائه من الصلاة وجثا على الأرض أمامه يردد البيعة. ربط الضابط النمساوي – المجري بتلك الكلمات التي رددها نفسه بعقيدة المهدي، وبحمايته والذود عنه (في المنشط والمكره) وبعدم خذلانه أو الفرار منه. قضى سلاطين بعد ذلك ساعات طويلة في ترتيل المصحف والراتب والصلاة في جماعة من الصبح حتى المساء. سمح له أخيراً بالانصراف وتحرك بصعوبة صوب داره جراء جلسته القرفصاء لساعات طويلة.

سرد المؤلف قصة حصار الخرطوم ومقتل غوردون صبيحة يوم ٢٦ يناير ١٨٨٥م، وإحضار رأسه للمهدي بعد ساعات قليلة من سقوط العاصمة. ظلت الخرطوم – كما قال - بعد سقوطها، ولعدة أيام مسرحاً لعمليات تعذيب ونهب واغتصاب وحرائق متعمدة (تماماً مثل ما حدث في الأبيض عندما فتحها المهدي). لم ينج من القتل سوى الفتيات الجميلات اللواتي تم توزيعهن (بالترتيب) على القادة والأمراء والشيوخ بعد أن اختار المهدي نصيبه العادل منهن. تم بيع البقية الباقية منهن في سوق الرقيق. فوجئ سلاطين بعد خمسة أيام من سقوط الخرطوم بتقييده بالسلاسل وأخذه على ظهر حمار إلى السجن العمومي، حيث أضيفت له سلسلة أخرى تزن ١٨ رطلاً تدعى «حاجة فاطنة»، وهذه لا تضاف إلا للسجناء الخطرين. عرف فيما بعد أن السبب في تلك المعاملة هو اكتشاف مراسلات سابقة بينه وبين غوردون باشا اعتبرت عملاً من أعمال الخيانة للمهدية. عد سلاطين نفسه محظوظاً لعدم قتله بسبب تلك الخيانة العظمى. وجد في ذلك السجن الإنجليزي ليبتون الذي كان حاكماً لبحر الغزال، وقد ابيض شعر رأسه وهو ما زال في الثلاثين من عمره من هول ما تعرض له. بعد أسبوعين لاحظ سلاطين تغير معاملته في السجن، وتحسناً ملحوظاً في الطعام المقدم. ألقى سلاطين (ثم ليبتون) خطبة عصماء يغلب عليها المكر والملق والتذلل على مسامع الخليفة عند زيارته للسجناء، وأسفرت تلك الخطبة عن تخفيف القيود الحديدة الضخمة التي كانت تحيط بأرجلهما. أعجبت خطبة سلاطين المهدي فطلب منه إعادتها. قبل السجينان يد المهدي وسمح لهما بالانصراف. سمح للبيتون باللحاق بزوجته وعياله في المعسكر، ولسلاطين بالالتحاق – بناءً على رغبته - بالعمل كمساعد شخصي للخليفة. منح سلاطين قطعة أرض تبعد ٦٠٠ ياردة فقط عن بيت الخليفة ليبني عليها له ولخدمه ثلاث قطاطي، وأرجعت إليه ممتلكاته التي صودرت منه عند سجنه)وهي ٤٠ جنيها نقداً وحلي ذهبية)، وأعطي كذلك ملابس ونسخة من القرآن الكريم باللغة الفرنسية كانت تخص أوربي اسمه «اوليفر بين» كتعويض عن ما سرق عنه. وعده الخليفة أيضاً بتزويده بعدد من الزوجات قائلاً إن «الرجل بدون ذرية مثل شجرة شوك لا ثمر فيها».

يقول الكاتب إن سلاطين لاحظ أن وزن المهدي قد ازداد زيادة ملحوظة منذ أن رآه آخر مرة قبل عام أو نحو ذلك، وعزا ذلك لانغماسه في حياة الترف والدعة والفسوق (هكذا). لزم المهدي فراش المرض في ١٤ يونيو ومات بعد ذلك بستة أيام، وقيل إن إحدى زوجاته (من ضحايا الحرب) انتقمت لنفسها بوضعها سماً في طعامه، ولكن سلاطين يرجح أن السبب في مرضه القاتل كان التيفوس وليس غيره.

تولى الخليفة زمام الأمور، وبايعه أقرباء المهدي وصحابته المقربين، والملازمين (مثل سلاطين)، وتبعهم بقية الناس. مضى سلاطين ولمدة ١١ سنة قادمة يخدم سيده خليفة المهدي ويظهر له الخضوع والذلة. عندما سطر سلاطين ذكرياته عن تلك الفترة الطويلة من الذاكرة ، اختلطت عليه في بعض الحالات الأحداث من شدة كثرتها وازدحامها وتداخلها.

وصف سلاطين الخليفة عند تسلمه السلطة كرجل (بقاري) حسن البناء، خفيف الحركة، في أخريات الثلاثينات من عمره، صاحب عينين جميلتين سوداويين وشعر فاحم. وما إن انقضى عقد منذ ذلك التاريخ حتى غدا الخليفة، ربما بسبب حياة التآمر والهموم والخوف والترقب وقلة الحركة والانغماس في حياة الترف والدعة، رجلاً سمينا، ثقيل الحركة، ومبيض اللحية. احتفظ الخليفة مع مرور السنين رغم ذلك بصفاته الأخرى مثل حدة الطبع والقسوة والشك المفرط والحقد وسوء الظن بالناس، وتضاعف مع السنوات غروره، وتعاظمت رغبته في سماع المديح وعبارات التزلف والملق ممن حوله. لا ريب أن سلاطين كان متفهماً جداً لنفسية الخليفة، وأفلح في استغلال فهمه هذا لكسر حواجز الشك حوله، فاطمأن إليه الخليفة وأمن جانبه، والدليل على ذلك أنه بعث به بعد شهور قليلة من أسره مع مجموعة من الناس على رأسهم صديقه يونس (وهو من أقرباء الخليفة) لود العباس التي تقع على النيل الأزرق على بعد ٢٥٠ ميلا جنوب أم درمان. مما يدلل على تمكنه من نيل ثقة الخليفة أنه طلب من الخليفة أن يأخذ معه ٣ من خدمه الأربعة في رحلته مع يونس إلى ود العباس، بيد أن الخليفة رفض طلبه، ولكنه أمر بأن توفر له كافة وسائل الراحة الممكنة في رحلته تلك. وبعد شهور من تلك الحادثة، كان الخليفة يقوم بجولة تفتيشية خارج أم درمان في يونيو من عام ١٨٨٧م وكان من الواجب على سلاطين أن يجري خلف سيده وهو على جواده. تصادف أن أصيبت رجل سلاطين بحجر أو زجاجة وهو يهرول خلف سيده، وبدأ الجرح ينزف بغزارة. بيد أن سلاطين لم يأبه لدمه النازف وواصل الجري خلف حصان الخليفة، الأمر الذي أكبره الخليفة فأصدر من فوره أمراً بتخصيص حصان لسلاطين ليركبه خلفه. ودع بذلك سلاطين أيام الجري خلف موكب الخليفة، وهي – كما ذكر لاحقاً لأحد البريطانيين - كانت أشقى أيام حياته، إذ تشققت قدماه وأدمتا من كثرة المشي والهرولة والجري على الرمضاء خلف حصان الخليفة.

بدأ الخليفة مع مرور الوقت يألف سلاطين ويحبه، فسلاطين رجل لطيف لا يُمل. كان الخليفة في نظر سلاطين صاحب طبع مشاكس وملول ومزاجي. فقد يدعوه يوماً لتناول الطعام على مائدته، ويناقش معه في ود بائن أمور العالم وشؤون السياسة، ثم يغضب منه فجأة بلا سبب ظاهر ويعرض عنه أياما .

كان الجنس هو المتعة الجسدية الوحيدة التي سمحت بها المهدية بعد أن منعت الناس من شرب الخمور وتدخين التبغ وفرضت أقسى الأحكام على من يمارسهما. فمثلاً كان من يُقبض عليه وهو يشرب المريسة يُطاف به على السوق مقيدا، ويرشقه الناس بالتراب والطين، ثم تكسر على رأسه طاسة (عبَّار) ما كان يحتسي، ثم يجر إلى القاضي الذي يأمر بجلده ٨٠ جلدة على أقل تقدير. كانت الأحكام قاسية تفرض حتى على من يسب أو يستخدم كلمة نابية أو بذيئة، حيث العقوبة هي ٨٠ جلدة عن كل كلمة. يقول الكاتب إن الخليفة سمح للناس بإفراغ كل مشاعر الإحباط لديهم في الجنس، حيث سهَّل لهم الزواج بأربع نساء (بمهر اسمي لا يزيد عن خمسة دولارات للواحدة)، وأي عدد يرغبونه من السراري (المحظيات) حسب قدرتهم الجسدية والمالية، وسهل كذلك الإجراءات المتعلقة بالطلاق. لاحظ سلاطين أن بعض معارفه من السودانيين تزوجوا خلال عقد واحد من الزمان قضاه معهم

أكثر من أربعين أو خمسين امرأة. تطرق سلاطين أيضاً لشيوع ما سماه تأدباً بـ«الحب غير الطبيعي»، وكيف أن الخليفة حاربه بنفي المبتلين به. كان كتاب سلاطين «السيف والنار في السودان» موجهاً للطبقة الراقية من الأوربيين المتدينين في العصر الفيكتوري، لذا كان مجرد الإشارة فيه لعلاقة جنسية بين أوربي متحضر وامرأة سودانية ستثير الاشمئزاز، تماماً مثل أي علاقة جنسية بين إنجليزي وهندية أو هندي وإنجليزية. لكن مما لا شك فيه إن سلاطين قد انغمس كغيره من السودانيين في الجنس، فلقد تزوج من حسينة، وهي امرأة دارفورية ذات أصل ملكي عندما أعلن إسلامه أيام حكمه لدارفور. أفاد سجين أوربي أن سلاطين بعد أن فرَّ من قبضة الخليفة كان قد ترك وراءه زوجة حبشية وضعت طفلاً منه بعد أيام من هروبه. عوملت تلك المرأة معاملة الرقيق بعد فرار زوجها، ولم يعش طفلها الوليد لأكثر من أيام قليلة. كان التنافس بين الرجال في عدد الزوجات والمحظيات يومها حاميا، فهو دليل دامغ على القدرة المالية والجسدية. لا شك أن سلاطين خاض مع الخائضين في ذلك، فتنقل ما بين من كن يلفظن من حريم الخليفة ويهدين إليه، إضافة إلى ما كان يختاره بنفسه من النساء. كانت المرأة الأولى التي أهديت إليه كما وصفها سلاطين «سمينة سوداء، بشعة الوجه، فطساء الأنف، كبيرة الشفتين، وذات عينين ضيقتين وصوت خشن منفر، ورغم كل ذلك وجدت في نفسها الجرأة لتسمي نفسها «مريم». (هنالك كثير من الشواهد الأخرى على أن سلاطين متطرف في عنصريته ضد السود، حتى بمقاييس العصر الفيكتوري الذي عاش فيه. المترجم). لاحظ الخليفة عدم رضاء سلاطين عن الهدية الأولى فبعث إليه في اليوم التالي بفتاة صغيرة أقل قبحا. توالت عطايا الخليفة النسائية على سلاطين، ففي رحلته إلى سنار عام ١٨٨٥م بعث إليه الخليفة بإحدى زوجاته – كما يزعم - لتقوم على خدمته إن مرض أو أصابه شيء .ذكر سلاطين فيما بعد أنه يقر بأن تلك المرأة كانت جميلة جداً رغم سواد لونها. شك سلاطين بذكائه الفطري أن في الأمر خدعة، فرد الهدية قائلاً إن الخادم لا يحق له أخذ زوجة سيده. سر الخليفة أيما سرور بذلك التواضع الظاهري وكافأه بمنحه إحدى جلاليبه البيض التي سبق أن باركها المهدي. كانت تلك هدية يمكن أن يقاتل عليها الأنصاري المتعصب ويفقد يده اليمنى دونها .كان سلاطين دائم الشكوى من أن الخليفة لا يعطيه مرتباً ثابتا، بل يرسل إليه مزيداً من الزوجات (مثل امرأة مصرية مولودة في السودان، وأخرى من سبايا غزوة الحبشة) مما يزيد من أعبائه المالية.

بعد قضاء ١١ عاماً في أسر الخليفة فر سلاطين إلى مصر بعون من السير ونجت وشيخ من شيوخ العبدلاب في رحلة طولها ١٠٠٠ كيلومتر واستغرقت ثلاثة أسابيع. سرد الكاتب قصة هروب سلاطين بتفصيل كثير، وتفاصيل قصة الهروب معلومة لدى الكثيرين.

شارك سلاطين في حملة «استعادة السودان» (١٨٩٧–١٨٩٨م)، فرافق في منتصف صيف عام ١٨٩٧م حملة كتشنر من وادي حلفا إلى أبي حمد، والتي تم احتلالها في ١٨٩٧/٨/٧م بعد قتال عنيف مع حامية المهدي فيها. وصلت الحملة إلى مدينة بربر في يوم ٣١/ ٨ من ذات العام، ولم يبق لها إلا نحو ٢٥٠ ميلاً لبلوغ أم درمان. كان كتشنر على عجلة من أمره ليجهز على حكم الخليفة، إذ كان يخشى أيضاً من أن يسبقه البلجيك أو الفرنسيين إلى ذلك. كان سلاطين يكاتب الملكة فيكتوريا من أرض المعركة مباشرة، وأحياناً عن طريق صديقه طبيب الملكة – وكان ذلك بموافقة وتشجيع منها -وبدون علم كتشنر. كتب سلاطين للملكة فيكتوريا من مروي خطاباً شدد فيه على أنه من المستحيل السيطرة على أم درمان دون الحصول على المزيد من التعزيزات العسكرية الأوربية (المقصود بالطبع البريطانية)، وأنه من المتعذر الحصول على مثل تلك التعزيزات في الشتاء. برر سلاطين ذلك بتدني الروح المعنوية

والإرهاق الشديد الذي أصاب الجيش المصري بعد أن قطع تلك المسافة الطويلة، وكيف أن مينليك ملك الحبشة (والذي كان انتصاره على الإيطاليين قبل عامين من ذلك التاريخ هو سبب الاستعجال لاسترداد السودان) كان يفكر في احتلال جنوب السودان. كذلك لم يتورع سلاطين عن كسر قواعد إتيكيت بلاط الملكة البريطانية (وهو ليس مواطناً بريطانيا) بطلبه من الملكة إمداده ببعض المال إذ أن تلك الحملة قد قضت على ما كان معه من مال، وبعمله كعين للملكة على مجريات أحداث حملة «استعادة السودان» دون معرفة قائدها كتشنر. لعل كتشنر كان قد أحس بما كان يقوم به سلاطين من خلفه، فاستبقاه في وادي حلفا، ولم يشركه في معركة هامة ضد محمود ود أحمد وعثمان دقنة في أتبرا في يوم الجمعة ١٨٩٨/٤/٨م. رغم أن سلاطين لم يشهد تلك المعركة، فقد كتب عنها للملكة كشاهد لم ير بعينه ما حدث! من المؤكد أن سلاطين كان قد كتب للملكة أيضاً عن معركة كرري (جرت المعركة يوم ١٨٩٨/٩/٢م، حيث واجه ٢٥٠٠٠ من جنود كتشنر نحو ٥٠ ــ ٦٠ ألفاً من جنود الخليفة عبد الله في السهل الرملي بين تلال كرري وأم درمان) حيث أن هنالك وثيقة تثبت أن الملكة كتبت لسلاطين تطلب منه أن يوافيها بوصف كامل ودقيق لما جرى في معركة كرري، وعن ملاحظاته ومشاهداته الشخصية في تلك المعركة. كان سلاطين حريصاً على ملاحقة (أو قل الانتقام) من «صديقه» القديم الخليفة عبد الله، غير أنه أخطأ هدفه، فذهب في جهة، بينما كان الخليفة قد انسحب من جهة أخرى! لقد نجح الخليفة ــ بينما كان أعداؤه يبحثون عنه وسط تلال الجثث المتراكمة - في أن ينسل خفية لأم درمان في رفقة عدد قليل من حراسه. قضى الخليفة ساعتين تحت قبة المهدي ليرتاح ويصلي ويتأمل في ما ينبغي عمله. دخل كتشنر مدينة أم درمان من جهة الغرب، بينما خرج منها في نفس الوقت تقريباً الخليفة من جهة الجنوب متجهاً إلى كردفان معقل أنصاره على بعد ٥٠٠ ميل على النيل الأبيض .حاولت فرقة بريطانية ملاحقته لبعض الوقت ثم تخلت عن الملاحقة، ولكن إلى حين.

مضى كتشنر يزيل آثار المهدية في أم درمان، فأحرق مسجد المهدي ونبش قبره، بل وأراد أن يستعمل جمجمته كمحبرة (عدل كتشنر عن ذلك، ودفن الجمجمة لاحقاً في مقبرة بوادي حلفا) وأقام قداساً لروح غوردون على أطلال قصره في الخرطوم. أرسل سلاطين ــ كعادته - رسالة تهنئة إلى الملكة فيكتوريا في قلعة بال مورال يعبر فيها عن فرحته بعودته لمكان أسره الطويل في «مقدمة» هكذا جنود الإمبراطورية ورفقائهم المصريين، وبنصرهم على عدوه القديم.

بعد نحو عام من انسحاب الخليفة من أم درمان أرسل الجنرال «ونجت» للبحث والقضاء على الخليفة ومن معه، ونجح في ذلك في معركة «أم دبكيرات» يوم ٢٤ /١١. تلقى سلاطين في اليوم التالي وهو في النمسا برقية تقول: «سلاطين - فينا. قتلنا الخليفة اليوم. واطسن» سارع سلاطين بإرسال برقية للملكة يشكرها على تذكرها إياه وعلى الخبر السعيد.

بعد معركة كرري، توالت على سلاطين الجوائز والأوسمة والألقاب، وكان قادة الجيش البريطاني الغازي يدركون أهمية الرجل في الفترة التي أعقبت سقوط المهدية مباشرة، إذ أنه كان الشخص الوحيد الخبير بالمدينة، وبالأشخاص المعتقلين وأهميتهم، والموالين والأعداء. بدا أن كتشنر مستعد لتلقي بعض العون من سلاطين في بداية حكمه، بيد أنه لم يكن يرغب في إسناد أي دور مهم لرجل نمساوي في إدارة مستعمرة بريطانية، رغم حب الملكة له. كتبت الملكة فيكتوريا في مذكراتها بعد تلقيها خبر انتصار كتشنر ربما متأثرة بما كان يمدها به سلاطين من أخبار): «إن نساء الدراويش (الأنصار. المترجم) لا يصمتن مثل بقية نساء المحمديين الأخريات، ولا يتوقفن عن إحداث الضجيج (مثل قطيع من الأبقار)...إنهن سريعات الانفعال ويثرثرن بلا انقطاع، ويلبسن أقل الملابس. لقد كان سلاطين مسئولاً عنهن،

إذ أنه يستطيع الحديث معهن ويعرف كثيراً منهن. لقد هجر الخليفة زوجته الأولى في عرض الطريق، وهي سيدة فاضلة في الأربعين من عمرها وطولها ستة أقدام. إن سلاطين يعرفها، إذ أنها كانت تحسن إليه وهو في محبسه، وتحميه من قسوة الخليفة. إن سلاطين يرغب في أن يرد جميل تلك السيدة عليه.»

دعت الملكة سلاطين رسميا لزيارتها في قصرها في ونستر في يوم ٢٨ فبراير ١٨٩٩م، بل وطلبت منه البقاء في القصر إلى ٣ فبراير من ذات العام. كانت تلك زيارة ناجحة تبادل فيها(العقيد) سلاطين مع الملكة الصور والهدايا التذكارية. تم ترقية سلاطين إلى رتبة عميد (وعمره ٤١ سنة) في عام ١٩٠٠م، وعين في خدمة الحكم الثنائي كمفتش عام. سافر في يناير ١٩٠١م إلى مديريته القديمة دارفور مبعوثا من وينجت باشا للتفاهم مع سلطانها علي دينار للاعتراف بالحكم الجديد في الخرطوم. رفض السلطان استقبال سلاطين أو حتى مجرد دخوله للفاشر، فرجع للخرطوم حسيرا. يبدو أن علي دينار فكر فيما بعد في الأمر مليا، فبعث بمبلغ ٥٠٠ جنيه إسترليني لحكومة الخرطوم كدلالة على الاعتراف بها، ووعد بإرسال هذا المبلغ كل عام. كان سلاطين من أنصار ترك علي دينار ما ترك الخرطوم وشأنها، وقاوم دعوات من أراد ضم دارفور للسودان. مع بداية الحرب العالمية الأولي في ١٩١٤م تمت إحالته للمعاش من خدمة الحكومة البريطانية لأسباب تتعلق بالحرب بين بريطانيا وموطن سلاطين (النمسا-المجر). وجد سلاطين نفسه في ذات الوضع الحرج الذي كان عليه في دارفور، مجبرا على الاختيار بين الاحتفاظ بعقيدته الكاثوليكية أو اعتناق الإسلام لينجو بنفسه وينقذ جنده .في هذه المرة كان عليه الاختيار بين الانحياز لقومه (في النمسا) أو قوم وطنه الثاني (بريطانيا). وفر عليه القرار البريطاني بالاستغناء عن خدمته في السودان مشقة الاختيار .

ظلت الحياة الشخصية لسلاطين موضوعا للحدس والتخمين. فقد سألته امرأة في القاهرة بعد هروبه من السودان إن كان سيتزوج، فأجاب بسرعة: «أنا!؟ لقد بقيت مسجونا لمدة ١٤ سنة. ولا أنوي تكرار التجربة مرة أخرى»، بيد أنه اقترن بالبارونة أليس فون رامبيرج في يوم ٢١/ ٦ /١٩١٤م، وأنجب منها بنته الوحيدة آنا ماريا. خصص ما بقي له من سنين من عمره في خدمة بلاده الأصلية في مجالات العمل الطوعي الإنساني، فساهم في تخفيف آثار المجاعة التي ضربت فينا بعد نهاية الحرب العالمية الأولى، وفي إعادة أسرى الحرب النمساويين لبلادهم مستخدما صلاته الوثيقة والقديمة مع البريطانيين. أصيب في آخر سنواته بالسرطان ومات في فينا مسقط رأسه في السادس من أكتوبر من عام ١٩٣٢م. شارك في جنازته باعتباره بطلاً قوميا - رئيس النمسا الفيدرالي، وثلة من علية القوم في بريطانيا ومن عملوا معه في مصر والسودان، ولم يستطع السير ونجت – رفيقه المخلص- المجيء من اسكتلندا لحضور الجنازة، وكان ذلك مصدر ألم كبير له.

ختم الكاتب فصول كتابه بالقول بأن سلاطين « كان فوق كل شيء رجلا أوربيا بحق. كانت أوروبا تعني له أكثر مما يعني له أي قطر في العالم. وكان التناغم بين شعوبها المتحضرة هو شاغله الأكبر. قدم هتلر وهدم كل ما كان يعمل له سلاطين من تناغم ساد القارة بعد عام ١٩١٨م.



لمحات عن الخرطوم في العشرينات
سطور من كتاب «الإبل» بقلم دانيال إستريتر

تقديم: هذه شذرات قليلة من كتاب صدر في عام ١٩٢٧م بعنوان «الإبل Camels » من تأليف الأمريكي دانيال ستريتر من دار نشر بوتنام. لا يعرف الكثير عن هذا الكاتب (والصياد المغامر) غير أنه ولد في ٢/ ١١/ ١٨٨٣م، و سافر في رحلة صيد في «أدغال أفريقيا» أثمرت صيدا وفيرا وكتابين هما: Denatured Africa (و صدر في عام ١٩٢٦م) وهذا الكتاب Camels ، ثم أتبع ذلك برحلة صيد للإسكيمو عام ١٩٢٩م أثمرت كتابا سماه Arctic Rodeo. يصف كتاب الإبل رحلة المؤلف من باريس إلى القاهرة، ثم بالباخرة حتى الخرطوم والنيل الأزرق ومكوار (سنار) ثم نهر الدندر وسنجة وغيرها من أماكن الصيد في السودان.

أسلوب الكاتب يتميز بسرعة الإيقاع وبساطته (مع شدة التأثير)، وبروح ساخرة تلامس أحيانا حد الإساءة العنصرية، والتي يبدو أنها لم تكن مستقبحة عند الغربيين في تلك العقود. في الكتاب أيضا صور عديدة لبشر وحيوانات وطبيعة؛ وأشدها تأثيرا في نظري الصورة التي تلت غلاف الكتاب مباشرة، وهي لرجل سوداني هزيل الجسم يجلس على الأرض مطأطئ الرأس، عريان إلا من عمامة ملفوفة بعناية، وأسمال يواري بها سوأته، وقد بانت ضلوعه ودقت عظامه، وكتب تحت الصورة:

A Sudanese Galahad- Enough of his physique to explain his inertia

«فارس (أو نبيل) سوداني: ما ظهر من بنية جسده يفسر قعوده»**!**

المترجم

عند وصول الكاتب الصياد الخرطوم كتب عنها ما يلي: «بدأت الشمس في الغروب ككرة حمراء هائلة. وقفت أغصان أشجار النخيل دون حراك في الهواء الساكن. كنت جالساً في حديقة مراقب حظيرة الحيوانات الوحشية. سمعت بعد قليل أصوات (في الأصل « صراخ») المؤذنين الحادة تنطلق من مآذن كثيرة تدعو المسلمين للصلاة. وكما هي عادتهم في ذلك التوقيت، تجمع أيضا الإنجليز أيضاً، ولكن ليس للصلاة! تجمعوا في ركن ظليل لممارسة طقسهم اليومي المعتاد: شرب شاي المغرب ثم تتبع بعد ذلك المشروبات الكحولية sundowners! لم يكونوا في حاجة لقسيس صاحب رئة نحاسية ليذكرهم بصوت أجش خشن للقيام بطقسهم القديم المعتاد!

أتى النقيب كولدثيرست مراقب حظيرة الحيوانات الوحشية (وهو من بإمرته كل ذي ظلف أو مخلب أو قرن في السودان ...أرض المليون ميل). كان النقيب شديد المحافظة على حيواناته، ويردد دوما القول بأن من يصيب أي حيوان من هذه الحيوانات، فكأنما يصيبه هو شخصيا. استرخينا في كسل على كراسي قماش ممدودة في الحديقة. دون أن يتحرك، التفت إلي وقال:« هل لك أن تسدي إلي خدمة عندما تذهب لنهر الدندر». لم يكن أمامي إلا أن أوافق. ثم قال: «إن رأيت غزالا مريضا، فأرحه من عذابه». وسكت برهة وأردف قائلا: «آوه...وإن رأيت صيادا حبشيا يقتل حيواناتي، فدعه يتجرع من ذات الكأس!». سألته في براءة: «هل تعني أقتله؟». رد في بساطة: «أطلق عليه الرصاص لتقتله». سألته دون حماس: «وكيف لي أن أعلم أنهم صيادون أحباش ؟». رد علي وهو يرجع رأسه لو ضعه الطبيعي: «لن تخطئهم. فهم مدججين بالسلاح». مضيت أحلم بالصيادين الأحباش في يقظتي ومنامي...كنت أراهم في كل ظل، وخلف كل شجرة...بأعينهم الحمراء وأفواههم المفتوحة التي يسيل منها اللعاب.

بعد أن انقضى نصف الليل، قمت مودعا الرجل واتجهت لرصيف المحطة، وأنا في حيرة عما يجب فعله الآن. مر أمامي خلق كثير من مختلف الأجناس والأشكال. كنت على وشك الاستجابة لنداءات رجل نوبي جالس على عربة «كارو» يجرها حصانان صغيران، عندما وضعت قدمي على المركبة هبت ما اعتقدت أنه عاصفة ترابية (هبوب). كان أحدهم قد أخبرني بأن الخرطوم تتعرض لعواصف ترابية قادمة من الصحراء تلف المدينة برداء من الرمال الناعمة، والحصى الصغيرة الخشنة، وتضفي عليها مزيدا من الكآبة والعبوس. أتتنا تلك العاصفة بالذات بسرعة غير مسبوقة. في تلك اللحظة أتاني من يخبرني بأننا نحتاج لأن نضم في معيتنا خادم وطباخ ورجل يجيد سلخ الغزلان التي نصطادها. أقترح على «عبده خليل» كطباخ (ومرتبه سيبلغ أربعة جنيهات في الشهر)، و«علي جمعة» كخادم (وينال نفس راتب الطباخ)، وصبياً لغسل الأواني اسمه «فضل سعيد»، ويبلغ راتبه جنيهين...لم يكن ذلك كل شيء. نحن نحتاج – ابتداء- لاثنين من السود (استعمل المؤلف كلمة darkies ، وهي من الكلمات «العنصرية» المستهجنة في لغة اليوم) لصيد الغزلان التي سيسلخها ذلك «السلاخ»، وبذا نفرغ نحن للاسترخاء فوق العشب، ونلعب البريدج (لعبة ورق).

طمأنني الرجل بأن كل شيء «تحت السيطرة»، وأنه ظل منذ أسبوع يخطط لهذه الرحلة. سنسافر لسنار بالبر، حيث ستقابلنا الجمال هناك وهي محملة بصناديق الزاد. في ذلك الأثناء، هدأت العاصفة الترابية، وتمكنت حينها من رؤية عربة الكارو والحصانين الصغيرين، وصاحبهما النوبي. كان وجه ذلك النوبي بالغ البشاعة!

قفزت لتلك العربة التي تشبه الكفن المستعمل، متجها نحو فندق «الجراند أوتيل». أشار مرافقي بيده نحو الجهة اليمنى وقال: «ذلك هو المستشفي المدني»... يا له من مسكين! لم يكن يدري بأنه سيكون طريح الفراش في أحدى الغرف الخاصة في ذلك المستشفى، حيث سيدرك عمليا بعضا من ممارساته المروعة. وأصل الرجل شرحه فقال: «وعلى هذا الطريق [لعله يقصد شارع فيكتوريا (القصر الآن). المترجم] ستجد الحدائق العامة، وتمثال غوردون وهو على صهوة جمله، وقصر الحاكم العام». أسس كتشنر المدينة في عام ١٨٩٨م، وصمم طرقها لتشابه في الشكل سلاسل من العلم البريطاني. كانت الطرق واسعة جدا، وتتشعب كلها من ميادين صغيرة... ربما حتى يسهل حصدها بالأسلحة الرشاشة! (لا يعلم المترجم العلاقة المقصودة هنا!). يا الله... ستنعم هذه المدينة الصغيرة أخيرا ببعض النظام. لا يتجاوز عدد السكان ٣٠٠٠٠ نسمة من مختلف السحن والأعراق والأشكال...خليط من غجر وأغاريق وسوريين ونوبة ودناقلة وشلك ومختلف «أنواع» الأعراب.

على الجهة الأخرى للنهر تقع الخرطوم بحري، وسكانها نحو ٢٠٠٠٠ نسمة، وعلى جهة أخرى تقع أمدرمان بسكانها البالغ تعدداهم ٧٠٠٠٠ نسمة. تلك هي «باريس الصحراء»...من وجهة نظر الأهالي بالطبع! أو هي كما قرأت في أحد الكتب: «نبض السودان»! «Sudan pulse» قلما تخلو عائلة من قبائل وعائلات السودان الرئيسة من «وكلاء» أو «ممثلين» لها في تلك البقعة!

توقفنا عند مبنى أبيض اللون، ســماه مرافقي «كابتوز» (لعله يخص أحد التجار الأغاريق. المترجم) كانت فيه غرفة تســتخدم كمخزن، وهي تضــم صــفا من الصــناديق المغلقة بأقفال (طبل) ضــخمة، وعلى كل صــندوق كتبت محتوياته بعناية (سكر، شاي، قهوة، صابون الخ). كان ذلك ما يعنينا ونحن في الخلاء عندما نريد الحصول على شيء ما. كثيرا ما كانت تحدث بسبب ذلك مشاجرات صاخبة بين أفراد خدمتنا. فعندما يبدأ «عبده» في البحث عن غرض ما، نسمعه يصرخ في «علي» ويكيل له سباباً قا سيا (باللغة العربية طبعا). ويقوم «علي» على إثر ذلك بتفريغ غضبه في الصبي «فضل» بإعطائه «علقة ساخنة» لمدة دقيقتين كاملتين بفرع من أفرع شجرة سنط ضخمة. لا ريب أن «فضل» سيجد من ينتقم منه لاحقا بصورة أو بأخرى!

تعجبت من عدم وجود مفرمة لحم من ضمن مقتنياتنا، و سألت مرافقي عن المفرمة، فقال متعجبا بأنه ظن بأنني طلبت أن نحمل الضروريات فقط. أفهمته بأنه سوف يشكرني لفكرة المفرمة هذه، فاللحم الأفريقي عبارة عن جلد به ما يشبه أسلاك أوتار الكمان، ويتطلب المضغ مرتين أو ثلاثة قبل البلع، وحتى بعد كل هذا المجهود، فقد تصادف ما يعيق عملية البلع. طلبت منه أيضا الحصول على كل ما في المدينة من مختلف أنواع الصلصة ومرق التوابل، عسى أن يغطي كل ذلك على طعم ذلك اللحم.

ســرنا بعد ذلك في طرق ترابية مغبرة، وفجأة وجدنا أنفســنا في الجنة...في شــارع عريض مســفلت يمتد على طول النيل الأزرق وتظلله أشجار لبخ ضخمة متشابكة الأغصان. شيد على حافة ذلك النهر منحدر صخري تتلاطم المياه على جنباته في صمت.

تســير الحياة على شــاطئ ذلك النهر على قدم وســاق. تســمع من على البعد ســاقية تدور وتشــق صــمت المكان بصرخات شؤم يسببها احتكاك محورها الخشبي مع سنادها الخشبي الجاف، وتجاهد جرارها الطينية الصغيرة عبثا أن تروي ظمأ جذور زاحفة لا حصــر لها. على النيل الأزرق ترى بعض «المراكبية» على مراكبهم الشــراعية البدائية يحملون الرمال والطوب اللبن وروث الأبقار، فإن العاج واللبان والأبنوس ليس من نوع البضاعة التي تحملها تلك المراكب الصغيرة. ومن البعد نرى كذلك عشرات الحمير، والأجساد العارية تغطس وتظهر بين الفينة والأخرى في مياه النيل الأزرق الهادئة.

رأيت على البعد جزيرة توتي، وميزت قطيعا من الغنم والمعز يقاد لشرب الماء من النهر في مشهد كأنه مأخوذ من الكتاب المقدس مباشــرة. ترتوي تلك الأنعام من مياه ذلك النهر الوديع، بينما يقوم رعاتها – تنفيذا للتعاليم المحمدية– بالوضوء استعداد للصلاة...إنه بحق «نهر الحياة»!

وصلنا للفندق...«الجراند أوتيل». حول الفندق تجد أصنافا من الناس تصعب معرفة أعمالهم الحقيقية، وبعض عربات الكارو والحمير. فجأة ظهر أمامنا رجل قوي عسكري المظهر كان هو «عبده»، وآخر بالغ الضعف والهزال، كأنه مصاب بفقر الدم...كان ذلك هو «علي»، وصبي صغير يشبه القنفذ، من أحد أركان من فمه يسيل بطريقة «فاتحة للشهية!؟» سائل لزج ...كان ذلك هو «فضل». نصحني مرافقي – وحفاظا على الهيبة و«البرستيج» بألا أمس شيئا قط، بل أشـير لأحد المرافقين بما أرغب في القيام به! أفادني أيضـا بأن «عبده» يتحدث قليلا من الإنجليزية فقط، و«علي» يدعي معرفتها، وأن فضل أصم وأبكم –على الأقل من وجهة نظرنا– .

لم يبق لنا إلا أن نختم اليوم بزيارة مراقب حظيرة الحيوانات الوحشية لتناول مشروبنا الأخير. كان آخر ما سمعته من ذلك الإنجليزي الصارم أن الحكومة تحظر دخول الصيادين المحترفين إليها، فسياسة الحكومة هي الحفاظ على الثروة الحيوانية الوحشية. إن البلاد بالنسبة للصياد الهاوي (الرياضي) هي جنة حقيقية».



The Story of Khartoum قصة الخرطوم

C. A. J. Walkely سي أي جي وويكلي



تقديم: هذه ترجمة مختصرة لشذرات قليلة من مقال نشر في العدد الثامن عشر من مجلة «السودان في مذكرات ومدونات» الصادرة في عام ١٩٣٥م، للكاتب سي أي جي وويكلي عن تاريخ الخرطوم. يتكون المقال من ٢١ صفحة (ولعل هذا هو الجزء الأول فقط من ما كتبه السيد وويكلي، إذ أنه ينتهي بكلمة «يتبع»). حاولت تلخيص ما رأيته مهما في المقال، والذي ورد في ختام جزءه الأول رسم بديع متقن لميدان المديرية بالخرطوم (ربما في العهد التركي)، لا أدري إن كان الرسم للمؤلف نفسه أم لغيره. أورد المؤلف كذلك في مقاله كثيرا من المراجع التاريخية مما لا يتسع المجال لذكره هنا. الجدير بالذكر إن الشبكة العنكبوتية تذخر بكثير من المعلومات المبسطة (والمغلوطة في بعض الأحايين) عن إنشاء مدينة الخرطوم، فبعضهم يذكر أن المدينة أنشئت على يد الحكمدار عثمان جركس باشا البرنجي عام ١٨٢٤م، بينما يقول آخر إنها أنشئت عام ١٨٢١م. ويقول موقع الجزيرة إن الخرطوم «...كانت في البداية غابات وأحراشا قبل أن يؤسس بها والي مصر محمد علي باشا بعد تغلبه على سلطة سنار في ١٨٢١م مدينة عرفت باسم الخرطوم، وأصبحت في العهد التركي المصري عاصمة للسودان بدلا عن واد مدني...»! هنالك رسالة لدرجة الدكتوراه من جامعة القاهرة عام ١٩٦٣م عن «تاريخ مدينة الخرطوم تحت الحكم المصري ١٨٢٠ – ١٨٨٥م» للدكتور أحمد أحمد سيد أحمد، نشرها فيما بعد د/ عبد العظيم رمضان في كتاب صدر في سلسلة بعنوان «سلسلة تاريخ المصريين» بعد أن ذكر أنه وجد الرسالة الجامعية معروضة للبيع في سوق للكتب المستعملة في سوق الأزبكية! وللدكتور الراحل محمد أبو سليم كتاب بعنوان «تاريخ الخرطوم»، ولدكتور جعفر ميرغني محاضرات مسجلة عن تاريخ الخرطوم وعلاقته بتوتي والمحس، تجدها مبثوثة في عدد من المواقع الإسفيرية.

لا يعرف الكثير اليوم عن تاريخ ما يسمى الآن بمدينة الخرطوم، ولكن الرغبة في احتلال الأراضي، والتوسع التجاري، واستكشاف منابع النيل كان لها بالتأكيد تأثير بالغ في الحركة المبكرة نحو جنوب السودان والتجارة معه. تقف صور بقايا مقابر «طيبة» على ذلك شهيدة. ترى في مقبرة من تلك المقابر لحاكم السودان (من سلالة هيو الحاكمة Hiu XVIII) صورا للأعراق الجنوبية التي حكمها، وزعماء قبائل مع تابعيهم يحملون قواربا مع قوم من زنوج يجلسون عليها، وقطيع من الأبقار، وملكة على عربة تجرها ثيران تشبه الثيران الحبشية، وفوق رأسها مظلة

(شمسية) ملكية. لعل أول أثر مكتوب عن زيارة لمنطقة قريبة من الخرطوم هو ما نقشه «يونا Una» حاكم صعيد مصر عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد (ق م) عند غزوه للسودان ومروره جنوب مدينة الخرطوم الحالية.

حكمت مصــر على مر العصــور بإمبراطوريات الفرس والإغريق والرومان، وحاول كل هؤلاء، دون كبير نجاح، ســبر غور المســار الغامض للنيل ومنابعه. لم يســجل التاريخ أكثر تلك المحاولات. بيد أن المؤرخين ســجلوا محاولات الإمبراطور الفارســي قمبيز لتتبع مســار النيل في الرمال الحارقة في أرض إثيوبيا (النوبة). تقف «مروي» بأهراماتها وآثارها، والتي سميت بهذا الاسم على أخت قمبيز، ولا تبعد كثيرا عن شندي، كدليل آخر على المحاولات الا ستكشافية لذلك الإمبراطور الفار سي. سجل هيرودوت أن الجنود المصرين الذين هجروا جيش فرعون مصر ياســمتيك اتجهوا جنوبا نحو أثيوبيا واســتقروا في المنطقة الواقعة جنوب مروي، في المنطقة الواقعة بين النيلين الأبيض والأزرق. نجح الجغرافي وأمين مكتبة الإســكندر ية الإغريقي اراتوســثينس Eratossthenes في جمع معلومات مكنته في حوالي عام ٥٠ ق م من أن يرســم، وبدقة معقولة، خريطة للنيل حتى الخرطوم. في حوالي عام ٥٠ ق م كتب الفيلسوف والجغرافي بلايني الأكبر (٢٣ – ٧٩ ق م) أن المستكشفين الإغريق در سوا النيل، وأن بعض رحالة إغريقي اسمه سايموندس عاش في مروي لمدة خمسة أعوام كاملة، بينما توغل آخر (اسمه داليون) عبر النيل لمناطق بعيدة جنوب الخرطوم.

لما عزم نيروNero (الذي حكم الإمبراطورية الرومانية بين عامي ٥٤ و ٦٨م، واشتهر بمحاولة حرق عاصمته روما ليفســح – كما زعم- مكانا لبناء مجمع ضــخم له. المترجم) على غزو الســودان، أرســل أولا للبلاد ٢٠٠ من الجنود في رحلة اســتكشــافية في عام ٦٦م. رحب أمراء النوبة الودودين بهولاء «المســتكشــفين» (وكان أحد هؤلاء الأمراء يحكم المنطقة في ما بين أتبرة والنيل الأزرق) بل وفروا لهم المراكب ليصلوا بها إلى النيل الأبيض. جمع هؤلاء الجنود معلومات غزيرة عن ما شــاهدوه في المناطق التي زاروها في الســودان، ولم يرجعوا لوطنهم إلا بعد أن أعاقت مسيرتهم المستنقعات.

لا يعرف الكثير عن تاريخ الخرطوم القديم غير ما ذكرنا، حتى جاءت بداية القرن الســابع عشــر الميلادي. كتب المؤرخ الأرميني أبو صــالح أنه كانت هنالك مدينة قرب الخرطوم الحالية هي ســوبا وكانت عاصــمة مملكة علوة المسيحية. تبعد سوبا نحو ١٣ ميلا عن الخرطوم، وتقع على الضفة اليمنى للنيل الأزرق. كانت تلك مملكة واسعة فيها نحو ٤٠٠ كنيسة، أكبرها في سوبا وتسمى كنيسة «منبالي»، وكانت كل كنيسة تشيد في وسط قلعة، كما هو الحال في شمال النوبة.

يوجد من الدلائل ما يشــير إلى وجود مدينة قديمة على الضــفة الشــمالية من النيل الأزرق بجوار مدينة الخرطوم الحالية. وفي تاريخ قريب (١٩٢٩م) اكتشفت السلطات إن سكان بري كانوا يحفرون في منطقة تقع غرب منطقتهم (وجنوب محطة الكهرباء) للحصــول على طوب محروق من حوائط مدفونة. وفي ذات المنطقة تم العثور على بقايا عظام بشــرية. دللت تلك الاكتشــافات على وجود مدينة صــغيرة في تلك المنطقة. عزز من ذلك الاعتقاد العثور على بقايا أدوات فخارية مدفونة على عمق لا يتجاوز مترا ونصــف من ســطح الأرض الحالي، ولعلها كانت من بقايا مدينة قامت في تلك المنطقة في القرن السابع قبل الميلاد. وجدت كذلك بقايا أثرية من عظام وفخار محطم في منطقة

شجرة غردون (شجرة محو بك. المترجم) يعتقد أن تاريخها يرجع إلى عام ٤٠٠ — ٥٠٠ م. وجدت كذلك بقايا آثار مسيحية في منطقة ود الحداد على النيل الأزرق، وفي القطينة على النيل الأبيض، وفي أماكن آخرى.

قام عبد الله أحمد بن سليم (من مواطني أسوان) وكان أحد ثلاثة سفراء أرسلوا لعظيم النوبة، بوصف سوبا في عام ٩٦٩ م، وأثنى على جودة الإبل والخيول واللحوم والبيرة فيها! وصــفت ســوبا بأنها كانت مدينة ذات مباني كبيرة، وبيوت جميلة، وكنائس تحوي كثيرا من الكنوز الذهبية، وتحيط بها الحدائق. كان ملكها يضــع على رأســه تاجا من الذهب (وهو معدن متوفر بكثرة في مملكته)، وكان أكثر قوة ونفوذا من الملك المسيحي في « شمال الوادي»، حيث كانت الأرض أقل مساحة وخصوبة رغم أن إنتاجها كان أوفر. كانت الكنيسة في سوبا تتبع الكنيسة اليعقوبية في مصر، ويخضع أساقفتها كذلك لبطريرك مصر. كانت كتب كنيسة سوبا مكتوبة بالإغريقية، لكنها ترجمت للغتهم المحلية. وجد عبد الله أحمد بن سليم في بلاط ملك سوبا رجالا كثيرين من دول مختلفة كان بعضهم مسيحيا، والآخر محمدي الديانة (مسلم. المترجم)، بينما كان للبقية معتقدات أخرى مثل عبادة الشمس أو القمر أو النجوم أو النار، وبعضهم أتخذ شجرة أو حتى حيوان كرب له.

زاد ازدهار مملكة سوبا المسيحية خاصة في القرن الحادي عشر الميلادي، ولم تتأثر تلك المملكة كثيرا بجحافل الجيوش القادمة من الشرق لغزو أفريقيا، ولا بقيام وانتشار القوى المحمدية (المسلمة. المترجم)، والتي أشعلت ثورة كاملة في كثير من الجوانب السياسية والأخلاقية بالقارة. بقيت مملكة سوبا مسيحية حتى القرن الثاني عشر الميلادي، ولذا ظلت في حالة عداء دائم مع القادمين من الشــرق، رغم أن دواعي التجارة المتبادلة فرضت نوعا من الهدنة، وذلك لفترة من الزمن.

ظلت المعلومات حول المنطقة بين ملتقى النيلين يلفها الغموض. كتب المؤرخ والجغرافي العربي الإدريســي (والذي عاش في منتصف القرن الثاني عشر) أن هذه المنطقة هي التي تفصل بين النيلين، نيل مصر (والذي يجري من الجنوب إلى الشــمال)، والآخر، والذي كان يعتقد أنه ينبع من الشــرق ويجري غربا، وتقوم حوله عدد من ممالك الزنوج العظيمة.

كان لشيوع تجارة الرقيق الأثر الأكبر في إضعاف قوة الممالك المسيحية في السودان، مما جعلها «لقمة سائغة» للإسلام. في عام ١٢٧٥م سقطت دولة النوبة الشمالية في يد المسلمين، الأمر الذي قطع صلة مملكة سوبا بالكنيسة الأم في مصر. منذ ذلك التاريخ أصبح سقوط مملكة سوبا مسألة وقت لا أكثر. أدى تجميع الرقيق كجزية إلى فوضى عارمة وحروب متصلة بين الممالك السودانية الصغيرة. في عام ١٢٨٦م اشتكى آدور Ador ملك مملكة السودان الجنوبي لسلطان مصر من تابعيه من حكام النوبة السودانيين، ولكن النزاعات والحروب القبلية استمرت، وفي المائة عام التي تلت ذلك تحولت الأمور من سيء إلى أسوأ، وذلك بسبب تدخلات سلطان مصر، والذي كان يزكي نار الصراعات الداخلية بين الممالك السودانية، ويشجع تجارة الرقيق. ما أن حل عام ١٥٥٠م حتى تم القضاء الكامل على كل الممالك المســيحية في الســودان، رغم اســتمرار وجود تجمعات مســيحية متفرقة في أرجاء البلاد لفترات متفاوتة من الزمن. وفي الثلاثة قرون التي تلت ذلك التاريخ لم تقم أي حكومة مســتقرة في المنطقة بين وادي حلف وشمال غرب الحبشة، وظلت البلاد غارقة في حالة بائسة من الفوضى والسرقة والنهب.

لم يبق من آثار مملكة سوبا وكنيستها الجميلة سوى تمثال الحمل الحجري وعمودين و ضعا الآن في الكاتدرائية الأنجليكانية. كان ذلك الحمل الحجري قد اكتشف بواسطة الرحالة الألماني ديوميشن في عام ١٨٦٣م، وقد أحضره غردون للخرطوم (ورد ذلك في كتاب من تأليف جون وارد، وصــدر في عام ١٩٠٥م، اســمه «ســودانا: أهراماته وتطوره» . لاحظ «**سوداننا** Our Sudan» هذه! المترجم.)

نقلت من بقايا مملكة ســوبا أطنان من الطوب المحروق لتســتخدم في بناء مدينة الخرطوم الحالية وذلك في بداية القرن الثامن عشر الميلادي. تواصل ذلك قبل وصول غردون بأربعين سنة أو تزيد، واستمر ذلك حتى بعد فترة عمله الثانية في البلاد بين عامي ١٨٧٤ – ١٨٧٦م.

عند ســقوط مملكة ســوبا على يد الفونج لم تعد المســيحية هي دين البلاد الرســمي. قبل عام ١٥٠٠م لم يكن في السودان قبة أو فكي، كما هو متوقع إن كان العرب قد وصلوا للبلاد قبل ذلك التاريخ.

ذكر بعض المؤرخين أن موقع الخرطوم الحالي في السنوات التي سبقت عام ١٦٩١م كان مجرد معسكر لصيادي السـمك والحيوانات البرية. كانت أيضـاً نقطة توقف للعابرين للنيل. ولكن قبل ذلك التاريخ كان هنالك وجود دائم لجزيرة توتي، والتي كانت مركزا لأفراد قبيلة المحس الذين يدعون أن أصــولهم تنحدر من الخزرج، تلك القبيلة العريقة في الجزيرة العربية. في حوالي عام ١٦٩١م هجر رجل دين مسـلم مشـهور بالعلم والصـلاح هو الفكي أرباب العقائد جزيرة توتي واســتقر في الخرطوم، وبنى بيتا كان هو البيت الوحيد في ذلك الزمان الذي تدل ملامحه على إنه بيت «دائم». تقاطر حول منزله عدد من الجعليين والمحس من مريديه، وأقاموا لهم منازل، وتطورت تلك القرية وكونت فيما بعد ما عرف بالخرطوم.

بحســب أحد اللهجات المحلية المتداولة تعني كلمة «الخرطوم» خرطوم الفيل، وقد تشــير إلى ذلك الشــريط الضــيق من الأرض الممتد بين النيلين الأزرق والأبيض، والذي يشــبه خرطوم الفيل. يعتقد الرائد جي. أ. جرانت (والذي كان قد و صل للخرطوم في عام ١٨٦٣م مع حملة الرائد سبيك الا ستكشافية لمنابع النيل) أن ا سم الخرطوم م شتق من ا سم زهرة القرطم (Carthamus tinctorius) والتي ي سميها الأهالي جارتون، وتزرع بكثرة في م صر ويستخدم زيتها للحرق. هذا تفسير مبتكر ولكنه يفتقر للسند.

كان للفكي أرباب العقائد طالبين من «حيرانه» هما الشيخ خوجلي، والشيح حمد ود أم مريوم. دفن الشيخ خوجلي في قبة في (حلة خوجلي) المسماة عليه، والآخر في قبة مجاورة في (حلة حمد).

قام الطبيب ام. بونست في عام ١٦٩٨م برحلة عبر النيل؛ بيد أنه فشل في الو صول إلى الخرطوم. حاول مرة أخري في العام الذي تلاه، وو صل إلى منطقة «قري»، قرب شلال السبلوقة، ومنها سافر عن طريق البر إلى سنار عبر غابات كثيفة من أ شجار الـ سنط. كذلك فـ شل الرحالة جيمس بروس (بحـ سب ما جاء في كتابه «رحلات لا ستكـ شاف منبع النيل» والصادر في أدنبرة في عام ١٧٩٠م. المترجم) في الو صول للخرطوم في رحلته من سنار إلى شندي، ولكنه زار الحلفايا ووصـفها وصـفا ممتعا. قال عنها إنها بلدة كبيرة وجميلة ولطيفة، بها نحو ٣٠٠ منزل طيني مسـور. من سـبل كسب العيش في الحلفاية آنذاك (وكذلك في أغلب المناطق حتى أتبرا) هو نسج الدمور. بالحلفاية أ شجار نخيل غير مثمرة، والناس بها يأكلون القطط والتماسيح وأفراس النهر (القرنتي)، والتي تكثر في تلك المنطقة.

أنشـئت في انجلترا في عام ١٧٨٨م جمعية أو رابطة لمسـتكشـفي المناطق الداخلية في أفريقيا. بعد عام من ذلك التاريخ بعثت تلك الجمعية بالأمريكي ليديارد من مصـر للقيام برحلة في أعماق أفريقيا. وصـف الرجل فيما بعد القوافل التي كانت تسـافر من مصـر إلى سـنار (على مسـافة نحو ٦٠٠ ميلا) محملة بالحلي والصـابون والأمواس والمقصات والمرايات وخرز السكسك والملايات الحمراء (لعله يقصد الفرك! المترجم). تعود تلك القوافل إلى مصر ببضائع سودانية تشمل الصمغ العربي وريش النعام وسن الفيل، والجمال والعبيد.

وصل الخرطوم في نهاية عام ١٨٢٠م الفرنسيان كلود وليتوزيك (في رفقة ستة رجال)، وعبرا بصعوبة بالغة النهر (لم يحدد الكاتب المقصـود بالضـبط من كلمة النهر هنا. المترجم) إلى نقطة أطلقا عليها «رأس الخرطوم». وصـف كلود في كتاب له صـدر عام ١٨٢٦م تحركات جيش محمد علي باشـا لاحتلال السـودان. خلال ثلاثة أيام كاملة استطاع ذلك الجيش (بعربه وتركه، وإبله وخيله) عبور النهر إلى الضفة الأخرى في عملية عالية الصخب، وشديدة الارتباك، وبالغة الفوضى. عبر بعض الجنود النهر سباحة، بينما انبطح بعضهم على قطع من الخشب أو قرب (جمع قربة) جلدية منفوخة، بينما تشـبث البعض الآخر بذيول خيولهم، أو ركبوا على ظهور جمالهم. بهذه الطرق المتباينة عبر نحو ٥٥٠٠ جندي ذلك النهر، وغرق منهم نحو ٣٠ رجلا و١٥٠ من الإبل والخيل. تعجب الكاتبان من قلة الخسائر في الأرواح مع كل تلك الفوضى العارمة.

كان خليفة/ حاكم الخرطوم عند وصـول جيش محمد على باشـا لها هو شـيخ أرباب ود كامل ود الفكي علي، حفيد الفكي أرباب العقائد، والذي كان قد هاجر من توتي للخرطوم في نحو عام ١٦٩١م. عندما قتل المك نمر إسماعيل باشا في شندي، قام الدفتردار محمد بيه الأسطنبولي (ذلك القائد الشهور بشدة القسوة) بمجزرة لكل كبار رجال السودان ومشايخه. أمر الرجل بتدمير مسجد شيخ أرباب، وجاء بالشيخ، وأوثق رباطه بالحبال في فوهة مدفع، وأمر به فأطلق في الهواء، وتناثرت جثة الشـيخ في الهواء (**هل من حاكم سـوداني يطالب تركيا الحالية بالاعتراف بمجازرها في السـودان، مثلما يطالبها العالم الآن بالاعتراف بجرائمها في حق الأرمن، أم أن الاسـتثمار في مجال المطاعم والحلويات أهم؟ المترجم**). كان عبد الرحمن ود محمد (ابن أخ شيخ أرباب) هو آخر خليفة للخرطوم من نسل الشيخ الكبير، وهو مدفون في الخرطوم بحري.

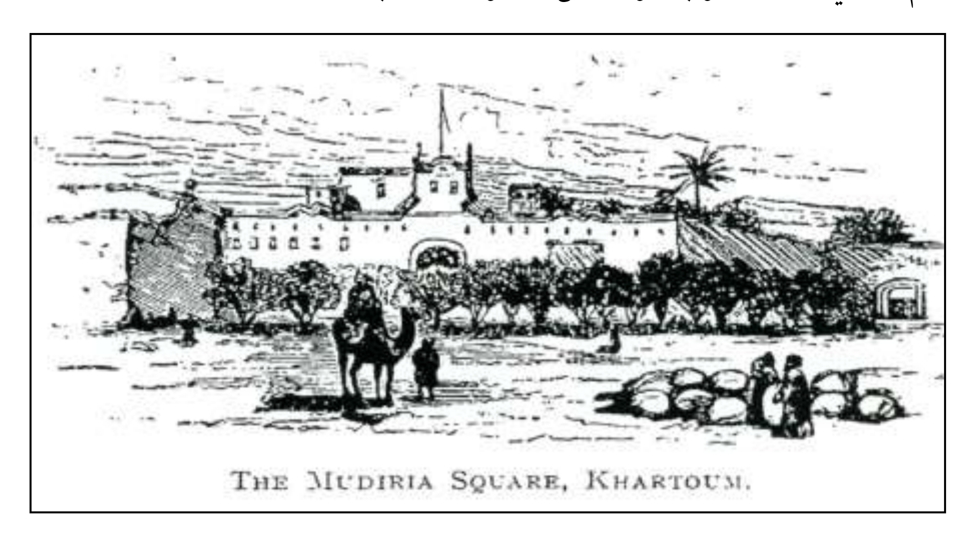
تثبت خريطة أفريقيا في أطلس d’Anville’s General Atlas الصادر في عام ١٧٢٩م جزيرة توتي في موضعها الجغرافي الصـحيح، بينما تم حذف تلك الجزيرة في خريطة لأفريقيا صـدرت بعد ذلك في عام ١٨٠٠م للبريطاني ويلیامسون، ولكنها ذكرت موضع «أم درمان» و«الحلفايا»!

ليس هنالك اتفاق بين المؤرخين حول من هو أول من أسـس الخرطوم الحديثة، إذ أن المدينة وكل وثائقها قد دمرت بالكامل في المهدية. ظهرت خريطة إنجليزية لـــ «أفريقيا وما تم اكتشافه فيها» في عام ١٨١٧م، لا تشير لأي مدينة تقع في ملتقى النيلين الأبيض والأزرق. يتفق كثير من المؤرخين على أن محمد عثمان باشا، والذي عينه محمد علي باشا كحاكم عام للسودان في عام ١٨٢٢م، اختار الخرطوم كمركز لإدارته، ولم يكن فيها آنذاك غير عدد قليل من «العشش». بني ذلك الحاكم مباني من الطوب اللبن كمقرات لإداراته المختلفة، وبنى أيضا مساكن للموظفين فيها. قليلا قليلا بدأت الخرطوم في التوسع وغدت مركزا تجاريا هاما وسوقا عظيما للرقيق. قيل في ذلك الزمان إنه كان في

تلك البقعة قرية عظيمة في المنطقة المجاورة للخرطوم (لعل المقصود هو منطقة سوبا. المترجم) وأن الشلك (الفونج) انقضوا عليها وقضوا على سكانها قضاء مبرما. كتب الفرنسي برن روليبه (والذي عاش في السودان في حوالي عام ١٨٤٠م) أن كرتوم (Carthum) كانت مدينة كبيرة في زمان مضى، حتى غزاها الشلك ذات ليلة وقضوا على من فيها من أخضر ويابس في حوالي عام ١٧٧٠ م. أضاف الكاتب أن جنود محمد علي باشا لم يجدوا في البلدة عندما دخلوها غير ثلاث عشش ومقبرة. قدر روليبه عدد سكان البلدة في حوالي عام ١٨٤٠م بنحو أربعين إلى خمسين ألف نسمة.

كان الرجل الشركسي «عثمان بيه شركس» حاكم السودان في ١٨٢٥م هو أول حاكم عام تركي يدفن في السودان. يقال إنه مات بمرض الجدري، ودفن في الخرطوم، بيد أن قبره ما يزل إلى الآن مجهولا. خلفه ماحو بيه في عام ١٨٢٦م، والرجل كان مسئولا عن ما تعرف ب«شجرة غردون». شاهد كثير من زوار الخرطوم، أو سمعوا عن شجرة حراز كبير على النيل الأبيض على بعد ثلاثة أميال من (وسط) الخرطوم. كانت تلك الشجرة تعرف بشجرة غردون (أو شجرة محو بيه عند كثير من الأهالي، نسبة لأنها تظلل قبر محو بيه). نسجت الكثير من الأساطير حول تلك الشجرة، والتي ظلت واقفة حتى عام ١٨٤٠م حين جاء الطبيب الألماني فيردناند فيرني مستكشفا للنيل الأبيض. نمت شجرتا حراز فوق القبر وحجبته عن الأنظار، حتى جاء فيضان في عام ١٨٧٨م وابتلع القبر والشجر معا.

واصل خالد باشا (١٨٢٦م) والمشهور بالاستقامة والأمانة ما بدأه سابقوه من الحكام الأتراك، فشيد مبنى المديرية، وعلم الأهالي البناء بالطوب عوضا عن الجلود والقصب.


THE MUDIRIA SQUARE, KHARTOUM.

ذكر لورد برودو Prudhoe (بحسب مقال نشر في العدد الخامس من مجلة الجمعية الملكية الجغرافية عام ١٩٣٥م) أنه قام برحلة من القاهرة إلى سنار في عام ١٨٢٩م، وعندما وصل للخرطوم، وجدها تتكون من ثلاثين بيتا طينيا وعدد من العشش، شبهها بخلايا النحل أو أكوام القمح. سكن اللورد ومرافقوه خلال تلك الرحلة في خيمة، بينما كان الحاكم يعيش في بيت طيني «يمكن احتماله». لم يكن في الخرطوم أثر حتى لشجرة واحدة، إذ لم يكن للخرطوم من وجود إلا منذ أربعة أو خمسة أعوام خلت. قيل إن الحاكم السابق (مك سنار) كان يعيش فيها متبطلا

كملك محال للتقاعد بمعاش قدره ٥٠٠ قر شا في الـشهر (لم يكن يدفع له أبدا). كان العبيد يباعون بالمزاد العلني في دار الحاكم العام في عام ١٨٢٩م، حين كان العبد يباع بتسعة دولارات (ريالات؟)، بينما تباع المرأة مع طفلها بذات القيمة.

كان القائمقام الذي يقود كتيبة الخرطوم في عام ١٨٢٩م مشهورا بالكسل الشديد. كان مفرط السمنة، لا يتحرك من مجلسه في الديوان طوال اليوم، ولا يفعل شيئا غير اللعب بحبات خرز في يده. لما مات رئيسه الأميرالاي لم يكلف نفسه مشقة إخطار قيادته بذلك النبأ، وكان أن وصل خبر موت الأميرالاي للحاكم العام في أثناء محادثة عابرة مع أحد التجار!

عبر اللورد برودو النيل الأزرق إلى سوبا، حيث لم يجد شيئا يذكر غير بقايا كثيرة لطوب محروق.

بحسب ما رأى م. كومبز، والذي زار الخرطوم في عام ١٨٣٤م، فإن تعداد سكانها كان لا يتعدى ١٥٠٠٠ نسمة. كانت عملة البلاد في ذلك الوقت خليطا من عملات متنوعة. فقد كان متداولا فيها دولار ماريا تريزا (وهو يعادل ٢٠ قرشا)، والمحمودية (وهي عملة ذهبية تركية تعادل ١٨ قرشا مصريا)، والبيوث Bayuthe وهي عملة ذهبية مصرية تعادل ٥ قروش مصرية، والسفرتة Safritaأو الفلورين Florin النمساوي وهو يعدل ٥ , ٤ قرشي مصرية. كان هناك أيضا القرش المسمى مسافني Massafani .

بدأت الحدائق في الظهور في الخرطوم في عام ١٨٣٧م، حيث كانت قد أقيمت حدائق حول بعض المنازل الكبيرة المنعزلة. أقيم بقرب سوق الخضروات مكان لسجن ومقصلة للمحكوم عليهم بالإعدام. في تلك الأيام أفاد رحالة زار الخرطوم أنها كانت تخلو من الأشجار. مع مرور السنين تزايد عدد السكان في المدينة، مما أضطر حاكمها خور شيد با شا لهدم مسجدها ليقيم مكانه مسجدا أكبر يسع جموع المصلين. بعد سنوات قليلة من ذلك انتشر وباء الكوليرا، فانتقل خورشيد باشا مؤقتا إلى شندي إلى حين إنجلاء الوباء. وفي عام ١٨٣٩م كتب الرحالة الفرنسي فرانسوا جومارد أن الخرطوم كان بها ثكنات عسكرية ومستشفى ونحو ٤٠٠ – ٥٠٠ بيتا.

إن تاريخ الفونج والحكم التركي، كما سجله ماكمايكل في مقال له صدر عام ١٩٢٣م في مجلة «السودان في ر سائل ومدونات» يو ضح أنه وحتى عام ١٨٣٠م لم تكن الخرطوم غير مجرد معسكر حربي، ورئا سة أركان مؤقتة. كتب أحدهم في عام ١٨٣٠م أن خورشيد باشا أمر الناس بأن يبنوا بيوتا، عوضا عن الخيام المصنوعة من حصير الشعر وجلود الأبقار. لم يكن هنالك بيت واحد مبني من الطوب غير بيت الفكي أرباب بقرب المسجد، وبيت القاضي، والفكي حمدنا الله، وبيوت البدناب (من قبيلة المحس). وصف النمساوي فون كالوت (والذي سمى نفسه آر شان بيه) والذي كان في خدمة محمد علي با شا، الخرطوم في عام ١٨٣١م بأنها مدينة صغيرة من «العشش» في بقعة هي «أهم منطقة إستراتيجية في شرق أفريقيا».

يتضح من كل ما سبق ذكره أن معسكرا حربيا دائما كان قد اتخذ عند النقطة التي نفذ منها ا سماعيل با شا أو من خلفه مباشرة إلى شبه جزيرة سنار في ١٨٢١م. في عام ١٨٣٠م أو نحوها، اتخذ خورشيد باشا مركزا رسميا له. تقاطرت إلي عاصمة السودان الجديدة أفواج من الفجرة والمشاغبين والعاهرات. وكانوا أول من سكن المدينة. كان بالمدينة أيضا آلاف الجنود الشعث تحت إمرة كثير من الضباط المنشقين عن جيوش بلادهم الأصلية، مع عبيدهم

وتوابعهم وغيرهم من حثالات المجتمع (هكذا!. المترجم). شـيد هؤلاء بيوتهم من الرواكيب والتكلات (جمع تكل، وهي بمثابة المطبخ)، وانتعش المكان (والذي كان صحراء جرداء) بوجود حيوانات كثيرة مثل الحمير والإبل والخيول.

ليس للخرطوم من مزايا جاذبة في حد ذاتها، فلم يكن فيها صناعات ولا مصدر داخلي للثروة. كان سكانها يحملون قدرا كبير من الكره والحقد والضغائن على أسيادهم الجدد «الأتراك». كذلك كان حاكم مصر قد بعث للعمل بهذه الأراضي الصحراوية الشاسعة التي سماها البعض «مقبرة السودان» جنوده الأرنؤوط عديمي الانضباط، وضباطه وموظفيه المدنيين الساخطين على أوضاعهم، إضافة إلى المجرمين المحكومين بسنين طويلة. رغم كل ذلك جذبت المدينة المغامرين والتجار للعمل والاسـتثمار فيها حيث تقفز الأرباح إلى ٢٠٠٪. تقاطر نحوها التجار من جميع أرجاء العالم... من مصـر واليونان وإيطاليا ومالطا وفرنسـا وغيرها من الدول. ما أن حل عام ١٨٤٠م حتى كان عدد سكان الخرطوم نحو ٣٠٠٠٠ نسمة. وتضاعف ذلك العدد في سنوات قليلة. جاءها صانعو المراكب من دنقلا. في البدء وفدوا للعمل في أعمال شـريفة، ولكنهم سـرعان ما قاموا – بالاشـتراك مع غيرهم- بأعمال نهب وقرصـنة، انتهت بعملهم في تلك التجارة المربحة: تجارة الرقيق، حيث كانوا يغزون مناطق في النيل الأبيض يجلبون منها من يستعبدونهم. انضم إليهم لاحقا تجار من بربر والنيل الأزرق و«رجال البحر»، حيث كون هؤلاء طبقة كبيرة. كذلك احتاج الجيش الرابض في الخرطوم لبناة المراكب، و صانعي الشراعات، و صانعي بودرة البارود و صناع السروج والخياطين. كذلك نمت طبقة من صاغة الذهب والسمكرية والحدادين والخبازين والسقايين والحمالين (العتالة). ظهرت حتى مصـانع للصـابون والزيت وبعض الصـناعات الصـغيرة الأخرى. بيد أن كل هذه القشـرة الخارجية للحضارة كانت تخفي تحتها ركاما ضخما من الفساد والهمجية.

في البدء لم تبن المدينة وفقاً لأي تخطيط معلوم سـوى أن الحدائق التي زرعت كانت تقام بالقرب من مصـادر المياه، وأن المكاتب الحكومية شـيدت قرب أماكن تجمع الجيش بغرض توفير الحماية الفورية. عدا ذلك شـيدت بقية أبنية المدينة بطريقة بالغة العشوائية. على شاطئ النيل الأزرق زرع شريط ضيق جدا، مثل أول محاولة للزراعة في هذه المنطقة. توالت بعد ذلك زراعة بعض الحدائق وأشـجار النخيل في القصـر وفي الديوان وغير ذلك من المباني، وسمع لأول مرة صوت ساقية تئن على الشاطئ، وتقذف بالمياه ببطء. ظهرت أيضا وسائل نقل بالحمير أو الجمال يقودها رجال من الأهالي وهم نصف عراة. ومن النهر يشق وسط المدينة شارعان متعرجان ضيقان، ومن الشرق للغرب يتعرج شـارع ضـيق يبدأ قرب القصـر، ويمر بهذا المكان أو ذاك عبر مسـاحات مفتوحة. تلك المسـاحات المفتوحة غدت حفرا كبيرة كان يؤخذ منها الطين لصـناعة الطوب اللبن. تمتلئ تلك الحفر العميقة بالضـفادع والأسماك في فصل الأمطار، وعندما تجف المياه تتحول المنطقة إلى مستنقع كريه الرائحة.

بدأت الحركة التجارية في المدينة بباعة متجولين يجلسـون القرفصـاء في الهواء الطلق، ثم تطور الأمر تدريجيا فقامت صفوف منتظمة ومسقوفة في سوق منتظم، به كثير من البضائع المتنوعة، انتهت بمحلات أشبه بتلك التي توجد في أوروبا.

بنيت كل البيوت على الطراز الشـرقي، حيث يوجد حوش خارجي، وديوان، ومخازن، وإسـطبلات، وحوش داخلي، وغرف للحريم بعيدة عن سـكن الخدم والعبيد والمطابخ. كان الرجل الفقير يعيش عادة في غرفة واحدة أمامها حوش صغير غالبا ما تعيش فيه ماعزه وغنمه أو حماره. سادت في المجتمع الأخلاق الشرقية، حتى بين غالب الأوربيين من سكان الخرطوم، فصاروا يجادلون وهم يدخنون الشيشة ويحتسون القهوة في أسعار البضائع المتنوعة والعبيد. ثم تأتي فترة نوم القيلولة عند الظهيرة، لتعقبها جلسـات الغيبة و«قيل وقال» عند سـهرات المسـاء، وتناول العشـاء على أنغام الموسـيقى وغناء ورقص الفتيات. لم يكن للفقراء غير فرص قليلة في الأعراس والمآتم لشـرب المريسـة. كان العبيد يتعرضـون لمعاملة بالغة السـوء والقسـوة، وسـادت أخلاقيات الغش والخداع والإتاوات والعداوات بين السكان، وكان ذلك مما صب في مصلحة قلة قليلة من المستفيدين.

ذكر طبيب فرنسي وصل الخرطوم من القاهرة في عام ١٨٣٩م مع أخيه بعد رحلة استغرقت ثلاثة شهور، وعاش في المدينة لعام كامل، لم تفارقه خلالها الحمى، بأن طقس الخرطوم يسـتنزف صـحة المرء ويسـرق عافيته ببطء، ويتلف عقله. انتقد الرجل الأطباء والصـيادلة المصـريين انتقادا مرا، فقد وصـمهم بالغش والاحتيال، فزعم أنهم يختلسـون الأقمشـة الكتانية التي كانت تخصـص للمسـتشـفيات ويصـنعون منها زيا لخدمهم، ويسـرقون السـكر المخصص للمرضى، ويبيعون دواء كوينين (يعالج الملاريا. المترجم) والأدوية الأخرى، ويصفون للمرضى عوضا عنها أدوية مغشوشة يصنعونها بأنفسهم. ذكر الطبيب الفرنسي بأن هؤلاء «الصيادلة» كانوا في حقيقة الأمر دجالين – منهم حرفيون وخياطون و صاغة ذهب، تم «تدريبهم» لمدة ثلاثة شهور في القاهرة ليصبحوا « صيادلة». لا غرو إذن إن ارتكب هؤلاء الكثير من الأخطاء الطبية الفادحة.

كان الأقباط يمثلون السواد الأعظم من الموظفين والعاملين في دوائر الحكومة. أتخذ هؤلاء الأقباط تدابير كثيرة لحماية عائلاتهم، فكانوا يحكمون إغلاق أبواب دورهم عند مغادرتهم لها عند الصباح، ويحملون معهم مفاتيح تلك الأبواب الخشبية الضخمة بمساميرها الحديدية، حيث لا يمكن فتح الأبواب من الخارج بغيرها. يقوم من يبقى في الدار من النساء والأطفال بإحكام قفل الأبواب الداخلية بالدار حتى عودة رب البيت عند المساء، حيث يقوم بإضافة قضبين حديدين ضخمين يضعهما على الباب من الداخل شكل حرف X. لم تكن المفاتيح والأقفال الحديدة معروفة في ذلك الحين بعد. لازالت هذه المفاتيح الخشبية تستخدم في كثير من البيوت إلى الآن في أمدرمان (المقصود بالطبع عام ١٩٣٥م. المترجم).

لم تكن الخرطوم في سنواتها الأولى مدينة صحية أو مريحة للعيش بها أبدا. لابد أن الحياة فيها للأوربيين كانت أمرا عسيرا قاسيا، فهبوبها عاصف، وحرها شديد، ومطرها غزير. ذكر فيردنارد فيرني أنه شهد في ٣١/ ٨/ ١٨٣٩م أعتى عاصـفة هبوب ترابية شـهدها في أفريقيا. اقتلعت تلك الهبوب البيوت وهدمت كثير من المباني، وأغرقت نحو ١١ مركبا في النيل الأبيض. حكى عن أخوين كانا عائدين لمنزلما بعد أن كانا يعومان في النيل عند هبوب العاصفة. وجدا كل غرفة في بيتهما مليئة بالماء، وظلا لسـاعات يجلسـان فوق طاولة حتى انحسـار الماء. كتب أوربي آخر هو ليبسيوس عن هبوب عاصفة حدثت في عصر يوم ٢٥ مارس من عام ١٨٤٤م. كتب يقول إنها كانت « سحب طويلة سوداء من الرمال تبدو في الأفق البعيد كأنها حائط ضخم».

كان الحاكم العام في الخرطوم في عام ١٨٣٩م هو «ابو أودان»، وكان لا يطيق البتة سـماع شـكاوي الأهالي. يقف السوداني عنده ليشتكي من أمر ما، فيستمع إليه الحاكم في صبر إلى حين فراغه، ثم يأمره بالذهاب إلى الصراف ليستلم مبلغا من المال. يفاجأ المسكين عند الصراف بأن ٥٠٠ قرش إنما تعني ٥٠٠ سوط! مات ذلك الحاكم في الخرطوم في أكتوبر من عام ١٨٤٤م، ولا يزال قبره موجودا (وعليه قبة) في تقاطع شـارع فيكتوريا مع شـارع عباس (الآن عند تقاطع شارع القصر مع شارع البلدية. المترجم).

من نعم الله على الخرطوم وجود الطيور الجارحة (كالنـسور) إذ تتكفل بالتهام الحيوانات النافقة (وكذلك الجثث الآدمية أحيانا). كانت تلك الطيور أليفة إلى حد ما، ولا تطير بعيدا عندما يقرب منها البشر.

في عام ١٨٤٨م و صلت للخرطوم أول بعثة تبشيرية (مسيحية) نمساوية، وكانت تتكون من الأب رايلو (وأصله من بولندا) ورجلين إيطاليين، وآخرين يسـوعيين، ومعهما بعض الخدم. توفي الأب بعد فترة قصـيرة من وصـوله للخرطوم متأثرا بالحمي، بيد أن الأخرين بقوا، وسـافر بعضـهم في رحلات في داخل البلاد. تكاثرت من بعد ذلك وفود المبشرين المسيحيين الأوروبيين، بيد أن المرض والموت أثرا كثيرا على نشاط فرقهم. يجب ملاحظة صعوبة السفر من مصر إلى السودان في ذلك الوقت. فالرحلة للمحظوظ من المسافرين من القاهرة لأسوان تستغرق أسبوعا بالباخرة، وتأخذ الرحلة من القاهرة للخرطوم ما لا يقل عن ٣٣ يوما.

كانت الأمور غريبة بعض الشـيء في مكتب الحاكم العام، إذ أن الباشـا كان الحاكم المدني والقائد العسـكري في ذات الوقت. بلغ عدد جنوده وتابعيه وخدمه حوالي ٢٠٠٠٠ فردا، وكان يدير كل أمور البلاد في مختلف الشـؤون بمفرده. كان يرد إلي مكتبه ويذهب يوميا البريد في «جراب» جلدي محمولا على جمل، ويقوم على سـكرتارية مكتبه خمسة رجال جميعهم محشورين في غرفة ضيقة في قصره. مما سهل مهمة هؤلاء الموظفين أن الحاكم كان يدير شؤون البلاد بصورة ديكتاتورية فردية، فيصدر أوامرا وأحكام لا يستشير فيها أحدا، ولا ترد ولا تستأنف، ولا يعقب عليها أحد، وإنما هي أمور للتنفيذ الفوري، وليس غير ذلك.

كتب جورج ميلي (وهو مغامر قادم من ليفربول) في كتاب أصـدره في عام ١٨٥١م بعنوان «الخرطوم والنيلين الأبيض والأزرق» و صفا دقيقا للحياة في المدينة في عام ١٨٥٠م. و صف الخرطوم من على بعد مسيرة ساعة، حيث شاهد بيت الحاكم الأبيض، ومآذان جامعها، والنيل الأبيض من بعيد وهو يقترن برفيقه الأزرق. كتب ميلي: إن النظر بدا وكأنه «نهاية العالم». في ذلك الوقت كانت المدينة (عندما تشاهد من النيل) وكأنها حائط طيني طويل تطل من فوقه مساكن ومكاتب الحاكم، ومقري الحكومة والبعثة الكاثوليكية وكنيستها. دلف ميلي ومرافقوه مبا شرة لمقر الحاكم عبر مجموعتين من الحراس، وعلى رأس كل مجموعة يقف ضـابط حاملا حربة طويلة. كان ضـابط الفرقة هو من ينال حظوة الرقاد على سرير، إذ كان كل البقية يفترشون الأرض.

كان للحاكم العام «حامل غليون خصـوصـي » confidential pipe bearer فرنسـي الجنسـية تولي مهمة مرافقة ميلي ومرافقيه. أخذهم أولا لمكان سكناهم بقرب مكان سكن حريم الحاكم، حيث وجدوا بيتا مريحا تحيط به حديقة وأشجار البرتقال والموز والرمان. كذلك زاروا صيدلية الخرطوم وقابلوا كل الأوربيين بالمدينة، حيث دار الحديث معهم حول أفراس النهر (القرنتي) التي كانت تكثر في تلك المنطقة. عرضـت «عينة» من ذلك الحيوان في «ريجنت بارك» في لندن في عام ١٨٥١م حيث تركت أثرا كبيرا، خاصة في أوساط الجنس اللطيف.

عرض القنصل البريطاني السيد ولاين مبلغ ألف جنيه إسترليني لمن يستطيع من الأهالي أن يقبض على زوجين من أفراس النهر، ولم يكن ذلك بالأمر الهين، فقد كانت تلك الحيوانات متوحشة تماما ولا تخرج إلا في الظلام.

أعجب ميلي ومرافقوه بحدائق الخرطوم، وسجلوا زيارة للصيدلية مرة أخرى، وتمشوا وسط أشجار العنب والبرتقال والرمان والياسمين والتين وتفاح الكسترد؟ (custard –apples). عند وصول المجموعة للسوق تدافعت حولهم جمهرة غفيرة من الأهالي وهم يحلقون في والدة وأخت ميلي. نال ميلي إعجاب واهتمام الأوربيين عندما قدم لهم في حفل للعشاء سمك سالمون معلب.

كتب جون بيثريك، والذي عمل بالتجارة في كردفان وكنائب للقنصل البريطاني في السودان، في عام ١٨٦١م كتابا عن «السودان ووسط أفريقيا»، ووصف الخرطوم في عام ١٨٤٦م وسجل أن عدد سكانها كان حوالي ٦٠٠٠٠ نسمة، وبها المخازن الرئيسة للحكومة وترسانة لصناعة وصيانة المراكب الشراعية. كلنت مباني الحكومة ومساكن موظفيها مبنية من الطوب المحروق، بينما كانت بقية المباني من الطين اللبن.كان المبنى الوحيد الذي بني من الحجر هو مبني كنيسة الروم الكاثوليك (في المبنى الذي تحتله البلدية الآن). كذلك أقيمت كنيسه قبطية غرب الجامع العتيق. كان منزل بيرثيك منزلا ضخما ملحق به حديقة حيوانات أليفة وبرية متعددة، وكان به بيانو ضخم. بعد عامين سكن السير صوميل بيكر في ذات المنزل، ولكنه كتب أن ليس في الخرطوم مكان بمثل تلك القذارة والبؤس والضرر بالصحة مثل ذلك المنزل يمكن تصوره. و صف بيكر الحاكم العام مو سى با شا حمدي (والذي كان أول من أدخل عربة نقل carriage في الخرطوم) بأنه نجح في الجمع بين أسوأ ما في الشرق من طباع، مع قسوة حيوان وحشي. كان يبتز كل من حوله، ولا يفعل شيئا إزاء الفساد الذي أورث كل من يعمل تحت إدارته. يجب القول بأن الأوربيين والمصريين (عدا قلة قليلة جدا) كأنوا أسوأ سفراء لبلادهم في السودان.

أضاف عبد اللطيف باشا (١٨٥٠م) إلى ما بناه خورشيد باشا من مكاتب وقلاع للحكومة. ومات بعد ذلك بعامين الحاكم العام الشركسي رستم با شا ودفن بالخرطوم. في عام ١٨٥٦م اندلع وباء الكوليرا بالخرطوم، فتم نقل الحومة وموظفيها مؤقتا إلى شندي. كذلك توفي الحاكم العام الأرمني أركيل بيه في ١٨٥٧م، ودفن في مقبرة مسيحية بالخرطوم، ونقلت رفاته فيما بعد لمصر. في تلك الأيام كان هنالك صبي يدعى محمد أحمد (والذي ادعى المهدية فيما بعد) ينال الإعجاب من شيوخه في الخلاوي لعكوفه على الجد والتحصيل.

كانت هنالك وجود أجنبي في الخرطوم تمثل في قناصل للنمسا وأمريكا وفرنسا، بالإضافة إلى نحو ٦٠٠٠ جندي من هذه البلدان. كان بعض أولئك الجنود من المصريين، وبعضهم من السود من كردفان والنيلين الأزرق والأبيض. كان هؤلاء لا يتقاضون مرتبات منتظمة، ولذا كان من الصعب أن يكونوا جنودا منضبطين، فكانوا يعيشون على ما ينهبونه من السكان.

كان السلعتان المربحتان في السوداني هي العاج والرقيق، ولم يكن هنالك أحد في البلاد (إلا ما ندر جدا) لم ينغمس في التجارة في هاتين السلعتين. فكل من له رأس مال صغير كان يمكنه عمل فرقة صغيرة تجلب له العاج و/ أو العبيد من الجنوب. فعلى سبيل المثال استجلب من منطقة أعالي النيل نحو ٢٠٢٧٠٠ كيلوجرام من العاج في عام ١٨٥٨م وحده. من البيض الذين عملوا في تجارة الرقيق السوريين والأقباط والأتراك والشراكسة و**بعض** الأوربيين (لاحظ

محاولة التخفيف من الدور الأوربي في تلك التجارة. المترجم). كان تاجر الرقيق المبتدئ يســتدين بفائدة تبلغ ١٠٠٪ ، ويدفع القيمة عاجا بنصف القيمة، ثم يستأجر سفنا و١٠٠ – ٣٠٠ من الرجال (غالبا من أنذل الخلق). ذكر صــمويل بيكر إنه رأي نحو ١٥٠٠٠ رجل يعملون في تلك التجارة، وكان مرتب الواحد فيهم ٤٥ قرشــا في الشــهر. كانوا رجالا في غاية الوحشية وفقدان الإنسانية وهم يقومون بمهمتهم تلك.

عندما عاد صمويل بيكر للخرطوم بعد رحلته لنيلية عام ١٨٦٢م وجد أن مرض حمى التيفوس المعدي قد انتشر بالمدينة، ونجا من ذلك الوباء ٤٠٠ جندي فقط من أصــل ٤٠٠٠ رجل. وجد المدينة – كما قال- أكثر زحاما وقذارة. زار بيك المدينة مجددا بعد ثمانية أعوام فوجدها لم تتغير كثيرا في مظرها الخارجي، بيد أن عدد الســكان انخفض من ٣٠٠٠٠ إلى ١٥٠٠٠ . و صارت المنطقة جنوب بربر (والتي كانت منطقة زراعية) منطقة مهجورة تماما. اختفت قرى بالكامل، وتوقف الري وانخفض عدد السـكان انخفاضــا رهيبا، واختفت معه أصــوات الســواقي التي كانت تسمع بالليل، وكذلك نباح الكلاب التي كانت تشق عتمة ليل تلك المناطق.

كتب سفاين فيرز في العام الذي تلى ذلك أن الأحوال الصحية في الخرطوم ما زالت رديئة جدا، وعزا السبب لعدم وجود تصريف فعال للمياه الراكدة (يبدو أنه لا جديد تحت سماء الخرطوم. المترجم). ففي يوليو من عام ١٨٧١م كتب الرجل إن البرك تملأ الخرطوم، وتنبعث منها روائح كريهة تجعل مجرد الاقتراب منها أمرا عســيرا. وجد كثيرا من معارفه السابقين قد سقطوا نتيجة أمراض لها علاقة بسوء الأحوال الصحية في المنطقة، خاصة مع توالد البعوض من نوع الأنوفليس ناقل الملاريا. ظلت هذه الأوضاع مستمرة حتى عام ١٩٠٥م حيث كانت برك المياه التي تتكون من أمطار ساعتين مثلا تظل باقية لنحو ثلاثة أسابيع.لعب إسماعيل باشا أيوب دورا كبيرا في تطوير الخرطوم، وكان متفائلا بأن لها مســتقبلا عظيما. بني فيها قصــر الحكومة من طابقين بالطوب والحجر. بنى إســماعيل باشــا أيوب كذلك محلجا للقطن في كســلا، وبذلا جهدا كبيرا لتطوير صــناعة القطن بالبلاد، وفي مكافحة الفســاد، فقام باعتقال حاكم الخرطوم ممتاز باشا بتهمة الاحتيال.

كانت الحياة في الخرطوم تدور حول البازار (الســوق) والشــوارع المحيطة به. كانت هنالك أزقة متعرجة عديدة تؤدي لذلك السوق، وحولها مباني صغيرة مبنية بالطين اللبن ذات أسقف مسطحة. لم يكن هنالك مبنى كبير أو معلم بارز ســوى الجامع ومئذنته الصــغيرة. في الســوق كانت تباع الملابس الأوربية والأقمشــة والأحذية والمنتجات الفخارية . في بعض المحال الصــغيرة تجد كل أصــناف المشــروبات الكحولية. للأغاريق محال تباع فيها منتجات رديئة الصــنف ولكنها غالية الثمن مثل المربى (وغالبها متعفنة) ومكرونة مغبرة وملوثة بفطريات، وســكر رملي الشــكل، وبيرة ومشــروبات كحولية أخرى عديمة النكهة ورديئة الطعم. يعجب المرء من عدم ذكر من وصــوفوا السوق للمنتجات المحلية مثل العناقريب والمراكيب.

عرض لكتاب:« بورتسودان: نشوء وتطور مدينة استعمارية»

لكينيث ج. بيركنز - هيزرشاركي

تقديم: نشـرت هذه القطعة في مجلة «دراسـات السـودان» التي تصـدر في بريطانيا، في يناير عام ١٩٩٤م، وهي عرض لكتاب قام بتأليفه كينيث ج. بيركنز عن نـشأة وتطور مدينة بورتـسودان، و صدر عام ١٩٩٣م عن دار ويـست فيو للنشـر .عرضـت الكتاب الدكتورة هيزر شـاركي المتخصـصـة في تاريخ ولغات وحضـارات الشـرق الأدنى. للدكتورة المؤرخة شاركي عدة كتب ومقالات عن منطقة الشرق الأدنى منها كتاب «العيش مع الا ستعمار: الوطنية والثقافة في السـودان الإنجليزي المصـري» (وقد عرضـنا للكتاب في مقال نشـر في «الأحداث» وبعض المواقع الإسفيرية)، وكتاب «الإنجيليون الأمريكيون في مصر»، و«الهوية والمجتمع في الشرق الأوسط المعاصر». وكنت قد ترجمت قبل عامين مقالا لكاتب ا سمه كولن رالستون باتريسون عن «قصة إنشاء ميناء بورتسودان». والكاتب يمت بصلة قرابة للمهندس البريطاني الذي أنشأ الميناء .

المترجم

في كتابه :(بورتسودان: نشوء وتطور مدينة «ا ستعمارية») ير صد كينيث ج. بيركنز تطور مدينة بورتسودان منذ أن أنشأها مسؤولو الحكم الثنائي في عام ١٩٠٤م، وإلى بدايات الخمسينات. تم إنشاء الميناء في مرسى الشيخ برغوث، والذي كان مكانا يبابا قفرا ليس فيه غير قبر الفكي (المحلي) برغوث. كان هذا يوافق ما أرادته السلطات...أن تخطط لمدينة من الصـفر. لهذا كان كينيث بيركنز يعد بورتسـودان مدينة ذات خصـوصـية لم توجد في غيرها من المدن السودانية، فهي مدينة «ا ستعمارية»، تماما مثل مدينة «القنيطرة» التي أنشأها المستعمر الفرنسي في المغرب في عام ١٩١٣م.. (القنيطرة ذات تاريخ مثير. فهي بحسب مو سوعة ويكبيديا سادس أكبر مدينة مغربية، تطل على الساحل الأطلسي؛ وهي تقع على بعد٤٠ كم شمال العاصمة الرباط. في مارس١٩١٢ تم توقيع اتفاقية فاس بين السلطان عبد الحفيظ والحكومة الفرنسـية؛ والتي بموجبها أعطى السـلطان الجيش الفرنسـي كل الصـلاحيات لقمع القبائل الأمازيغية المتمردة ضـد طغيان الحكومة .أنشـأ القائد الفرنسـي ميناء القنيطرة في يناير من عام١٩١٣م؛ واسـتعملته سلطات الحماية لا ستيراد تر سانتها العسكرية ولتصدير منتجات المغرب.المترجم .(وميناء بور سعيد المصري) الذي أنشأه المستعمر البريطاني في عام ١٨٥٩م، وسماه على اسم الحاكم المصري (الخديوي). المترجم.

على الرغم من أن المؤلف كان قد قسـم محتويات كتابه على أسـاس التسـلسـل الزمني، إلا أنه قام بالتركيز على مو ضوعات بعينها أكثر من غيرها في أكثر من مو ضع. كانت إحدى تلك المو ضوعات هي العلاقة بين بورتـسودان والمدينة القديمة سـواكن، ذلك الميناء العتيق الذي ظل منفذا للتجارة منذ عقود طويلة، وكيف أن إنشـاء ميناء بورتسودان أطفأ توهج سواكن (والتي استولى عليها العثمانيون في القرن السادس عشر، واستأجرها محمد علي باشا في أربعينات القرن التاسـع عشـر، وتنازل عنها رسـميا بمصـر في عام ١٨٦٥م). كان بالإمكان أن تظل سـواكن ميناء السودان الأشهر في القرن العشرين لو لا أن سلطات الحكم الثنائي اعتبرت شعبها المرجانية الممتدة إلى خارج مياهها عائقا خطيرا أمام الملاحة فيها. ا ستغل البريطانيون هذا الـسبب الطبوغرافي (الطبوغرافيا هي درا سة سطح الأرض والكواكب والأقمار وأشكالها وملامحها. المترجم) لتبرير إنشاء ميناء جديد هو ميناء بورتسودان، وجعلوا من تلك

المدينة نهاية خط السكة حديد الممتد بين النيل والبحر الأحمر، والناقل لصادرات وواردات السودان. وقضى كل ذلك على أي الأهمية التاريخية التي كانت لسواكن.

وبعكس البريطانيين، فقد نظر القادة المصريون تحويل الميناء من سواكن إلى بورتسودان بمنظار مختلف، كله ترقب وتشاؤم وحذر. عد بعض المصريين إنشاء الميناء الجديد وخط السكة حديد كمحاولة لسحب البساط من تحت أقدام التجارة التقليدية التي كانت تنفذ من وإلى مصر عبر النيل، بينما عدها مصريون آخرون كمحاولة بريطانية لإضعاف الوضع السياسي والاقتصادي في مصر، ولمنع صورتها وصوتها من الظهور على شاطئ البحر الأحمر، لا سيما وأن سواكن كانت مركزا ومعلما للنفوذ المصري. ومن عجب أنه برغم أن مصر كانت قد ساهمت بنصيب الأسد في عملية إنشاء وتطوير ميناء بورتسودان، إلا أن البريطانيين لم يمنحوها أي مركز أو نفوذ في تطوير المدينة. صب هذا الموقف الزيت على نار الوطنية/ القومية المصرية، وغذى الروح الوطنية المعادية للبريطانيين لسنوات عديدة قادمة.

كان أمر العمالة التي قامت ببناء الميناء والمدينة من الموضوعات الهامة التي تطرق لها الكاتب، إذ أن النقص في الأيدي العاملة كان من المشاكل السائدة في السودان قبل الحرب العالمية الثانية. اشتدت الحاجة لعمال يعملون في أحواض الميناء والسكة حديد، وفي أعمال البناء ومخازن الزيوت والفحم والأصباغ والملح، وعلى وجه العموم في كل الصناعات والأعمال التجارية. وأصاب المسؤولين البريطانيين إحباط عظيم لعدم رغبة السكان المحليين من البجا للعمل باستمرار، وبأعداد كبيرة. وحتى من عمل تحت إمرتهم، عد من الكسالى الذين لا يعتمد عليهم. وإزاء ذلك الوضع أضطر المسئولون إلى استخدام عمال من مناطق أخرى من السودان، كبربر ودنقلا، وكذلك من ريف مصر وجدة (والیمن. كان تقسيم العمل يتم دوما حسب عرقيات العاملين، حيث كان اليمنيون يحظون بأعلى الأجور في أحواض الميناء، وذلك لعلو مهاراتهم العملية، بينما يعمل العمال البيجاويون في أعمال التفريغ والتحميل الأشد مشقة (كيف يوصف بالكسل من يعمل في الأعمال الأشد مشقة؟ المترجم). وقليلا قليلا بدأت أعداد هؤلاء العمال المحليين الداخلين إلى سوق العمل ببورتسودان في التزايد. بعد الحرب العالمية الثانية ضربت موجات جفاف وتصحر ومجاعات مناطق البجا، ودفع ذلك الآلاف منهم للهجرة نحو بورتسودان، مما فاقم من مشاكل ازدحام المدينة ومن الفقر والبطالة.

من موضوعات الكتاب الهامة، عدم التوزيع العادل للموارد والمرافق في المدينة، وهذا انعكاس بالطبع لعدم العدالة في توزيع الثروة والسلطة. قام المسؤولون البريطانيون بتخطيط وتصميم الأعمال الهندسية بالمدينة، وطرقها ومصادر مياهها ووسائل صرفها الصحي، وكل ما يتعلق بأمورها الأخرى، مراعين في ذلك وضع ومصالح الأوروبيين بالمدينة أولا، ثم يليهم في الترتيب والأهمية، الأثرياء من السودانيين، والجاليات الأجنبية المزدهرة. لهذا السبب فشلت بورتسودان في جذب أعداد كبيرة من العمال المهرة المستقرين؛ وظل الوضع بها كذلك لسنوات طويلة. بذلت مجهودات متواضعة لبناء مساكن شعبية (زهيدة الثمن) للعمال، بيد أنها لم تسد الحاجة المطلوبة. أتى الاستقلال وبورتسودان تعاني الأمرين من مشكل المدن الكبيرة المستعصية على الحل.

يعد كتاب :« بورتسـودان: نشـوء وتطور مدينة اسـتعمارية» دراسـة حالة قيمة جدا في تطور المدن الاسـتعمارية (الكولونيالية)، ويمكن أن تندرج تحت الصورة الكبرى لعملية «التمدين» الإفريقية في العهد الاستعماري .

Colonial- era African urbanization

إن ما واجهته مدينة بورتسـودان من نقص في العمالة المدربة والسـكن الملائم والازدحام، يشـابه ما حدث (ويحدث) في نيروبي وداكار وكثير من المدن الإفريقية التي نشـأت في العهد الاسـتعماري. كان يمكن للمؤلف أن يقدم في كتابه مزيدا من مثل هذه المقارنات والأبعاد.

كما ذكرنا، ركز المستعمرون عند تخطيطهم للمدن الجديدة، على مصالح ورغبات الأوروبيين القاطنين في تلك المدن، والصفوة من السكان المحليين. وعلى افتراض أن العمال الذين يتم استخدامهم للعمل في المدينة لن يبقوا فيها لمدد طويلة، ولن يرتبطوا بها، فإن المسـتعمر قد تجاهل تماما مصـالح طبقة العمال (الدنيا). لم يتوقع مخططو المدن الهجرة من الأرياف إلى المدن، والتي ولدت، عند وبعد حدوثها، ازديادا في الفقر واليأس في أطراف المدن، وفاقمت من التفاوت الطبقي القائم أصلا في توزيع الثروات.

من الظلم أيضا أن نحكم بأن من خطط لبورتسودان (وشبيهاتها من المدن الاستعمارية الجديدة) قد أخطأ وأساء فهم ما كان ينبغي عليهم عمله. من السهل جدا أن تنتقد الآن شيئا حدث في الماضي...إنها نعمة لا تتوفر إلا في حالة الإدراك اللاحق.



السودان: أيام وعادات

من كتاب:Sudan Days and Ways

هنري سيسيل جاكسون

تقديم: نشر البريطاني هنري سيسيل جاكسون، والذي عمل في مجال الخدمة المدنية في السودان لأربعة وعشرين عاما متصلة، وحكم مديريتي بربر وحلفا، كتابا يلخص تجربته في الحكم والإدارة، ويصف فيه عادات السودانيين في مختلف المديريات التي عمل فيها.

نشـر الكتاب، والمعنون «**السـودان: أيام وعادات**» Sudan Days and Ways عام ١٩٥٤م من دار نشـر ماكميلان في لندن، وأهداه المؤلف لزوجته، والتي قاسـمته – كما قال- حلو الأيام ومرها، والحر والعواصـف في سنوات خدمته في السودان. للمؤلف كتب عديدة عن السودان منها كتاب عن (السودانيون المحاربون)، وآخر عن (عثمان دقنة)، وكتب أخرى عن (السـودان الحديث)، وعن (الزبير باشـا تاجر الرقيق والسـلطان)، و(راهب؟ على النيل) وكتاب عن سلطنة الفونج اسمه (سن النار). للمؤلف أيضا مقالات عديدة منها مقال عن (الأمثال السودانية) نشـره في مجلة (السـودان في رسـائل ومدونات) قمت حديثا بترجمة ونشـر أجزاء منه. في الفصـل الأخير من كتاب (**السـودان: أيام وعادات**)، والذي أسـماه المؤلف (الوداع)، يصـف المؤلف بعض ما صـادفه في سـنوات عمله من عادات «الأهالي» وتصرفاتهم. والسطور التالية هي نذر قليل مما جاء في هذا الفصل. **المترجم**

مع اقتراب فترة عملي في السـودان على الانتهاء، بدأت أفكر – وبصـورة أكثر جدية- في الأصـدقاء الكثر الذين عملت معهم في هذه البلاد، وعن الذين خدموني بإخلاص لفترة قاربت ربع قرن من الزمان. كثيرا ما كنت أفكر في الصعوبات الجمة التي قابلها فريق الموظفين الصغار من الكتبة الذين عملوا معي تحت ظروف بالغة القسوة، وكانوا لا ينالون في نهاية كل شهر غير مرتب ضئيل لا يتجاوز ٢ إلى ٨ جنيهات. كم من المرات فكرت في أن ذلك المبلغ لا يكاد يفي إلا باليسـير من احتياجات الحياة الضـرورية، وأني لم أفعل ما فيه الكفاية لتخفيف أعباء الحياة عنهم. كان عملهم اليومي (قبل إدخال ماكينات الطباعة) والذي يتضمن كتابة الخطابات، ومسك الدفاتر، ومراجعة الحسابات، عملا ثقيلا مملا. ولم يكن لهؤلاء الكتبة أي نشاط ثقافي أو فكري أو بدني (رياضي) يشغل أوقاتهم. في المقابل، كانت لدي كمية معتبرة من الكتب المتنوعة، وما يشـغلني في البحث والكتابة في أمور تاريخ البلاد وعاداتها وتقاليدها، وفي صـيد الحيوانات البرية أو الطيور بغرض إدخال نوع من التنويع في قائمة طعامنا، والعزاء في التفكير في أن ما أفعله يستأهل التضحية.

يشيد كثير من الناس (حتى من بين المعادين للحكم الإمبريالي / الاستعماري) بإنجازات ذلك الإداري البريطاني الوحيد في أفريقيا. بيد أنه يجب أن لا ننسـى مسـاهمات أولئك الكتبة الصـغار الذين شـاركونا في أوقات المرض والشدة، ولم تكن لديهم نفس الحوافز التي ألهمتنا، ولكن لولاهم لما تمكنا من الاستمرار في عملنا.

لقد بذل هؤلاء الكتبة جهد طاقتهم في العمل، رغم تواضع مستوى لغتهم الإنجليزية، والتي أدى سوء فهمهم لها في بعض الأحايين إلى نتائج غريبة. وأذكر هنا عامل التلغراف في سنار عام ١٩٠٩م، والذي ا ستلم تلغرافا لم يفهم منه شيئا، فقام من تلقاء نفسه بتعديل ترتيب الكلمات حتى لا ألومه على تلك الرسالة المشوهة.

كانت تلغرافات وكالة رويتر ترسـل كل يوم إلى كل مكتب تلغراف في البلاد، وكان تمثل «نعمة» كبيرة للموظفين في المناطق البعيدة، والذين لا صلة لهم بالعالم الخارجي بغير تلك التلغرافات.

عدت ذات مساء لمنزلي البدائي بعد جولة صيد في العصر. كانت على طاولة معسكري جهاز صنع المياه الغازية sparkled siphon، وزجاجة ويسكي، وتلغرافات رويتر التي تلخص كل ما حدث في العالم ذلك اليوم. كان من ضمن الأخبار الواردة خبر مرض القيصر. أضحكتني البرقية التي كانت تقول حرفيا: « القيصر طريح الفراش مع المعزة. قضى جلالته ليلة مزعجة.» كان تغيير حرف a إلى حرف u من الأمور «التافهة» التي لا يعيرها موظف التلغراف كبير اهتمام (يبدو أن موظف التلغراف غير تهجئة كلمة **gout** وتعني مرض النقرس بكلمة **معزةgoat**. المترجم**!**)

يجب أن نعترف بأننا مدينين بالكثير لخدمنا، رغم أنهم كثيرا ما يتسببون في إثارة بعض المشاكل لنا بسبب عنادهم، وخاصة في شهر رمضان، حيث كان عليهم تحمل إطعام وسقيا من لا يصومون بين شروق الشمس وغروبها. كانوا يستمتعون بعملهم ويخلصون فيه. عندما كان الخدم يخدمون فردا واحدا، فإنهم عادة يتراخون في العمل. كنت أعمل في مركز يتطلب أن أدعو فيه للطعام عشرات الضيوف ولعدة أيام متتالية. كان الخدم يحبون تلك الدعوات، ويبذلون فيها جهدا مضاعفا، وإلى وقت متأخر من الليل. كانوا يتباهون لخدم الموظفين الآخرين بما أنجزوه في ليلتهم السابقة، فيقولون مثلا بأنهم خدموا عشرين أو ثلاثين ضيفا «في بيتهم». كانوا يعتزون بحسن ضيافة مخدمهم (في الأصل سيدهم. المترجم) وكأن الثناء والفخر سيذهب لهم، ويقولون: إن الدعوة «في بيتهم» أمها كذا وكذا من الناس**!** أذكر أني سألت ذات مرة في البيت عن قميص معين افتقدته، وأتتني الإجابة بأن «قميصنا» قد ذهب للغسيل.

لعل التباس تحديد مصالح وممتلكات«السيد» و«الخادم» هو الذي أدى إلى بعض السرقات الصغيرة، والتي ظللنا نغض الطرف عنها. لكني غضبت جدا ذات مرة عندما استدعت الشرطة للمحكمة في الخرطوم أحد الطباخين العاملين عندي لجرم اتهم بارتكابه. وجد ذلك الرجل في نفسه الجرأة في الظهور أمام المحكمة مرتديا حلة أكسفورد الرياضية التي ألبسها عند لعب الكريكيت؛ لا ريب إنه كان يود أن ينبه القاضي لمكانة مميزة يحملها عند مخدمه الإنجليزي، وأنه بلا شك بريء مما نسب إليه**!**

كان خدمنا يحبون الملابس الغربية، ولكنهم كانوا يرتدونها في أغرب الأماكن والأوقات. فمثلا كانوا يرتدون معاطف البرد الثقيلة الخاصة بنا في عز نهار الصيف ومقياس الحرارة لا يقل عن ١١٦ درجة فهرنهايت في الظل (نحو ٤٧ درجة مئوية. المترجم)، ولكنهم يخلعونها في الليل (حين يبرد الجو) بدعوى ألا أحد يراهم بالليل وهم «يقشرون» بها**!** كذلك يدخل بعض الخدم في صراعات قبلية فيما بينهم ويناصر أفراد قبيلة الواحد منهم زميلهم، وإن جار على غيره من الخدم من القبيلة الأخرى. رغم ذلك فيجب على المرء أن يشيد بشدة إخلاصهم وتفانيهم في

العمل، خاصــة عند الخدمة تحت ظروف اضــطرارية أو عاجلة، إذ قد يتعرض الواحد منهم لمواقف لا يواجهها الخادم الإنجليزي إلا بتقديم ا ستقالته الفورية. كثيرا ما كنا نخطر الخادم الـ سوداني قبل ساعة واحدة فقط من موعد وجبة العـشاء بأن عدد المدعوين قد زاد من اثنين إلى أربعة عـشر، فلا تـسمع منهم إلا «حا ضر أفندم»، وتجد أن كمية وافرة من الطعام قد أعدت، تكفي الجميع وتزيد، وفي الموعد المحدد تماما.

من أمثلة الإخلاص عند هؤلاء الناس، ما شــهدته خلال العقد الأخير لخدمتي في حكومة الســودان عندما كان يخدمني خادم من الشــلك اســمه «بلال»، كان يخدم في الجيش برتبة عريف. وفي أثناء الحرب العالمية الأولى ضــد الألمان في شرق أفريقيا كان بلال يعمل خادما لصيقا لضابط إنجليزي (باتمانBatman)، وحدث أن أصيب ذلك الضابط، فأبى بلال أن يفارقه، وأدي ذلك لاعتقاله كأ سير حرب. كان يحكي لي، خا صة بعد عودتنا من جولة لـصيد الأفيال في المنطقة، عن الأهوال التي صــادفته في معتقله الألماني في تنجانيقا، حيث أمروا ببناء خط حديدي بها. كان الألمان ينتظرون حتى ينتصف النهار ويحمى الحديد، فيأمرون الأسرى بالخروج للعمل المضني في تركيب القضبان الحديدية. لم يؤهله أو يعوده عمله الـ سابق مع الـ ضباط الإنجليز لمثل تلك الأعمال الـ شاقة القا سية على يد الألمان. بلال الآن رجل عجوز وشبه كفيف، ويعيش في ملكال على معاش مستحق من الجيش، وعلى إعانة شهرية من صديق يســعده أن يقدم له تلك الهدية الشــهرية. أتمنى أن يصــل لبلال هذا خالص تقديري وامتناني على كل ما قدمه لنا ولبلاده.

كان العمل في الســودان مثيرا، لا يكاد يخلو من المفاجآت. فقد يبدأ اليوم بصــورة طبيعية روتينية، ولكنه ينتهي نهاية غير متوقعة. فعلى سبيل المثال كنت أمثل حكومة السودان في عزاء أحد الشخصيات الدينية الهامة والمؤثرة في البلاد. وصلت لمكان العزاء عند التاسعة صباحا لأجد أن مراسم التشييع لم تكتمل بعد. أدخلت لغرفة خاصة مليئة بنحو درزنة (دستة) من الشيوخ الحزانى الذين جلسوا صامتين وكأنما على رؤوسهم الطير. عادة ما يقضى وقت مثل هذا الانتظار في رثاء الفقيد وتعداد مآثره وأعماله التي قام بها خلال حياته. لكن هذه المرة لم يحر الشــيوخ الحزانى غير الصمت، وأحيانا النطق بكلمات قليلة من قبيل: «الله يرحمه» و «الله يصبر أولاده». ربما كان اليوم حارا لا يشجع على كثرة الكلام، أو أن المعزين لم يجدوا في سيرة الراحل الكثير من الأعمال الـصالحة ليذكروه بها. لا أكاد أذكر من معاملاتي مع ذلك الفقيد غير أنه زار مرة مفتشــا إنجليزيا كانت له زوجة نحيلة الجســم جدا. ما أن خرج الرجل من زيارة المفتش حتى ضرب كفا بكف وهو يقول بصوت عال: «والله مسكين!» ثم أضاف : «سعادتو بقروشه دي كلها ما لقى ليهو واحدة غير دي!» بقينا في الغرفة صامتين نستمع في صبر لنواح النائحات وصراخهن حتى الساعة الحادية عـشر حين أخبرنا بأن موكب الجنازة الآن جاهز للـسير. لم نكن فرحين بمـسيرة ثلاثة أميال تحت لهيب شمس ذلك اليوم وعلى رمال حارقة حتى المعدية، والتي ســتنقلنا للشــاطئ الآخر من النهر. أحاط ببيت الرجل آلاف المعزين ومئات النسوة اللواتي كن يهلن التراب على أجسادهن ويصحن ويولولن. أحضرت قوة دفاع السودان فرقة بدأت في عزف ألحان جنائزية بطيئة وأناشيد وطنية. تقدمت تلك الفرقة الموكب ومضت تسير ببطء قاتل جعلني أشك في أننا سنصل لمقصدنا النهائي في وقت قريب. لم تكن للمقطوعات التي كانت تعزفها الفرقة أي عناوين أو أسماء، وكانت تعطي أرقاما فقط. مـضينا في المـسيرة البالغة البطء لمدة عـشرين دقيقة، حين بدأت الفرقة في عزف «رقم ١٧» (لعلها كانت أغنية الصيد الإنجليزية القديمة D' ye ken John Peel ، فبدأت المسيرة في الإسراع، ومضت الخمس

ع شرة دقيقة التالية بـ سرعة نـ سبية . ما أن و ضع الجثمان في مرقده الأخير حتى بدأت الفرقة في عزف «رقم ٢٣»، وكان ذلك أمرا غير مناســب بالمرة، فالقطعة المعزوفة (والمفترض أنها قداس لراحة نفس الميت) كانت في الواقع أغنية غزل أسكتلندية قديمة عنوانها: «Stop your tickling, Jock!».

(يمكن أن تقرأ كلمات الأغنية هنا:

http://www.rampantscotland.com/songs/blsongs_tickling.htm المترجم)

قال لي أحد الأ صدقاء من الـسودانيين الـشباب: «نريدك أن تعود للـسودان لترى مقدار التقدم العظيم الذي حدث في البلاد منذ أن غادرتموها. السيارات، والطائرات، والكهرباء، والمياه النقية في أماكن كثيرة الخ الخ ..» صمت برهة وقال بعد تفكر: «ربما لن يعجبك ذلك التغيير. بالتأكيد لو ســألتني ســأقول لك نحن الآن أكثر ســعادة، ولكني لا أ ستطيع الجزم بأن أبي الآن أكثر سعادة عندما كان تحت حكمكم. لم يكن هنالك شيء ا سمه «إ ضراب عن العمل» ولا «سياسة» تفرق بين المرء وأخيه في العائلة الواحدة. لم تكن هنالك حروب بين أبناء الوطن الواحد في الطرقات.»

رغم ما يقال الآن، فيجب أن لا ننســى حالة الفقر المدقع التي وجدنا عليها البلاد، وحالة البربرية والهمجية التي تميزت بها بعض القبائل، والتي تقابلها حالة من الخير والطيبة عند مجموعات أخري. لن ننســى أبدا أن حالة الفقر العام في البلاد لم تمنع الناس الذين أتينا من بعيد لنســاعدهم (هكذا! المترجم) من أن يكونوا لطيفين معنا وفي غاية الكرم. إن ما ينعم به الناس في الـسودان الآن هو نتاج لعمل مخلص دؤوب قمنا به مع مجموعة كبيرة من الـسودانيين المخلصــين لخدمة هذه البلاد، ويجب على الجيل الناشــئ، والذي طالب ونال الاســتقلال أن يضــع ذلك في اعتباره (مع بعض الامتنان). نحييهم ونودعهم ونقول لهم ما يقوله أسلافهم: **ابشر بالخير!**

رغم أن أم درمان لا تفـ صلها عن الخرطوم سوى بـضع دقائق، إلا أنه تفـ صلها عنها في الواقع مئات الـسنوات. أم درمان مدينة أفريقية، بينما الخرطوم مدينة أوروبية. ضــفة النهر شــديدة الانحدار في الخرطوم، وتحفها بيوت جميلة مبنية من الطوب، ذات حدائق بهيجة، بينما تجد على ضــفة النيل في أم درمان شــاطئاً حجرياً شــديد الانحدار، مليئاً بجوالات الـصمغ العربي والذرة والجلود وبضائع أخرى، يتكسب من بيعها و شرائها سكان تلك المدينة التجارية. إن خـ ضرة الخرطوم تتناقض تماما مع منظر أم درمان بأحيائها القاحلة، و شوارعها المتربة الخالية من الأ شجار. لا تشــابه البتة بين شــوارع الخرطوم العريضــة المنتظمة التخطيط، وأزقة أم درمان الضــيقة المتفرعة التي تحكي المتاهات، والتي لا يســتبين لها المرء بداية أو نهاية. في أم درمان تجد أكشــاكا صــغيرة، ومحال تجارية مبينة بالطين اللبن تضــاء ليلا بلمبات الزيت أو الشــموع، يقابلها في الخرطوم المحلات التجارية الواســعة التي يمتلكها ويديرها التجار الأوروبيون.

لا تقتـ صر الاختلافات بين المدينتين على الـ شكل فقط، ولكنها تـ شمل أيـ ضا تباينا في نوع الـ سكان الذين يقطنون فيهما. بالطبع كان هنالك ســودانيون يقطنون في الخرطوم، وأوربيون يقطنون في أم درمان، ولكن إن كان منظر الأفريقي غير المتمدن غريبا بعض الشــيء في مدينة أوروبية كالخرطوم، فإن منظر الإداري البريطاني أو الكاتب المصري بطربوشه الأحمر يبدو أكثر غرابة في سوق أم درمان.

لا توجد – ربما عدا في مكة- مثل تلك الأعداد الكبيرة من الناس ذوي الأصـول العرقية المختلفة التي تقطن مدينة صغيرة الحجم كما في أم درمان. فيها تجد الأتراك، والأرمن، والهنود، والسوريين، والفرس، وغرباء من دول شرق أوسطية مختلفة، وأوربيين من مختلف الدول، وفلاتة، وشعوب أخرى من غرب أفريقيا قدمت للحج، و«فزي وزي» (من شـرق السـودان. المترجم) وعرب، ونوبة، وقبائل نيلية، وزنوج، وبرابرة، وخليط متنوع من القبائل التي تكون سكان السودان الحديث.

إن الرحلة من الخرطوم إلى أم درمان ليسـت فقط رحلة نهرية لا تزيد عن ميل واحد لمكان مختلف وأناس مختلفين. إنها رحلة تأخذ المرء لعصر يشابه عصر أسلافنا الإنجليز في مدينة لندن في القرن الرابع عشر الميلادي. تجد ذات الحواري الملتوية الضيقة، والتي وصفها «تشارلس بيندرل» في كتابه الشهير «الحياة في لندن في القرن الرابع عشر»، والأسواق المفتوحة للحوم والسمك والذرة الشامية وأساسيات الحياة الأخرى، وبقية البضائع التي يمكن فحصها تحت ضوء الشمس. تذكرني أسواق الجزارين والسماكين و سوق العيش (الذرة) في أم درمان بما كان في لندن قديما في كورنهل، واوولد فش استريت (شارع السمك القديم)، وسينت نيوكلاس شامبلز (والتي كانت كنيسة في العصور الوسطى. المترجم). ونجد كذلك لسوق الفلاتة (الذين يصنعون الأحذية الجلدية)، و سوق الصاغة، وسـوق الحدادين في أم درمان ،نظراء في شـوارع لندنية قديمة مثل سـيلفر إسـتريت (سـوق الفضـة)، وشـارع تجار الحديد، وشارع كورد وينير.

كان كل أصـحاب حرفة يمارسـون نشـاطهم التجاري في منطقة معينة من أم درمان، وكان التشـاحن الدائم هو الغالب على علاقاتهم مع بعضـهم البعض، تماما كما كان يحدث في لندن قبل ٦٠٠ عام، حيث كانت وسـيلة التفاهم بينهم هي لغة السيوف والمدي والهراوات وأسلحة أخرى.

لا تقف أوجه المقارنات هنا. أثناء عملي لعامين كاملين كمفتش في أم درمان كنت كثيرا ما أقابل بعض عواجيز النسوة المعدمات اللواتي كن يطلب مني أن اسمح لهن بعمل سقيفة صغيرة تظلل ما يعرضن من خضروات قليلة. كنت كثيرا ما استجيب لهذا الطلب العادي. زرت واحدة من هؤلاء النسوة بعد أيام قليلة من تركيبها لمظلة صغيرة من القش، ثم زرتها بعد ذلك بأيام فوجدت أن مظلة القش قد تطورت لمظلة قماشـية مربوطة بأوتاد. اكتشـفت بعد زيارة أخرى أن المظلة القماشية تحولت هي الأخرى لمظلة خشبية دائمة. كنت أعلم بأن طلبها المتواضع في البداية إنما كان مقدمة لبرنامج طموح. زرت تلك المرأة بعد شهور لأجد أن محلها محاط بكنبات متحركة. فسرت المرأة الأمر بأن زبائنها يأتون من مكان بعيد، ويكونون في غاية التعب عندما يصلون لمحلها، وطلبت مني أن أوافق لها على وضـع تلك الكنبات المتحركة حول المحل. مرت أسـابيع، فإذا بالكنبات المتحركة تغدو مقاعد طينية ثابتة تسـد ممرات السوق. تعجبت جدا وأنا أقرأ في كتاب تشارلس بيندرل الشهير «الحياة في لندن في القرن الرابع عشر» لأجد ذات الوصف لما طلبته تلك المرأة مني، وكيف «تطورت» طلباتها مرة بعد مرة.

كثيرا ما كنت أمر بقرب النيل وأراقب الرجال يفرغون حمولات المراكب الكثيرة المتراصـــة من جوالات الذرة والصمغ وألواح الخشب. كنت أشاهد النساء وهن عاريات حتى خصورهن وهن يقمن بغسل الملابس بخبطها بقوة بحجر أو نحوه. تنشر بعد ذلك الملابس لتجف، وتكون بيضاء في مثل لون الجليد عندما تشرق عليها الشمس، وقد تتحول للون الرمادي إن غطاها ظل سحابة عابرة.

كانت هنالك أكوام هائلة من الصـــمغ العربي في الســوق يعكف حولها شـباب يقومون بعمليات فرز وتصــنيف. وبقرب النيل ترى صيادين يصلحون شباكهم، ونسوة و صبايا في صفوف طويلة وهن يحملن أباريقهن ومواعينهن الفخارية الأخرى لملئها من النيل. يتحدثن مطولا مع صــويحباتهن قبل أن يقفلن راجعات من حيث أتين. وعلى بعد بضع مئات الياردات تجد سوق العيش، حيث توجد تلال من الذرة (يصل طول بعضها لستة أقدام). يدخل البائع مقاسه الخشبي المستدير في وسط ذلك الكوم الهائل، بينما نظرات المشتري المتشككة تراقبه حتى يملأ المقاس كما ينبغي. يمسح بعض الباعة الذرة في المقاس حتى تغدو منبسطة ومتساوية مع حد المقاس الأعلى، بينما ينا شده (يخصمه) المشتري (أو المشترية) بالله ورسوله أن يكون أكثر كرما. يقوم بائع آخر بترك قليل من الذرة على شكل المخروط وهو يستمع في سعادة لدعوات المشتري (المشترية) ويفرغ الذرة في كيسه.

في سوق الخضار تجد الباعة جالسين القرفصاء وينادون المارة على بضائعهم، فيقول الواحد منهم: «ا صبر يا خوي...اتفضل... شوف البامية دي...ما بتلاقي زيها في السوق...الخ الخ.» كانت بالفعل في هذا السوق أصناف عديدة من البضائع المتنوعة...تجد أسواط العنج، ومنتجات فخارية، ومشغولات يدوية من شعر الزراف والسعف، وتجد كذلك الأحجبة «الحجبات» والتمائم تتدلى من أســقف المحلات الطينية الصــغيرة، وريش طائر البلشــون الأبيض أو النعام (egret)؛ وقد منعت الحكومة مؤخرا بيعها. كل ذلك في مقابل البضــائع الواردة من بيرمنجهام وطوكيو (في الخرطوم).

أحيانا أسير على شاطئ النيل في «أب روف» حيث المعدية التي تأخذك للضفة الشرقية، ومن هنالك يأخذك ترام يربط الخرطوم بحري بالخرطوم. في «أب روف» يسكن صانعو المراكب، الذين يصنعون مراكبهم دون الاستعانة بخرائط أو رسومات، بل يستخدمون المهارة الحرفية المكتسبة، وخبرة السنوات المتراكمة في صنع مراكب شراعية تمخر عباب الأنهار، وعلى ظهرها مئات الركاب وأطنان البضــائع دون أن تغرق أو تنقلب. أعجب من هؤلاء القوم بأدواتهم البدائية، كيف يصنعون مراكب في غاية الجمال والقوة والأمان!

لا أحد يعلم على وجه التحقيق أصــل كلمة «أم درمان». قال البعض إنها اســم لتلين صــغيرين اســمهما «درمان»، فسميت القرية الواقعة بقربهما أم درمان. أشك كثيرا في هذا التفسير، وأميل إلى التفسير القديم الذي يقول: إن المدينة سميت على أم رجل اسمه «درمان» أتى من الغرب قبل سنوات طويلة. يقال إنه حقق ثروة عظيمة، وكانت أمه تمتلك مراكب تنقل الناس بين أم درمان وتوتي، وبين أم درمان والحلفايا، وبين أم درمان وما يعرف الآن بالخرطوم. كان ركاب تلك المراكب حين يسألون عن كيفية وصولهم يجيبون بأنهم حضروا بواسطة «أم درمان».

كانت أم درمان قبل المهدية قرية صغيرة جدا قليلة الأهمية. كبرت تلك القرية في عهد الخليفة عبد الله، وتمددت على النيل لمسافة لا تقل عن ثمانية أميال، وبلغ عدد سكانها ٤٠٠٠٠٠ نسمة. تناقص عدد السكان بصورة فورية بعيد هزيمة الخليفة في معركة أم درمان (كرري). نزح كثير من أولئك الرجال المحاربين المهزومين إلى أجزاء مختلفة من السودان. عاد المدنيون الذين كان الخليفة قد أمرهم بالهجرة إلى أم درمان (بحمد الله) إلى قراهم، وكان كثير منهم قد فروا وتفرقوا في البلاد مع تقدم جيش كتشنر. بقي قبيل دخول كتشنر للخرطوم حوالي ٥٠٠٠٠ نسمة فقط في أم درمان. فرضت حالة المدينة الفوضوية عقب دخول كتشنر لأم درمان مشكلة عويصة للسلطة الجديدة ، والتي قابلت صعوبات كبيرة في تطوير المدينة وإعادة تعميرها.

شيد الأهالي آلاف المنازل على عجل بالطين اللبن دون كبير اهتمام بأي تخطيط أو اهتمام. يعاد وضع «الزبالة» كل عام قبيل موسم الأمطار على تلك المنازل فتغدو رائحتها كريهة لا تطاق. كانت الأحوال الصحية في المدينة بالغة السوء، وكانت أزقتها الملتوية تعيق الحركة، وتجعل من تطبيق النظام والقانون أمرا عسيرا، فكان بمقدور أي مجرم الهروب من الشرطة في تلك «المتاهات». كانت «فاطمة» هي أحدى أولئك المجرمين الذين صادفتهم في عملي الإداري في أم درمان. يندر في ذلك الوقت أن تتهم امرأة بجرم ما يجعلها تقف أمام القاضي، باستثناء بعض النساء الجنوبيات اللواتي كن يتهمن بمخالفات بسيطة مثل المشاجرة مع الجيران، أو صنع «المريسة» دون تصريح رسمي، أو جرائم أكثر خطورة مثل تقطير العرقي. كانت فاطمة (وكانت قوية وطويلة وذات جسد ريا ضي) من المسترقات اللواتي تم تحريرهن بعد سقوط المهدية. ذاع بين الناس أنها كانت لصة تعتدي على بيوت الناس في الهزيع الأخير من الليل وهي عارية كما خلقها ربها، ومتمسحة بدهن لزج يجعل من الإمساك بها أمرا مستحيلا. في أحد الليالي هاجمت بيتا له حائط طويل، وبعد أن جمعت ما غنمته من ذلك المنزل، قفزت من ذلك الحائط الطويل، ولاذت بالفرار. انتبه أصحاب المنزل للص الذي قفز من حائطهم وقالوا لبعضهم: «لابد أن هذا اللص هو فاطمة.» عوضا عن أن يجروا خلفها، فكر أحدهم وقال لهم لماذا نفاجئها في بيتها. وبالفعل جرى أصحاب البيت المسروق لبيت فاطمة وتخفوا فيه إلى أن آبت إليه تلك اللصة وهم تحمل كسبها العظيم، فتم القبض عليها.

لم تبدأ عملية إعادة تخطيط وبناء أم درمان إلا عام ١٩٠٩م نسبة لقلة الموارد المالية. قمت مع مهندس المساحة الاسترالي رودني بويس بتخطيط الشوارع الرئيسة في أم درمان، وتقليلا للنفقات فقد احتفظنا بالشوارع العريضة الموجودة أصلا بالمدينة. لو كان الأمر بيدي لهدمت كل البيوت والطرقات الموجودة منذ المهدية، ولأعدت إعمارها من جديد. كان تخطيط المدينة في نهارات الصيف القائظة المغبرة أمرا يصعب احتماله، وخاصة مع تجمهر الأهالي بالمئات لمشاهدة ما يجري. كنت أعيش في بيت الخليفة الهادئ والخالي (والذي غدا متحفا فيما بعد)، ولم يكن فيه من ساكنيه القدامى غير قط وحيد آثر البقاء، وخادم من مسترقات الخليفة السابقات تعمل في جلب الماء من النهر. كان بيت الخليفة قد بني جزئيا من مخلفات قصر غردون الذي تم هدمه قبل سنوات. تمتعت ب«الهندسة السودانية» في ذلك البيت لسنوات، إذ كان الخليفة قد أمر ببناء نوافذ ضيقة في الجدران الأربعة حتى يتمكن من مراقبة ما يجري حوله دون أن يراه أحد!



أغنيات جنود السودانSudanese Soldier's Songs

د. ثورنبيرن D. Hay Thournburn

(تمت ترجمة كلمات الأغاني بالاشتراك مع دكتور خالد محمد فرح)

تقديم: نشـــرت هذه المقالة في «مجلة الجمعية الأفريقية الملكية» (والتي ســـميت فيما بعد مجلة «الشـــؤون الأفريقية») العدد ٢٤ لعام ١٩٢٥م. الشكر موصولا لدكتور عبد الله جلاب لجلبه لنا هذا المقال التاريخي القديم.

يعمل الجندي السوداني في الجيش المصري في الأعمال العسكرية المختلفة بحماس أزيد، ونشاط أعظم، وهمة أعلى وهو يغني. لا يزعم الكاتب أن هذا المقال سجل عربي كلاسيكي لكلمات الأغاني العسكرية، وإنما هو محض رصـــد صـــوتي لتلك الكلمات. تعد العربية لغة أجنبية لنحو ٩٠٪ من رجال كتائب الجيش الســـوداني، وفي بعض الوحدات قد تزيد تلك النسبة على ذلك. يتعلم المجندون من الشلك والدينكا والنوبة في بداية التحاقهم بالجيش لغة عربية «مكســـرة»، ولن تجد كثيرا من الكلمات الواردة في أغاني أولئك الجنود الســـودانيين في أي قاموس أو معجم عربي.

إن الأغاني والقوافي التي ســـتذكر في هذا المقال هي مجرد أمثلة للأغاني الكثيرة التي يؤديها هؤلاء الجنود- لبعضها أبيات كثيرة، وكثيرا ما أثارت إضافة أحد الظرفاء من الجنود لبيت من الشعر المثير للضحك عاصفة من التصفيق والاستحسان.

في بعض الحالات يؤدي المغني كامل الأغنية بصورة منفردة، ومن ثم يعيد الجميع كل المقاطع مرة أخرى، و في أحيان أخرى يشدو المغني بكلمات قليلة ثم يعقبه بقية أفراد الفصيل (الكورس) بالغناء. من أمثلة النوع الأول تنتمي «الجلالات» ... تلك الأغاني الدينية الطابع، والتي تشير إلى رب العباد

(١)

لا إله إلا اللهْ

لا إله إلا اللهْ

لا إله إلا الله ... محمد يا رسول الله

(٢)

لا إله إلا الله

فُقرا عبيد اللهْ

شدّوا خيلكُمْ

امرقوا قدام الرسول

براكُمْ سلّموا

لا إله إلا الله

* حذفت الف ولا التعريف من (الفقرا) جريا على طريقة القوم في ذلك فهم لا يأبهون لها، ومنه قوله في الجلالة الدارفورية « فقرا شيلوا جلالة لعلي ود زكريا إلخ (المترجمان)

(٣)

اللهُ الدايمْ

اللهُ دايم اللهْ

دايم كريم اللهْ

يا اخوانا شيلوا الدايم

اللهُ دايم اللهْ

دايم كريم اللهْ

(٤)

يا اللهُ الدايمْ

يا اخوانا شيلوا الدايم

يا اللهُ الدايم

الدايم دا ما نايم

يا اللهُ الدايمْ

(٥)

هناك «جلالة» أخرى من عهد الدراويش (أي عهد المهدية. المترجم) يصعب ترجمتها (للغة الانجليزية) ولكن مضمونها يقول الآتي: «هذا اليوم ...هذا اليوم من كل الأيام نجتمع هنا ...في مكان واحد ... محاربين صغار أقوياء ونساء...تسيل منهم الدماء ...يطردون الأعداء»

وهناك «جلالة» يقول مضمونها: «هذا يوم جميل ...نشعر بأننا قادرون وأقوياء...فلنذهب للحرب ونقتل الأعداء ».

يا عيال ترًى

نحن رجال

اليوم اليوم ترى

صُبيان البنات

رُشّوا الرجال بالدّمْ

تساموا الزول ترًى

(٦)

طعنوني بى حربة شنقة

بكان حربة بلحيل بوجعْ

ط/ ير ط/ ير خربان

بكان شنقة بلحيل بوجعْ

في شان اللهْ

يا يلا دوري

نحن رجال

اليوم..اليوم تراه؟

صبيان البنات

روش ؟ الرجال بي دام؟

تسامو ؟ الزول ترا

(٧)

الأغنية التالية هي أيضا من عهد الدراويش:

تناني بي حربة شنقا

بكان حربة بالحيل بيوجع

طير...طير حربة

بكان شنقا بالحيل بيوجع

عشان الله

(٨)

جاني جوّاب

من سيد العموم

أبو الفاضلْ

جوّدوا الكفار

بى سيف العموم

أبو الفاضل الدين منصور

هذه الجلالة فيها بكل تأكيد أ صداء وعقابيل من تراث المهدية فأبو الفا ضل هو لقب من ألقاب الامام المهدي ، وعبارة «الدين منصور» هي الأخرى عبارة أنصارية قحة أعلنها ود حبوبة في ثورته وكانت شعاره.

(٩)

عندما يكون على الرجال رفع أوزان ثقيلة، عادة ما تسمعهم يرددون:

أنا وإنت والله .. هوبْ!

(١٠)

هى برّه .. هى برّه لى فوق

هى اللهْ ، هى اللهْ.. لى فوق................حي الله، حي والله...لي فوق.

(١١)

الأغنية التالية هي «مارش» عسكري من أيام الحملة النيلية، وتروي حكاية الخسائر التي أوقعها الجنود الفاتحون (الغزاة. المترجم) من على بواخرهم النيلية على الدراويش، وعن الوجبات الدسمة التي أتيحت للنسور والبواشق من جثث قتلى الدراويش:

ط/ ير ط/ ير خربان
الكورس: كوسيم البابور جايي

ط/ ير ط/ ير ياكلْ
الكورس: كوسيم البابور جايي
ط/ ير كِلدِنقْ ياكل
الكورس: كوسيم البابور جايي

لعل المقصود من كلمة « Kussim» هنا الكلمة السودانية البذيئة «ك.. أم»، وعساكر ذلك العهد قمينون بترديد مثل هذه الالفاظ ! (المترجمان).

(١٢)

هنالك أغنية شعبية تشير إلى فضل الزواج ونعيمه:

هِيلي
الكورس: حلوة
حق الناس
الكورس: حلوة
كان ضُقتوا
الكورس: حلوة
في بيتو
الكورس: حلوة
دخّنوه
الكورس: حلوة
هندسوه
الكورس: حلوة
وهكذا

يشير السطر الخامس (دخّنوه) إلى عادة النساء السودانيات في التعطر بالدخان، حيث يقمن بدفن وعاء خزفي (برمة مثلا) في باطن الأرض، ويضعن فيه بعض الأخشاب العطرية المشتعلة (مثل الصندل وغيره)، ثم يجلسن على فوهة الوعاء المتصاعد منه الدخان، بعد أن يغطين سائر جسدهن بشملة أو بطانية للحفاظ على الدخان ذي الرائحة العطرية على أجساهن.

(١٣)

وهذه أغنية جماعية:

أبو لانق لو لو شنبو

أبو لانق لو لو ضنبو

أبو لانق لو لو صُلبو

أبو لانق لو لو راسو

أبو لانق لو لو دِقنو

(١٤)

وهذه أغنية تغنى جماعيا أثناء العمل مرات ومرات

أيوه المِيري .. يومية كمْ

أيوه الطُلبه جنّني

أيوه الطُلبه يا وليدي

(١٥)

المغني: أبو لًمبو
الكورس: شنب القرموط

(١٦)

علي أفندي
الكورس: مامور اصوان
في القهوة
يشرب فنجان
في الخلا
يضرب نيشان

كان علي أفندي ضابطا مصريا يعمل ك «مأمور» في أسوان (اصوان) في تسعينات القرن الماضي (أي القرن التاسع عشر) عندما كانت تلك المدينة تعد نقطة حدودية بين مصر والسودان.

ترجم الكاتب البريطاني كلمة «الخلا» في الأغنية على أنها «الكلا» وقال مفسـرا لها بأنها كلمة تركية تعني «مربع أو ميدان square. يظهر في هذا المقطع أثر الثقافة المصـرية، كما إنه يذكر بأهزوجة » الفات الفات وفي ديلو سـبعة لفات إلخ » (المترجمان).

(١٧)

البُلك أمين
الكورس: سرق التعيين
نمرتو كمْ ؟
الكورس: ميّة وخمسين
مخزنجي
الكورس: سرق الصابون
نمرتو كمْ ؟
الكورس: ميتين وخمسين

يبدو أن الاختلاس والسرقة ومختلف ضروب الفساد مستشرى عند موظفي الحكومة من قديم! (المترجمان)

(١٨)

اللهْ يا اللهْ

الكورس: حَيْ دوب يا اللهْ

جُرْ البِير

الكورس: حيْ دوب يا اللهْ

أم شنقة ما بطّالْ

الكورس: حيْ دوب يا اللهْ

التعّب الرجال

الكورس: حي دوب يا الله

دورتينقي ما بطال

الكورس: حي دوب يا الله

ودّونا كردفان

الكورس: حي دوب يا الله

الطيّعْ الجبال

الكورس: حي دوب يا الله

في عام ١٩١٦م وخلال الحملة على دارفور (المستقلة حينها) تم إرسال جنود مشاة سودانيين في «أم شنقة» حيث خطوط الاتصـالات، لجلب الماء من آبار عميقة يصـل عمق بعضـها إلى ٢٣٠ قدم. كان على كل واحد من أربعة من الرجال أن يسـحب الماء بحبل منفصـل عن الآخرين، إذ كان وزن الحبال المسـتخدمة يفوق وزن الماء الذي يرفع لظاهر الأرض. في الـ سطرين الأخيرين من الأغنية ا شارة إلى الحرب التي خا ضها أولئك الجنود ضد سكان جبال النوبة، والتي كانوا يعتقدون بأنها كانت أكثر إثارة (more interesting) من حربهم في دارفور!

دوب لفظة من العامية السودانية تفيد معنى الشوق والتلهف ، واستخدامها في هذا السياق يذكرنا بالأغنية « الليلة دوب ولا زم نرضى بالمكتوب .. هوي يا الله .. إلخ » (المترجمان).

(١٩)

يا مريم

الكورس: كُجيْنه

هاي يا مريم

الكورس: كُجينه مريم كُجينه

بنات برتي

الكورس: كُجينه

حرير برتي

الكورس: كُجينه ، مريم كُجينه

ماشي للسوق

الكورس: كجينة

تجيب مصروف

كجينة .. كريم كجينة

مشّطوا راسي

الكورس: كجينه

بعجب قلبي

الكورس: كُجينة .. مريم كُجينة

لعل هذه واحدة من الجلالات التي ما تزال مستمرة بين الأجيال المعاصرة من العساكر والمستجدين وحتى متدربي «الدفاع الشعبي» على اختلاف في ألفاظ مقاطعها (المترجمان).

(٢٠)

يا زول
الكورس: بنادوه
ست الروب
الكورس: بنادوه
أم دبدوب
الكورس: بنادوه
فوق البيت
الكورس: بنادوه
سرق التوب
الكورس: بنادوه

(٢١)

شُغله أم قرون فوقا دَبَّره
الكورس: خلّي يبرا
كُب عليهو شطّة
الكورس: خلي يبرا
كُب عليهو ملح
الكورس: خلي يبرا
كب عليهو ويكة
الكورس: خلي يبرا
كب عليهو موية
الكورس: خلي يبرا
كب عليهو جمرة
الكورس: خلي يبرا

(٢٢)

شيل بايا
الكورس: شوكو شيل بايا
تا نتني
شوكو شيل بايا
في إيدي
شوكو شيل بايا
أنا شُفتو
شوكو شيل بايا

تتضح هجنة وعدم صفاء عربية هذا المقطع بصورة واضحة ، ولذلك فقد عمدنا الى كتابته كما تخيلنا سماعه نقلا عن النص الإنجليزي (المترجمان)

(٢٣)

يا مِريّة
الكورس: سعد اللهْ جا
يا مِريّة
الكورس: جوزك وصّاني
وصّاني
الكورس: جوزك وصّاني

(٢٤)

هذه الأغنية تؤدي بصورة جماعية:
أب دلدوب جنّنْ الفكي هيه
أب دلدوب دبدوب تخين هيه
أب دلدوب سِتّو ما تديه هيه

و للأبيات تفسيرات متعددة قد لا يمكن التوسع في توضيحها هنا (المترجمان).

(٢٥)

شافا حِنّه .. يا فا أنا ما ليبه (لعبة ؟) هيه
ما ليبه شافا .. قول شابا
حِنّة عالي .. حنة واطي
أنا ما ليبه هيه
ما ليبه شابا قول شابا

هذا نموذج قديم من « عربي جوبا » الهجين.

(٢٦)

الليلكُمْ باردْ
نجري نجيكُمْ
نشوفكُمْ
شوقنا الشربكنا
نجري نجيكم
نورّيكُمْ

(٢٧)

يا حليلو
ربّوه في دار سلّوه
(...) تمّ ضُراع
درسوه في مسطره
(...) تمّ ضراع
درسوه في رسالة

بين الأقواس لفظة نابية لعضو في جسم الإنسان لا يليق بنا إثباتها هاهنا ، ولعل التفوه بها هي الأخرى كان شيئا عاديا بين الناس في ذلك العهد من البداوة والبساطة (المترجمان).



القطاع الخاص السوداني: لمحة تاريخية

The Sudanese Private Sector: an Historical Overview

بقلم: روبرت أل. تجنور Robert L. Tignor

تقديم: نشر البروفسور الأمريكي روبرت أل. تجنور الأستاذ (الفخري) للتاريخ الحديث والمعاصر في جامعة برينستون في نيو جيرسي هذا العرض لتاريخ القطاع الخاص في السودان في مقال مطول (٣٤ صفحة) نشر عام ١٩٨٧م في «**مجلة دراسات أفريقيا الحديثة**». نال الكاتب درجة الدكتوراه من جامعة ييل عام ١٩٦٠م، وله اهتمامات بحثية بأفريقيا وتاريخها (خاصة في نيجيريا وكينيا ومصر) وكان آخر كتاب صدر له عن «تاريخ مصر». لخص الكاتب في الجزء الأول من المقال تاريخ القطاع الخاص في عهد المهدية، وسجل في الجزء الثاني خطوات تقدم القطاع الخاص حتى قيام الحرب العالمية الأولى. في هذا الجزء يسرد بعضا من خطوات تقدم القطاع الخاص بين عامي ١٩٢٠ – ١٩٥٠م . نعرض هنا بإيجاز شديد بعض أهم النقاط التي وردت بالمقال. الشكر موصول لدكتور عبد الله جلاب لجلبه هذا المقال لي.

تضخمت في عقد السبعينات (من القرن الماضي) مداخيل العالم العربي المالية بفعل الفوائض التي تأتت بفعل زيادة أسعار النفط، وكان ذلك العالم يؤمل أن يغدو السودان «سلة غذاء» محتملة له. كان قادة العرب يدركون أن للسودان أراض شاسعة قابلة للزراعة والرعي، وأن بمقدوره توفير نحو ٤٠٪ من احتياجات سائر العالم العربي. كانوا يؤمنون أيضا بأن تنمية السودان تعني في المحصلة النهائية الاكتفاء الذاتي من الغذاء في المنطقة. وبهذا التصور توقع العالم العربي أن يضطلع القطاع الخاص السوداني بدوره في التحول الاقتصادي بالعمل معا مع الممولين من دول الخليج الغنية بالنفط ، ومع مالكي التكنولوجيا من الدول الغربية.

باءت في سبعينات القرن الماضي كل المحاولات في السودان لخلق قطاع خاص نشط، وكان لنظام نميري البالغ الجشع اليد الطولى في ذلك الفشل. بيد إن اللوم يمتد أيضا للمخططين الاقتصاديين داخل وخارج البلاد، والذين كانت تعوزهم الدراية والخبرة بالقطاع الخاص السوداني، والذين لم يشركوا – إما قصدا أو سهوا- رجال ذلك القطاع في خطط التنمية. أجهضت كل المحاولات (الرأسمالية) العجولة للتنمية في السودان في سبعينات القرن الماضي لغياب قطاع خاص قوي ونشط في مجالات متنوعة ومتعددة في خلال كل السنوات الخمسة وسبعين عاما الأولى من القرن العشرين. إن لرجال الأعمال السودانيين نقاط قوة عديدة لم يدركها أو يحفل بها الكثيرون، وأخذت كأمر مسلم به، بيد أن لهم كذلك نقاط ضعف عديدة بائنة أعاقتهم عن المشاركة بفعالية في عملية التنمية. إن للقطاع الخاص السوداني مزايا متناقضة، فهو من جهة واحد من أقوى القطاعات الخاصة في العالم العربي، وصاحب خبرة ثرة وتاريخ طويل؛ ولكنه من جهة أخرى صاحب خبرات محدودة في مجالات بعينها، ولم يجروء على طرق آفاق جديدة في مجالات التنمية والاستثمار.

غدت نقاط قوة وضعف القطاع الخاص السوداني كأوضح ما تكون في منتصف القرن العشرين. من خلال عملية دمج/ تكامل السودان مع الاقتصاد العالمي، بوصفه مصدرا لسلع زراعية هامة كالقطن والصمغ العربي، وكمستورد للمصنوعات الأوربية، استطاع رجال الأعمال السودانيون الاستفادة من عائدات هذا التبادل التجاري لإقامة

شركات (عائلية) خاصة. اقتحم قليل من هذه الشركات، بدءا من ١٩٤٥م، ميادين الصناعة، وقاموا بالدخول في «مغامرات» تجارية ومالية لهذا الغرض. بيد أن طبيعة تلك الشركات العائلية الصغيرة نسبيا، وجنوحها للسرية (التقليدية) في العمل، حالت بينها وبين استقطاب وحشد رؤوس أموال ضخمة. لهذا السبب –ولغيره– لم يستطع القطاع الخاص السوداني القيام بدور كبير في إحداث تغييرات اقتصادية كبيرة ومؤثرة، وهو الأمر الذي كان تطالب به الحركات الوطنية السودانية والخبراء الأجانب على حد سواء. ما كان ينبغي أن يبقى القطاع الخاص منزويا على الهامش، وألا يشاور رجاله، وأن لا تتجاهل نصائحهم في ما جرى من محاولات التنمية الفوضوية التي حدثت في سبعينات القرن الماضي، فرجال القطاع الخاص هم من أدرى الناس بالاقتصاد المحلي، وبمكامن قوته، ونقط ضعفه.

لقد ظلت التجارة الداخلية والتبادل التجاري الخارجي من أهم أعمدة تاريخ الاقتصاد السوداني، وظل سكان هذا البلد، نظرا لشساعة أراضيه، وقلة عدد سكانه، يعتمدون – بصورة أساسية– على التبادل السريع لمنتجاتهم. فقد كان السكان المستقرون على ضفتي النيل في الجزء الشمالي من البلاد (بين الخرطوم ودنقلا) يعتمدون في عيشهم بصورة كاملة على الزراعة، وعلى هطول الأمطار، بينما كان بقية السكان يعتمدون في عيشهم على التبادل التجاري.

مثلت التجارة مع مصر أيضا جانبا هاما في الحياة الاقتصادية السودانية. فمع بداية القرن الثامن عشر كانت هنالك ثلاثة طرق للتجارة تربط السودان بمصر– الأول والثاني في الجنوب، ويربطان السودان بصعيد مصر، والثالث عبر الصحراء الغربية وواحة سيوة– وتنتهي كلها في أسيوط. كانت القوافل السودانية (والتي كانت تتكون من نحو ٥٠٠٠ مسافر، وعدد مماثل من الإبل) تحمل لمصر العبيد والعاج والريش والذهب والخضروات والأملاح، وتعود من مصر وهي محملة بالأقمشة والمعادن والمعدات والأجهزة والبارود. عمل بهذا التبادل التجاري في السودان أعداد كبيرة من الرحل وأشباه الرحل، فقد كان يؤجرون إبلهم لملاك القوافل، ويجمعون ويبيعون المنتجات الطبيعية مثل الصمغ العربي والعاج وريش النعام، ويعملون كمرشدين للقوافل. يجب أن نتذكر دوما مثل هذه التجارب الاقتصادية. لا يكاد السوداني المعاصر يحفل بكون أن أعضاء مبرزين في برجوازي البلاد يرجعون أصلوهم إلى تلك الحقبة، ويأخذون ذلك كأمر مسلم به. لا ريب أن مثل تلك النشاطات التجارية القديمة كانت قد غرست في النفوس روحا تعشق التجارة وتحرص عليها. ازدادت العلاقات التجارية مع الخارج، خاصة مع مصر، في القرن التاسع عشر، وكان من دوافع غزو محمد علي باشا (ذلك المغامر العسكري والمجدد) للسودان في ١٨٢٠–١٨٢١م هي الحصول على العبيد والذهب والمعادن الأخرى. جند ذلك الباشا الرجال السودانيين للعمل في جيشه، وقصر عملهم على الأراضي السودانية، وأجرى بعض التجارب (التي فشلت لاحقا) لإدخال محاصيل زراعية جديدة مثلا البن، وإنتاج الحرير، بينما أصابت محاولته لإنتاج صبغة النيلة (تستخدم في صناعة أثواب الزراق، والتي كانت تلبس على نحو واسع في السودان. المترجم)، وزراعة قصب السكر، وزيادة الإنتاج الحيواني وتصديرها لمصر بعض النجاح.

أتاح عهد محمد على باشا للسودان مجالات تجارية جديدة، بيد أن القطاع الخاص لم يستفد منها تماما، إذ أن خديوي مصر كان قد احتكر – باسم الدولة– كل التجارة بين البلدين، ودفعته الرغبة في زيادة إيرادات بلاده في أن يجعل الدولة تتولى (وبصورة منفردة) المتاجرة (شراء وبيعا) في بضائع ومنتجات مصر والسودان معا. تولت الدولة

المصــرية احتكار تجارة الصــمغ العربي في عام ١٨٢٥م، وتلا ذلك احتكار تجارة ريش النعام والعاج وصــبغة النيلة. بيد أن كل ذلك تغير في أربعينات القرن التاسع عشر حين انفتحت مصر والسودان لسيل من التجار الأوروبيين والشركات العالمية. رغم أن السودان كان بالتأكيد أقل شأنا وثروة (وتحضرا) من مصر، وأكثر بعدا عن أوروبا، إلا أن كثير من التجار اليونانيين (الأغاريق) والإيطاليين، ومن جنسيات أخرى تدفقوا عليه للعمل في التجارة في مختلف الميادين.

توقف – وبصــورة شـبه كاملة- دخول واندماج السـودان في الاقتصــاد العالمي في القرن التاسـع عشـر بصــورة دراماتيكية بقيام الثورة المهدية بين عامي ١٨٨١ – ١٨٩٨م. رغما عن تبيان جذور تلك الثورة الأيديولوجية والقبلية فإنها هدفت لإزالة حكم الدولة المصرية للسودان، ولوقف كل تعامل تجاري مع العالم الخارجي. كان البقارة الرحل (وهم من أشد المناصرين للمهدي وثورته) يأملون في التخلص من الحكم التركي الذي يكرهونه، ويبغضون ضرائبه الباهظة. كذلك ثار الجعليون والدناقلة (ضد الحكم التركي-المـصري) لفر ضه منعا شاملا على تجارة الرقيق التي شكلت مصدرا هاما من مصادر كسب عيشهم (لا يخفى على القارئ عدم دقة هذه الدعاوى العريضة. المترجم).

سددت وفاة المهدي في عام ١٨٨٥م، وتولي الخليفة عبد الله مقاليد حكم البلاد، ضربة قا صمة لا ستقرار الدولة المهدية وقابلية الحياة فيها.عمل الخليفة عبد الله على تقريب أفراد قبيلته التعايشة والبقارة الرحل على حساب القبائل الأخرى مما أدى لخلق حالة من عدم الا ستقرار الاقتـصادي، وعمل أيـضا على تـضييق الخناق على التجارة مع العالم الخارجي. كون الخليفة عبد الله من التعايشة والبقارة – بعد أن هجرهم قسرا من موطنهم في دارفور وكردفان- جيشا قبليا (مليشــيا) في أم درمان والجزيرة لحماية نظامه. مثل وجودهم بأعداد كبيرة أم درمان والجزيرة دون أعمال منتجة، وإعا شتهم والإنفاق عليهم ا ستنزافا مـستمرا لخزينة الدولة، وجعل الخليفة يـضطر لفرض ضرائب جديدة، ومكوس مستحدثة على غرار ما كان يفرضه الحكم التركي- المصري.

ورث البريطانيون بعد «ا ستعادة» الـسودان تركة ثقيلة خلفتها الدولة المهدية تمثلت في ضائقة اقتـصادية، وكـساد تجاري، وفو ضى شاملة. يـصعب تقييم خطورة المـشاكل الاقتـصادية التي كان على البريطانيين التعامل معها في عام ١٨٩٨م، فلقد أســرف هؤلاء في تضــخيم مقدار الخراب الذي خلفه الحكم المهدوي، وفي تمجيد وتعظيم دورهم وانجازاتهم. لا ريب أن الوضع الاقتصادي الذي ورثه البريطانيون في السودان بعد سقوط المهدية كان كارثيا بسبب السياسات الاقتصادية الخاطئة، والتهجير القسري لبعض القبائل، والمجاعات، إضافة لممارسات أضرت بالتجارة والاقتـصاد مثل المـصادرة والا ستيلاء على الأرا ضي. زعم الحاكم فرانـسيس ونجت (الـضابط الأ سكتلندي الذي عاش بين عامي ١٨٦١ – ١٩٥٣م، وحكم الـسودان بين عامي ١٨٩٩ – ١٩١٦م. المترجم) في تقريره الـسنوي عام ١٩٠٣م أن عدد ســكان الســودان انخفض في ســنوات المهدية من ثمانية ملايين نســمة إلى مليونيين فقط (شــكك الكاتب في صحة هذا الزعم. المترجم).

كان الـ سودان بعد سقوط المهدية يفتقد لو سائل موا صلات حديثة وفعالة، وبنية تحتية، وي سوده اقت صاد منهار وتجارة كا سدة، فقد تدهورت الزراعة في عهد المهدية، إذ تناق صت أعداد الـ سواقي على النيل من ٣٠٠٠ ساقية إلى أقل من ٧٠ في عام ١٨٩٩م. أضـحت الأبيض (وهي مركز التجارة في غرب البلاد) في حالة بائسـة من الخراب، وكانت أم درمان والجزيرة تعجان برجال ونسـاء عاطلين عن العمل، هجروا قسـرا من كردفان ودارفور. تناقصـت كمية الصمغ العربي المصدرة من السودان من ٢٥٠٨٦١ قنطاراً في عام ١٨٨١م إلى ٤١٩٦٣ قنطار في ١٨٩٩م.

لجأ البريطانيون بعد هزيمتهم للخليفة عبد الله إلى إدارة حكم السـودان بطريقة صـارمة و«أبوية». لم يكن دخل البلاد يزيد عن ١٤٠٠٠٠ جنيه في عام ١٩٠٠م ، ورغم ذلك لم يشأ البريطانيون السماح للقطاع الخاص (الخارجي) بالاسـتثمار الواسـع في السـودان، وعوضـت حكومة السـودان العجز في ميزانية البلاد بطلب إعانات من الحكومة المصرية.

السودان الإنجليزي المصري (١٨٩٨ — ١٩١٤م)

كانت سـياسـة البريطانيين الاقتصـادية في السـودان واقعة تحت تأثير إدراكهم للإفلاس/ النضـوب الاقتصـادي economic exhaustion الذي حاق بالبلاد، وعلى إمكانية عودة الحياة للمهدية في البلاد. في تلك الفترة المبكرة من حكمهم اتخذ الحكام المستعمرون جملة قرارات سيا سية واقتصادية أسا سية أحدثت فيما بعد آثارا جوهرية على سائر الخيارات المتوفرة للتنمية، وأثرت حتى على تلك القرارات التي صدرت لاحقا بعد نيل الـ سودان لا ستقلاله. أعلت تلك القرارات من شـأن سـلطة الدولة، بينما قللت من شـأن رجال الأعمال المحليين، ووضـعتهم في مرتبة أدنى. ما أن اندلعت الحرب العالمية الأولى، وبعد سنوات قليلة من انتهائها تحول السودان الإنجليزي المـصري إلى «مسـتعمرة إداريين». تم اختيار قلة مختارة بعناية من صـفوة الإداريين البريطانيين من خريجي المدارس الخاصـة والجامعات المشهورة وأبناء الطبقة العليا في المجتمع لإدارة البلاد. كان دافع هؤلاء الإداريين للعمل في السودان هو رغبتهم الأكيدة في إنجاز ما أوكل إليهم من أعباء جسـام، بيد أنهم مارسـوا سـلطتهم بطريقة «أبوية» اسـتبدادية لحد كبير، وكانت لديهم مشـاعر ارتياب متجذرة، وعدم ثقة متأصـلة في رجال الأعمال. ظلت وسـيلة اختيار أولئك الإداريين البالغة الانتقائية كما هي عليه لخمسين عاما أو تزيد، وفرضت نفسها على المجتمع السوداني.

كانت الإدارة البريطانية، منذ بدءها في حكم السودان، قد عقدت العزم على أن تتولى «الدولة» مهمة إحداث التغيير الاقتصادي. لخص ذلك الاتجاه اللورد كرومر (قنصل بريطانيا العام في مصر، والذي عاش بين ١٨٤١م — ١٩١٧م) بقوله: «في بلد كل سـكانه في مرحلة التعلم statu pupillari، من الطبيعي أن تقوم الدولة بالأدوار التي تترك عادة في المجتمعات الأكثر تطورا للمبادرات والأعمال الخاصة.»

لم تـ سمح الإدارة البريطانية في بداية عهدها في الـ سودان لرجال القطاع الخاص الأجنبي بالا ستثمار في أي مجال، وبالنظر إلى حال اقتصـاد البلاد وبنيتها التحتية في بداية القرن العشـرين فإنه كان من المشـكوك فيه أن يغامر أحد من رجال القطاع الخاص الأجنبي بالمجيء إلى السـودان والاسـتثمار فيه آنذاك. كانت سـياسـة الدولة متحفظة ومتئدة الخطى تجاه المستثمرين الأجانب، خاصة حيال منحهم حق تملك الأرا ضي في البلاد. مرت سنوات طويلة قبل أن يتوصل البريطانيون إلى أنه في الوقت الذي لا يجب السماح للمهاجرين بتملك الأراضي السودانية، إلا أنه ينبغي في

الوقت ذاته تشجيع شركات الاستثمار الأجنبية بمنح كل منها أراضي بمساحة عشرة ألف فدان أو نحوها. لم يفلح ذلك في جذب المستثمرين، وذلك لاستمرار السياسات الحكومية المرتابة من المستثمرين الأجانب، والتي لم تكن توفر العون الإداري المطلوب، أو الحماية اللازمة للاستثمار.

قامت الدولة باحتكار قطاعين اقتصاديين هامين هما قطاع النقل وقطاع الري، وكانت شديدة الإيمان بأن القطاع الذي لا غنى للبلاد عنه، ولتقدمها الاقتصادي هو قطاع النقل، والذي كانت تعتقد بأن الدولة (والدولة وحدها) أولى به، ولا ترى أن القطاع الخاص مؤهل أو قادر على المساهمة في تطويره. بيد أن الاستثمار في مجال النقل مثل مشكلة حتى للدولة. فقد قيل أن تكلفة نقل القمح من شيكاغو (في وسط أمريكا) إلى ليفربول (في غرب إنجلترا) تماثل كلفة نقل نفس كمية القمح من الخرطوم إلى وادي حلفا. لم يتخل الاستعمار البريطاني عن بخله الشديد المعتاد، فطلب (تقرأ: أمر. المترجم) من وزارة المالية المصرية (وليس البريطانية) القيام بتمويل تمديد خطوط السكة حديد في سائر أنحاء البلاد، خاصة بين الخرطوم وبورتسودان، والخرطوم ومدني والأبيض، وتشييد ميناء بورتسودان. لم يتم النظر في تشييد طرق برية طوال فترة سنوات الاستعمار، لذا نال السودان استقلاله وهو يعاني من نقص مريع في شبكات الطرق، مما أعاق مستقبلا التقدم الاقتصادي.

احتكرت الحكومة في السودان في بدايات القرن العشرين كل مشاريع الري (مهما صغر حجمها)، وذلك حتى قبل إنشائها لسدود كبيرة على النيل. انتبه المسؤولون البريطانيون في السودان لمصر وقطنها والذي يجلب لها مالا وفيرا، فقرروا أنه من غير المسموح للسودان بأن يأخذ أي كمية من المياه من النيل بين الأول من فبراير إلى ٢٤ من يوليو كل عام حتى يوفر ما يكفي حاجة مصر من المياه في الصيف، وكان على كل صاحب مضخة (طلمبة) مياه يرغب في استخدامها في أي مشروع زراعي أن يستخرج رخصة من السلطات المحلية قبل تركيبها. كان الغرض (الظاهري) من هذه الرخص هو متابعة الاستخدام الراشد للمياه، ولكن استغلت فعليا الحكومة هذه الرخص، فصارت تمنحها لمن يؤيدها، وتمنعها عمن يعارضها. لا عجب إذن إن قام المزارعون في صيف عام ١٩٠٥م بزراعة القطن في مساحات لم تزد عن ١٠ – ١٢٠٠٠ فدان. كانت مساحة كل الأراضي التي زرعت في تلك السنة لا تتجاوز ٢٤٠٠٠ فدان.

أظهرت ميزانية الدولة في سنوات ١٨٩٩ – ١٩١٨م اهتمامها الكبير بعملية التنمية، إذ تم تخصيص ٧٦٪ من كامل منصرفات الدولة الرأسمالية لقطاع النقل، بينما أدخلت المصالح الحكومية التابعة لقطاع النقل (مثل السكة حديد والبريد والتلغراف) للحكومة ما لا يقل عن ٥٠٪ من دخلها في كل تلك السنوات (من المثير للانتباه مقارنة هذه الأرقام بما هو حادث في السنوات الأخيرة. المترجم).

بدأ القطاع الخاص – ضمن الإطار الاقتصادي المملوك للدولة- في التعافي من ما حاق به خلال عهد المهدية، وكانت ضربة البداية للقطاع الخاص هي التجارة في الصمغ العربي المستخرج من هشاب رمال كردفان ودارفور. أتاحت جودة الصمغ السوداني له أن يتسيد السوق العالمي، فما أن أتى عام ١٩٠٤م حتى كان السودان ينتج ٧٠٪ من الصمغ في العالم، بينما كان نصيبه ٣٠٪ فقط في عام ١٩٠٠م. احتكر التجار الأجانب تصدير الصمغ العربي في بدايات القرن العشرين، بينما ترك أمر جمعه ونقله لمخازن التجار الأجانب للسودانيين (ينبغي تذكر أن الكبابيش هم من كانوا يصدرون الصمغ العربي للقاهرة خلال عهد محمد علي باشا). كان وصول السكة حديد لمدينة الأبيض في

عام ١٩١٣م إيذانا بتحويل تلك المدينة لأهم مركز لتجارة الصـــمغ العربي في العالم. رغم أن القطاع الخاص هو الذي تسيد تجارة الصمغ العربي إلا أن الدولة لعبت دور المنظم لتك التجارة، فقد أنشأت في عام ١٩٢٢م مؤسسة تنظم عمليات المزايدة على تلك السلعة لضمان الأسعار العادلة لجامعي الصمغ ولمنتجيه.

كان أرباح تجارة الصمغ تذهب للمصنعين الأوروبيين، وكانت مجموعة التجار المصدرين للصمغ هي نفسها الجماعة المسيطرة على سوق الصمغ العالمي. لم تكن الشركات العاملة في إنتاج وتصدير الصمغ شركات متخصصة، بيد أنها كانت مستعدة للعمل في أي مجال يضمن ربحا مغريا. شملت تلك الشركات «بوكاسل وشركاؤه» و« شركة تجارة كردفان» و«كونتو موخلوص» و«عزيز كافوري» وبيطار» و«ألبرت ســينجر»، ومن وراء تلك الشــركات كان يقف مصــرفان (بنكان) كبيران هما «البنك الوطني المصــري» (وملاكه بريطانيون) و«البنك الإنجليزي المصــري»، والذي اندمج مع بنك باركليز في عام ١٩٢٥م.

أظهرت إحصائيات دائرة الهجرة في منفذ وادي حلفا النهري تدفق الأجانب على البلاد من مصر (خاصة التجار والحرفيين) خلال العقد الأول من القرن العشرين. فعلى سبيل المثال دخل البلاد في عام ١٩٠٤م ٣١١ أجنبيا منهم ١٣٥ يونانيا (٥٠ منهم من التجار) و٥٨ ســوريا (٤٥ منهم من التجار). وبعد ثلاثة ســنوات تزايد عدد الأجانب إلى ٢٢٨٣ منهم ١١٠٤ من اليونانيين و٤٣٤ من البريطانيين و١١٩ من السوريين و١١٢ من الإيطاليين.

بعد تزايد عدد التجار الأجانب في الخرطوم وأم درمان قاموا بتكوين «غرفة الســودان التجارية»، والتي بدأت بواحد وثلاثين عضوا فقط، وتولت إصدار مجلة تجارية، وبدأت في عقد اجتماعات سنوية في عام ١٩١٠م. ساهم أعضاء تلك الغرفة التجارية مثل بيطار وعزيز كافوري - رغم قلة تأثيرهم على الحكومة الاستعمارية — في الإسراع بنمو وزيادة نشاط القطاع الخاص. طالب هؤلاء الدولة بإصدار قوانين منظمة لعمل الشركات، ولإعلان الإفلاس وغير ذلك، بيد أن الحكومة لم تستجب لتلك المطالب إلا في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين.

عند بداية الحرب العالمية الأولي في ١٩١٤م غدا السودان «مستعمرة إداريين» بامتياز، ومنعت الامتيازات، ليس بقوانين أو أوامر حكومية بل بحسب مزاج المسئولين. لم يتم تشجيع أو منع هجرة الأجانب للبلاد. ظل شبح المهدية يسيطر على الإداريين البريطانيين (صفوة بريطانيا الفيكتورية) ويدفعهم لمواصلة الإمساك — وبقوة- بمقاليد السلطة بطريقة اســتبدادية وأبوية صــارمة. اســتبد بهؤلاء البريطانيين الإحســاس بأن عليهم وحدهم يقع عبء النبلاء noblesse oblige، فتزايد قلقهم وشكوكهم (وربما خوفهم) من الأوربيين الآخرين من المبشرين والتجار، إذ أن ما يحدثونه من تغيير ثقافي واقتصادي في البلاد قد يمثل تحديا لسلطتهم.

العهد الاستعماري الكلاسيكي (١٩٢٠ — ١٩٥٠م)

فتح الإنفاق الضخم الذي قامت به الحكومة قبل قيام الحرب العالمية الأولى في مجالي النقل والمواصلات الباب واســعا للتجارة والنمو الاقتصــادي في البلاد. ظهر بعد ذلك اتجاه جديد لســياســات البلاد المالية، رغم أن الدولة كانت ما زالت ممسكة بمفاصل الاقتصاد ومفاتيحه الهامة. نال قطاع النقل بين عامي ١٩١٩ و١٩٣٩م نصيبا كبيرا من الإنفاق الرأســمالي، بيد إن التركيز في التنمية والإنفاق الحكومي انصــرف إلى مجال الزراعة، ولكن دون أن يكون للقطاع الخاص في ذلك نصيب. امتلكت الدولة كل المشاريع في الريف، وكان أضخمها هو مشروع الجزيرة.

في سـنوات الحكم الاسـتعماري الأولى كان هنالك اسـتثناء – شـبه وحيد - لقرار الحكومة عدم منح أراضٍ لمسـتثمرين أجانب. كان ذلك الاسـتثناء هو لرجل أعمال أمريكي اسـمه «لاي هنت»، والذي منحته الحكومة ١٠ ألف فدان لإنشـاء مزارع تجريبية في منطقتي الزيداب وطيبة. عندما سـجل ذلك الثري الأمريكي شـركته في إنجلترا لأول مرة، لم يكن رأ سمالها يفوق ٨٠٠٠ جنيه إ سترليني، وكان لديها أ صول تساوي ذات المبلغ. تو سعت الشركة فيما بعد، و شارك فيها عدد من المستثمرين الأجانب الآخرين، وأعيد تسمية الشركة ب «مشروع السودان الزراعي التجريبي». حاولت تلك الشركة إدخال محاصيل جديدة في مزارعها، بيد أن أكثر مشروعاتها التجريبية نجاحا كان في مجال القطن.

قبل بدء الحرب (العالمية الأولي) تقدم لورد كتشنر [١٨٥٠ – ١٩١٦م، وهو من قاد الجيش البريطاني المصري الذي غزا السـودان في ١٨٩٩م. المترجم] والذي كان يحتل منصـب القنصـل العام (البريطاني) في مصـر، باقتراح لتطوير منطقة الجزيرة، وهي أرض مثلثة الشـكل تقع بين النيلين الأبيض والأزرق، وتبلغ مسـاحتها خمسـة ملايين فدان. اقترح كتشنر إنشاء خزان للمياه في منطقة سنار، وأن تروى أراضي الجزيرة بالمياه المنحدرة من ذلك الخزان. كانت الدراسـات الأولية التي أجريت على تلك الأراضـي قد أثبتت أن تلك الأراضـي تصـلح جدا لزراعة القطن متوسط وطويل التيلة.

عادت فكرة كتشـنر للظهور مرة أخرى في عام ١٩١٨م، فبدأ العمل في المشـروع في بدايات العشـرينات رغم احتجاجات المصريين على استغلال السودان لمياه النيل. وكما هو الحال في مصر والهند، تولت الدولة مسئولية الخزان وأعمال القنوات الرئيسية. كانت تكلفة المشروع ضخمة مما اضطرت الحكومة معه لطلب قرض بقيمة ٦ مليون جنيه إسـترليني من سـوق المال في لندن، إذ لم يكن من المتوقع أن تقوم شـركة أو مجموعة شـركات خاصـة بالمغامرة بمثل ذلك المبلغ من مالها للاسـتثمار في السـودان في تلك المرحلة الباكرة من نموه الاقتصـادي. ليس هنالك أي شك في أن الحساسية المفرطة عند الوطنيين في مصر لقيام أي مشاريع مائية على النيل قد أعاقت دخول القطاع الخاص في عمليات تشييد السد وقنوات الري.

قررت الحكومة أيضا أن تكون لها (فعليا) نصيب الأسد في زراعة القطن في الجزيرة. كان هذا مخالفا للسوابق البريطانية الاسـتعمارية والتي قضـت في مصـر وسـائر الدول الأفريقية المسـتعمرة بأن يقوم المزارعون، وبصـورة مستقلة، بزراعة المحاصيل النقدية. خشيت الإدارة البريطانية في السودان من قلة عدد سكان منطقة الجزيرة وقلة خبرتهم في التعامل مع الأسواق العالمية، لذا عقدت اتفاقا مع شركة «مشروع السودان الزراعي» (وكان رأسمالها في ذلك الوقت نصـف مليون جنيه إسـترليني) بعد أن انضـم إليها عدد من المسـتثمرين من «جمعية زراعة القطن» في بريطانيا من أجل توفير المدخلات الرئيسة (عدا الأيدي العاملة)، ولتشتري وتحلج وتبيع محصول القطن. لم يكن مسموحا للزراع بأن يمتلكوا مزارعهم، ولكنهم اعتبروا «مستأجرين» للأرض من الدولة، يأخذون نصيبهم من ريع بيع القطن مشاركة مع الحكومة والمشروع.

كانت تجربة مشروع الجزيرة تجربة أساسية وهامة للسودان، وغدا القطن بحلول عام ١٩٢٠م هو المحصول النقدي الأول للبلاد، إذ فاق الدخل الذي جلبه من التصدير الدخل من الصمغ العربي. كان الدخل الذي جلبه تصدير القطن في الثلاثينات يعادل نحو ٥٠ – ٦٠٪ من دخل البلاد.

رغم أن الحكومة لم تستبعد القطاع الخاص من أعمال مشروع الجزيرة بالكلية (إذ كان هناك «مشروع السودان الزراعي») فإنه كان من الواضح أن الدولة تهيمن بصورة شبه كاملة على اقتصاد البلاد. كتب أحد رجال القطاع الخاص في مجلة الغرفة التجارية السودانية في يوليو من عام ١٩٢١م معارضا بصورة قاطعة إنشاء مشروع الجزيرة بدعوى أنه مكلف جدا، وأضخم مما يجب، ولن يفعل شيئا سوى تحطيم مبادرات القطاع الخاص الاقتصادية، إذ أنه بتوظيفه لأعداد كبيرة من العاملين سوف يرفع من تكلفة العمالة في كل الأماكن الأخرى. عبر ذلك الكاتب عن خشيته من «تكسد العمالة في مرفق واحد»، وختم مقاله بالتحذير من أن تغدو الحكومة هي «المزارع الوحيد في السودان»، إذ أن ذلك، بحسب رأيه، «ليس هو الطريق الأمثل لتنمية البلاد». تولى الرد على ذلك المقال وزير الزراعة في العدد التالي للمجلة (في ديسمبر ١٩٢١م)، ولفت نظر الكاتب الناقد إلى أن الحكومة كانت قد أنشأت قبل مشروع الجزيرة، مشروعين (حكوميين) صغيرين آخرين لزراعة القطن في كل من كسلا وطوكر، وأنها قامت بعمل نظام (محكم) لتأجير الحواشات وتوزيع الأرباح، وتم استنساخ ذات التنظيم لاحقا في مشروع الجزيرة.

كانت سياسات الحكومة مبنية على أن السودان ليس بلدا مغريا بما فيه الكفاية لجذب رأس المال الأجنبي، وأن عليها «حماية» السكان من «الاستغلال الرأسمالي». لذا قامت الحكومة بعدد من الإجراءات الاقتصادية شملت إنشاء هيئات شبه حكومية في عشرينات وثلاثينات القرن العشرين، مثل « شركة السودان للإنشاءات والمعدات» بغرض إنشاء مشروعات ضخمة في مجالات الزراعة والري والنقل. مول إنشاء تلك الشركات من أموال تحصلت عليها الحكومة من إصدار سندات كانت تدر أرباحا بنسبة ٤,٥٪، رغم أن الحكومة ظلت هي المساهم الوحيد shareholder. أنشأت الحكومة أيضا « شركة النور والطاقة» في عام ١٩٢٥م، وهي شركة مول إنشائها القطاع الخاص، ولكن ظلت الحكومة مسيطرة على تنظيمها وإدارتها. ولدت تلك الشركة كنتيجة لمفاوضات وتفاهمات بين عدد من الشركات الأخرى، وكانت مسئولة ليس فقط عن إنتاج الكهرباء والبخار والثلج، بل أيضا عن شبكة المياه، والترام (الترماج) والنقل النهري في كل من الخرطوم والخرطوم بحري وأم درمان. منحت تلك الشركة في ١٩٢٥م امتيازات تمتد لثلاثين عاما، شريطة أن تظل كل الأصول مملوكة لحكومة السودان. كان رأس مال الشركة ٣٥٦٠٠٠ جنيه إسترليني، ورأس مال سندات يبلغ ٣٥٠٠٠٠ جنيه إسترليني، مع الاحتفاظ لها بنسبة ثابتة من الأرباح.

كان الإنجاز الأكبر للقطاع الخاص خلال سنوات الحرب (العالمية الثانية) هو إنشاء إطار قانوني للتجارة ظل يطالب به رجال الأعمال السودانيين لعقد من الزمان. كان أول تشريع هام صدر في عام ١٩١٦م هو «قانون الإفلاس» والذي بني على القانون الإنجليزي. أثار صدور ذلك القانون مخاوف كثير من رجال الأعمال وذلك للغط والارتباك الذي كان يسود الأوساط المالية والتجارية حيال ما يمكن حدوثه عند فشل مشاريعهم التجارية، وعن عدم وضوح حقوق المدانين والمدينين. صدر في العام التالي «قانون الكمبيالات»، وهو صورة طبق الأصل لنظيره البريطاني الذي

صدر في ١٨٨٢م. تزامن ذلك أيـضا مع منع الحكومة العقود المـستقبلية (الـــ فيوتـشرز) والعقود المقدمة (الـ فوروارد) [وهي تشـبه عقود السـلم في النظام الإسـلامي، حسـب ما أفادنا به خبير. المترجم]، والإعلان عن أن المحاكم سـوف لن تقبل ذلك النوع من العقود. كانت الحكومة تتهم التجار دوما بأنهم يتلاعبون بالأسـواق ضـد مصلحة المنتجين السودانيين.

كان إصدار هذين القانونين هو مقدمة لإصدار قانون الـشركات في عام ١٩٢٥م (والذي يـشبه قانون الـشركات البريطانية الـصادر في ١٩٠٨م)، ثم صدر قانون الـشراكات في العام الذي تلاه. في البدء تم تطبيق ما صدر من قوانين تجارية في الخرطوم والخرطوم بحري وأمدرمان فقط لتقدير الحكومة إنه ليس في السـودان مكان آخر متطور وراق غير العاصمة المثلثة يمكنه استيعاب مثل تلك القوانين. ولكن مع تطور المدن وتمدد النشاط التجاري في سائر أنحاء البلاد تم تطبيق هذه القوانين في كل الأرجاء.

تعد تلك القوانين التجارية التي صـدرت في السـودان بدائية بالمقارنة، مثلا، مع ما كان ممارسـا في مصـر في تلك السـنوات. وليس هذا بالمسـتغرب، فمصـر كان بها طبقة عاملة كبيرة، وبها نشـاط تجاري أوسع وأنشط من ذلك الذي كان ممارسا في السودان.

صدر قانون الـشراكات بسبب قضايا إفلاس شهيرة منها قضية التاجر (المحلي) سلفاتور حاكم، وما حاق بكل من تعامل معه تجاريا من أضرار. دفعت تلك القضية السلطات لتنظيم عملية الشراكات التجارية. أخذ ذلك القانون من القانون الذي كان معمولا به في عام ١٩٢٠م في ساحل الذهب (غانا بعد نيلها الاستقلال في ١٩٥٧م. المترجم)، وفي كينيا في ١٩٢١م وموريشـيص في ١٩١٢م. حاولت القوانين التجارية في السـودان الجمع بين التقاليد المرعية في بريطانيا وأوربا القارية، إضافة إلى الممارسات الإسلامية السودانية، ولم تحاول أن تلزم كل الـشركاء بالالتزام بإطار قانوني وحيد، بل سمحت لهم بممارسة نشاطهم التجاري بما يتفق مع تقاليدهم المرعية.

في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية اقتصر نشاط القطاع الخاص السوداني على مجالي الزراعة والتجارة، وكانت الصـناعة لا تزيد على مجالات محدودة مثل طحن الغلال وحلج القطن (بواسـطة «مشـروع السـودان الزراعي» في الجزيرة). قدمت في ثلاثينات القرن العشـرين عدة اقتراحات لإنشـاء مصـانع نسـيج، بيد أنها لم تجد اسـتجابة من الحكومة رغم أن مصنعي الغزل والنسيج البريطانيين في تلك السنوات كانوا قد فقدوا الصدارة في العالم، والتي ذهبت منقادة للشـركات اليابانية. أشـارت دراسـة محكمة عن تكاليف ومنافع ذلك المقترح بأن قيام شـركة لصـناعة غزل ونسيج في السودان كان سوف يفقد الحكومة رسوما جمركية تفوق ما كان ممكنا الحصول عليه من ضرائب إن نجح مشروع تلك الشركة وحقق أرباحا.

رغم أن الحكومة رحبت في البداية بمقترح قدمه الكابتن (النقيب)/ سي لويد لإنشاء مصنع لغزل ونسيج القطن والجوت في سنار، إلا أنها عادت ورفضت إقامة المشروع بحجة أن ليس للمشروع من داعم مالي موثوق ومضمون. لم يكن المـسؤولون البريطانيون على استعداد للمغامرة بقبول مـشاريع من الهواة من رجال الأعمال ومن صغارهم. كذلك خشـي البريطانيون (بحذرهم وتحفظهم المعروف، وبطريقتهم «الأبوية» في إدارة شـئون البلاد) من أن يؤدي وجود النقيب لويد لمتاعب هم في غنى عنها، فقد توقعوا أن يثير ذلك الرجل مشاكل مع «الأهالي»، وأن يغدو مصدر إزعاج وتخريب وتمرد.

من ذكريات البريطانيين في السودان:
الوصول إلى المكتب هارولد وليامز

هذه رحلة عمل يرويها خبير الغابات هارولد ويليامز، والذي عين كمفتش للغابات في السـودان عقب تخرجه مباشرة من جامعة أدنبرا الأسكتلندية الشهيرة. كان السفر بالبحر في تلك الأيام (منتصف سنوات الحرب العالمية الثانية) من بريطانيا للسودان بالطريق المعتاد أمرا محاطا بالمخاطر، لذا سافر الرجل مع آخرين) (في طريق طويل إلى كندا ثم إلى أمريكا الجنوبية ثم إلى جنوب أفريقيا ومنها بالبر والنهر إلى جوبا في رحلة اسـتغرقت ١٢٠ يوما بالتمام والكمال. رغم أن القصـة تصـب في ذات المنحى الذي درج عليه موظفو الخدمة المدنية من البريطانيين من تمجيد جهادهم وتفانيهم وصـبرهم على مكاره العيش في السـودان (وهي كثيرة لا تحصـى)، إلا أنها مفيدة لأجيالنا الحالية حتى تدرك ما سبق بذله من «الأجنبي» على الأقل في سبيل تطوير البلاد – بغض النظر عن دوافعه ونوازعه بذله ذلك وضرورة بذل مس مساو على الأقل لما بذله المستعمر البغيض لما بذله المستعمر البغيض (نشرت هذه القصة في مجلة دراسات السودان« العدد ٤٣ في يناير من عام ٢٠١١م. المترجم).

لا شك أن كثير منا يدرك المعانة التي يقاسيها المرء للوصول إلى مكتبه عند الصباح، ولكن ما ظنكم بمن استغرق وصوله لمكتبه أربعة شهور كاملة. لابد أن ذلك رقم قياسي يصعب تكراره.

لقد تخرجت في جامعة أدنبرا في يونيو من عام ١٩٤٢م وحصـلت على بكالوريوس في علم الغابات، ثم قدمت – مع زملائي القليلين الآخرين– إلى لجنة القوى العاملة في العاصمة لندن، والتي أجرت لنا معاينة دقيقة نصحنا بعدها بالرجوع إلى جامعتنا وانتظار التعليمات.

ظللنا في انتظار تلك التعليمات حتى نوفمبر، حين أخبرت بأن علي الالتحاق بمركز إمدادات الشـرق الأوسـط في القاهرة، والتي طلبت مني بدورها الالتحاق بمصلحة الغابات في السودان. تم تزويدي على عجل بما يسمي ب «طقم أدوات المناطق الحارة» والحقائب المضادة للنمل وتصاريح السفر وما إلى ذلك. وصلت إلى مدينة ليفربول حيث أخذت على الفور إلى نزل صـغير يوفر المبيت والإفطار، وفي صـبيحة اليوم التالي نقلت باكرا للميناء للسـفر على ظهر سفينة شحن (تبين لي لاحقا أنها كانت سفينة هولندية) تحمل على ظهرها ١٠٠٠٠ طن من المعدات والمستلزمات العسكرية وتتجه للشرق الأوسط.

كنا اثني عشر شخصا في سفينة الشحن تلك...عشرة رجال وامرأتين! خمسة من الرجال كانوا من «الفنيين»، وثلاثة كانوا من القساوسة، وزوجتين في طريقهما للالتحاق ببعليهما.

أبحرنا من ليفربول والظلمة تلف المكان، وسارت بنا السفينة عبر نهر كلايد (تاسع نهر في بريطانيا، وهو أشهر نهر في أسـكتلندا. المترجم) شـمالا للانضـمام إلى قافلة متجهة إلى كندا، أيضـا في الظلام. لم يتسـن لي رؤية بقية القافلة البحرية، إذ كنا في مؤخرة ركب السـفن الأخرى. كنا نعد في نظر تلك السـفن، وبسـبب طبيعة ما كنا نحمله «قنبلة طافية»، ولكن كانت هنالك سـفينة حربية قديمة (حراقة) تطوف علينا بين حين وآخر للتأكد من أننا نتجه الوجهة الصحيحة غربا.

بذل الطاقم الهولندي في سفيتنا غاية جهده في الترحيب بنا رغم الظروف والازدحام الشديد في السطح الوحيد المتوفر في سفينة الشحن تلك، إذ أن بقية الأسطح كانت مخصصة لمخازن الأسلحة والسيارات العسكرية. مرت أيام عديدة قبل أن نرى أضواء «هاليفاكس» الكندية...يا للفرحة... اليابسة أخيرا! ولكن لا...ليس لنا! واصلنا السير، ودرنا بدورة ذكية نحو الجنوب وانطلقنا في المحيط الأطلسي.

اعتدل الجو قليلا، وظهرت الشمس بعد طول غياب، ومعها بعض الدفء .أقبل يوم عيد الميلاد، فاحتفلنا به بإقامة التراتيل، وللغرابة، مع غداء فاخر! لاحت اليابسة لنا في بداية يناير ١٩٤٣م، حيث ر ست سفننا في بيرنام بيكو (مقاطعة في شمال شرق البرازيل. المترجم) مصحوبة بسفن حربية برازيلية، إذ أن ذلك الميناء كان مقر رئاسة البحرية البرازيلية. قضينا ثلاثة أيام سعيدة في تلك المدينة، بينما كان يعاد تزويدها بالوقود، حيث كان عمال الميناء يحملون سلال الفحم إلى السفينة على رؤوسهم.

عدنا إلى الماء مرة أخرى، وغذذنا السير جنوبا عبر المحيط الأطلسي حتى و صلنا ميناء الكيب في جنوب أفريقيا حيث قوبلنا بوابل من الأنوار الكاشفة. درنا بذكاء خارج الميناء نحو حول رأس الرجاء الصالح إلى المحيط الهندي، حيث رافقتنا سفينة حربية هندية.

و صلنا بورت الليزابث (مدينة أنشأها البريطانيون في عام ١٨٢٠م شرق مدينة الكيب، وتعد من أكبر مدن جنوب أفريقيا. المترجم) ذات صباح مشرق جميل. فجأة صمت آذاننا صوت فرقعة ضخمة، أعقبه توقفنا بصورة فجائية . أطلقت السفينة الحربية المرافقة لنا طلقات هجومية. أصابت القذيفة الناسفة للسفن (التوربيدو) المكان الآمن الوحيد في السفينة...غرفة المحرك! ظللنا ساكنين نترقب ما تسفر عنه الأحداث. نقلنا بعد ساعات إلى ناقلة بترول كانت متجهة نحو الخليج، حيث عاملنا طاقمها معاملة حسنة، وأنزلنا منها في مدينة «ديربان» حيث ا ستقبلنا بالأغاني والأناشيد.

عرفت من أحد رفقاء السفر أنه مهندس في طريقه للسودان للعمل في مصلحة السكة الحديد، فترافقنا وذهبنا معا إلى مكتب سفريات «توماس كوك» في«ديربان» حيث سمعنا من مدير المكتب مفاجأة لم تكن لنا على بال. أخبرنا – أخيرا– بأنه كان قد تم الإبلاغ رسميا عن أن سفينتنا قد غرقت في المحيط الأطلسي (دون أن ينجو أحد) وأن موظفين آخرين قد بعثوا من لندن ليحلوا محلنا! بقينا في «ديربان» لنحو شهر من الزمان حتى تم تسوية الأمر، ومن ثم اتجهنا نحو ميناء ممبسا (الكيني) ومنها (بعد كثير من التأخير) ركبنا القطار والسيارة ومركب نهري حتى وصلنا إلى مدينة جوبا.

فور وصولي لجوبا قابلت مفتش الغابات، والذي أخبرني بأنه يجب على التوجه فورا إلى منطقة «ياي» لتنظيم مجموعة مناشير الخشب هنالك. قضيت ليلة واحدة في جوبا وأصبحت في فجر اليوم التالي على بعد ١٠٠ ميل (١٦٠ كيلومتر) على طريق ترابي في «لوكا غرب» حيث قضينا ليلتنا في «قطية» من القش. بعد تناول الإفطار في صباح اليوم التالي مشيت بعض مئات من الياردات لأدخل مكتبي ...أظن أنك تتفق معي في أن تلك كانت أعجب (وأطول) رحلة يقطعها المرء للوصول إلى المكتب!

كان هنالك خارج المكتب جبل ضخم من الصناديق والحاويات وعدد من محركات البخار ومنا شير الخشب!
تم تعريفي في المكتب ببعض الكتبة ورجل تركي اســمه عبد الله يعمل فنيا ميكانيكيا ولا يتحدث كلمة واحدة بالإنجليزية .رغم ذلك تعاونا معا في إنشاء مناشير الخشب في منطقة «ياي» ...ولكن تلك قصة أخرى



من يوميات البريطانية إيزماي توماس في السودان

Sudan Journal of Ismay Thomas

تحرير: جراهام توماس

عاشـــت الســـيدة البريطانية إيزماي توماس (١٩٢٠ – ١٩٩٥م) ســـنوات من عمرها في الســـودان، فقد قدمت للسودان مع زوجها عام ١٩٥٠م، وعملت في البدء في سلك التدريس في كلية المعلمات بأمدرمان، ثم انتقلت للعمل كمفتشة للتعليم في إدارة تعليم البنات والمرأة في مديرية الخرطوم.

تعلمت إيزماي اللغة العربية واختلطت مع أفراد المجتمع السوداني، وجابت كل أنحاء البلاد تقريبا، فقد سافرت لبورتسودان في الشرق وجوبا في الجنوب وحلفا في الشمال،، وغيرها من المدن السودانية، و سجلت في يومياتها كل الأحداث التي شـــهدتها في كل مختلف أنحاء الســـودان، بتركيز خاص على حياة المواطن العادي في الأماكن التي زارتها.

نشر زوجها جراهام توماس مذكراتها في كتاب صدر في عام ٢٠٠٠م بعنوان « Sudan Journal of Ismay Thomas» عن دار النشر البريطانية The Book Guild Ltd (BG) ونشر أيضا كتابين عن السودان هما: «موت حلم» Death of a dream والسودان: معاناة من أجل البقاء *Sudan*: Struggle for Survival، وعمل – بحسب ما جاء في موقع جامعة دارم البريطانية – كمستشار شخصي للسيد الصادق المهدي، وله مجموعة أعمال محفوظة في أرشيف تلك الجامعة تجدها في هذا الموقع:
http://reed.dur.ac.uk/xtf/view?docId=ead/sad/thomasgf.xml

يتكون الكتاب من ١١ فصلا، تحكي المؤلفة في كل فصل فيه – وبصورة مفصلة ولكنها مثيرة تخلو من الإملال، عن ما جرى من أحداث للكاتبة في مناطق مختلفة من الســـودان. عناوين فصـــول الكتاب غير مألوفة ولكنها معبرة، فالفصل الأول عنوانه : «نحو الشمس، والصنادل والجلابيب»، والفصل الثالث عنونته : «كل فرعون يحتاج لهرمه» والرابع بعنوان: «السودان للسودانيين، أم الاتحاد مع مصر؟»، والفصل السابع بعنوان: «الأعلام السوداء والجبة» وهكذا. في الكتاب أيـ ضا صور عديدة للزعماء الـ سودانيين التاريخيين مثل الـ سيدين الجليلين (علي الميرغني وعبد الرحمن المهدي) وإســـماعيل الأزهري ومحمد أحمد المحجوب، وصـــور لبعض رجال التعليم مثل دكتور يوســـف بدري.

في آخر صفحات الكتاب أضاف المحرر أن السيد/ الصادق الصديق المهدي ذكر في أول خطبة جمعة له في مسجد طائفته بعد اطلاق سراحه من سجن كوبر وأمام نصف مليون من المصلين، أنه يود أن يشيد بذكرى ستة من أصدقائه الذين توفوا وهو بالســجن، وكان من بينهم دكتور يوســف بدري (لدوره في اشــاعة التعليم بالبلاد) والســيدة إيزماي توماس لدورها المهم في تعليم البنات في الســـودان. ختم الكتاب بقائمة مراجع عن الســـودان وعن البريطانيين فيه. كان من ضمن قائمة المراجع كتاب للسيدة إيزماي وزوجها عنوانه «تاريخ مصور للسيد عبد الرحمن المهدي، صدر عام ١٩٨٦م (دون ذكر اسم الناشر).

في الفصــل الأول تحكي عن مغادرتها لندن في ١٦/ ١١/ ١٩٥٠م على طائرة «فايكنغ» تابعة لمؤســسة الخطوط الجوية البريطانية لما وراء البحار (British Overseas Airways Corporation, BOAC) من مطار في كامبرلي، وعن رفقاء رحلتها من ضــباط بريطانيين يتســامرون حول لعبة الكريكيت، وزوجات بريطانيات في رفقة أطفالهن، وصــبيان وبنات في مختلف الأعمار، وعن ما أصــابها من غثيان وقيء في تلك الرحلة لم يتوقف إلا حين حطت الطائرة في مدينة «نيس» ثم مرة أخرى في مطار بجزيرة مالطا. تســهب الكاتبة في يومياتها ذاكرة أدق التفاصــيل عن الفندق الذي ارتاده مع رفقاء السفر لقضاء الليل، وعن فخامته وسبل الراحة فيه، والتي لم تتكدر إلا قليلا برؤيتها لطاقم الطائرة وهم يحملون قناني المياه لتصب على ماكينة الطائرة (لا شك لتبريدها!).

كتبت تقول إن أكثر لحظات الإثارة عندها كانت وهي تترك القارة الأوربية خلفها وتعبر البحر الأبيض المتوسـط إلى القارة السوداء الغامضة: أفريقيا! قربت طائرتها من مطار «بنينة» بنغازي في شرق ليبيا، حيث لم تر شيئا غير امتداد طويل عريض من الرمال المقفرة ليس فيه غير بعض الأ شجار والمناطق الخ ضراء القليلة، والتي رأت بعض الأبقار ترعى فيها.

أعلن لهم قائد الطائرة أن الإصلاح الذي تم على ماكينة الطائرة في «مالطا» قد أحدث بعض الفرق، فلذا سوف لن يطيروا إلى الخرطوم مبا شرة، بل سوف يتوقفون قليلا في «العضم؟» قرب طبرق، ثم في «وادي حلفا». كانت الرحلة الأولي عذابا محـضا، فقد كانت مليئة بالمطبات الهوائية والاهتزازات. حطت طائرتها في جنح الليل في «وادي حلفا»، أول محطة لها في السودان الإنجليزي المصري، حيث ستقضي عددا من السنوات في رفقة بعلها. كان جميع الركاب ممن أتوا على هذا الطريق يحدثون السيدة إيزماي أنهم سينتقلون لفندق «وادي حلفا» الوحيد على ظهر «لوري» عتيق أبعد ما يكون عن الترف، ولكن لدهشــتهم ظهرت هذا المرة حافلة أنيقة أقلتهم — وســط فرحة غامرة- للفندق. أشادت إيزماي بالفندق، وبحدائقه الغناء، ولم يزعجها في غرفتها بالطابق الأرضي غير أصوات جر الأقدام بالصنادل وطرقعة «الشبا شب» في الممرات، والأ صوات المرتفعة بلغة لا تفهمها. تناولوا أول وجبة لهم في السودان، وكانت كلاسـيكية الطابع، مكونة من شــوربة لم تتذوق مثلها من قبل، ومن ســمك لا تعرف نوعه، مع طبق حلو أخير، وكان يخدمهم على تلك المائدة رجال طوال سود في جلاليب وعمامات بيضاء ويربطون خصورهم بأحزمة قماشية خضر. في فجر اليوم التالي، وفي جو شديد البرودة غادروا الفندق متجهين نحو طائرة الفايكنغ، والتي صلت للخرطوم التي كانت أقل برودة من حلفا (حيث كانت الحرارة ١٠١ درجة فهرنهايت، أو ٣٨,٣ مئوية)، حيث قابلهما في المطار مدير التعليم وكبار موظفيه، وأخذهما إلى «الفندق الكبير» على شــاطئ النيل الأزرق ريثما يتم تجهيز منزلهما في أم درمان. لفت نظرها جمال معمار الخرطوم ونظافتها الفائقة. لم يفتها أن تشــيد بالفندق وبخدماته الســريعة الممتازة. قضــت بقية أيامها وهي في غاية العجب والتعجب مما تراه من غريب الصــور والأشــكال، والعملات أيضــا. أخبر الزوجان بأن منزلهما لن يكون جاهزا للســكنى حتى فبراير، مما يعني بقائهما في الفندق حتى ذلك التاريخ، وكان ذلك مصــدر حزن لهما عظيم. قضــت أمســياتها مع زوجها ومن يزورهما من بني جلدتهما في الطواف في الأســواق، والتي وصفتها بأنها صغيرة، ولكنها تكتظ بالملابس القطنية الممتازة النوع، الزهيدة الثمن.

بدأت السيدة إيزماي عملها صباح يوم ١٩ نوفمبر (أي بعد يوم واحد من وصولها للخرطوم!)، وصادف أن كان يوم أحد. كان عملها يوم الأحد شيئا غريبا كان عليها أن تتعود عليه. أخذتها السيارة إلى كلية المعلمات بأم درمان، وكان الطريق إلى تلك المدينة مصدر عجب لا ينقطع، فالطريق كان مليئا بالسيارات الحديثة تسير جنبا إلى جنب أو خلف أو أمام عربات الكارو، والجمال والحمير المحملة بالبضائع. عدت انتقالها من مدينة الخرطوم لأم درمان نقلة سريعة من القرن العشرين إلى قرون سابقة. وصفت كلية المعلمات بأنها ذات أسوار عالية، وبوابة ضخمة يحرسها بواب لطيف، وأشادت بالكلية وبنظام الفصول فيها، وبالبنات الصغار في « مدرسة الكتاب» اللواتي يتم التدريب في فصولهن. أعجبت بالصحة البادية على التلميذات وملابسهن النظيفة، وإن لم تعجب بطريقة تسريحهن لشعرهن (يلاحظ على هذه الكاتبة، وكما يفعل الإنجليز – على وجه العموم – فإنها قلما تشيد بشيء ما إشادة كاملة، وإنما تتبع الثناء عادة بكلمة «ولكن»!).

ذكرت إيزماي عادة الختان الفرعوني والذي يشيع في دول كثيرة في غرب إفريقيا والصومال وكينيا وأندونيسيا، ووصفته بأنه عادة بربرية، وأشادت برجال الدين والسياسيين الذين يدعون لمحاربته. وصفت تفاصيل عملية الختان البشعة ببعض التوسع (ربما لتقريب الصورة لدي القارئ غير السوداني).

في مساء يوم الأحد ذهبت للكاتدرائية الإنجليزية (الأنجليكانية) ،وأشادت بجمال مبناها، وكثرة المصلين من الرجال مع قلة النساء!

زارت في يوم الإثنين مدرسة العباسية للبنات مشيا على الأقدام من كلية المعلمات في طريق رملي. علمت أن الناس في هذه المنطقة يعدون من الفقراء وأن النساء محرومات من حرية الحركة والتبضع بمفردهن، رغم أنها لاحظت أن بعض الطالبات كن يرتدين ساعات يد! علمت أن كثيرا منهن لم يغادرن حيهن القديم، ولم يزرن الخرطوم القريبة أو حديقة الحيوانات مثلا.

ختمت هذا الفصل الأول بالإشادة بالسودانيين كشعب يحب، ويمتاز بالأمانة والصدق والصراحة. وللتدليل على ذلك ذكرت أنها سألت موظفين في استقبال الفندق عن رأيهما في الجمعية التشريعية، فقال الأول إنها عمل صالح سيستفيد منه الشعب السوداني، بينما قال الأخر إنها مضيعة للزمن ليس أكثر!

في الفصل الثاني وما بعده، وضمن مشاهد عديدة، سردت وصفا دقيقا لسينما «النيل الأزرق وكانت تلك هي المرة الأولى التي تشاهد فيلما في سينما مفتوحة لا يظلها إلا السماء المرصعة بالنجوم، وبضع أشجار كثيفة. أشادت بالشاشة الجيدة وبكراسي البامبو المريحة في «لوج» تلك السينما الصفوية. لم يعكر صفوها غير مرور بعض الطائرات فوق سماء السينما والذي عدته مصدر إلهاء لحظي. زارت كذلك حديقة الحيوانات، وسرت بما رأت هناك. ذهبت لمكتب البريد لإرسال كروت معايدة بالسنة الجديدة (١٩٥١م)، ولكن ختم البريد وقع على الأرض وتكسرت أجزاء منه. قالت إنها شعرت بالملل الشديد وهي تنتظر إصلاح الختم، بينما لاحظت أن السودانيين خلفها في الصف كانوا في غاية السعادة، وهم يتسامرون ويضحكون، ويشدون على أيدي من معهم ويمسكون بها (وهي عادة غير مألوفة في الغرب كما هو معلوم). أرادت أن تذهب بمفردها إلى حائك ملابس إغريقي سمعت عنه في «شارع عباس»، لكنها ضلت الطريق، ولم تجد غير سيدة فرنسية عجوز في سيارتها لترشدها للطريق. أطنبت الإنجليزية

(لا شـك بسـبب كراهية وعداوة قديمة بين الشـعبين) في وصـف قذارة تلك الفرنسـية وعفونة رائحتها، ورائحة سيارتها كذلك! زارت كذلك «جبل أولياء» وخزانها، وأشادت بهما، وخاصة طريقة صيد الأهالي للسمك.

سرت السيدة إيزماي أيما سرور بإعلان في صحيفة «سودان استار» الصادرة في ٢٠/ ١١/ ١٩٥٠م يعلم جميع من سـيحضـر حفل عشـاء (راقص) في ليلة القديس سـانت أندروز أن بإمكانهم سـحب قنينة واحدة من الويسـكي من المتاجر المخصصة لذلك خصما من حساب «التموين» المقرر لهم لشهر ديسمبر!

أ شادت الكاتبة بمنطقة «المقرن» وبخضرتها، بيد أنها عرجت على تخلف و سائل الصرف الصحي فيها وفي باقي أجزاء المدينة، ووصفت بتقزز نقل الفضلات البشرية كل ليلة بأسطال كبيرة تجرها الجمال (المتكبرة حسب قولها). حكت حادثة أثارت الذعر والفزع بين طالبات الكلية حين أدخل أحد الرجال الموكل إليهم سـحب «سـطل البول والبراز» رأسـه في فتحة المرحاض ليختلس نظرة وقت أن كانت فيه إحدى الطالبات! لاحظت كذلك أن الرجال لا يتورعون عن التبول في أي مكان مناسـب (أو غير مناسـب) في طرقات المدينة وميدانيها وذلك لانعدام المراحيض العامة.

صادف يوم ٢٢/ ١٢/ ١٩٥٠م ليلة المولد النبوي الشريف، و سجلت الكاتبة في مذكراتها زيارتها لميداني المولد في أم درمان والخرطوم، وعن الأجواء الاحتفالية البهيجة التي صـاحبت ذلك المولد خاصـة في خيمتي الأنصـار والختمية، ولاحظت اختلاط الماضـي بالحاضـر في اسـتخدام الشـيوخ والمريدين لأنوار النيون الملونة، وبيع الحلويات الملونة والتماثيل واللعب وغير ذلك. أشـارت إلى أن رواد المولد هم في الغالب الأعم من الذكور، ولا يسمح عادة للنساء «من الطبقات العالية!؟» بالاقتراب من ميدان المولد، رغم أنها لاحظت أن الفقيرات من النساء و«العاهرات» يجلسـن على الأرصـفة ليشـاهدن زحام الناس في المولد. زعمت الكاتبة بالقول بأن الدعارة «مشـكلة كبيرة»، وأضافت مفسرة: «لأن الرجال يتزوجون بنساء عديدات، و سرعان ما يكتشفوا أنهم لا يستطيعون إعالتهن جميعا، فيهجرون أصغر الزوجات ويدعونها لتبحث عن رزقها بالطريقة الوحيدة التي تستطيعها»!!!

في الفصـول التالية حكت إيزماي عن دعوات كثيرة لبتها لتناول الطعام مع كبار رجال الدين والسـياسـة في الخرطوم. ففي صباح يوم ٩/ ٣/ ١٩٥١م لبت دعوة وزير العدل (السيد/ محمد علي شوقي) لتناول طعام الإفطار في داره مع ثلة من الرجال ليس بينهم سيدة سوي فيليبا مغربي (التي ترجمنا لها ما سجلته في مذكراتها المعنونة «أيامي في الجريف»). أشـادت بكرم الرجل الحاتمي البالغ. كان الإفطار مكونا من فاكهة القريب فروت والشـعيرية بالسـكر والسمن، والسمك والبيض المقلي، ثم مربى البرتقال مع الخبز والموز والشاي والقهوة. لاحظت خلو أثاث البيت من مظاهر الترف، خلا سـجادة فارسـية واحدة، ولاحظت صـورة ضـخمة للمهدي معلقة على الحائط. بعد الإفطار أدخل السـيد شـوقي الكاتبة مع فيليبا مغربي للسـلام على نسـاء الدار (أو ما وصـفته بالحريم). لاحظت في غرفة السيدات وجود «بترينة» بأرفف مكسدة بالأواني الفضية. سلمتا على المرأة العجوز وبنتها فيما المذياع يصدح بأعلى صـوت بأغنية سـودانية. كانت البنت قد نالت لتوها شـهادة كامبريدج الثانوية، وتنوي أن تلتحق بكلية غوردون التذكارية في الخريف. قالت الكاتبة عن تلك الطالبة أنها متنازعة بين التقاليد البالية وتوقها للحرية (تري كيف اكتشـفت ذلك في لقاء قالت أنه كان للحظات قليلة، ولمجرد السـلام؟). زودتهما سـيدة الدار بمزيد من الهدايا، وكانت من الشكولاتا الغنية.

في عصر يوم ١٥ / ٤/ ١٩٥١م زارت السيدة إيزماي سراية السيد السير/ عبد الرحمن المهدي باشا (هكذا كتبت اسم الرجل كاملا بالألقاب، وذكرته أيضا مختصرا بحروف .S.A.R) لتناول الشاي. كتبت أنه يشاع أن الرجل سيغدو ملكا على السودان، وأن الرجل أرستقراطي يعيش في قصور فخمة، وأنه فاحش الثراء لا يقل دخله السنوي عن مليون جنيه استرليني. كانت إيزماي وزوجها في رفقة السيد/ محمد علي شوقي (وزير العدل). أوقفت سيارتهما الصغيرة (من نوع فورد أنجيليا) بالقرب من سيارتي السيد/ عبد الرحمن الرولز رويس والديملرز ، وشعرت بالضآلة وقلة الشأن! أسهبت في وصف حفل الشاي الصغير، وعن جلوسهم جميعا تحت شجرة ظليلة على كراسي وثيرة فرشت تحتها سجادة ضخمة. تأثرت السيدة إيزماي بشخصية السيد/ عبد الرحمن الطاغية الآسرة، وملابسه البالغة النظافة، ولم تنس حتى جواربه الأميركية الخضراء الفاقعة المخططة (كيف عرفت أنها أمريكية الصنع؟). كان يجلس بجانبه ولده السيد/ الصديق، والذي وصفته بأنه شخص لطيف لكنه يفتقد شخصية والده القوية (مرة أخرى تأتي «لكن» هذه بعد كل إشادة!). وصفت بهاء المكان وروعته، وأنه «ملكي الطابع». صفق السيد فأحضر الشاي في أكواب من الصيني الثمين، مع كيكة من الفاكهة كانت هي أشهى ما تذوقته في حياتها! تشعب الحديث الودي مع السيد حتى جاء ذكر الطائرات، فصفق السيد مرة أخرى فأحضرت ثلاث أباريق شاي من الفضة الخالصة مصنوعة على شكل طائرات. أحضر أحدهم ماء في وعاء حتى يرى الضيوف اللعب وهي على سطح الماء (لا بد أن الكاتبة قصدت أن أباريق الشاي كانت على شكل سفن، وإلا فما الداعي للماء؟). غربت الشمس أو كادت فأحضرت المفارش الفخمة لأداء صلاة المغرب. لا بد أن أحد الحضور لم يكن على مذهب / طريقة السيد عبد الرحمن، فقد لاحظت أنه لم يصل مع الجماعة، بل انتحى ركنا قصيا لأداء الصلاة بمفرده. في ختام الحفل تحدثت السيدة إيزماي حديثا خاصا مع السيد/ عبد الرحمن في حضور السيد/ شوقي ثم انفض الحفل. في الشارع رأت المبنى المقابل للسرايا وكان هو المركز التجاري لهذا الأمير التاجر (لعل المقصود هو مبنى دائرة المهدي). زارت دار السيد عبد الرحمن مجددا، هذه المرة في أمدرمان، لتناول الشاي في عصر يوم ١١/ ١٠/ ١٩٥١م وفوجئت بالرجل وهو يرتدي نظارة طبية وقد نالت منه أدواء القلب وغدا شيخا هرما في غضون شهور قليلة منذ رأته آخر مرة.

وفي يوم ٨/ ٥/ ١٩٥١م كانت السيدة إيزماي وزوجها في حضرة السيد/ الصديق عبد الرحمن المهدي لتناول طعام العشاء في داره الجديدة في أمدرمان. كانت دارا ضخمة تشبه فندقا عصريا أو دارا للسينما، تطل على النيل، ومؤثثة تأثيثا جيدا لكنها تفتقد حميمية البيت العائلي (لاحظ «لكن» هنا أيضا). بدا السيد/ الصديق، ودون وجود والده معه، كشخصية قوية وحاسمة. كانت وليمة ضخمة جلست فيها السيدة إيزماي بجنب السيد/ شوقي والسيد/ عبدون، ولاحظت بمزيد من الأسف غياب بعض اللمسات النسائية اللطيفة التي تضفي مزيدا من الراحة والفخامة في بيوت الأثرياء من السودانيين. في فصل آخر سجلت السيدة إيزماي مذكراتها عن حفل إفطار رمضاني في دار السيد/ الصديق المهدي في يوم ٣/ ٧/ ١٩٥١م أمه جمع غفير من الناس، كان من بينهم رجل باكستاني وزوجه تقول السيدة إيزماي إنه يعمل في تجارة مربحة في الشرق الأوسط هي الدعوة لوحدة العالم الإسلامي. شكت السيدة إيزماي في مقاصد الرجل الحقيقية، فهو لم يكن يعرف من العربية حرفا، ولم يكن مظهره يدل على أنه كان صائما أصلا، وكان يتبع السيجارة بالأخرى طوال ذلك المساء مع زوجه الأسكتلندية (التي شبهتها بساقية الحانة)!

و صفت السيدة إيزماي في فصل آخر حفل زواج ابنة مصطفي أبو العلا في سرايته بأمدرمان، وأشادت بشخصية الرجل. سجلت في يومياتها أن ذلك الحفل الأسطوري شهدته أهم شخصيات في البلاد، مثل الحاكم العام (بعربته الرولز رويس الحمراء) والسيد/ الصديق المهدي (بعربته الكاديلاك الخضراء) وجمع غفير من رجال المال والأعمال والسياسة بأزيائهم المختلفة وسحناتهم المتباينة.

من أغرب ما ذكرته السيدة إيزماي إنها ومن خلال حفل عشاء أقامته للسيد محمد أحمد المحجوب ولدكتور عبد الحليم ودكتور عبد القادر ليلة ٧/ ١٠/ ١٩٥١م لاحظت توجهات ا شتراكية عند المحجوب، وتنبأت بأنه « سيقود الحركة العمالية عندما تنهض» !!! ليس من الواضح ما الذي دعاها للوصول لهذه الدعوى العريضة!

حكت السيدة إيزماي في فصل آخر وبإسهاب عن الأعراس السودانية التي شهدتها، وعن مظاهر العرس السوداني التي كانت جديدة وغريبة عليها. لاحظت في كثير منها صغر عمر العروسة، وذكرت أن أكبر عروس شهدت حفل زفافها كانت في السابعة عشرة من العمر. لم تتذوق السيدة الموسيقى السودانية بادئ الأمر، بيد أنها زعمت أنه بمرور الوقت وكثرة التعود صارت تحب بعضا من هذه الموسيقى والغناء.

ورد في الفصل الرابع حديث عن رحلة السيدة إيزماي وزوجها لمصر عن طريق القطار. تحركت السيدة وبعلها من أمدرمان عند تمام السادسة صباحا، وركبت القطار من محطة السكة حديد في الخرطوم والتي تحرك منها القطار في تمام السابعة. لم تنس أن تنتقد جارتها في «قمرة» القطار والتي قالت: إنها بدت سخيفة وهي ترتدي كامل زينتها وحليها الذهبية ومجوهراتها في ذلك الصباح الباكر، ولكنها – لحسن الحظ – لم تأت على ذكر كلمة «لكن» عند الحديث عن قطارات السكة حديد، والتي و صفت عربات «النوم» فيها بأنها مريحة جدا، وبها مراوح تعمل، ومراتب عليها فرش وو سائد نظيفة، وعلى النوافذ موانع لأ شعة الشمس القوية. تناولت وزوجها الإفطار – وبقية الوجبات- في «بوفيه» القطار والذي قدم لهما مائدة عامرة في كل مرة. لم تلحظ شيئا يذكر في الطريق من الخرطوم إلى اتبرا غير قفر يباب، وأطفال عراة وشبه عراة يسابقون القطار، وعن هجوم من الأطفال و النساء على قمرات الركاب وهم يعرضون في إلحاح بضاعتهم من القهوة والشاي والبيض المسلوق والفواكه والطواقي وغيرها.

ومن مقابلاتها مع بعض ساسة البلاد وزعمائها. لا تكاد تجد فقرة في كتاب السيدة أيزماي تخلو من نقد جارح أو سخرية ظاهرة أو مبطنة أو «شناف» لما تراه أو تجده في الحياة السودانية دون اعتبار للظروف الثقافية والاجتماعية والاقتصادية التي كانت سائدة في تلك السنوات. وتجدها حتى عندما تشيد بشيء أو شخص أو موقف معين، فسرعان ما تتبع ذلك بكلمتها الأثيرة «ولكن»! جاء مثلا في إحدى محاولاتها المتهكمة عندما زارت حديقة الحيوان ووجدت هنالك غزالة حامل، فكتبت تقول إن تلك حالة شائعة أيضا بين نساء الخرطوم! يلاحظ أيضا ورود أخطاء جمة في قاموس المصطلحات في آخر الكتاب، فمثلا فسرت كلمة « سيد» بأنها تعني رجل من نسل الرسول، وكلمة «أنصار» بأنها تعني مشروب كحولي، و«الفلاتة» بأنهم من شمال أفريقيا!

١- مع السيد/ الهادي عبد الرحمن المهدي في الجزيرة أبا:

وصفت الكاتبة ببعض التوسع تفاصيل رحلتها للجزيرة أبا ومرروها بعدة محطات منها سنار (والتي أعجبت بما رأته فيها من حياة برية، فقد رأت فيها وللمرة الأولى في حياتها ثعبانا وقردا في بيئتهما الطبيعية) وجبل موية (كتبت Jebel Marya) والراوات (كتبت Rabat)، حيث كانت في انتظارها وزوجها ومن معهما سيارة لتقلهم للجزيرة أبا. دهشت للخضرة في تلك المنطقة، ولرؤيتها لرجال ونساء يستحمون في النيل، وذلك – حسب قولها – أمر غير مألوف في الخرطوم. عبرت بوابة ضخمة لتدخل «القصر»، والذي لم تفتها (كالعادة) فيه ملاحظة الإهمال الذي كان واضحا على حديقته ومسطحه العشبي. كان «القصر» في الواقع مكونا من عدة بيوت تربط بينها ممرات مرصوفة، وله مدخل واحد عليه رمز الأنصار الشهير والمكون من هلال وحربة. أدخلت الكاتبة وزوجها إلى صالون كبير ريثما يستقبلهما السيد/ الهادي ابن السير عبد الرحمن المهدي. خصصت الكاتبة ثلاثة صفحات كاملة لوصف محتويات ذلك القصر (مع كثير من النقد وبعض التهكم). فقد كتبت أن ما رسخ في ذاكرتها من ذلك الصالون هو مفرش المائدة الأخضر المصنوع من القطيفة، والذباب (والذي قالت إنه كان بالآلف) وصوت قطع الثلج في المشروب الذي قدم لها (فقد كان الجو بالغ الحرارة في اليوم الأخير من شهر يوليو). أشادت أيضا بغرفة النوم التى خصصت لهما في ذلك القصر وبكبرها وبأثاثها العصري جدا (super- modern) ولكن أزعجها فيها عدم الاهتمام بترتيب واستخدام ذلك الأثاث الفاخر، وأيضا وجود الذباب الكثير، وعدم وجود إضاءة في الحمامات رغم كثرة مصابيح الضوء الفلوري في بقية أجزاء القصر. كذلك انتقدت الحمامات وسوء التصريف فيها مما استلزم معه نقلها لغرفة أخرى في الطابق الأعلى وجدتها أقل حرا وذبابا.

تناولت طعام الإفطار مع السيد الهادي، والذي وصفته بأنه شخصية لطيفة جذابة مغرم بالاستشهاد بشكسبير. كان يبدو أنيقا – كما ذكرت- وهو يرتدي جلابية وعمامة. قدم الطعام في أواني فخارية فاخرة، بيد أن كثرة الذباب أفسدت عليهما بهجة تلك الوجبة. عقب الإفطار قاما بجولة في «القصر» و سجلت في مذكراتها سوء بنائه و ضعف الذوق الفني والجمالي عند من صممه ونفذه! زارت «المتحف» في القصر وذكرت أنه بحاجة ماسة لكثير من الرعاية والاهتمام والتأهيل، إذ أنه يحتوي علي تذكارات مهمة من عهد المهدية الأول مثل بعض ملابس قادة العهد المهدوي وسروج جمال وأزيار فخارية، وللغرابة وجدت أيضا جهازا قديما من أجهزة أديسون بيل ما زال يعمل!

وصفت الغداء الذي قدم لها عند استضافة السيد/ الهادي المهدي لها في قصره بالجزيرة أبا بأنه كان «سيئ التقديم» فقط لأنها ترى أنه من غير المناسب تقديم الطعام في أطباق صيني فرنسية، وأن يقدم الخل في زجاجات صلصة فارغة! بعد الغداء وعدهما السيد الهادي بجولة في القرية ولتفقد إسطبل خيوله. وبعد انتظار طويل (كما اشتكت) وصل السيد الهادي وأخذهما في جولة قابلا فيها عددا من سكان الجزيرة الذين كانوا يظهرون للسيد الهادي كثيرا من التبجيل والاحترام وهم منهمك في اعطائهم البركة. قالت إن إسطبل القصر كان به نحو ٦٠ حصانا، ولكنها اشتكت من أن العرض الذي قدمته هذه الخيول لهما لم يكن عرضا مميزا ولا جذابا. بعد ذلك العرض قدم لهما شاي في طقم أخضر وذهبي اللون لم تستطع نقده هذه المرة، ثم شاهدت عرضا موسيقيا قدمه عازفون للقرب والطبول، حاز (للغرابة) على إعجابها، إذ لم تكن تتوقع سماع موسيقي اسكتلندية في عمق أفريقيا.

عرفها السيد/ الهادي على عائلته، فقابلت حرمه السيدة رقية (ولعلها راجية؟) ذات الثلاثة وعشرين عاما، والتي و صفتها بأنها «بنت» شديدة الذكاء، وناضجة التفكير، وتجيد التحدث بالإنجليزية، وزارت بريطانيا قبل سنوات مع زوجها. أعجبت الكاتبة بطفلي السيد/ الهادي، خاصة بنته التي خافت من زوجها (جراهام) ربما لأنه كان يرتدي بنطالا أبيضا، فظنته طبيبا!

في صباح اليوم التالي دعيت للإفطار في مزرعة (جنينة) فواكة بعيدة عن القصر. مرت في الطريق إلى تلك المزرعة بورشة صيانة أشادت بتنظيمها بيد أنها لاحظت أن العمال فيها من صغار السن.

لاحظت المؤلفة أن الجزيرة أبا، رغم بعض التطور الذي حدث فيها، إلا أن بعض الأفكار المهدوية ما زالت حية فيها، و ضربت لذلك مثلا هو منع بيع الخمور والسجائر فيها. أكد لهم السيد الهادي أنه لا يدري ما يفعله الناس في بيوتهم، لكنه يؤكد أن لا أحد يدخن في الشارع أو السوق.

بعد شهور زار السيد الهادي الكاتبة وزوجها في بيتها، وقامت الكاتبة بتحضير كيكة ويلزية لتعريفه بالأطباق الويلزية الشعبية وهم جلوس في الحديقة، ولكن الهبوب العاصفة والأمطار الغزيرة في ذلك المساء أفسد تلك الزيارة.

٢- مع السيد/ علي الميرغني:

لبت الكاتبة وزوجها دعوة السيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية لتناول الشاي عصر يوم ٢٦/ ٤/ ١٩٥٢م. شرفت جدا بتلك الدعوة إذ أن السيد علي قلما يستقبل امرأة أجنبية عدا زوجة الحاكم العام، ولا يقابل امرأة سودانية قط، فهو صاحب رأي متحفظ في تعليم البنات. أشادت المؤلفة بالسيد وبصحته الممتازة، وأيضا بالكيكة التي قدمت لها مع الشاي (والتي ذابت كما قالت حقيقة ومجازا في فمها). كان السيد واضحا وصريحا في نقده للحكومة، خاصة بعد أن قلبت له ظهر المجن باتفاقية ١٩٣٦م حيث غدا السيد عبد الرحمن المهدي هو حليفها الأثير عوضا عنه. يتميز الرجل بأنه شديد الحرص والتحفظ عند الحديث مع جلسائه، وكان من الطرائف المتداولة بين الناس أن السيد علي لا يناقش مع ضيوفه إلا أحوال الطقس وأخبار القنبلة النووية، لذا كان حديثه الصريح لهما عن عدم رضائه عن الحكومة لميلها للسيد عبد الرحمن المهدي أمرا بالغ الأهمية. كان واضحا أنه ليس مصري الهوى، بيد أنه التجأ لمصر مضطرا بعد أن تخلت عنه بريطانيا. وعدهما السيد علي بقول المزيد عند لقائه بهما بعد عودتهما من العطلة السنوية، وذكر لهما أنه يقدرهما، والدليل على ذلك أنه سمح لابنيه بتناول الشاي معهما قبل أن يسافرا لبريطانيا في العطلة السنوية. بعد نحو أسبوع من تلك المقابلة زار السيد محمد عثمان الميرغني وشقيقه الأصغر أحمد منزل المؤلفة في أمدرمان. قدما في رفقة ميرغني حمزة و الخليفة موسى وكيل السيد على الميرغني. كان ذلك اليوم حارا جدا (في ٢/ ٥/ ١٩٥٢م) ورغم ذلك أتى السيدان الصغيران وكل منهما يرتدي معطفا صوفيا ثقيلا يمتد إلى الكاحلين، ومغلق بإحكام عند العنق! رفضا بإصرار محاولات الكاتبة وزوجها لجعلهما يخلعان المعطفين الشتويين. بدا لها أن أحدا منهما لم يخلع معطفه الصوفي أبدا! كان الابن الكبير (١٧ سنة) فتى جادا رفيع الوجه يرتدي نظارة، ويشبه والده كثيرا، بينما كان للسيد أحمد (١٢ سنة) وجه مستدير وحجم أكبر من عمره الحقيقي. كان الولدان يتلقيان دروسا خاصة حتى لا يختلطا بالطلاب في المدارس العامة أو الخاصة، والمؤلفة ترى أن ذلك كان

خطأ تربويا وبيلا. لم يحدث أبدا أن سـمح لهما والدهما بالخروج لتناول الشـاي مثلا في بيت أحد السـودانيين أو البريطانيين ، ولم يغادرا دارهما إلا مرة واحدة لمصـر لتلقي العلاج. الابن الكبير شـديد الذكاء ويجيد التصـوير ويتحدث الإنجليزية بطلاقة مدهشة، بينما كان الابن الصغير خجولا لم يفتح فمه بكلمة واكتفى بالا ستماع للآخرين والتبسـم (لا يخفى على فطنة القارئ أن الكاتبة من مناصـري عائلة المهدي، ولا مصـلحة لها في إنصـاف المنافس التقليدي لتلك العائلة... وإلا فما الذي تتوقعه من طفل في الثانية عشـرة من عمره وهو في حضـرة امرأة ورجل بريطاني؟» .

٣- مع السيد/ الصديق عبد الرحمن المهدي:

زارت الكاتبة وزوجها السيد الصديق في قصر والده للتهنئة بعيد الفطر. كان الرجل يستقبل وفود المهنئين بالعيد في صالون ضخم شبهته بصالونات النبلاء والدوقات الإنجليز ، لكنها – ورغم إعجابها بالسجاجيد الحمراء الجميلة في ذلك الصـالون- انتقدت بشـدة أثاث الصـالون الأحمر المطلي بالذهب، وخلو الحوائط من أي اثر فني أو حتى ستائر. كانت الزينة الوحيدة في ديكور الصالون هو حصان فضي غالي الثمن – فيما يبدو- لم يسلم من انتقاد الكاتبة فكتبت تقول بأنه يبدو «غريبا ومنفصـلا» عن ما حوله في الصـالون. ولكن وللمرة الأولى تحاول الكاتبة أن تفسـر ما تراه حولها فكتبت تقول: إن ما تم انجازه في السودان – رغم سوئه - قد تم في وقت قصير نسبيا، فقبل سنوات من مقدمها للبلاد كان «هؤلاء الناس» يعيشون في ظروف تتميز بالبساطة الشديدة والهمجية وعدم التمدن / التحضر.

٤- مع داؤد الخليفة:

بعد زيارتها إلى مدني وبركات زارت داؤد الخليفة، أحد مفتشـي المراكز في مدينة سـنار، في بيته ذات مسـاء جمعة. قالت إنه «ابن الخليفة» (عبد الله التعايشـي) وتعجبت من تبدل مصـائر تلك العائلة، من العداوة المطلقة مع البريطانيين إلى التعاون الوثيق. قابلته في صباح اليوم التالي في مكتبه. وصفته بأنه ضخم البنية، يتراوح عمره بين ٥٣ – ٥٤ عاما، وله شـخصـية مثيرة للاهتمام لكنه شـديد العصـبية والتوتر، فقد كان يفرقع/ «يطقطق» أصـابعه في قلق، وأضافت أن تلك عادة سودانية متأصلة (هكذا!). وفر لها سيد داؤد سيارة لتزور الغابات المحيطة بالمنطقة، وشهد معها حفل عشـاء أقامه المهندس المقيم في داره. اكتشـفت – كما زعمت- في ذلك الحفل أن داؤد الخليفة (خلاف لأخيه) ما زال «مهدويا»، ولكنها تعجبت من أنه، رغم ديانته الإسـلامية، فإنه يعترف بولادة العذراء وأن المسـيح – بطريقة ما – قد خلقه الله (لعلها كتبت هذا القول من باب الجهل، إذ أنه من المعلوم أن مريم ورد ذكرها في القرآن بأكثر مما ورد في الإنجيل، ووصـف القرآن الكريم عيسـى بأنه كلمة الله التي ألقاها إلى مريم بنت عمران)، وتعجبت أكثر عندما سـمعته يعترف (خلافا لما جاء في القرآن كما زعمت) بأن عيسـى قد رفع للسـماء (received into heaven). كل هذه الآراء التي ظنتها غريبة تبدو أكثر غرابة عندما سـمعت من كثير من الإداريين البريطانيين أنهم ملحدون.

٥- مع مصطفي أبو العلا:

عندما كانت الكاتبة في زيارة للندن قابلت مصـطفى ابو العلا (ومعه قريبه السـيد زبير الملك، والذي جاء للاستشفاء) في فندق ريتز، ثم تناولوا الغداء معا في البيكاديلي. أشادت بمصطفى وبروح الفكاهة والدعابة عنده،

ودبرت له لقاء مع دوق بيدفورد، وأثمر ذلك اللقاء عن صفقة تجارية يبعث بها بموجبها أبو العلا فول قرود (هل المقصود فول سوداني؟) لمزرعة طيور الدوق.

لبت الكاتبة وزوجها دعوة مصطفى أبو العلا و زبير الملك لحفل عشاء أراها فيه زبير خنافس (جعارين) ذات ألوان غريبة أحضرت من دنقلا، بينما أحضر مصطفى – كعادته- حيلة مضحكة، إذ قدم لها قطعة شيكولاتا ما أن بدأت في تناولها حتى انطلق منها صوت أزيز ووميض ضوء. ولم يكتف بذلك بل أعطاها قبعة سوداء وأشعل رأسها فإذا بحية سوداء لا يقل طولها عن ستة أمتار تسعى من بين القبعة. لم تكن حقيقية بالطبع، بل كانت من المطاط. سعدت جدا بهدية مصطفى (الحقيقية) والتي كانت كيكة شيوكلاتا من محل قروبي الشهير. (في رواية «حارة المغنى» للروائية العالمية ليلى أبو العلا إشارة إلى كثير من هذه الحكايات في سياقات درامية مختلفة).

تعليق أخير: الكتاب مفيد جدا، خاصة للشباب السوداني لمعرفة الكثير من تفاصيل الحياة الاجتماعية في السودان في بدايات خمسينات القرن الماضي بعيون غربية ناقدة، ومهم أيضا بحسبان كاتبته من قدامى المهتمين بتعليم المرأة في السودان. كتبت مذيعة البي بي سي السودانية البريطانية زينب البدوي عن المؤلفة وقالت: إنها «شخصية لا تملك إلا أن تحبها من أول لقاء معها، تشع دفئا وصدقا وعلما»، بيد أنها أبعدت النجعة قليلا وهي تصفها بأنها «مفكرة إسلامية Islamic scholar من الطراز الرفيع» !!!



السياسة البريطانية حيال «الأنصار» في السودان

British Policy towards the Ansar in Sudan

Gabeiel Warburgجبريل واربورج

تقديم: هذا عرض مختصر لما ورد في مقال بقلم البروفيسور (والخبير في الشأن السوداني) جبريل واربورج، نشر في المجلة البريطانية «دراسات الشرق الأوسط Middle Eastern Studies » في عددها الثالث والثلاثين عام ١٩٩٧م عن سياسة المستعمر البريطاني تجاه «الأنصار» (والقصد بالطبع أتباع ومناصرو محمد أحمد المهدي وأحفاده إلى يومنا هذا). ولد المؤلف – بحسب سيرته الذاتية المبذولة في الشبكة العنكبوتية – في برلين بألمانيا عام ١٩٢٧م وهاجر مع عائلته وعمره سبعة سنوات إلى فلسطين وبقي بها حتى عام ١٩٤٦م حين أكمل دراسته بكلية للزراعة، ثم درس تاريخ الدول الإسلامية في الجامعة العبرية بالقدس (١٩٦١ – ١٩٦٤م) واللغة العربية وآدابها في جامعة لندن، والتي تحصل منها أيضا في عام ١٩٦٨م على درجة الدكتوراه بأطروحة عن «إدارة الحكم الثنائي بين عامي ١٨٩٩ – ١٩١٦م». عمل بعد ذلك أستاذا في جامعة حيفا حتى تقاعده في عام ١٩٩٦م. نشر الكثير من المقالات المحكمة والكتب عن السودان ومصر ودول عربية وإسلامية أخرى منها كتاب «إعادة الشريعة الإسلامية في السودان في عهد النميري The Reinstatement of Islamic Law in Sudan under Numayry » وكتاب بعنوان « الإسلام والقومية والشيوعية في مجتمع تقليدي: حالة السودان

Islam, Nationalism and Communism in a Traditional Society: The Case of Sudan

وكتاب آخر عن الطوائف الدينية في السودان والسياسة منذ عهد المهدية، وعدة مقالات عن الإخوان المسلمين وأنصار المهدي والحزب الشيوعي السوداني (قمنا بعرض قليل منها من قبل) وموضوعات متفرقة أخرى.

يعرض المؤلف في مقدمة بحثه للفترة التي أعقبت غزو السودان (أو إعادة احتلاله) بواسطة دولتي الحكم الثنائي، بريطانيا ومصر، بين عامي ١٨٩٦ – ١٨٩٨م، والذي وضع له، كهدف رئيس، القضاء على «المهدية» وكنس كل أثر لها، والقضاء على «التعصب / التشدد الإسلامي» وتشجيع «الإسلام التقليدي» الذي يحمل الأزهر رايته. لذا بدأ الحكم الثنائي الجديد دولته بتحريم اعتناق «المهدية» وكل أدبياتها التي كان على رأسها راتب الإمام المهدي (وهو «كتاب الأذكار» الذي يتكون من مجموعة من الأوراد يتلوها الأنصار عقب صلاتي الفجر والمغرب). زاد الحكام الجدد على ذلك بارتيابهم من كل الطرق الصوفية، إذ أن منبع «مهدية» السودان كان في الأصل صوفيا، واستثنوا من ذلك الطريقة الختمية التي بزغت في السودان في يونيو من عام ١٨٨١م بزعامة السيد/ علي الميرغني والذي عارض المهدية منذ قيامها فلقي من الحكام الرضا والترحيب والسند الميرغني (لا يخفى على القارئ خطأ هذا التاريخ، والمقصود ربما كان عام ١٨١٨م؟ وكانت نشأة تلك الطريقة على يد مؤسسها السيد محمد عثمان الختم الذي وفد الى السودان ومكث فيه بين عامي ١٨١٥ و١٨٢٥م تقريبا)،. يختلف هذا القول عن ما أورده بروفسور حسن أحمد إبراهيم في مقالة له مبذولة على الشبكة العنكبوتية عن «الحركة الوطنية السودانية» من أن الحكومة لم تعترف حتى بالطريقة الختمية التي كما كتب:«عادت المهدية عداء واضحا و صريحا، ويبدو أن المحرك الرئيس وراء هذه السياسة العلمانية كان يستمد شرعيته من توجه الحكومة البريطانية القاضي بتطبيق مبدأ فصل «الكنيسة عن الدولة».

حرص المستعمرون الجدد أيضا على منع التبشير المسيحي في شمال السودان خشية من مغبة ما يمكن أن يحدثه ذلك من تداعيات سلبية في أوساط السكان المسلمين.

كانت سياسة الحكم الثنائي تجاه الطوائف والطرق الدينية تماثل السياسة التي كان يتبعها الحكم التركي السابق للمهدية في القرن التاسع عشر. فالوظائف الدينية العليا (مثل منصبي قاضي القضاة والمفتي) كانت حكرا على علماء الدين المصريين، وكان يبعث بأبناء زعماء القبائل للقاهرة لتلقي العلم الشرعي في الأزهر، ليعودوا لديارهم كقضاة أو علماء دين. وزيادة في الحرص على منع التطرف والتشدد الديني أقاموا مجلسا لعلماء الشريعة مهمته إسداء النصح للحكومة في كل الأمور المتعلقة بالشؤون الدينية للسكان. تم كل هذا بتخطيط من دولتي الحكم الثنائي دون أن تنتبه بريطانيا لحجم التأثير المصري على الدين الإسلامي ومعتنقيه من السودانيين. فاستأثر البريطانيون بالمناصب السياسية والاقتصادية والأمنية بالبلاد، وتركوا بقية الشؤون للمصريين، وظل ضباط وجنود مصر يختلطون بأفراد المجتمع السوداني المسلم، وتزوج بعضهم من سودانيات، وغدوا يؤثرون باحتكاكهم اليومي، وبصحفهم وكتابهم على السودانيين واتجاهاتهم وطرائق تفكيرهم. ازداد ذلك النفوذ المصري مع تنامي الشعور الوطني المصري، وهو الأمر الذي دعا ونجت باشا (حاكم عام السودان بعد كتشنر، بين عامي ١٨٩٩ – ١٩١٦م) للتنبيه على خطورة الأمر، فقام القلم السياسي (Sudan Political service SPS) والمكون من صفوة من خريجي الجامعات البريطانية في عام ١٩٠٧م بإجراءات مضادة لكبح تنامي النفوذ المصري، فالتفت أول ما التفت لأنصار المهدي الذين كانوا يرون دوما في مصر (وتركيا) عدوا لدودا سبق لهم أن أعلنوا الجهاد ضده، وبدأوا في عام ١٩٠٨م في تخفيف القيود التي كانوا قد فروضها على عائلة المهدي، و صاروا يعدون تلك العائلة حليفا محتملا لهم فأذنوا للسيد عبد الرحمن (ابن محمد أحمد المهدي) بتجميع أنصاره في طريقة دينية. كان السيد عبد الرحمن رجلا واقعيا يعلم تمام العلم حدود قدرته ونفوذه فلم يحاول أبدا أن يصطدم بالسلطات الحاكمة، بل طلب ونال في عام ١٩٠٨م قرضا من الحكومة كي يقوم بإعادة بناء مسجد المهدي الذي كان الجيش الغازي قد هدمه، وسمح له أيضا في ذات العام بزراعة أرض الجزيرة أبا (حيث انطلقت أول شرارة للمهدية في عام ١٨٨١م) فاكتسب بذلك مصدرا عظيما للثراء، إضافة إلى تقوية مركزه كإمام للأنصار. لم يكف السيد عبد الرحمن في كل مناسبة عن التعبير عن جنوحه للسلم وعن امتنانه لحكام السودان، وعن معارضته لكل من يحاول مناوءتها. فعلى سبيل المثال قام الأمير عبد القادر محمد إمام ود حبوبة في أبريل من عام ١٩٠٨م في مديرية النيل الأزرق بمحاولة للثورة ضد المستعمرين وإعلان دولة المهدية، بيد أن السيد عبد الرحمن أفلح في إقناع السكرتير القضائي للحكم الثنائي وهيئة العلماء بأن الدعوة المهدية براء مما يدعوا له ود حبوبة، وأن هذه الدعوة التي يمثلها يجب أن لا تحمل وزر ما قام به ذلك الأمير الثائر (أشار المؤلف هنا لما كتبه البروفيسور حسن أحمد إبراهيم عن «انتفاضات المهدية» بين عامي ١٩٠٠ – ١٩٢٧م في المجلة العالمية للدراسات التاريخية الأفريقية الصادرة في عام ١٩٧٩م، ولما كتبه رجل المخابرات سي ويليس قبل ذلك بكثير في مجلة السودان في رسائل ومدونات الصادرة عام ١٩٢١م عن ذات الموضوع).

قرر السير ونجت باشا في عام ١٩١٥م أن يبعث بالسيد عبد الرحمن للجزيرة أبا ومناطق تجمعات الأنصار الأخرى كي يقوم بتعبئة أفراد هذه الجماعة وحشدهم لتأييد بريطانيا في الحرب العالمية الأولى، بيد أنه لم ينس أن يحذره من مغبة استغلال هذه السانحة للدعاية للمهدية. لم تكن مهمة السيد عسيرة أبدا، فقد كان غالب السودانيين على كل حال يكرهون الترك وتركيا (خصم بريطانيا وحلفائها في تلك الحرب) نسبة لما لقوه على ايديهم إبان حكمهم

للسـودان. أكدت جولة السـيد عبد الرحمن تلك عمق إخلاصـه للبريطانيين، ولكنها أكدت أيضـا عمق إخلاص الأنصـــار له كإمام (جديد)، فاســتدعاه البريطانيون لأمدرمان في العام التالي (١٩١٦م) ومنعوه من تنظيم جماعة الأنصـار، بيد أنهم في ذات الوقت علموا بتعيينه لنواب ووكلاء له في مناطق تجمع الأنصـار ليكونوا عينا للحكومة في الابلاغ عن أي نشـاط غير قانوني، وليكونوا حلقة الوصـل بينه وبين السـلطات في مناطق تجمع الأنصـار، وغضـوا الطرف عن عدم إبلاغه للسـلطات بما يقوم به هؤلاء الوكلاء من رعاية مصـالحه الدينية والتجارية الحيوية في مناطق نفوذه تلك، إذ كانوا يجمعون من السكان ضرائب الحكومة ومكوسها، ويجمعون في ذات الوقت «صدقات» للسيد عبد الرحمن دون إذن من الحكومة، ويوزعون عليهم «راتب المهدي» الذي سبق منعه من التداول.

بذا حصد السيد عبد الرحمن – بطرق مباشرة وغير مباشرة- فوائد جمة من حملة البريطانيين على مصر والمصريين في السـودان قبل وبعد الحرب العالمية الأولى. وكتعبير عن الشـكر والامتنان والولاء قدم السـيد عبد الرحمن سـيف والده للملك جورج الخامس ملك بريطانيا العظمى، وذلك خلال زيارة زعماء السـودان (برئاسـة السـيد علي الميرغني) للندن لتقديم فروض الولاء والطاعة والتهنئة بالانتصـار في الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٩م. كان ذلك إيذانا ببدء عهد جديد من التعاون بين الأنصار وزعيمهم مع حكام السودان الفعليين، وباعتبار الأنصار طائفة حليفة مهمة لهم، وصار السيد عبد الرحمن زعيما معترفا به من قبل الحكومة وسمح له أيضا بتوزيع «راتب المهدي» دون عوائق.

كتب شارلس آرمين ويليس (قائد المخابرات البريطانية في السودان) كثيرا من التقارير عن تلك «المصالحة» بين الأنصـار والحكومة، وعن فوائدها للطرفين، وعن بدء مرحلة «المهدية الجديدة» بيد أنه عزل من منصـبه في عام ١٩٢٦م، وخلفه في المنصـب ريجلاند ديفيس والذي اتسـم عهده بشـكوك كثيرة، بل بعداء ضـد السـيد عبد الرحمن و«المهدية الجديدة» هذه، ربما بسبب انتفاضة اندلعت في نيالا بدارفور في عام ١٩٢١م (كان الفكي عبد الله السحيني على رأس تلك الانتفاضة، والتي هدفت لإحياء المهدية، ومعارضة للحكم المركزي المباشر والضرائب الباهظة) وظهور من آمنوا بالعيسوية (ظهور النبي عيسى لينقض على الدجال وينقذ الدعوة المهدية). يرجع الكاتب الخلاف بين رجلي المخابرات ويليس وديفيس جزئيا لاختلاف شخصيتي الرجلين، فالأول تخرج في جامعة أكسفورد بينما تخرج الثاني من جامعة كمبردج، والتنافس بين الجامعتين العريقتين معلوم ومشهود. أهم من ذلك، وبكثير جدا، أن ويليس كان يعد «المهدية الجديدة» (مثل الطرق الصوفية) من مألوف ممارسات السودانيين الدينية، ولا خوف منها ولا خطر، بينما كان ويليس يراها بداية لحركة دينية/ سـياسـية راديكالية متطرفة ينبغي وأدها في مهدها. عمل ويليس في مناطق كردفان ودارفور بين عامي ١٩١٢ – ١٩٢٤م، وهي مناطق كان تعدها حكومتي «التركية السابقة» و«العهد الثنائي» مناطق يسـودها التخلف الشـديد وتقع دوما لقمة سـائغة للتعصـب والتشـدد الديني، إذ منها نبتت أغلب الثورات المهدوية وانتفاضات «النبي عيسى» في السودان في القرن العشرين. كان ديفيس يرى ذلك كله ضمن رؤيته المتشـائمة والحذرة للمهدية الجديدة، إذ كان الرجل قد عمل في دارفور إبان حدوث انتفاضـة نيالا في عام ١٩٢١م (والتي كانت أسوأ انتفاضة شهدها ذلك القرن في السودان منذ استعادة المستعمر حكم السودان)، وكان لا يرى اختلافا بين «المهدية الجديدة» وبين انتفاضة «النبي عيسى» وغيرها من الانتفاضات والحركات رغم أن السيد عبد الرحمن كان قد أدان كل تحرك شعبي أو ديني ضد الحكومة. تواصل الخلاف في الرأي بين رجال البريطانيين في أمر قانونية «المهدية الجديدة» وخطورتها، ومدي اختلافها عن (أو تشابهها مع) الطرق الأخرى الصوفية المسالمة دوما.

تمخض ذلك الخلاف عن حظر «الحج» للجزيرة أبا في عام ١٩٢٢م، ومنع وكلاء السيد عبد الرحمن في المناطق المختلفة من العمل خاصة في مجال جمع «الصدقات» له. لم تجد تلك الاجراءات نفعا إذ أن السيد عبد الرحمن كان يجد دوما و سائل مختلفة ومبتكرة للالتفاف حول اجراءات الحكومة. ابتسمت الأقدار لذلك السيد بمقتل السردار استاك في الخرطوم في نوفمبر من عام ١٩٢٤م إذ أحس البريطانيون (مجددا) بأهميته في مواجهة النفوذ والدعاية المصرية. كان السيد عبد الرحمن على العهد فطاف مناطق الجزيرة داعيا الناس للوقوف مع الحكومة وتجاهل الدعاية المصرية. وبعد طرد القوات المصرية من السودان عام ١٩٢٥م أنشأ المستعمر البريطاني قوة دفاع السودان، وفي باله احتمالية قيام الأنصار بانتفاضة ضد الحكومة، فحرص على استبعاد أي فرد يشك في ولائه للأنصار من الالتحاق بتلك القوة.

في عام ١٩٢٦م حاول السير جفري آر شر حاكم عام السودان استرضاء السيد عبد الرحمن فأوصى بمنحه لقب فارس الإمبراطورية البريطانية (سير) باعتباره رجل الإدارة البريطانية المخلص في السودان، بل وقام بزيارة رسمية للجزيرة أبا في ١٤/ ٢/ ١٩٢٦م حيث استقبله السيد عبد الرحمن مع نحو ١٥٠٠ من أنصاره. بيد أن سياسة السيد آرشر المتساهلة والمتسامحة اصطدمت بموقف متشدد من «مجلس الحاكم العام» و فيهم السكرتيرين الثلاثة (هارولد ماكمايكل وجورج شوستر وواسي استري) وبموقف رجل المخابرات القوي ريجلاند ديفيس. عارضت هذه المجموعة موقف الحاكم العام، بل وأجبرته على الاستقالة، بينما تم نفي قائد المخبرات (المتساهل مع المهدويين) ويليس إلى أعالي النيل بجنوب السودان وعين ريجلاند ديفيس المتشدد ضد «المهدية الجديدة» مكانه.

رغم أن موجة العداء للمهدية الجديدة كانت قد انتصرت على الورق وفي مكاتب الحكومة وأروقتها، إلا ان المنتصر الحقيقي على الأرض كان هو السيد عبد الرحمن، فهو قد نجح في مواصلة دعوته وتأكيد زعامته كإمام للأنصار. ولفهم الأسباب التي أدت لنجاحه يجب معرفة طبيعة وتركيبة هؤلاء الأنصار، وهم على ثلاثة أنواع.

١. النوع الأول هم من المؤيدين للمهدية بحكم الانتماء القبلي، وتأييدهم للسيد عبد الرحمن مبعثه في الأساس إيمان راسخ لا يتزعزع (ويصل لحد التعصب) بصحة المهدية و صدق مؤسسها، وغالب هؤلاء من الغرب (ذكر المؤلف أنهم من «الفلاتة»، وهذا فيه نظر، ولعل المؤلف يطلق كلمة «فلاتة» بحسب الاصطلاح العامي السوداني على كل من هاجر من غرب أفريقيا ونيجيريا بالذات بما فيهم الهوسا والفولاني والبرنو والبرقو وغيرهم). هاجر عدد كبير من هؤلاء «الفلاتة» إلى الجزيرة أبا للحاق بالسيد عبد الرحمن، وزادت أعداد منازلهم في الجزيرة أبا من ١٠٠٠ إلى ٤٥٠٠ منزل في عام ١٩٣٥م، وبلغ عدد الحجاج من غرب أفريقيا إلى الجزيرة أبا نحو ١٥٠٠٠ كل عام، وعن طريق هؤلاء نجح السيد عبد الرحمن في التغلغل إلى مديريتي كردفان ودارفور (والتي كان ممنوعا من السفر إليهما) وخلق قواعد أنصار له ووكلاء فيهما، وفي استغلال هؤلاء السودانيين و«الفلاتة» كأيدي عاملة رخيصة في مزارعه الواسعة التي منحتها له الحكومة حيث انتشروا في قري في النيل الأزرق وكسلا وأرض الفونج و النيل الأبيض.

٢. النوع الثاني كانوا مجموعات متقدمة (بزعم الكاتب بالطبع) من القبائل التي تعيش على ضفاف النيل ومنهم شيوخ وعمد، وهم كانوا يؤيدون السيد عبد الرحمن بسبب ثرائه ونفوذه في تلك الأيام، وربما بذات القدر أو أقل من أجل تأثيره الديني الدعوي. ونال السيد عبد الرحمن ثقة وسند هؤلاء الشيوخ والعمد من رجال الإدارة الأهلية عندما

وقف بجانبهم في نزاعهم مع السـلطات في أمور المكوس والضـرائب، وبدعوتهم لولائم باذخة في أمدرمان وأبا! جعل السيد عبد الرحمن من نفسه وسيطا بين الطرق الصوفية المختلفة فكسب ودهم جميعا. فقد توسط مثلا لحل المشكل الذي برز عند اختيار شيخ الطريق السمانية، وقدم عونا ماليا كبيرا للطريقة الإسماعيلية في كردفان.

٣. النوع الثالث كان من سـكان المدن الكبيرة كالخرطوم وأمدرمان والخرطوم بحري، وكثير من هؤلاء كانوا ما يزالون يحتفظون بعلاقاتهم التقليدية مع قبائلهم الأ صلية أو طرقهم الـ صوفية، ولا يمكن ا ستمالتهم بذات الطرق التي استخدمها السيد عبد الرحمن في المناطق الريفية. شمل هؤلاء صفوة من المتعلمين الشماليين من ذوي الإسلام (الراقي/ المتطور sophisticated بحسب زعم المؤلف!) ومن غير المؤمنين بأمور تؤخذ في الأرياف على محمل الجد والتصديق مثل الشيوخ و الكرامات والفكي الخ. هؤلاء كانوا يؤيدون السيد عبد الرحمن لأ سباب سيا سية في الغالب، بينما قابلهم هو بالعون المادي المتمثل بالمسـاعدة في إكمال الدراسـة ونيل الوظائف الحكومية عقب التخرج وغير ذلك من المغريات. ويجدر بالذكر هنا حرص السـيد عبد الرحمن على أن يتلقى أبناؤه وأحفاده وأقربائه تعليما دينيا متينا، وكذلك تعليما غربيا عاليا في السـودان وخارجه (لعل السـيد علي الميرغني زعيم طائفة الختمية قد سعى ذات المسعى، ولكن هنا تنتهي أوجه المقارنة والشبه!).

يمكن القول بأن السياسة البريطانية المترددة والمتذبذة حيال السيد عبد الرحمن ومهديته الجديدة قد مكنت له من أن يغدو من أثرى أثرياء السودان، وأن يصبح زعيما لا يمكن الاستغناء عنه في مجال الحكم والسياسة السودانية. بيد أنها (وربما عن غير قـصد) كر ست أيـضا للطائفية، إذ أنها دفعت المنافس اللدود للمهدية وزعيم الختمية الـسيد علي الميرغني دفعا إلى أحضان المصريين. ومع قرب حلول الاستقلال (بين عامي ١٩٥٣ – ١٩٥٥م) أصبحت المنافسة الحقيقية هي بين أحزاب سياسية هي في الواقع محض غطاء لجماعات دينية، وذهب أمل الحكم البريطاني في «فصل الدين عن الدولة» أدراج الرياح.

ختم المؤلف مقاله باسـتعراض مطول (من ١٠ صـفحات) لما كتبه بعض المؤرخين الغربيين والسـودانيين (في أعوام سـبعينات القرن الماضـي وما بعدها) عن المهدية الجديدة، وعن الطائفية وتداخل الدين والسـياسـية في السودان. من الأسماء التي استعرض كتاباتها الخبير بالشأن السوداني بيتر وودوارد (أستاذ العلوم السيا سية بجامعة ريدنق البريطانية) والذي كان يرى أن المهدية كانت ميتة بالفعل عندما غزا المصـريون والبريطانيون السـودان، ولكنهم أحيوها بسياساتهم. خص المؤلف بالذكر أغزر الغربيين إنتاجا عن الحكم الثنائي في السودان وهو بروفسور مارتن دالي M. Daly (والذي عمل أسـتاذا للتاريخ في عدد من الجامعات منها جامعة ممفيس الأميركية) وكتابه المعنون «إمبراطورية على النيل» وكتابه الآخر «السـودان في عهد الاسـتعمار الثنائي بين عامي ١٩٣٤ – ١٩٥٦م»، وسـجل ما كتبه عن دور رجل المخابرات «سـي ايه ويليس» في تثبيت السـيد عبد الرحمن كمؤسـس لمهدية جديدة، ونقل ما كتبه مارتن دالي ساخرا من أن أنصار السيد عبد الرحمن كانوا يعتقدون بأن طواف السيد عبد الرحمن في أرض الجزيرة في عام ١٩١٥م (بطلب من حاكم عام السـودان لغرض الدعاية لبريطانيا في حربها العالمية الأولى) ووصـف أنصاره له بأنه «المهدي الجديد» وبأن ظهوره كرامة من الكرمات أو معجزة إلهية، فكتب يقول: «ليس الرب، بل سي أيه ويليس هو صاحب نظرية «المهدية الجديدة» والـسيا سة الجديدة التي اقتـضتها». بالطبع أتى من بعد ويليس من شـكك في أهمية السـيد عبد الرحمن، ومن قال بأن «بريطانيا غزت السـودان انتقاما من المهدي الذي قتل غوردون، وليس من أجل أن تمجد ابن القاتل».

نقل المؤلف آراء متباينة عن ذات المو ضوع لعلماء سودانيين هم دكتور منـ صور خالد وبروفيـ سور حـ سن أحمد إبراهيم وبروفيـ سور عوض الـ سيد الكر سني، فأتى على ذكر بعض ما كتبه الدكتور منـ صور خالد في سفره المو سوم The government they deserve والذي صدر في عام ١٩٨٧م، والذي شدد فيه على أن المـ ستعمرين تبنوا سياسيات تعاون مع بعض رموز المجتمع السوداني (دون غيرهم) أحدثت انقسامات خطيرة في ذلك المجتمع. أشار الدكتور منصـور خالد أيضـا إلى أن أصـول الطائفية في السـودان سـبقت ظهور المهدية، وأنها ازدهرت من بعد ذلك لأسـباب ليسـت لها علاقة بالإيمان بالقيم الأخلاقية التي تدعو لها تلك الطوائف، أو بزعاماتها، وأن الزعامات الطائفية استغلت الدين كوسيلة للوصول إلى دست الحكم.

أشار المؤلف لكتابات بروفيسور حسن أحمد إبراهيم المؤرخ وصاحب الكتابات الكثيرة عن «المهدية الجديدة»، والذي تتبع ظهور السيد عبد الرحمن المهدي منذ أن كان شابا صغيرا خامل الذكر obscure حتى لمع نجمه وغدا واحدا من أهم رجال السـودان الحديث في عالمي السـياسـة والمال، وتطرق إلى الصـراع بين رجال المخابرات البريطانيين حول سيا سة «المهدية الجديدة» المثيرة للجدل. كان الكثيرون من كبار الإداريين البريطانيين (من أمثال ماكمايكل) ينظرون نظرة ملئها الشـك وعدم الرضـا للسـيد عبد الرحمن، وامتد هذا الشـك إلى الحكام البريطانيين في نيجيريا والذين اتهموا الـ سيد عبد الرحمن بتـ شجيع من ثار ضدهم من المـ سلمين هنالك وتعيينهم كوكلاء له في ذلك البلد من أمثال ملام سيد حياتو أحد أحفاد الـ شيخ عثمان بن فودي (١٧٥٤ – ١٨١٧م، مؤ سس خلافة سوكوتو في عام ١٨٠٩م). أبرز هؤلاء رسائل زعموا أنها من السيد عبد الرحمن لوكلائه في سوكوتو وبورنو وغيرها لحثهم للجهاد والثورة المرتقبة ضد «الحكام المسيحيين». دافع رجل المخابرات «ويليس» عن السيد عبد الرحمن في مذكرة مرتبكة من عشرين صفحة وزعم أن تلك الرسائل قد زورها «أعداء السيد عبد الرحمن» للوقيعة بينه وبين الحكومة.

يصـف بروفيسـور حسـن أحمد إبراهيم السـيد عبد الرحمن بأنه زعيم يتصـف بالحذر والبرغماتية (الواقعية/ الذرائعية)، وأنه أدرك أنه، وتحت سلطة الحكم البريطاني، فلا مندوحة له غير أن يبدو «معتدلا/ وسطيا»، وأن طوافه على مناطق الجزيرة (والذي كان كما ذكرنا آنفا بطلب من السـير ونجت في عام ١٩١٥م) والترحاب والتأييد الذي وجده من السـكان هنالك يعد دليلا (في نظر البروفيسـور حسـن بالطبع) على أن جذوة المهدية كانت ما تزال حية في النفوس رغم ما تقوله وتفعله السلطات الاستعمارية.

أورد المؤلف تلخيصـا لبحث البروفيسـور عوض السـيد الكرسـني المنشـور في مجلة «الشـؤون الأفريقية» عام ١٩٨٧م عن ترسـيخ «المهدية الجديدة» في غرب السـودان والذي يناقض ما يزعمه رجل المخابرات «ديفيس» المتشـكك في ولاء السـيد عبد الرحمن وتخوفه من «مهديته الجديدة»، ويرى أنه ومن واقع ما كتبه حكام دارفور وكردفان من البريطانيين في تلك السـنوات، أن السـيد عبد الرحمن كان عاملا مهدئا بل كابحا لجموح المتعصـبين والمتشددين المتطلعين لثورة أو انتفاضة دينية ضد الحكم الأجنبي في السنوات العصيبة بالنسبة للحكم الثنائي بين عامي ١٩١٥ – ١٩٢٥م، وأن السيد عبد الرحمن قنع بالمـصالحة مع الجماعات الـصوفية (المـسالمة؟) مثل الطريقة التجانية التي نـ شأت أول ما نـ شأت في المغرب ودخلت للـ سودان من دول الجوار الغربي. كان المـ ستعمر البريطاني ينظر لتلك الطريقة (ورغم أنها تعاونت مع حكومة المستعمر ضد «المهدية الجديدة») نظرة شك وريبة أيضا، ويعتقد أنها عميلة لقوى أجنبية معادية مثل الفرنسيين أو الألمان أو متآمرين إسلاميين أو حتى شيوعيين (بولشفيك)!!!! كان

كثير من زعماء الطريقة التجانية يبغضون المهدية ويرغبون في عهد من الدعة والسكينة والاستقرار (millennium) فلهم تقديراتهم وتفسيراتهم ونظرتهم المختلفة عن المهدويين. كان السيد عبد الرحمن، وخلافا لغيره من المتشددين (مثل قواد انتفاضات «النبي عيسى» وغيرهم)، يدعوا للتعاون مع الحكومة، ويأمر أتباعه بتجنب العنف وانتظار «الإشارة». يعتقد البروفيسور الكرسني أن نشوء ورسوخ «المهدية الجديدة» في غرب السودان لا علاقة له بسياسات الحكومة المتذبذبة، ولكنها تأتت بسبب موقف السيد عبد الرحمن المعتدل و سعيه لمهدية جديدة مسالمة ومؤيدة للحكومة، في مقابل موقف معارضيه من غلاة المتشددين المتعصبين. برأ بذلك البروفيسور الكرسني السيد عبد الرحمن من «تهمة» محاولة التآمر مع المهدويين في غرب السودان وفي نيجيريا لإ شعال فتيل الانتفاضة والثورة (الدينية) ضد الحاكم المستعمر، وخلص إلى أن أمر «مهدية» السيد عبد الرحمن في القرن العشرين و«مهدية» والده في القرن التاسع عشر لمختلف جدا.

ختم البروفيسور جبريل واربورج مقاله بالقول بأنه من السذاجة تصور أن حاكما مسلما (ويشمل هذا ابن المهدي وغيره) يمكن له أن يتخلى عن رسالته الدينية أو طموحه السياسي (فهما تؤمان ايديولوجيان لا ينفصلان)، وأن محاولات صغار رجال المخابرات البريطانية في بواكير سنوات الاستعمار لفصل الاسلام عن السياسة كان خطأ عظيما في السودان وفي غيره من البلدان الاسلامية الأخرى. وكدليل على ذلك أشار المؤلف لطائفة الختمية (والتي عدها المستعمر مثالا للطائفة الدينية المسالمة التي لا ناقة ولا جمل لها في السياسة) والسيد علي الميرغني (والذي حسبه البريطانيون مثالا للقائد المسلم غير السياسي) والذي فاجأ الحكم الثنائي وقفز إلى «عربة السيرك bandwagon» في الوقت المناسب تماما!

مما يستفاد من هذا البحث التاريخي (خاصة لغير المتخصصين من أمثالنا) هو نقل المؤلف بحياد ملحوظ للوقائع التاريخية التي حدثت في الفترة التي شملها البحث، وذكره للآراء المختلفة التي نشرها بعض علماء السياسة التاريخ من السودانيين والأجانب، رغم أن الطريقة التي كتب بها هذا البحث بدت لي (كطالب علم في مجال العلوم الطبيعية) غريبة بعض الشيء، إذ أن المؤلف هنا كتب في بداية بحثه (وفي ستة صفحات فقط) ما يريد أن يقوله هو في موضوع البحث، وأعقب ذلك (وهنا الغربة) باستعراض ما كتبه متخصصون آخرون (في أكثر من عشرة صفحات) في ذات الموضوع، بينما يتوقع المرء عادة أن يبدأ المؤلف بما سجل في أدبيات الموضوع عند من سبقه من الباحثين، ثم يعقب ذلك برأيه في الموضوع.

كذلك يلاحظ المرء فرقا واضحا بين ما يكتبه بعض المؤرخين السودانيين باللغتين العربية والإنجليزية عن ذات الموضوع، فبينما تجد كتابات بعضهم بالعربية أقرب للكتابة الصحفية «الشعبية»... تنضح بمشاعر «وطنية؟» فياضة، وتسبغ على من شاركوا في صناعة الأحداث من ساسة وقادة وزعماء السودان صفات بطولية وخصال مجيدة، بل وتخفي كثيرا من الوقائع التاريخية التي قد تسبب بعض «الحرج» لبعض من هؤلاء الزعماء والقادة، تجد كتابات نفس المؤرخين باللغة الإنجليزية أكثر حيادا وأشد رصانة والتزاما بأصول الكتابة الأكاديمية. وكأني بهم يتبعون –

خطأ بالطبع - الحديث الضعيف الذي يفيد بأن « نُكلِّمَ الناسَ على قدْر عقولِهم»، إذ أن هذا في نظري المتواضع أمر لا يليق، ويقدح في مهنية المؤرخ وصدقيته، ويشبه — للأسف - ما يفعله بعض الصحفيين العرب في المهجر حين يستضافون في برامج الحوار في القنوات العربية فيملئون الأثير صراخا و شتما (ولكما)، بينما يتحدثون بلهجة متزنة ونبرة خفيضة عندما تستضيفهم القنوات الغربية الناطقة بالإنجليزية... فتأمل!

أختم بما كتبته صحفية في صحيفة «الرياض» السعودية في ٢٣ إبريل٢٠١٢م من أن «التاريخ ليس دائما حكاية المنتصر فقط بل قد يكون أيضا حكاية المبرر والمسوغ والمقتطع من أجزاء، ومغفلاً أجزاء أخرى على حساب الحقيقة، قد تكون حكاية من يعتسف الأحداث و

يسوقها بشكل يخدم مصالحه. التاريخ أيضا حمال أوجه، فللحكاية دوما جزء غامض متوارٍ قد تفتضحه الأيام أو قد يبتلعه الزمن ويقبره».



العلاقات بين السودانيين في الشمال والجنوب من وجهة نظر بعض الأدباء

من كتاب: Historical Discord in the Nile Valley

جبريل واربوج Gabriel R. Warburg

تقديم: هذا نذر يسير مما ورد في فصل «التصورات المتبادلة في الأدب Mutual Perceptions expressed in literature » في كتاب صدر في عام ١٩٩٢م عن تاريخ العلاقات المصرية السودانية في فترة التركية السابقة والمهدية والحكم الثنائي إلى عام ١٩٥٥م بقلم البروفيسور (والخبير في الشأن السوداني) جبريل واربورج. ولد المؤلف – بحسب سيرته الذاتية المبذولة في الشبكة العنكبوتية – في برلين بألمانيا عام ١٩٢٧م وهاجر مع عائلته وعمره سبعة سنوات إلى فلسطين وبقي بها حتى عام ١٩٤٦م حين أكمل دراسته بكلية للزراعة، ثم درس تاريخ الدول الإسلامية في الجامعة العبرية بالقدس (١٩٦١ – ١٩٦٤م) واللغة العربية وآدابها في جامعة لندن، والتي تحصل منها أيضا في عام ١٩٦٨م على درجة الدكتوراه بأطروحة عن «إدارة الحكم الثنائي بين عامي ١٨٩٩ – ١٩١٦م». عمل بعد ذلك أستاذا في جامعة حيفا حتى تقاعده في عام ١٩٩٦م. نشر الكثير من المقالات المحكمة و الكتب عن السودان ومصر ودول عربية وإ سلامية أخرى منها هذا الكتاب الذي نعرض بإيجاز لفصل منه، وكتاب «إعادة الشريعة الإسلامية في السودان في عهد النميري The Reinstatement of Islamic Law in Sudan under Numayry» وكتاب بعنوان « الإسلام والقومية والشيوعية في مجتمع تقليدي: حالة السودان»

» Islam, Nationalism and Communism in a Traditional Society: The Case of Sudan «
وكتاب آخر عن الطوائف الدينية في السودان والسياسة منذ عهد المهدية، وعدة مقالات عن الإخوان المسلمين وأنصار المهدي والحزب الشيوعي السوداني وموضوعات متفرقة أخرى.

لكاتب هذه السطور تحفظات عديدة على كثير مما أورده المؤلف في كتابه عموما، وفي هذا الفصل تحديدا، ففي بعض آرائه تبسيط مخل وقطعيات متطرفة وتحيزات واضحة قد تقبل من السياسي ولكنها لا تليق بالمؤرخ المحقق.

في هذا الفصل أشار المؤلف إلى اهتمام عدد من الكتاب والأدباء السودانيين في السنوات الأخيرة بالتحيزات الدينية والعرقية والقوالب النمطية prejudices stereotypes السائدة في مجتمعاتهم. **فالطيب صالح** – أشهر أديب سوداني– لم يسخر مواهبه الأدبية نحو تصوير فعلي للصراعات السودانية، فرواياته وقصصه القصيرة تدور وقائعها في السودان الشمالي النيلي، وخاصة في قريته، وهنالك – حتى في السودان الشمالي– خليط من الأديان والمجموعات العرقية، وهذا يلعب دورا مركزيا في أعمال الطيب الأدبية. ففي روايته الأشهر «موسم الهجرة إلى الشمال» يمثل والدا بطل الرواية هذا الأصل العرقي المختلط ، فالأم مستعبدة جنوبية والأب من قبيلة «العبابدة»، وهي قبيلة من العرب الرحل تعيش في منطقة النوبة على الحدود بين مصر والسودان. الطيب صالح مسلم ورع لا يقبل / يتسامح مع الإسلام الشعبي tolerate popular Islam فقط بل يقدر ويثمن عاليا المساهمات التي قدمتها الأديان والعادات والتقاليد القبلية التقليدية لهوية السودان الدينية والقومية. عبر عن معتقداته الإسلامية الشعبية هذه في قصص مثل «دومة ود حامد» والتي يؤشر حتى عنوانها على معتقد شعبي ب«قدسية» شجرة القرية

(أشار هنا المؤلف لمرجع مهم لأحمد عبد الرحيم نصر بالإنجليزية بعنوان «الإسلام الشعبي عند الطيب صالح» صدر عام ١٩٨٠م مجلة الآداب الأفريقية العدد ١١ صفحات ٨٨ – ١٠٤).

وفي مقابلة أوردها طالب دكتوراه أمريكي في أطروحته المقدمة عن أعمال الطيب صالح لجامعة نيويورك في عام ١٩٧٩م نقلا عن مقابلة أجريت مع الروائي الشهير ونشرت في مجلة الفجر بتاريخ ١٥/ ١١/ ١٩٧٦م قال الطيب صالح: «.... خذ السودان على سبيل المثال...هذا بلد أفريقي وعربي ومسيحي ومسلم ...كل هذا في ذات الوقت. تجد في القرية السودانية مزيج من الأعراق. هنالك من أصوله عربية أو زنجية أو نوبية أو فرعونية. رغم اختلاف الأصول العرقية فهم جميعا يعيشون في انسجام وتناغم ووحدة عضوية..... أما بالنسبة للدين، فأنا مسلم أؤمن بوجود الله ولكن ليست لي أي رغبة في إقناع الآخرين بما أؤمن به أنا شخصيا. أؤمن بسعة الأفق وبالتسامح....»

بيد أن احترامه للأديان الأخرى لا يعني ا ستعداده لقبول حلول و سط أو تسويات في أمر هوية السودان العربية إذ يقول: «أنا عربي أؤمن بالوحدة العربية. هذه الوحدة العربية (بغض النظر عن كل المعاني السياسية التي تعنيها هذه الوحدة) ستعبد الطريق... لتقوية وجود وتطور الشعب الذي يعيش في هذه المنطقة من العالم ولحل مشاكله... سريعا سيأتي اليوم الذي سيكتشف فيه العرب بأن الوحدة العربية هي مسألة حياة أو موت».

يكتب بروفسور واربورج أنه على الرغم من تسامح الطيب صالح الوا ضح في كتاباته ومحا ضراته ومقابلاته فإنه (ومثل ما هو معهود عند كثير من السودانيين الشماليين) يفشل في فهم التعقيدات المتأصلة والملازمة في مسالة التأكيد على هوية عربية أو مسلمة في وجود مواطنين سودانيين في الجنوب.

كتب **خضر حمد** (سيا سي وأديب من «الأبروفيين»، ومن مؤ سسي حزب الأ شقاء والحزب الوطني الإتحادي وعضو في مجلس السيادة بعد ثورة ١٩٦٤م.توفي في عام ١٩٧٠م عن اثني و ستين عاما) ونشر مذكراته (والتي تعد وثيقة سيا سية أكثر منها أدبية) وفيها وردت إ شارة ذكرها بروفيسور واربورج وأراد بها على التأكيد على رأيه في إيمان (بعض) شمالي السودان بعروبتهم. كان خضر حمد وزيرا (بلا أعباء/ بلا حقيبة وزارية) في أول حكومة للسودان المستقل تحت رئا سة السيد/ إ سماعيل الأزهري، وفي عام ١٩٥٤م عين كأمير لبعثة الحج السودانية حيث كانت مهمته الإشراف على سلامة وصحة ورفاه الحجاج السودانيين في مكة والمدينة. شغل خضر حمد نفسه بمجرد الوصول للديار المقدسة بأمر شرح الفرق بين الحجاج السودانيين و«التكارنة» القادمين من غرب أفريقيا لكل صحفي ومراسل ومسؤول سعودي. لم يعر المسؤولون السعوديون بالا لأمر الاختلاف الذي شدد عليه خضر حمد، ولكن بالنسبة له فإن ذلك التفريق أمر في غاية الأهمية والخطورة، فالحجاج السودانيين الحقيقيون عرب، خلافا للتكارنة (والذين قد يتوهم الآخرون أنهم من السودانيون)، وفسر خضر حمد سبب ذلك الخلط للمسئولين السعوديين بأنه من عمل الا ستعمار، والذي أعطى للتكارنة جوازات سودانية للحج. سعى خضر حمد للفصل التام بين الفريقين (السودانيين الأصليين والتكارنة) للحد من أي سوء فهم مستقبلا بأن منع أيا من التكارنة من ركوب البواخر العائدة من جدة إلى سواكن إلا بعد أن اكتمل ركوب الحجاج السودانيين (الحقيقيين) فيها. أعاد خضر حمد التعبير عن ضيقه من الخلط بين عرب السودان وتكارنة نيجيريا في موسم الحج في مقابلة مع صحيفة «الرياض» السعودية، و شدد على أن حكومته ستتوقف عن إ صدار وثائق سفر لحجاج غرب أفريقيا في المستقبل تفاديا لذلك «الإحراج» (مذكرات خضر حمد صفحات ١٩٢ -١٩٨).

المثال الثالث الذي أورده بروفيسور وأربورج لكتابات السودانيين الشماليين هو لرواية قصيرة كتبها **السر حسن فضل** بعنوان «أروع أيامهم Their finest days» بطلها لاعب كرة قدم قروي يحكي عن ثورة أكتوبر ١٩٦٤م من منظور صبي قروي من ضواحي مدينة الخرطوم. يلعب سلوك السودانيين الشماليين وتحيزاتهم وآراؤهم المسبقة عن إخوانهم من الجنوبيين دورا مهما في هذه القصة، والتي تحكي عن ثورة أكتوبر، تلك الثورة التي أشعل النقاش عن مشكلة الجنوب شرارتها الأولي. في القصة شخصيتان هما « شيخ علي»، وهو من كبار شيوخ الختمية، و«أحمد أفندي» وهو طالب جامعي شيوعي، وفي الرواية هما يمثلان صدام الآراء (والأيدلوجيات) الحادث في المجتمع الشمالي المسلم. أورد الكاتب حوارا ورد بين شيخ علي وأحمد أفندي قال فيه الرجل الختمي: «أعتقد أن هؤلاء العبيد في الجنوب يستأهلون القتل بالرصاص لأنهم يقتلون الشماليين... هؤلاء العبيد المناكيد – كنا نبيع ونشتري فيهم كالنعاج، وانظر إليهم كيف يتصرفون اليوم». بعد أن أنبه أحمد ولفت نظره إلى أن الاسلام لا يفرق بين أبيض وأسود، ثار عليه شيخ علي وأتهمه بأنه يروج لأفكار شيوعية وزاد قائلا: «أنا أعتقد أن كل هذه الأفكار العصرية هي ما يدفع هؤلاء العبيد لرفع أنوفهم عالية في الهواء ويتحدثون معنا وكأنهم سواسية لنا». يخبر الطالب الشيوعي صديقه – كاتب الرواية- بأنه دخل قبل عدة أيام في نقاش مشابه في الجامعة مع بعض الطلاب من الإخوان المسلمين وسألهم عما هم فاعلين بالجنوبيين من غير المسلمين، فأجاب بعضهم: «يلزمهم أن يدخلوا الإسلام وإلا فإن الأغلبية المسلمة يحق لها فرض الجزية عليهم.»

بعد استعراض هذه الأمثلة الثلاثة لكتاب من شمال السودان أورد بروفيسور واربورج وفي استفاضة (زادت عن ١٤ صفحة) ما كتبه الأديب والدبلوماسي السوداني الجنوبي فرانسيس مادينج دينق من روايات وكتابات تناولت العلاقات بين الشماليين والجنوبيين، وسنعرض لطرف من هذا في الجزء الأخير من هذه المقالة.

بعد أن فرغ المؤلف في أقل من صفحتين ونصف من استعراض ما كتبه أو صرح به ثلاثة من الأدباء السودانيين الشماليين (هم الطيب صالح وخضر حمد والسر حسن فضل) في أمر تصورات وعلاقات «العرب» من سكان شمال السودان مع «غير العرب» من سكان جنوب السودان، خصص ما يزيد عن ١٤ صفحة لاستعراض ما كتبه البروفيسور المتخصص في مجال القانون، والروائي والدبلوماسي فرانسيس م. دينق عن هذه العلاقات والتصورات. بحسب سيرته المنشورة في الشبكة العنكبوتية فقد ولد فرانسيس م. دينق في عام ١٩٣٨م (في أبيي) ودرس القانون في جامعتي الخرطوم وييل الأميركية، وحصل على عدة أوسمة وجوائز عالمية عن دوره في حل النزاعات وفي الأعمال الإنسانية. عمل سفيرا للسودان في الدنمارك وكندا، ووزيرا للدولة للخارجية في عهد الرئيس الأسبق جعفر نميري. قام منفردا وبالاشتراك مع غيره بنشر نحو ٤٠ كتابا في مجالات القانون وفض النزاعات والفلكلور والروايات وغير ذلك.

استعرض بروفسيور جبريل واربورج في مقاله روايتين ألفهما فرانسيس م. دينق في ثمانينات القرن الماضي قال إنهما يجسدان ما يؤمن به الجنوبيون من تحيزات (prejudices) متأصلة ومتجذرة في المجتمع السوداني، وهما «بذور الخلاص Seeds of Redemption» و«صرخة البومة Cry of the Owl» (ترجمت الروايتان للعربية بعنوان «بذرة الخلاص» و«طائر الشؤم»، على التوالي). كانت الرسالة السياسية التي يوجهها فرانسيس م. دينق في روايتيه واضحة جلية وحاذقة بليغة. يحكي المؤلف في روايته «بذور الخلاص» عن أسرة مختلطة الأعراق ولد كبيرها في «الزريبة» وهي معسكر لتاجر الرقيق المشهور الزبير باشا رحمة. لم يكن اختيار المؤلف لزريبة الزبير مصادفة

أو اعتباطا، فقد عرف الرجل بكونه أكبر وأشهر تاجر رقيق في عصره. ولد البطل في الرواية، واسمه رزق الله عبد الله، لوالدين من كبراء قبيلة الدينكا، وكانت أمه إحدى نساء الدينكا اللواتي تم اختطافهن واستعبادهن من قبل تجار الرقيق الشماليين المسلمين. تبناه بعد ذلك أحد حلفاء الزبير رحمة المقربين (وكان رجلا «متحررا» نسبيا) ونشأه وسط أسرته «المتحررة» كمسلم يتحدث العربية. بهذا المدخل يلخص المؤلف في بداية الرواية كل مشكلة السودان بإيجاز بليغ (كما يعتقد بروفسيور واربورج) محورها مسألة الرق التي شابت العلاقات بين الشمال والجنوب، والتحيزات العرقية والدينية والعدوات والصراعات التي احتدمت كنتيجة لذلك الميراث الدموي.

كان بطل رواية فرانسيس دينق الثانية « صرخة البومة» هو الياس بول مالك، وهو ابن زعيم من زعماء دينكا بحر الغزال. نشأ الياس في عهد الحكم الاستعماري (الثنائي) ودرس أولا في مدارس المبشرين المسيحيين، ثم درس من بعد ذلك في مدرسة ثانوية للمسلمين. قدم الكاتب وصفا أخاذا مؤثرا وساحرا لحياة الدينكا الثقافية والاجتماعية والدينية، أثار مشاعر رجل شمالي هو البروفيسور عبد الله أحمد النعيم (والذي ترجم الرواية للعربية بعنوان «طائر الشؤم») فكتب في مقدمته: «وجدت ذلك الجزء عن ثقافة الدينكا أكثر اجزاء الرواية تأثيرا. سيصاب القارئ الشمالي بالخجل من جهله بتلك التقاليد الثقافية العميقة رغم قربها الجغرافي منه. بدأت أفهم وأقدر أن من يسمون «وثنيين/ روحانيين» في السودان هم أشد تدينا من المسيحيين والمسلمين.»

جاء في مقدمة بروفيسور النعيم أيضا بحسب ما جاء في مقال نقدي منشور بجريدة الصحافة يوم ٢ مايو ٢٠١١م الأتي « ومن أهم القضايا التي يعالجها الدكتور فرانسيس على الصعيدين النظري والعملي مسائل التعددية الثقافية والعرقية في إطار الوحدة الوطنية، ومع تقديري العظيم لجهوده تلك إلا أني وجدت أن معالجته لهذه المسائل في القالب القصصي مؤثرة ونفاذة للغاية، فكما ذكرت في خطابي له الذي نشر لتقديم لأصل الرواية المنشورة باللغة الانجليزية لعل النهج الروائي يكون هو الأجدى في النفاذ إلى وجدان المجتمع، وكتب أيضا:« كنت أتوهم أني قد نجحت في تجاوز دواعي التعصب الثقافي والعرقي الشائع عند أمثالي من أبناء شمال وأواسط السودان وبخاصة عند قبيلة الجعليين التي أنتمي إليها، إلا أن هذه الرواية قد أقنعتني بإعادة النظر في ذلك الوهم وبعثت في نفسي خواطر دفينة ما كنت أعي وجودها ولا أقدر أثرها على معتقداتي وسلوكي، وللفائدة التي وجدتها في نفسي من خلال هذه التجربة اقترحت على المؤلف ترجمة الرواية إلى اللغة العربية ونشرها بصورة تيسر اطلاع السودانيين عليها، ولشيوع الأمية في قطاعات كبرى في المجتمع، فإني أقترح السعي لإشاعة التجربة بالوسائل المرئية والمسموعة مثل الإخراج الإذاعي والسينمائي.»

يقول بروفيسور واربورج إن الفكرة الرئيسية في الروايتين تدور حول رحلة البحث عن هوية سودانية، على المستوين الفردي والجماعي. في هاتين الروايتين البديعتين يرد - وبطرق فنية مبدعة- ذكر العروبة والأفريقانية والإسلام والمسيحية والوثنية / الأرواحية (animism) وثقافات أخرى عديدة وألوان وأعراق متباينة. تكشف الروايتان أيضا عن التعقيدات الضخمة التي تواجه السودان. في رواية « صرخة البومة (أو «طائر الشؤم») يعبر فارس حفيد رزق الله ووزير الدفاع في حكومة الحاكم الديكتاتور في الثمانيات ببراعة عن طبيعة العلاقات بين الشماليين والجنوبيين حين يحاول إقناع زملائه الضباط في مجلس قيادة الثورة بضرورة عزل الرئيس «جابر منير» من سدة الحكم بعد إعلانه لتطبيق أحكام الشريعة الإسلامية.

كتب فرانسيس دينق في «بذور الخلاص» : «إن للدين عميق الأثر في سلوك الناس تجاه و ضع المرأة ومشاركتها في مختلف ضــروب الحياة وفي بناء الأمة. يظهر بعض قادتنا تدينا أصــوليا متشــددا، ولكنهم لا يتورعون في ذات الوقت- عن القيام سرا بالتردد على المشعوذين والمعالجين الروحيين، وهم بهذا لا يختلفون قليلا أو كثيرا عن الذين كانوا يدينون بالروحانية قبل دخول الإســلام للبلاد. لقد قمنا، وتحت راية هذه الأفكار العرقية والدينية المشــوهة، بتقسيم البلاد وعرضنا بلادنا للخطر. إن وصفنا لأنفسنا بأننا «عرب» أو «أفارقة» هو ما قسمنا. لا توجد صفة جامعة يمكن بها أن نصف هويتنا ونتوحد تحت رايتها غير أننا «سودانيون».

لم يكن تركيز فرانسيس دينق وتشديده على«الهوية السودانية Sudanese identity التي لا تفرق بين المواطنين بسبب العرق أو اللون أو الدين أو الثقافة يقتصر على جنوب السودان، وإنما يمتد ليشمل كل أرجاء البلاد حيث النوبة في جنوب كردفان والبجا في البحر الأحمر، وكذلك سكان دارفور والذين كانوا يتمتعون بحكم مستقل حتى عام ١٩١٦م.

في جزء آخر في الرواية يقول البطل: «نحن لســنا بعرب ولا ندين كلنا بالإســلام. رغم ذلك فإننا نعامل وكأننا «امتداد» للخرطوم، ولا نجني من ذلك أي فوائد مادية.

أورد فرانسيس دينق حكاية عدها بروفيسور واربورج فكهة مسلية عن الخلط والإرباك الذي يحدث في السودان في أمر اللون والعرق، عن طلاب ســودانيين مســلمين يتحدثون العربية – عدا واحد منهم- بعثوا إلى الولايات المتحدة الأميركية. توقف هؤلاء الطلاب في القاهرة لأيام قليلة قبل مواصــلة الســفر لمقصــدهم النهائي. في القاهرة كان الشباب المصريون ينادونهم وهم يتجولون في الطرقات «لومامبا ... لومامبا!» بحسبان أنهم شباب أفارقة من الكنغو. غضب الطلاب السودانيون غضبا شديدا وأصابهم كدر و ضيق بالغ مما سمعوه من «أشقائهم» المصريين فردوا عليهم في حنق: « يا أخوان ... نحن عرب مثلكم.» تصور المصريون حين سمعوا ذلك أن هؤلاء الطلاب لا بد أنهم من النوبة إذ أنهم أسود لونا من لون عامة أهل القاهرة. تواصل ذلك المسلسل المحرج حتى بعد وصولهم إلى مدينة نيويورك. فعند زيارتهم لحي هارلم الشهير في نيويورك (ومعظم سكانه من الزنوج) سألوا مرافقتهم بكل براءة: «أين الزنوج؟». صعقت السيدة الأميركية لسماع ذلك السؤال العجيب وأخبرتهم بأن كل من يروه في الطريق تقريبا هو من الزنوج. كانوا يرون أن «زنوج» أمريكا أقل سودا منهم كما سيتضح من بقية قصة هؤلاء الشباب. سأل الشباب الســودانيون «العرب» زميلهم الجنوبي حســن – وكان مســلما مثلهم- : «ما رأيك فيهم كزنوج مثلك يا حســن؟». أجابهم حسن بالقول: « أصدقكم القول ... كنت أظنهم في البداية عرب...وبالتحديد من شمال السودان!» انتظرتهم مفاجأة أخرى في مدينة هيستون بتكساس حين طلب منهم كتابة أصلهم العرقي في استمارات التسجيل في الفندق. سجل كل الطلاب– وعلى سبيل التحسب- أصلهم على أنهم «أفارقة» عدا واحد منهم اسمه مصطفي (وكان من قبيلة الجعليين) إذ كتب والفخر يملأ جوانحه أن أصله العرقي هو «عربي». قام موظف الاستقبال بالفندق على الفور بشطب الكلمة التي كتبها مصطفى الجعلي، وخط عوضا عنها كلمة «زنجي». اشتاط مصطفي غضبا وقال للرجل: «لماذا فعلت ذلك؟ أنا أعرف الزنجي عندما أراه». رد عليه موظف الفندق في برود: «ولكني لا أستطيع تمييز العربي من الكتابة فقط». كان حسن الجنوبي يفهم جيدا سبب غضب زميله مصطفى الجعلي فنصحه بأن يرضى بحقيقة أن عرقه (وعرقهم جميعا) هو «السودان» وأنهم جميعا «سودانيون».

يزعم بروفيسور واربورج أن السودانيين الشماليين يعتزون بأنهم عرب أصحاب حضارة ودين أسمى من غيرهم، بيد أنه يرى أن المسلمين الجنوبيين يتمتعون بمناعة أكثر من المسلمين الشماليين ضد هذا الشعور بالتفوق والسمو على غيرهم، ففهمهم للديانات والتقاليد الجنوبية أوســع أفقا وأكثر قبولا، بل إن نوع إســلامهم نفســه قد يكون في حالات كثيرة متأثرا بتلك التقاليد الجنوبية التقليدية.

يخلص بروفيـسور واربورج إلى أن الدين قد لعب دورا بالغ الأهمية في الـسيا سة الـسودانية على وجه العموم، وفي العلاقات بين الشماليين المسلمين والجنوبيين، على وجه الخصوص، ويزعم أن المسلمين المستعربين في الشمال يحتقرون الجنوبيين «الوثنيين»، ويرون أن رسالتهم النبيلة في الحياة هي هدايتهم وإخراجهم من ضيق حياتهم البدائية المتخلفة إلى رحاب حياة التمدن والحضارة.

تعليقا على الفقرة الأخيرة في المقال أختم بجزء من قصيدة الشاعر الإنجليزي المشهور روديارد كبلنج (١٨٦٥ – ١٩٣٦م) عن **«عبء الرجل الأبيض»** White Man's burden **؟**

Take up the White Man's burden--
The savage wars of peace--
Fill full the mouth of Famine
And bid the sickness cease;
And when your goal is nearest
The end for others sought,
Watch sloth and heathen Folly
Bring all your hopes to nought.

عبيد السودان السابقين: دراسة عن «عرس الزين» للطيب صالح

هيزر جي شاركي

تقديم: نشر هذا المقال للدكتورة الأمريكية هيزر شاركي المتخصصة في تاريخ ولغات وحضارات الشرق الأدنى في مجلة درا سات السودان (العدد ١١ – يناير ١٩٩٢م). للدكتورة المؤرخة شاركي عدة كتب ومقالات عن منطقة الشرق الأدنى منها كتاب «العيش مع الاستعمار: الوطنية والثقافة في السودان الإنجليزي المصري»، وكتاب «الإنجيليون الأمريكيون في مصر» و«الهوية والمجتمع في الشرق الأوسط المعاصر». كنت قد عرضت قبل أعوام قليلة لكتاب «العيش مع الاستعمار: الوطنية والثقافة في السودان الإنجليزي المصري» في مقال نشر في «الأحداث» وبعض المواقع الإسفيرية.

على المستوى الشخصي أعادت إلى سيرة «عبيد السودان السابقين» ذكرى بعض من رأيتهم من تلك الفئة وهم في خريف العمر، وأنا طفل صغير. أخص بالذكر هنا منهم «فرجو قريب»...أنزل الله شآبيب رحمته على تلك المرأة البشوش الحنون .

تدور رواية الطيب صالح القصيرة الساحرة «عرس الزين» (والصادرة في ١٩٦٦م) حول قروي أخرق اسمه «الزين». ترد في الرواية كثير من سلوكيات «الزين» المميزة... السخيفة منها والمضحكة والرعناء أيضا. كان يمتاز جسديا بجسد غريب، بل مشوه، و ضحكة مجلجلة تحاكي نهيق الحمير تظهر سنين مصفرين يبرزان كشوكتين من خلال لثته، واحدة في فكه الأعلى، والأخرى في فكه الأسفل. كل هذا جعله موضع تندر و سخرية (ودودة) من أهل قريته .

كانت سخافات «الزين» تتراجع أحيانا لتفسح المجال لأهل قريته لرؤية جانب آخر في شخصيته كانت مثار إعجابهم ودهشتهم وتأثرهم. كان «الزين» يواد الذين يعيشون في أطراف القرية، والمرضى والمعدمين والمعزولين، ويبدي لهم نبيل العطف وشديد الكرم. من أصدقائه «الحنين» ذلك الصوفي المتجول، و«موسى» الأعرج، و«عشمانة» الطرشاء، و«بخيت» الذي ولد بدون شفة يسرى (في الأصل شفة عليا. المترجم) وبشق أيسر مشلول. وكما تنبأ له ذلك الصوفي المتجول «الحنين»، فقد انهالت البركات على «الزين»، وتزوج بأجمل فتيات القرية، بينما نعم أهل القرية برخاء غير مسبوق.

تكمن تحت بنية السرد البديعة في الرواية، إشارات ورسائل وتعليقات اجتماعية بالغة الأهمية. فمن جانب نجدها تعكس قيم وعادات مجتمع «الزين» وثقافة القرية المحلية في مقابل خلفية تغيير اجتماعي يحدث في وقت كان فيه المجتمع السوداني بأسره يحاول التأقلم مع الاستقلال الذي أتى لتوه. ولكن ربما كانت أكثر الرسائل والتعليقات والإشارات الاجتماعية وضوحا وحدة في الرواية تدور حول العبيد السابقين في قرية الزين. كان من بينهم «موسى» الأعرج، والعاهرات اللواتي يسكن في «الواحة» على حافة الصحراء، إذ أنه يمكن القول بأن تلك الشخصيات هي التي كانت أسوأ حظا من غيرها في مناخ ذلك الزمن الذي تميز بتغيرات اجتماعية هائلة. كان من العسير عليهم إعالة أنفسهم مع أجور اقتصاد العمل الوليد، والحصول على «القبول الاجتماعي».

سيحاول هذا المقال، استخدام شخصيات العبيد السابقين في رواية «عرس الزين» (وهي شخصيات خيالية بيد أنها دقيقة تاريخيا) كأمثلة (نماذج)، ويناقش الصعوبات التي واجهها هؤلاء العبيد في نحت مكان لهم في عالم ما بعد تحريم الرق وفترة ما بعد الاستقلال في تاريخ السودان.

تم إلغاء الرق رسميا في السودان في عام ١٨٩٨م، بيد أن عقودا طويلة مرت من بعد ذلك التاريخ قبل أن ينجح الإداريون في اقتلاع كل بقايا تلك الممارسة. كتب البريطاني ب. مايخلوخلن في مجلة «أفريقيا» العدد ٣٢ الصادر في أكتوبر ١٩٦٢م مقالا عن «التنمية الاقتصادية وتراث العبودية في جمهورية السودان» لقد استمرت الغارات (الصغيرة ربما) التي كانت تشن لجلب الرقيق حتى نهاية الثلاثينات، وظلت بعض أشكال الاسترقاق المنزلي موجودة حتى عام ١٩٦٢م». لن نبعد النجعة إن افترضنا أن رواية «عرس الزين» التي كتبت في ١٩٦٦م قد تكون قد عكست التجربة المعاصرة لهؤلاء العبيد السابقين، والذين ظلت العبودية بالنسبة لهم ذكرى حية، في وقت كان فيه عوامل الاقتصاد والثقافة في السودان تحاول التأقلم على الإلغاء الرسمي للرق. (ليس صحيحا أن رواية «عرس الزين» قد كتبت في عام ١٩٦٦م، فالراجح من أقوال النقاد أنها كتبت في عام ١٩٦٢م. المترجم).

نال كثير من السودانيين من العبيد السابقين حريتهم، ومضوا يكافحون من أجل كسب عيشهم ضمن سياق الاقتصاد النامي في البلاد، حيث عملوا في المشاريع الحكومية الجديدة التي وفرت فرصا للعمل لهم ولغيرهم مثل خزان مكوار (سنار)، ومشروع الجزيرة، وخط السكة حديد للبحر الأحمر وعلى النيل، ومشاريع ري القاش وطوكر الزراعية، وأرصفة ميناء بورتسودان. عملت أعداد كبير من هؤلاء العبيد السابقين في الخدمة العسكرية، وعمل آخرون منهم بعد أن تم تسريحهم من الجيش بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية في مجال الزراعة في مشاريع صغيرة أقامها الجيش عرفت ب «جناين الأرط (جمع أورطة)» و«مشاريع التوطين» وفرت لهم الاكتفاء الذاتي.

برغم أن كثيرا من العبيد السابقين صادفوا نجاحا كبيرا في حياتهم (الحرة) الجديدة، إلا أن بعضهم كان أقل حظا. لقد وجد بعضهم حياة الحرية وتجربة إلغاء الرق أمرا صادما لا يمكن تقبله بسهولة. كان «موسى» الأعرج صاحب «الزين» في تلك الرواية هو أحد أولئك العبيد السابقين. كتب المؤلف عنه أنه: «رجل طاعن في السن، حين تراه مقبلا يتفطر قلبك من كثرة ما يعاني في مشيه، الحياة بالنسبة له طريق متعب شاق. كان عبدا رقيقا لرجل موسر في البلد، ولما منحت الحكومة الرقيق حريتهم، آثر موسى أن يبقى مع مولاه (بدوي). كان مولاه شغوفا به ويحبه ويبره ويعامله معاملة الابن، ولما توفي آلت الثروة إلى ابن سفيه له (سيف الدين)، فبددها وطرد موسى، وأدركته الشيخوخة وهو معدم لا أهل له، ولا أحد يعنيه أمره، فعاش على حافة الحياة في البلدة، كما تعيش بعض الكلاب العجوزة الضالة، التي تأوي إلى الخرابات في الليل وتبحث عن القوت نهارا في فجوات الحي يتحرش بها الصبيان». كان «الزين» هو من تولى المهمة الاجتماعية لرعاية «موسى»، فبني له بيتا بسيطا من جريد النخل. كان «يأتيه في الصباح ويسأله كيف بات ليله، ويأتيه بعد غروب الشمس مالئا جيوبه بالتمر، وثوبه منتفخ بالطعام فيلقيه إليه».

لا بد أن حالة «موسى» كانت حالة استثنائية، رغم أنها لم تكن فريدة تماما. نادرة هي العائلات التي ليس لها من وازع أو مسئولية اجتماعية تجعلها تهجر خادما عجوزا مخلصا. فهنالك قواعد الشرع الإسلامي الذي يفترض أن ينظم – نظريا– أحوال الرقيق في السودان. فرغم أن القوانين والفقه الإسلامي أباحا الرق، إلا أنهما وضعا من الشروط والأحكام ما يخفف ويحسن من أحوال العبد ويضمن له معاملة لائقة. فسيد العبد ملزم قانونيا بأن يوفر له

المأكل والمشـرب والملبس والمسـكن والعلاج، وكذلك الرعاية عند الكبر. بيد أنه مع إلغاء الرق، صـار أمر الرقيق ومعاملتهم خارج اختصاص محاكم السلطات القضائية (الشرعية). من المشكوك في أمره أن يكون لعبد سابق مثل «موسى» أن يقاضي سيده السابق أمام أي محكمة بتهمة الإهمال .

وإ ضافة إلى القوانين الإ سلامية، فإن هنالك أيـضا الأخلاق الاجتماعية الـ سودانية العامة المتعلقة بمعاملة العبيد المخلصين، وهنالك نظام للمقابلة أو التبادل الاجتماعي (social reciprocity) بين العبيد ومالكيهم، وأيضا بين العبيد المحررين ومالكيهم القدامى. كان كل أفراد المجتمع يعاون بعضـهم بعضـا، إذ أن ذلك كان من القوانين والعهود المرعية غير المكتوبة. كان من الواجب أن يضـمن الالتزام الأخلاقي (إن لم يكن القانوني) أن لا يحدث لمملوك خدم بإخلاص ما حدث لموسى. كل ذلك يعني أن بإمكان « سيف الدين»، ذلك الولد السفيه، ابن الصائغ «بدوي»، أن يتنصـل (وبحصـانة كاملة) من كامل مسـئوليته القانونية (وليسـت الأخلاقية) تجاه ذلك العبد العجوز المخلص الضعيف. نعم، لقد نال «موسى» حريته، بيد أن ذلك لم يعطه إلا القليل جدا من السلوى والعزاء والراحة !

يعد «مو سى» في نظر الإداريين البريطانيين مثالا (نموذجا) للعبد الـسابق والخادم المنزلي المخلص الـسابق، فقد كان هناك من الإداريين مثل «سـلاطين باشـا» من ينادون (بألسـنتهم فقط) بإلغاء الرق وتحرير العبيد، بينما كانوا يمار سونه فعليا باتخاذهم عددا من «رقيق/ خدم المنزل». أر سل « سلاطين با شا» في عام ١٨٩٧م ر سالة لصديق له هو بيجي (بحسـب وثيقة محفوظة في أرشـيف السـودان بجامعة دارام البريطانية تحت رقم ٤٣٨/ ٦٥٣/ ٣) يقول فيها: «إن السود هم خنازير بائسة لا يستحقون أن يعاملوا كرجال أحرار مستقلين... ينبغي الحفاظ على السود كعبيد تحت حماية مالكيهم / سادتهم السابقين، والذين يجب إجبارهم علي حسن معاملتهم «...

ظل الإداريون بعد ذلك في حيرة من أمرهم وهم يحاولون التعا مل مع ذات المشـكلة. لقد ألغي الرق، وتم الإعلان عن تحرير العبيد، بيد أن أولئك الإداريين لم يكن يريدون فعلا أن يشـعر العبيد السـابقون بأنهم «أحرار» حقيقة، وأن يتركوا سـادتهم وينتقلوا لأماكن أخرى... ربما بسـبب الخوف من الآثار الضـارة التي قد تحدثها هجرة أعداد كبيرة من العمال الزراعيين على الإنتاج الزراعي بالبلاد. بل إن الحكومة سـنت عددا من المراسـيم التي تجرم التـ شرد، وأخرى تنظم تـ سجيل العمال، والغرض من وراء كل ذلك هو إجبار العبيد الـ سابقين على البقاء في أماكنهم. من المفارقات العجيبة أن «موسى» (في رواية «عرس الزين») كان ببقائه مع «سيده» كان يمتثل تماما لما كانت تشجع عليه الحكومة!

ولكن إن كان «مو سى» يمثل نموذجا model للعبد الـسابق، فإن النـساء اللواتي كن يقمن في حافة الـصحراء قد مثلن للحكم الإنجليزي المـ صري أ سوأ كابوس يمكن تخيله. لقد أ صدرت حكومة الـسودان منـ شورا سريا في عام ١٩١٩م يوضح سياسة الدولة تجاه ما أسمتهم تلطفا بالخدم السودانيين. جاء في ذلك المنشور السري أنه يجب على المسؤولين بذل كل ما في وسعهم (ربما بكل الوسائل عدا القوة) لإقناع «الخدم السودانيين والسودانيات» بالبقاء مع سادتهم/ مالكيهم القدامى حتى وإن كان الرق قد منع قانونا (تماما كما فعل «مو سى» الأعرج)، وإن لم يحدث ذلك فقد تجبر أعداد كبيرة من أفراد تلك الفئة على البغاء أو السـرقة أو أي نوع آخر من الآثام والجرائم. وبالفعل لاحظ كثير من المسـئولين تزايد مشـكلة ما سـمي ب«النسـاء العموميات « Public womenفي مديريات السـودان المختلفة. ثبت أن تخوف المسؤولين كان له ما يبرره، إذ أن سجل أن نحو ٨٠٪ من الجرائم في كسلا في عام ١٩٠٣م

كانت قد ارتكبت بواسطة العبيد السابقين، وأن هؤلاء أدينوا في نحو ٧٦٪ من كل الإدانات التي صدرت تحت قانون العقوبات السودانية بين عامي ١٩٢٣ - ١٩٢٥م، ومن بين هؤلاء كانت نسبة الرجال هي ١٦٪، بينما بلغت نسبة النساء بينهن ٦٠٪ (أغلبهن من البغايا) .

كان ذلك الشاب الفاسد «سيف الدين» يبدد ساعات يومه في صحبة «النساء العموميات» (اللواتي يسميهن أصحاب القرية الخدم) قرب حافة الصحراء. كتب الطيب صالح أن هؤلاء النسوة: « كن رقيقا أعطي حريتهن، بعضهن هاجرن من البلد، وتزوجن بعيدا عن موطن رقهن. وبعضهن تزوجن الرقيق المعتقين من البلد وعشن حياة كريمة، بينهن وبين سادتهن السابقين ود وتواصل، وبعضهن لم تستهويهن حياة الاستقرار، فبقين على حافة الحياة في البلدة، محطا لطالبي الهوى واللذة».

لقد نالت هؤلاء النسوة في تلك «الواحة» حريتهن، بيد أن تلك الحرية بلا ريب لم تعطهن كثيرا من الخيارات الاجتماعية أو الاقتصادية. كيف للحرية أن تغير من حياتهن إن كان استمرارهن كخدم في منازل أسيادهن السابقين، ونيل مكافآت مالية ضئيلة نظير عملهن، هو الخيار الآخر الوحيد المتاح لهن؟ إن الفرص — على وجه العموم- للنساء قليلة جدا، إذ لم تقم الحكومة بإنشاء برامج تعليمية أو تأهيلية لهن، أو تعمل على إقامة مستوطنات لهن مثلما فعلت للجنود المسرحين من الخدمة، ولم تكن للنساء نفس الخيارات المتاحة للرجال للهجرة إلى المدن للحصول على أعمال (شريفة) يتحصلن منها على أجور. في مجتمع شديد «الأبوية» كالمجتمع السوداني، لم يكن أمام هؤلاء النسوة من الرقيق السابقات اللواتي لم يعد لديهن ملاك / أسياد، ولم يتخذن لهن بعولا يعولوهن، إلا بيع أجسادهن من أجل كسب لقمة العيش. بالفعل كان البغاء أو صنع الخمور (أو الاثنين معا) في غالب الأحوال هو الخيار الوحيد القابل للتطبيق لدي المحررات من النسوة اللواتي لم يكن يرغبن في البقاء تحت ملكية أسيادهن. لذا آثرت العاهرات في «عرس الزين» العيش في «رواكيب» من القش على حافة الصحراء، يبعن الخمور و/ أو يبعن أجسادهن، وأصوات ضحكاتهن المخمورة النشوى تسري في ظلام الليل. كتب الطيب صالح عن مساكنهن ما نصه: «... ضاق بها أهل البلد فأحرقوها، ولكنها عادت مثل نبات الحلفا، لا يموت، وطردوا سكانها وعذبوهم بشتى السبل، ولكنهم لم يلبثوا أن تجمعوا من جديد، كالذباب الذي يحط على بقرة من جديد».

أحدث نيل بعض العبيد السابقين للحرية تحولات تشابه الإعجاز في حياتهم، إذا ستمر بعضهم (مثل «موسى» الأعرج) في خدمة أسيادهم القدامى بذات الإخلاص القديم، وظفر المحظوظون منهم بالعون والرعاية التي دعا لها الشرع الإسلامي، بينما لم يجد غير المحظوظين إلا العوز والفاقة، مما اضطر النساء منهم لرفض العودة لحياة العبودية (كما نصحت الحكومة)، وآثرن العمل في صناعة الخمور والبغاء.

بعر ضها للمحن التي تعرض لها العبيد السابقون مثل «مو سى» الأعرج والعاهرات المحليات، تكشف لنا رواية «عرس الزين» كثيرا من الرؤى عن المجتمع الســوداني وهو في خضـــم حالة من التحول والغليان. كانت قرية الزين تمثل نموذجا لمكان صارع فيه العبيد السابقون ليجدوا لهم موطئ قدم في مجتمع تتغير فيه مشاهد الحياة الاقتصادية والاجتماعية في ســودان ما بعد الاســتقلال. لم تتطور القوانين المدنية التي تفرض معاملة لائقة ل«خدم المنازل» المخلـ صين بحيث تواكب الإزالة الـ سريعة نـ سبيا للرق في الـ سودان. لم يكن للنـ سوة اللواتي تحررن من العبودية على وجه الخصوص من بد في مجابهة خيارات اقتصادية واجتماعية محددة جدا في وقت لم تكن فرص العمل متوفرة لغير الذكور. لذا فمن المتوقع أن يكون عدد من العبيد السابقين (مثل «موسى» الأعرج والعاهرات في طرف القرية) قد سقطوا — إن جاز التعبير- من خلال شقوق التركيبة الاجتماعية المتغيرة، وقضوا ما بقي لهم من أيام في هذه الحياة على هامش المجتمع السوداني وحافته.

عرض لكتاب «عبيد الحظ:

الجنود السودانيين وحرب النهر ١٨٩٦ – ١٨٩٨م»

Slaves of Fortune: Sudanese Soldiers & the River War ١٨٩٦ - ١٨٩٨

لمؤلفه رونالد م. لاموتRonald M. Lamothe

بقلم: ريتشارد إستوك Richard Stock

تقديم: هذا عرض بقلم ريتشارد إستوك لكتاب **«عبيد الحظ: الجنود السودانيين وحرب النهر ١٨٩٦ – ١٨٩٨م»** لمؤلفه **رونالد م. لاموث،** والذي صــدر في نوفمبر من عام ٢٠١١م عن دار نشــر جيمس كري وآخرين، والذي خصــصــه المؤلف، ليس لتاريخ حرب النهر من وجهة النظر البريطانية، بل من وجهة نظر جنود الخط الأمامي من السودانيين العاملين في الجيش المصري من الذين وصفوا بأنهم استخدموا كمجندين، ومترجمين، و«سفراء عرقيين» خلال تلك الحرب، وكانوا «هم المنتصرون الحقيقيون في معركة كرري». يحاول المؤلف في هذا الكتاب إعادة كتابة التاريخ الـسوداني من وجهة نظر مغايرة، ويزعم أن الجنود الـسودانيين الذين شاركوا في حملة «ا ستعادة» بلادهم هم «كائنات اجتماعية»، و«ممثلون تاريخيون» ساهموا في تغيير واقع وتاريخ ومستقبل أوروبا وأفريقيا، تماما كما تغيرت حياتهم بواسطة القوى الاستعمارية الغربية.

يتضــح من هذا العرض أن كاتبه لا يتفق – إلا قليلا- مع مؤلف الكتاب في كثير مما جنح إليه من تفســير جديد لتاريخ حرب النهر أو لدور الجنود الســودانيين فيها، مما يؤكد بدهية أنه قلما تجد كتابة تاريخية «محادية»، وأن التاريخ يمكن أن يخضع لتفسيرات متباينة. التاريخ يكتب حوادثه المنتصرون (في قول منسوب لتشر شل)، أي أن الفكر والتيار المســيطر على الســلطة ومواقع تشــكيل الرأي العام في لحظة تاريخية بعينها هو الذي يملي عملية كتابة التاريخ، أو على الأقل يحدد معايير القيام بعملية تسجيله.

أفادني د/ خالد فرح مشـكورا بأنه من الحقائق التاريخية الموثقة هي أن ليس كل من شــارك في حملة كتشــنر كانوا من العبيد أو على نحو أدق أبناء وأحفاد المسترقين السابقين بل شارك في الحملة «عرب» سودانيون تسميهم أدبيات تلك الفترة بالعرب الأصــدقاء (The friendly Arabs) وكان جل هؤلاء من أفراد القبائل الناقمة على المهدية، وحكم الخليفة ورهطه التعايشة تحديدا.

نشر هذا العرض في العدد ٤٦ من المجلة البريطانية «درا سات الـسودان»، والتي صدرت في يوليو عام ٢٠١٢م. **المترجم**

شــكل الجنود الســودانيون كما هو معروف نســبة مقدرة من جيش «حملة النيل» التي أرســلت لاســتعادة حكم السودان بين عامي ١٨٩٦ – ١٨٩٨م. سجل كثير من المؤرخين والمرا سلين الحربين والكتاب المعا صرين، وأهم من كل هؤلاء الضباط الذين قادوا الجنود السودانيين في ميادين القتال، مساهمات هؤلاء في تلك الحملة. من أمثلة

هؤلاء الضباط البريطانيين الذين شهدوا بالدور الحيوي الذي لعبه الجنود السودانيين في تلك الحملة بينيت بينلي، وجي دبليو إستيفنس، وإيرنست بينيت، والرائد هنتر، والعقيد ماكدونالد وغيرهم كثير.

كتب المؤلف في الصفحة الرابعة لمقدمة الكتاب أن غرضه من تأليف هذا الكتاب هو «إعادة تفسير وتعديل ما ورد في كتاب ونستن تشرشل الشهير المعنون «حرب النهر». قام المؤلف بتطبيق ذات العملية لكل الحوادث التاريخية التالية، إذ أنها لا تعترف ولا تصور بما يكفي الدور الحاسم والمصيري الذي لعبه هؤلاء الجنود السود. يقر المؤلف بأن نهجه ومقاربته « الانتقائية واللاادرية agnostic والمبعثرة» لتاريخ أولئك الجنود هو أمر مقصود، وأنه في كتابه «يستخدم أي/ كل الوسائل الضرورية الممكنة لتحقيق غايته السردية الأساس، وأهدافه التحليلية كتاريخ أفريقي: أولا لمقاربة توصيف هذا التاريخ، بالطريقة التي حدث بها تماما، أو كما يقول المؤرخ الألماني رينك wie es eigentlich gewesen (المقصود هو المؤرخ الألماني بيبولد رينك ١٧٩٥ – ١٨٨٦م والذي أسس لمدرسة تدعو لدراسة التاريخ من مصادره الأصلية. المترجم)، وثانيا المساهمة في تفكيك الصورة المزدوجة الخاطئة والشائعة، والتي تحكي عن المقاومين / المتعاونين ... وتتجاوزها بصورة مشحونة بالتعقيد والمحتوى التاريخي.

بهذا التقديم للغرض من تأليف الكتاب يدعو المؤلف القارئ للاستمرار في القراءة.

لا يساعد نهج الكاتب الموضوعي thematic approach بنية الكتاب الهيكلية، رغم أنه يزعم أن نهجه مرتب بصوره متسلسلة زمنيا. بالإضافة لذلك فإن نهجه المتشتت يجلب معه كثير من التكرار، ويؤثر سلبا على التوازن في سائر أجزاء الكتاب. نكتشف في ثنايا الكتاب تعبيرات جديدة مثل «التاريخ العسكري الجديد» (التاريخ الاجتماعي) و«التاريخ الإمبريالي الحديث» و«التاريخ من أسفل» و«الأيدلوجية البريطانية الحربية العرقية» و«الأصفار اللاتاريخية» و«استخراج الجثث التأريخية» وغير ذلك من التعبيرات غير المألوفة.

تلت المقدمة فصول بلغ عدد صفحاتها ١٧٤ صفحة. في البدء قدم المؤلف نبذة تاريخية عن الجنود السودانيين منذ عهد التركية (السابقة) حتى عام ١٨٩٦م. تناولت الفصول التالية هوية الجندي السوداني، ووضعه الاجتماعي، وحياته اليومية في «الكتيبة السودانية» والتي تشمل وصفا لما كان يناله من راتب وتموين ووسائل تأديب وغير ذلك، ونثر المؤلف في ثنايا كل ذلك وصفا تفصيليا للمعارك السابقة التي خاض غمارها الجنود السودانيون في تلك الحملة من «فيركت» إلى «اتبرا». في هذه الفصول التي تتوسط الكتاب يقدم المؤلف للقراء كما كبيرا من المعلومات والحقائق استقاها من الوثائق والسجلات الرسمية، ومن كثير من المصادر المعاصرة، والتي لربما غفل عنها الناس أو نسوها. لا غنى عن قراءة هذه الفصول لكل من يريد الإلمام بمعلومات أساسية وخلفية تاريخية مهمة عن أصل وتطور دور الجنود السودانيين في الجيش المصري. كذلك يعرض المؤلف للأدوار المساندة وغير القتالية التي أداها هؤلاء الجنود خلال سنين خدمتهم.

مما يحمد لهذا الكتاب أنه أتى على ذكر معلومات لم تكن متاحة بصورة واسعة من قبل عن بعض أولئك الجنود السودانيين، مثل مذكرات «علي جفون»، والتي سبق نشرها في مجلة كورنهل Cornhill Magazine في عام ١٨٩٦م، وإحصائيات عن عدد الكتائب السودانية في الجيش المصري قبل وأثناء تلك الحملة.

خصــص المؤلف فصــل كتابه الأخير للدور القتالي الذي لعبه الجنود الســودانيون خلال «حملة النيل»، وكتب أنه «يكشف زيف العبارات المضللة التي سجلها ونستن تشر شل عن دور هؤلاء الجنود في معركة أم درمان (كرري)، ويفصــل في الأدوار البالغة الأهمية التي لعبوها خلال أزمة فاشــودة (هي أزمة وقعت عام ١٨٩٨م في خضــم الســباق الاستعماري المحموم بين بريطانيا وفرنسا في شرق أفريقيا .وكادت الحادثة أن تؤدي إلى نشوب حرب بين الدولتين، لكنها انتهت بالانتصار الدبلوماسي لبريطانيا. المترجم)

لابد من القول بأن المؤلف قد أنجز عملا بحثيا كبيرا متقنا وجيد التوثيق، وسجل في نهاية كل فصل عددا كبير من المذكرات الشارحة، والتعليقات الضافية، والمراجع الأرشيفية، الأصلية منها والثانوية المهمة. كذلك دعم المؤلف كتابه بكثير من الصور والرسومات والخرائط ذات العلاقة الوثيقة بما ورد في نصوصه، وبطريقة نسخ/ كتابة الأسماء العربية بالحروف اللاتينية transliteration، ولم يحدث تغييرا كبيرا في الطريقة التي تكتب بها أســماء الأشــخاص والأماكن، تماما كما تسمع. خصص الكاتب أيضا قائمة بالرتب العسكرية في الجيش المصري وما يقابلها في اللغة الإنجليزية.

أحسب أن هذا الكتاب هو مثال كلاسيكي لمؤلف مؤرخ «تصحيحي» يراجع ما كتبه أسلافه، ويحاسب مؤرخي العصــر الفيكتوري بمعايير اليوم وآراء هذا الزمان. ورغم أنه يقر بأنه «يمكن الاســتفادة من كثير مما كتب ســلفا عن حملة النيل»، إلا أنه يصــف تلك الكتابات بأنها في كثير من الحالات «تطغى عليها الآراء والأفكار الفيكتورية عن العرقيات و(الأبوية) الإنجليزية Anglo-paternalism . هل فات على هذا المؤلف أن هؤلاء الكتاب هم أنفسهم من رجال العهد الفيكتوري؟ يعد الكتاب أن مذكرات الجنود الســودانيين تمثل له «مشــكلة» إذ أنها كتبت بأقلام أجانب يعدون الأفارقة وعرقهم أدنى مرتبة منهم ومن عرقهم، ويقول في الصفحة السادسة من مقدمة كتابه عن كتاب تشر شل الشهير «حرب النهر» بأنه «غطى/ عتم على غالب الكتابات المعا صرة له والتي نشرت في تسعينات القرن التاسع عشر، وظلت تلك المؤلفات تعيد نشر (تدور) قصص تشرشل المبتورة عن تلك الحملة».

يكتب المؤلف في الفصــل الرابع من كتابه عن المؤلف الشــهير «حرب النهر» أنه خلف «ميراثا متجذرا بعمق في الآراء العنصرية المتعصبة التي سادت في القرن التا سع عشر، وظل معظم المؤرخين لقرن كامل يعيدون ببساطة، بصــورة أو أخرى، ما ذكر في ذلك الكتاب من آراء أبوية ميزت نهايات العصــر الفيكتوري»... أو ما فتئوا يكررون أوصــاف أولئك الرجال الســودانيين، وبذات اللغة العنصــرية التي وردت في الكتب المعاصــرة دون كبير تبصــر أو تحقيق من المصــادر أو الحقائق». بالطبع لا أحد يمكنه رفض خليط من التعليقات المنصــفة، والنقد المســتحق، والرفض المســبب للآراء والأفكار التي لطالما آمن بها الكثيرون، ولكن لا بد من القول أيضــا بأن تأثير أي تحليل حديث على القارئ يتأثر باللغة التي يختارها الكاتب للتعبير عن آرائه. لا يحتاج القراء لمن يذكرهم – وإلى ما لا نهاية ad infinitum – أن بعض الآراء والسلوكيات الفيكتورية لم تعد مقبولة في عالم اليوم.

عندما يكيل المؤرخون المعاصــرون الثناء على الجنود الســودانيين، فإن هذا ليس كافيا لإرضــاء مؤلف هذا الكتاب. فالرجل يكتب في صــفحة ١٦١ من كتابه: « كان الجنود الســودانيون هم من أوائل من أشــيد بهم في الوثائق والكتابات الأولي من بين كل جنود الجيش الإنجليزي المصري الذين ا شتركوا في معركة أمدرمان (كرري) ...»، ثم ما يلبث أن يكتب في الفقرة الثانية محتجا وشاكيا ويقول: « لم يجد الأداء القتالي للجنود السودانيين ما يستحقه من

إ شادة وثناء من قبل المؤرخين المعا صرين، بل ذهب الف ضل فيه إلى الـ ضباط البريطانيين». كان ينبغي أن يكون معلوما بالضرورة عند هذا الكاتب الباحث أن القادة العسكريين ليس بمقدورهم كسب أي معركة بمفردهم، وأن أي إشادة بأداء عسكري ممتاز ينبغي أن تفهم على أنها إشادة بكل الرتب العسكرية دون استثناء.

نقد المؤلف في فقرتين مطولتين ما ذكرته ونستن تشر شل عن صد العقيد ماكدونالد وجنوده للهجوم الذي قام به (الأمير) يعقوب خلال المرحلة الثانية من معركة أمدرمان (كرري)، وفي وجود بينيت بينلي، وجي دبليو اسـتيفنس، وايرنست بينيت، والرائد هنتر، والذين ناقضوا رواية تشر شل تماما. لم يشهد تشر شل تلك المعركة، ولكنه كتب ما كتب اسـتنادا على ما سـمعه من آخرين عنها. بالفعل كان يسـتحق هذا الأمر فقرتين موجزتين من المؤلف لكشـف أخطاء تشرشل في كتابه الشهير.

أخيرا، فإن تحليل المؤلف لا يخلو من بعض الاسـتنتاجات المغرقة في الخيال. ففي صـفحة ١٤٧ من الكتاب يذكر المؤلف أنه:« من السخرية أن تجد أن البريطانيين استفادوا استفادة مباشرة من تجارة الرقيق التي ظلوا ولعقود يحاولون محاربتها...». توصـل المؤلف لهذا الاسـتنتاج بناء على تجنيد العبيد والعبيد السـابقين من السـودانيين في الجيش المصري قبل سنين طويلة قبل «حرب النهر»، وظل بعض أولئك العبيد في الخدمة العسكرية وا شتركوا في حملة استعادة السودان. في الصفحة السابقة (١٤٦) وضع المؤلف صورة القائد المهدوي «محمود ود أحمد» معتقلا بعد معركة «إتبرا»، ووضـع بعدها لوحة من رسـم الفنان «قايل» عنوانها «بعد معركة إتبرا» (الفنان جيمس قايل هو رسام اسكتلندي ارستقراطي عاش بين ١٨٠١ – ١٨٧٠م كان الملكة فيكتوريا قد اقتنت بعض لوحاته. المترجم). أشـار الكاتب إلى أن الصـورة تختلف عن اللوحة، إذ أن الصـورة توضـح الجنود السـودانيين الذين أحاطوا بالقائد المهدوي المعتقل لم يكونوا منتظمين أو موحدين من حيث المظهر أو وقفة الانتباه أو التعبير.... بل كانوا أفرادا «عاديين»، وليس بينهم أو معهم ضـابط، لذا فقد كانوا في حالة اسـترخاء، وذلك بعكس ما هو مرسـوم في اللوحة، حيث تراهم في وضع الانتباه، يقفون مع «محمود ود أحمد» أمام القائد كتشنر، ولا شيء يميزهم عن محمود (بجبته المهدوية) سـوى الزي العسـكري الكاكي. وصـف المؤلف الجنود السـودانيين المحيطين بمحمود ود أحمد بأنهم ليسوا سوى «بيادق إمبريالية تنفذ ما يأمره بها الإنجليز». السبب في وقوف الجنود السودانيين في وضع الانتباه هو أنهم ببسـاطة كانوا يقفون أمام سـردار الجيش المصـري! تعبر اللوحة والصـورة عن موقفين مختلفين تماما، وليس بين حقيقتهما وبين ما ذكره المؤلف من استنتاج متخيل أي علاقة. توجد (في الكتاب) أمثلة أخرى مشابهة.

إن أزحت من هذا الكتاب الكم الهائل من الحشو والإسهاب والإدعاءات والبلاغة (في غير موضعها)، فستجد أنك أمام كتاب أصغر حجما وأفضل مادة. في حالته الراهنة قد يصلح هذا العمل كأطروحة، أو تمرين للطلاب على الاختصار Précis . إضافة لذلك فإن سعر الكتاب (٤٥ جنيها إسترلينًا) مرتفع.



عرض لكتاب «أول قطار سكة حديد في السودان»:
بعثة إغاثة غردون وحملة دنقلا»

Sudan's First Railway- The Gordon Relief Expedition and the Dongla Campaign

لمؤلفه ديريك ويلسبي Derek Welsby

بقلم: هنري جنستون Henry Gunston

تقديم: نشـر هذا العرض لكتاب «أول قطار سـكة حديد في السـودان: بعثة إغاثة غردون وحملة دنقلا» في المجلة البريطانية «دراسات السودان» الصادرة في عام ٢٠١٢م. وبحسب موقع «المتحف البريطاني» الاليكتروني يعمل مؤلف هذا الكتاب ديريك ويلسبي كمساعد لأمين المتحف البريطاني في قسم آثار مصر والسودان. ظل الرجل نشيطا في العمل الميداني في مجال الآثار النوبية السودانية منذ عام ١٩٨٢م، وهو الآن السكرتير (الفخري) لجمعية بحوث آثار السودان، ورئيس الجمعية الدولية للدراسـات النوبية، وجمعيات أخرى كثيرة في عدد من الدول، ويلعب دورا هاما في التعريف بآثار النوبة القديمة في أرجاء العالم. نشر العديد من الكتب والمقالات وتقارير الحفريات الأثرية في مختلف أرجاء السودان مثل الشمالية وسوبا، وكان من آخر أعماله برنامج إنقاذ الآثار التي تأثرت بقيام سد مروي.

هذا كتاب بديع يجمع بين تاريخ «أول قطار في السودان» ووصفا دقيقا لمسح للآثار الكثيرة الموجودة على امتداد خط السكة حديد، والتي قام بها المؤلف (ربما مع غيره) منذ عام ٢٠٠٨م.

اقترح الخديوي سعيد باشا في عام ١٨٦٠م ربط السودان بمصر عن طريق خط حديدي، بيد أن ذلك لم يتحقق إلا في نهايات عهد إسـماعيل باشـا في يوم ١٥ فبراير ١٨٧٥م حيث وضـعت أولي القضـبان في «وادي حلفا».كان من المقرر في البدء أن يتجه خط سـير السـكة حديد جنوبا موازيا للنيل على وجه التقريب، وأن يصـل لكرمة على بعد نحو ٢٠٠ ميل إلى الجنوب، ولكن لم يتحقق بعض ذلك إلا في عام ١٨٩٧م. كان المهندسـان الاسـتشـاريان المشـرفان على المشـروع هما المصـري شـاهين باشـا والبريطاني جون فاولر. وقع الاختيار على اقتراح من ذلك المهندس البريطاني لتكون عرض القضيب ٣ أقدام و٦ بوصات، وكان ذلك مختلفا عن العرض المعياري الذي كان معمولا به في مصر وبريطانيا (وهو ٤ أقدام و٥ ,٨ بوصـات). كان السـر وراء اختيار ذلك العرض الضـيق نسـبيا هو أمل المهندس البريطاني في أن يمتد ذلك الخط الحديدي حتى يصل لشبكة خطوط سكة حديد جنوب أفريقيا، والتي لها نفس عرض القضيب. وفي هذا الصدد نذكر أن ممن خطط لإنشـاء خط سـكة حديد في يوغندا قد قرر في بدايات تسـعينات القرن التاسـع عشـر أن يكون عرض القضيب مقاسا بالنظام المتري وليس العرض المستخدم في جنوب أفريقيا (٣ أقدام و٦ بوصات) وذلك لتوفر قاطرات ودراجات هندية تستخدم ذات النظام المتري في القضبان.

كان تقدم العمل في بناء الخط الحديدي بطيئا، فمع نهاية عام ١٨٧٧م (أي بعد ثلاثة سـنوات من بدء العمل) لم يتعد تقدم بناء الخط قرية «صـرص» والتي كان لا تبعد أكثر من ٣٣,٣ ميلا فقط من وادي حلفا، ولم يكن الخط المنجز يعمل بصـورة جيدة. تم تحويل إدارة الخط الحديدي في عام ١٨٧٧م إلى حاكم عام السودان (الجنرال غردون)، بيد أنه لم يكن مهتما به.

جاء في تقرير للجنة حكومية نظرت في أمر ذلك الخط الحديدي في يونيو من عام ١٨٨٣م أنها تأسف «لإنفاق أموال ضخمة في مشروع بناء ذلك الخط الحديدي، وهو أمر ميئوس منه». عادت فكرة إكمال الخط الحديدي مرة أخرى عند التخطيط لبعثة إغاثة غردون في أبريل من عام ١٨٨٤م. استؤنف العمل مرة أخرى في بناء الخط الحديدي، فقامت الشركة الملكية للمهند سين (البريطانيين) بالعمل في الخط، وأو صلته إلى «عكا شة» على بعد ٥ ,٨٧ ميلا في عام ١٨٨٥م. صاحب العمل مناوشات عسكرية كانت تقوم بها قوات المهدي. قيل أن جنود المهدي كانوا يهتفون وهم يهاجمون الخط مرددين شعارات مفادها أن «الخط الحديدي انتهى» و«التلغراف انتهى» و«أنتم انتهيتم». توقفت عمليات الهجوم العسكري على بناة الخط الحديدي لشهور عديدة، حتى بدأت «حملة دنقلا» في عام ١٨٩٦م، ووصول الخط الحديدي إلى كوشا (على بعد ١٠٨ ميلا)، ثم و صل الخط إلى المحطة الأخيرة التي خطط لو صولها منذ البداية، وهي مدينة كرمة (على بعد ٢٠١ ميلا) في الرابع من مايو ١٨٩٧م.

تم التفكير لاحقا في بناء خط حديدي من وادي حلفا إلى الخرطوم جنوبا عبر الصحراء، وبذا انتفت الحاجة لذلك الخط بين وادي حلفا وكرمة فتم إغلاقه في ديسمبر من عام ١٩٠٤م.

رغم أن ذلك الخط قد تم هجره منذ زمن طويل، فإنه من العجيب أن تعلم أن بعثة استكشاف أثرية اكتشفن وجود قطع أثرية عديدة لها ارتباط ما بذلك الخط الحديدي، وبالنشاط العسكري الذي كان دائرا فيها.

عشرون عاما كمفتش سياسي في السودان الانجليزي- المصري

Twenty years as a political officer in the Anglo-Egyptian Sudan

روبرت سيسيل ماي اول Robert Cecil Mayall

عينت بعد نهاية الحرب العالمية الأولى مع أحد عشـر خريجا من جامعتي أكسـفورد وكمبردج كمسـاعد مفتش منطقة/ مديرية (ADC) في «القلم السياسي لحكومة السودان». بعد مرور ثمانية أعوام ترقيت لمنصب مفتش منطقة، ثم رقيت في عام ١٩٣١م كنائب لمدير مديرية كردفان، ثم إلى منصب نائب للسكرتير الإداري في الخرطوم في عام ١٩٣٣م. وفي عام ١٩٣٦م عينت كمدير لمديرية النيل الأزرق حيث بقيت في ذلك المنصب حتى غادرت السودان عام ١٩٤٠م متقاعدا لأسباب صحية.

ما يلي من سطور هي مختارات من مذكرات الرجل ومحاضـراته التي قدمها في سنوات الحرب العالمية الثانية. وضعت عائلة الرجل كامل المذكرات والمحاضرات في «أرشيف السودان» في جامعة درم الإنجليزية، وموقعها هو:

http://www.dur.ac.uk/library/asc/collection_information/cldload/? collno=٣٧٧

١. عملي كمساعد مفتش مركز في مديرية النيل الأزرق، ١٩٢١م

غادرت الخرطوم في فبراير من عام ١٩٢١م على ظهر سـفينة ذات مجاديف (paddle steamer) متجها نحو الدويم، والتي تبعد نحو ١٥٠ ميلا جنوب الخرطوم... لا أذكر من أيامي هناك شـيئا غير ما حدث لي في ليلتي الأولى هناك. ا ستيقظت من نومي مذعورا لأجد « شيئا» دافئا مكسوا بالفراء في داخل قميص بيجامتي. أذكر أنني «مسدت» ذلك الشيء خلال نومي، بيد أنه عندما بدأ يعض أ صابعي، انتزعته بسرعة وقذفت به بقوة فإرتطم بالحائط... عثرت عليه في الصـباح محطما نافقا. كان جرذا ضـخما لم أر مثله في الضـخامة. كان ذلك هو أول تعريف لي بالعمل في المديريات.

٢. محطة كوستي وأبناء الخليفة عبد الله التعايشي:

هنا تعلمت لأول مرة ركوب الإبل. في رأيي أن امتطاء ظهور هو أكثر وسائل التنقل في السودان راحة. ليس هنالك أكثر راحة من امتطاء ظهر «جمل ركوب»، بل والنوم على ظهره بأمان وهو يغذ الـ سير بـ سرعة ٨ – ١٠ ميلا في الـ ساعة، شـريطة أن يكون هنالك دليل يسـير أمامك. كان يرافقني دوما نصـف درزينة من رجال الشـرطة السـودانيين، كانت مهمة اثنين منهم تنحصـر في حمل العلمين البريطاني والمصـري في مقدمة ركبي، بينما كان البقية في الخلف يسـيرون أمام الإبل البطيئة التي كانت تحمل أثقالنا من متاع وزاد. لا بد أنني، وخلال سنوات خدمتي بين ١٩٢٠ — ١٩٢٧م، وقبل إدخال السـيارات، كنت قد قطعت عديد الآلاف من الأميال على ظهور الإبل...ليلا ونهارا... لم يكن لركوب الإبل من عيب غير أنه كان يصيبني بالإمساك، وكانت حقائبي ممتلئة دوما بملح الفواكه (اينو) الملين.

أذكر أنه في الصباح الباكر من يوم من أيام عام ١٩٢١م ا ستلمت برقية من الخرطوم تنذرني أن باخرة ستصل بعد قليل إلى كوستي وهي تحمل ٣٠ من أبناء الراحل الخليفة عبد الله (والذي حكم السودان بين عامي ١٨٨٥ – ١٨٩٨م) الذين تم اعتقالهم بسبب تآمرهم (التهمة الأزلية الخالدة عند كل الأنظمة الحاكمة منذ فجر التاريخ. المترجم). وضعوا في ذلك المركب كسجناء سياسيين، وكانت الأوامر التي صدرت إلى هي أن أصعد لتلك السفينة ومعي قوة من رجال الشرطة المدججين بالسلاح وأن أذهب بهم لمسافة لا تقل عن خمسين ميلا جنوب كوستي، وأن أنزلهم في مكان يمكن أن أقيم لهم فيه «قرية» (تقرأ: مستوطنة معزولة. المترجم)، وأتركهم فيها ليتدبروا أمرهم بأنفسهم...

(حكى المؤلف بعد ذلك بصورة مطولة عن ما قام به من أعمال في تلك «القرية» ليؤمن الغذاء ووسائل العيش الكريم لهؤلاء «المساجين السياسيين» بعد مغادرته لها)

كان المكان الذي اخترناه لسكن أولئك السجناء يقع قرب «الجبلين» على الشاطئ الغربي للنيل الأبيض على بعد مائة ميلا إلى الجنوب من كوستي. قمنا بذبح ثور عند مدخل المستوطنة طلبا لبركات الله، وعينا أحد السجناء كزعيم لهم، بعد أن أخذنا منهم جميعا عهدا مغلظا (في الأصل: بعد أن أقسموا بلحية النبي. المترجم) بأنهم في تلك القرية في غاية السرور والامتنان، وأننا قدمنا لهم كل ما يحتاجونه وزيادة (وسيبقون حيث هم). تركتهم وعدت مطمئنا في باخرتي إلى كو ستي. عند و صولي ا ستقبلني مفتش المركز وألقى إلى بقنبلة من العيار الثقيل: لقد عاد كل أبناء الخليفة عبد الله الذين تركتهم في تلك المستوطنة إلى كوستي قبلي عن طريق البر. يبدو أنه في الليلة التي تركت فيها هؤلاء الناس في تلك المستوطنة، قامت مجموعة من الأسود بمهاجمتهم وقتلت من بقرهم وغنمهم ما شاء لها الله، الأمر الذي أفزع أبناء الخليفة فمضوا يسابقون الريح نحو كوستي، وقطعوا المسافة لبلوغها (وهي لا تقل عن مائة ميل) في سرعة قيا سية (لا ريب أن أولئك الـسجناء كانوا قد تركوا في ذلك القفر دون سلاح يدافعون به عن أنفسهم لأ سباب لا تحتاج لشرح. المترجم). وهكذا لم تلق أولى محاولاتي لبناء قرية أي نجاح يذكر!

أذكر قصة أخرى عن عملي في كو ستي. طلب مني رئيسي مفتش المركز أن أ سافر بالباخرة إلى الجبلين لأ شرف على بناء مركز للشرطة ومكتب للبريد. نفذت الأمر وأخذت في معيتي عددا من البنائين والنجارين وغيرهم من الحرفيين، وقمنا باختيار مكان معين شيدنا فيه مبنيين فخمين من الطوب الأحمر على شاطئ النيل الأبيض. كنت لقلة خبرتي – للأسف– قد أهملت درا سة منا سيب النيل في الأعوام السابقة قبل الشروع في البناء في ذلك المكان. في ذات يوم من أيام عام ١٩٣٨م (أي بعد مرور ١٧ عاما على تشييدي لذلك المبنى) تلقيت كمدير للمديرية برقية من الجبلين تفيد بأن مياه فيضان النيل الأبيض قد قد غمرت وخربت مباني الحكومة هناك. لم أعترف بالطبع لرئيسي مفتش المركز في كوستي بأني كنت المسئول عن بناء تلك المباني في عام ١٩٢١م!!

وحدثت لي في كوستي قصة أخرى... حزينة هذه المرة... في ليلة مقمرة استيقظت من نومي فزعا وأنا أحس بوجود شخص ما بقربي. جلست على السرير وتبين لي أن هنالك فتاة تقف قرب رأسي وفي يدها سكين طويلة تقطر منها دماء. كانت تلك الفتاة طويلة سوداء، وعارية تماما كما ولدتها أمها. ظننت للحظات قليلة أنها قد طعنتني، فقفزت من السرير بصورة غريزية لاإرادية، وهجمت على الفتاة وطرحتها أرضا، وأنتزعت بعد لأي من يدها المدية

الدامية. أفلحت في أن أربط الفتاة بحبل تصادف أن كان بالقرب من سريري، ثم لففتها – كالدجاجة – بملاءة سريري. أحضــرت شــمعة موقدة من داخل البيت لأجد أن من كان مطعونا هو تلك الفتاة المسـكينة وليس أنا. كانت مطعونة في ثديها... كان زوجها قد آب إلى كوخه (القطية) ثملا، وأراد أن يضاجعها فنفرت منه. أثار ذلك جامح غضبه فاستل سكينه وغرســها في ثدي زوجته. أفلحت الزوجة في الامســاك بالمدية، وســارعت بالهرب إلى أقرب نقطة حكومية طلبا للعون والأمان.

٣. عملي كمفتش مركز بمديرية أعالي النيل (١٩٢١ – ١٩٢٣م)

دهشــت جدا وفرحت لترقيتي في نهاية عام ١٩٢١م لوظيفة مفتش مركز في مديرية أعالي النيل. غادرت كوســتي قبيل عيد الميلاد لاستلام عملي في منطقة الرنك (وهي مساحة تعادل مساحة أسكتلندا). كان السكان في تلك المنطقة من جنوب الســودان من الدينكا... تلك القبيلة النيلية الوثنية التي كانت (وما تزال) مشــهورة بأنها واحدة من أشــد قبائل السودان ولعا بالحرب warlike... كانوا محاطين بأعداء تقليدين... العرب عن شمالهم، وقبيلة الشلك عن جنوبهم .

كانت أفظع مواجهة شــهدتها هنالك في جيلهاك Gelhak على بعد ١٠٠ ميلا جنوب الرنك...آتاني رجل يلهث من شــدة الجري وأبلغني بالقتال الذي دار في منطقته. قدرت مما ســمعت من الرجل أن الموقف بالغ الخطورة، فقمت على الفور بأخذ رجلي شرطة معي وتوجهنا للمنطقة، بعد أن أصدرت الأوامر لقوة مسلحة أن تلحق بنا. سرنا لمدة ١٠ ساعات قبل أن نصل إلى جيلهاك، لأجد أن ذلك القتال أسفر عن مقتل نحو ١٢ رجلا، وإصابة ٧٠ آخرين بإصــابات بليغة...كان جلهم من التجار العرب ومن قبيلة الشــلك. كان المهاجمون (من رجال الدينكا) قد هاجموا المنطقة بأعداد كبيرة، وقتلوا وجرحوا من قاومهم، ونهبوا وسلبوا كل ما كان بإمكانهم سلبه ونهبه، ثم انسحبوا للغابة المجاورة. قمت مع الشرطيين بما كان متاحا لنا عمله، فوارينا الموتى الثرى، وضمدنا جراح المصابين. جعلت من أحد المتاجر الصــغيرة المنهوبة مركزا لعملي، وبعثت بواحد من الشــرطيين على بغلته إلى حيث يجد أقرب طبيب بريطاني، وبالآخر ليقص أثر المهاجمين من الدينكا الذين اختفوا في الغابة. بعد يومين ســعدت بوصــول الطبيب البريطاني قادما على ظهر باخرته (التي اتخذها كعيادة متحركة على النهر)، وبدأ في علاج الجرحى والعناية الطبية بهم.

بعد مرور أيام قلائل، رأيت من بعيد في الأفق، وأنا أحلق ذقني ذات صباح عند مدخل القطية التي كنت أقيم فيها، رجل الشــرطة علي بغلته وخلفه عدد كبير من رجال الدينكا المحاربين. لطالما أعجبت بالاحترام البالغ الذي يبديه الدينكا للحكومة وممثليها (وكان رجل الشــرطة الذي بعثت به لتعقبهم من قبيلتهم). نجح ذلك الشــرطي في العثور عليهم في الغابة، ووجدهم في شغل شاغل بتقسيم الغنائم والا سلاب، وأفلح في جعلهم ينصاعون لأمره ويعودون معه لمقابلتي وهو أمامهم يقودهم للمحاكمة وبندقيته على كتفه. كان من الممكن لأي من رجال الدينكا خلفه أن يقذفه بحربة، ولكن لم يحاول أحدا أن يفعل ذلك، فهيبة الحكومة كانت قوية آســرة. تطلب معرفة هوية قائد الهجوم أياما عدة، بيد أني في النهاية أقمت لهم محاكمات قضــت بســجن كل رجال المجموعة لفترات تراوحت بين ٢ إلى ٥ ســنوات، مع غرامات بلغت نحو ٢٠٠ رأس من البقر، والتي قمت بتسـليمها لرجال الشـلك والتجار (العرب) على سبيل التعويض، ثم قفلت راجعا للرنك.

كان زعيم الدينكا في المنطقة (واسمه يول كير) خير صديق لي عرفته في المنطقة، وكنت أدين له بحياتي. كان رجلا طويلا (قرابة سبعة أقدام)...يسير حافيا دوما، وعنده ٢٠ من الزوجات وعدد كبير من الأطفال. كان يرافقني دوما في رحلاتي التفقدية لتفتيش المنطقة (والممتدة لمئات الأميال) والاطمئنان على الأمن فيها. لم يرافقني لحظة واحدة بالليل أو النهار في تلك الجولات الطويلة. في يوم من أيام عام ١٩٢٢م وبينا أنا معه في إحدى الجولات، أصــبت بزحار (دســنتاريا) أصــابني بوهن شــديد فلم أعد قادرا علر امتطاء حماري. كان يول كير يحملني كطفل رضــيع ويضعني على حماري ويظل ممسكا بي طوال فترة الرحلة والتي امتدت لاثني عشر يوما. كان صديقا وفيا مخلصا لن أنســاه طوال حياتي. نعم لقد كان رجلا وثنيا وعريانا ولكنه كان صــديقا لا يخذلك أبدا في ســاعات الضــيق والحاجة...لقد كان أحد هبات الطبيعة.

لقد ارتبطت حياتي في السودان بالجرائم والمساجين، فلا بد لي من أن أحكي قصة عن هذا الجانب هنا. لا شك عندي أن السودان هو من أقل البلدان انتشارا للجريمة، ولا شك عندي أيضا أن مساجينه هم من أكثر الناس تسامحا وظرفا. كنت – خلال عملي- أصادق هؤلاء المساجين أذكر أنني كنت ذات مرة جالسا عند الأصيل في استراحتي في «كدوك» والتي تبعد بنحو ميل من شــاطيء النهر. دق جرس الســجن معلنا تمام الخامســة مســاء (حين يجب على المســاجين ايقاف عملهم في الطرق وشــاطئ النهر، والعودة للمعســكر حيث يتناولون وجبتهم الأخيرة ويخلدون للنوم بعد أن يغلق الحراس عليهم الباب حتى صباح اليوم التالي). بعد حوالي نصف ساعة من سماعي لذلك الجرس رأيت من بعيد مجموعة من السجناء يسيرون نحوي، وفي أيديهم بنادق الحراس الأربعة. لم يكن معهم من الحرس أحد. توجســت منهم خيفة، وكانت أول خاطرة تطرأ على عقلي هي أن هؤلاء المســاجين تمكنوا من التغلب على الحراس وأخذوا منهم بنادقهم، وهم الآن في طريقهم لفعل شيء منكر تجاهي. لما قربوا مني صاح واحد منهم أنهم في حيرة من أمرهم. قال أن الحراس ســلموهم بنادقهم، وذهبوا للحانة لشــرب البيرة (فقد كان النهار قائظ الحرارة) ووعدوهم بالرجوع إليهم قبل موعد الانصــراف عند الخامســة. عندما رنت أجراس الخامســة ولم يأتي الحراس جن جنونهم، فإن عادوا للســجن بالبنادق فلن يصــدقهم أحد، وإن تركوها علي الشــاطيء فربما يأخذها عابر ســبيل فتقع الملامة والندامة عليهم. قر قرارهم أخيرا على أن يذهبوا للرجل الأبيض، والذي سيصدقهم. لم تخطر فكرة الهروب على عقولهم بتاتا. سررت بعودتهم أيما سرور، فأمرت بأن يعطي كل فرد من المساجين الأربعة مؤنة شهر (في الأصل a month's «jug»)، وخفضت مدة محكومية كل واحد منهم تخفيضا كبيرا.

مفتش مركز في كردفان (١٩٢٣ – ١٩٣١م)

كانت تلك أســعد أيام حياتي في الســودان. كنت قد نقلت من مديرية أعالي النيل مترقيا إلي وظيفة مفتش مركز في غرب كردفان وهي من أكبر المراكز في الســودان... لم يخطر ببالي وأنا أقطع المائة وأربعين ميلا من الأبيض عاصــمة كردفان إلى النهود، حيث عاصمة مركزي، أنني سأقضي هناك ثمانية أعوام ونيف. استغرقت تلك الرحلة على ظهر جمل سبعة أيام كاملة، بينما غدت ذات الرحلة فيما أقبل من أيام لا تستغرق بالسيارة أكثر من ثلاث ساعات.

كانت السمة الطبيعية الرئيسة للمنطقة هي إمدادات المياه، أو بالأصح نقصها. لم تكن هنالك من آبار في المنطقة غير ما كان موجودا في «النهود» و«الأضـي» و«أبو زبد» و«المجلد» ...وفي موسم الجفاف (والذي يمتد من نوفمبر إلى يوليو) لم يكن هنالك مصـدر للمياه غير بعض الآبار ومياه الأمطار التي تخزن في أشـجار التبلدي. كانت تلك الشجرة (التبلدية) هي أعز ما تمتلكه قبيلة الحمر، والنزاع حول ملكيتها كانت من أكثر القضايا التي أقضي فيها بين المتخاصمين. كان الناس يحفرون حفرة كبيرة حول جذع تلك الشجرة تتجمع فيها مياه الأمطار، ثم يحدثون تجويفا كبيرا في جذع الشـجرة يصـبون فيه تلك المياه المتجمعة حولها. كانت غالب أشـجار التبلدي قديمة، ويمكن للأشجار الكبيرة منها أن تخزن عدة آلاف من جالونات المياه... لتستخدم في شهور الجفاف. لم يبلغني أبدا أن أحد قرب تلك المياه بغرض السرقة.

كانت كل جولاتي التفقدية خلال فترة الأربعة سنوات الأولى من عملي في المنطقة تتم على ظهور الإبل، ولكن مع حلول عام ١٩٢٧م استلمت سـيارتي الأولى- كانت نوعا قديما من طراز تي فورد. كنت أسـميها على سـبيل التدليل «ليزي Lizzie» (وهو اسـم التحبب (الدلع) لإليزابيث/ الياصـبات. المترجم). كنت كثيرا ما أبدأ رحلتي بتلك السـيارة، وأختمها على ظهر حصـان أو جمل، أو حتى على قدمي، بعد أن أصـرم عددا من السـاعات في دفع هذه ال «ليزي» المنغرسة عجلاتها في الرمال.

في يوم مطير من أيام عام ١٩٢٦م وأنا بالنهود في داري المبنية بالطين اللبن كنت في معية صـحاب نسـتمتع بلعبة الورق المسـماة بيردج. دخل علي رجل شـرطة فزعا ليخبرني بأن المطر الغزير الذي انهمر فجأة قد غمر كل المباني الحكومية ومبني السـجن والسـوق...وكلها مبنية من الطين اللبن. اختفت في دقائق كل هذه المباني. جرفت المياه الغزيرة كل ما صادفها من بشر وحيوانات ونبات وحجر... خرجنا لاستكشاف الخراب الذي أحدثته تلك المياه، وما أن خطونا أمتار قليلة خارج الدار حتى وجدنا الماء يصـل إلى ما فوق الخصـر، ونحن نشـاهد مباني الحكومة تسـتحيل إلى أكوام من ركام طين غروري لزج. عند الفجر ذهبت مجددا لمعاينة الأضـرار فرأيت أنه لم يبق من تلك المباني وما فيها شـيء يذكر، وضـاعت كل الملفات وأثاثات المكاتب. رأيت فوق روبة عالية مجموعة كبيرة من الرجال... كان أولئك هم المساجين الذين اختفت مباني سجنهم تحت مياه الأمطار. جلسوا في صبر دون أن يفكر أحد منهم في الهرب، وهم في انتظار من يأتي ويأخذهم مجددا لمحبسـهم... لحسـن الحظ كان مكتب التلغراف قد بني على أرض مرتفعة، فجلسـت فيه وبعثت لمدير المديرية في الأبيض رسـالة تلغرافية من صـفحتين أخبره فيها بالكارثة التي حاقت بمدينتنا، وطالبا منه العون المالي لجبر ما انكسر.

والآن إلى قصـة حادثة القتل التي حدثت في طريق الفاشـر. غادرت النهود فجر أحد الأيام مع بعض الموظفين بسياراتنا في جولة تفقدية للمنطقة كان من المقرر أن تستغرق ثلاثة أسابيع. بعد أن قطعنا مسافة عشرين ميلا، ومع بزوغ أول ضوء للشمس أمرت الموكب بالتوقف لملء مبردات السيارات بالماء، ولم أشأ أن أنتظر، فمضيت في السير في الطريق مشيا على الأقدام بعد أن أوصيت السائقين باللحاق بي في الطريق. رأيت بعد مسيرة ميل واحد ما خيل إلي أنه ثلاثة رجال نائمين تحت ظل شجرة. تقدمت نحوهم ففوجئت بسماع أنين صادر من أحدهم، ولما قربت منهم تبين لي أن اثنين منهما كانا مذبوحين من الوريد إلى الوريد، بيد أن الثالث كان ما يزل حيا، رغم إصابته البالغة. أتت – لحسن الحظ – سيارات موكبي في تلك اللحظات، فأمرت بأن تسرع إحداها بالعودة بالرجل المصاب إلى مستشفى

النهود بعد أن سقيته جرعات كبيرة من الويسكي الذي كنت أحمله، فقد كان ذلك هو «الدواء» المنبه الوحيد الذي كان معي، وأستطاع الرجل – وبصعوبة- أن يتمتم بكلمات قليلة عن حقيقة ما جرى له، فقل إنه تاجر «تمباك»، وقد أتى للأبيض قادما من الفاشر (والمسافة بينهما ٤٠٠ ميل) مشيا على الأقدام في صحبة خادميه وهما يحملان «تمباك» لبيعه في الأبيض. باع الرجل (والذي ولد كفيفا) بضاعته في الأبيض وكسب من بيعته تلك ستين جنيها. في طريق عودة الرجل وخادميه للفاشر مروا بالنهود وقضوا في منزل أحد سكانها عددا من الليالي. بعثت إشارة إلى شرطة النهود بإلقاء القبض على كل من كان يسكن في الشارع الذي قضى فيه الرجل الضرير وخادميه أيامهم في النهود بتهمة الاشتراك في جريمة قتل وتسبيب أذى جسيم. ظللت أداوم التفكير في تلك القضية، وأنهيت جولتي التفتيشية في عشر ليال (بدلا من أسبوعين). عدت للنهود، فوجدت أن الرجل الضرير لا يزال طريح الفراش، وأن هنالك نحو ١٧٠ رجلا من رجال النهود محبوسين في الحراسة لمجرد الشك في إنه قد يكون لهم علاقة ما بتلك الجريمة. لم توجه لهم أي تهمة محددة، وبذا لم نستطع تقديمهم لمحاكمة قانونية. من حسن حظنا أن المبدأ القانوني القاضي بضرورة «مثول المتهم أمام *القضاء* habeas corpus» لم يكن معمولا به في النهود**!!** أحضرت المتهمين في طابور وجعلت الرجل الضرير يمر عليهم ويسمع كل واحد منهم يتكلم عدة كلمات. تمكن الرجل الضرير – وبسهولة ودون تردد- من تحديد من قاموا بارتكاب تلك الجريمة وكانوا أربعة، بيد أنهم لم يعترفوا بذلك الفعل. أرسلت من يقوم بحفر الأرض في بيوت هؤلاء المتهمين، وبعد أيام طويلة من الحفر وجدت الشرطة كامل المبلغ المسروق ومعه مسروقات قديمة أخرى. قدمت المتهمين للمحاكمة وحكمت عليهم بالإعدام. قبيل تنفيذ الحكم اعترف الرجال بجرمهم، وتم تنفيذه بالفعل.

من قصص حياتي الزوجية: تزوجت في عام ١٩٢٩م. غمرني أصدقائي من السودانيين بدعواتهم، والتي جعلتني بعضها أحمر خجلا. بعث لي ناظر الحمر «منعم» بتهنئة قال فيها: «تهاني الحارة. أدعو الله أن يرزقك أطفالا كثيرين». من القصص التي لن تنساها زوجتي أنها كانت في أحد المستشفيات في إنجلترا لتضع مولودنا الأول في عام ١٩٣١م. وصلت الأخبار إلى النهود أننا قد رزقنا بنتا، فقام أحد تجار النهود بإرسال برقية لها تقول: «مبروك. أدعو الله أن يرزقك ذكرا في القريب العاجل».

من قصص زوجتي الأخرى أننا كنا نتناول عشاءنا معا في أول ليلة لها في النهود، وكان مكونا من طبق واحد هو حساء الفول السوداني. لاحظت أن زوجتي كانت تشعر بضيق شديد وهي تحاول ابتلاع ذلك الحساء. قلت لها أنه يجب عليها أن تتعود على ذلك الطبق إذ أنه يكون عليها تناوله كل مساء لأربعة عشر عاما قادمة. بعد أسابيع من تلك الليلة كنت أحتسي شرابي الليلي المعتاد (الويسكي بالصودا) حين وقعت حشرة كريهة نسميها «الحشرة النتنة stink bug» داخل كأسي، فقذفت بالشراب على الأرض ممتعضا. رأتني زوجتي فسألت عما أفعل فأريتها الكأس وحدثتها عن أن تلك الحشرة تفسد أفضل شراب في العالم وتجعله غير قابل للشرب. تناولت زوجتي الكأس وتذوقت القطرات التي بقيت في الكأس، فصاحت قائلة:«آه...هذا هو ذات الطعم الذي وجدته في ذلك الحساء في أول ليلة لنا هنا.» فهمت أخيرا لماذا لم تحب أبدا حساء الفول السوداني**!!**

نائب مدير مديرية كردفان (١٩٣١ – ١٩٣٣م)

كان من المفترض والمتوقع أن تكون ترقيتي ونقلي للأبيض من أسـباب سـعادتي، بيد أن ذلك لم يحدث، إذ كنت حزينا بالفعل لمفارقة النهود وحمرها، وأيامي التي قضيتها على ظهور الإبل وفي السيارات وأنا أجوب قراها ودساكرها زائرا للأهالي. في المقابل كانت وظيفتي الجديدة في الأبيض وظيفة مكتبية دوامها من التاسـعة صـباحا حتى الثانية ظهرا، مع دوام مسائي.

من قصـصـي في الأبيض أن البريطانيين في تلك المدينة قرروا إقامة كنيسـة لهم بعد أن كانوا يؤدون صـلواتهم في فرندة النادي، أو في غرفة كبيرة في دار مدير المديرية. جمعنا ما يكفي من الأموال لبناء كنيسة صغيرة، ولكننا اختلفنا في تسميتها. اقترح الأسكتلنديون منا أن نسميها على اسم القديس « سانت أندروز»، بينما اقترح الإنجليز أن نسميها « سانت بيتر». حسم الأمر بتصويت سري أعلن بعد نهايته أسقفنا أن « سانت بيتر» قد تغلب على « سانت أندروز» بصوت واحد.

نائب السكرتير الإداري، ١٩٣٤ – ١٩٣٦م

إن كنت قد شعرت بالغربة والوحدة والبعد عن السودانيين بنقلي من النهود للأبيض، فقد ساء الوضع أكثر بنقلي في بداية عام ١٩٣٤م للخرطوم كنائب السكرتير الإداري في الحكومة المركزية، والخرطوم هي «محور الكون».

كانت أسعد أيامي خلال العامين ونصف اللتان قضيتهما كنائب للسكرتير الإداري هي عندما زارنا وفد كبير من مشـايخ القبائل في الخرطوم. أذكر اليوم الذي لبوا فيه دعوتي لشـرب شـاي المسـاء، وكان ذلك قرب نهاية زيارتهم للخرطوم. كان معظمهم بين السبعين والثمانين من العمر، وكانوا في مناطقهم يتحكمون في رجال ونساء قبائل كبيرة. أرتهم بنتي الصـغيرة لعبها ودماها ودببها، وكان شـغفهم واهتمامهم الحقيقي بتلك اللعب والدمى والدببة واضـحا جدا.

مدير مديرية النيل الأزرق، ١٩٣٦ – ١٩٤٠م

أستطيع التأكيد (وأنا مدير لمديرية النيل الأزرق) على أن وجود البريطانيين في السودان لم يكن من أجل مصلحتهم، بل من أجل السودانيين، ومن أجل تحضيرهم لذلك اليوم الذي يمكنهم فيه حكم أنفسهم بأنفسهم (هكذا! المترجم). نجحت السياسة البريطانية في السودان في ذلك المسعى، بتطويرها لكل ما هو خَيِّر ومفيد من التراث السوداني التقليدي، والحياة السودانية وثقافتها، وبإعطاء السودانيين أفضل ما أنتجته الحضارة الغربية. لذا كنا نأمل أن تقوم «دولة سودانية» مستندة على مبادئ مستمدة من خير ما في الشرق والغرب... إلى أي حد نجحنا في الوصول لذلك الهدف وتلك الغاية؟ الإجابة ليست عندي ، بل عند القارئ.آمل أن يكون سودان اليوم، وسودان الغد كذلك، وفي المستقبل البعيد أيضا كذلك..ليس غربيا بالكلية، وليس شرقيا خالصا. لهذا السبب كان السودان من أكثر الدول جذبا للإداريين البريطانيين للعمل في خدمته.



الحزب الشيوعي في السودان (١٩٤٦ – ١٩٧١م)

The Communist party in the Sudan (١٩٤٦- ١٩٧١)

حاييم شاكد وايثر سوري وجبريل واربورج

Haim Shaked, Esther Souery & Gabeiel Warburg

هذا عرض مختصر لفصل في كتاب نشرته دار نشر الجامعات الإسرائيلية عام ١٩٧٤م بعنوان «الإتحاد السوفيتي والشرق الأوسط» The Soviet Union and the Middle East بقلم ثلاثة كتاب أشهرهم البروفيسور جبريل واربوج (والذي عرضنا من قبل لمقالته عن **العلاقات بين السودانيين في الشمال والجنوب من وجهة نظر بعض الأدباء** المنشور في كتاب Historical Discord in the Nile Valley). يلخص الكتاب (ربما للقارئ الغربي أ سا سا) قصة قيام الحزب الشيوعي في السودان منذ منتصف الأربعينات حتى انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١م، حيث قام إثر فشله النظام المايوي برئاسة جعفر محمد نميري بحملة «استئصاليه» ضد قيادة الحزب الشيوعي السوداني وأنصاره لتدبيرهم / تأييدهم لذلك الانقلاب.

لبروفيسور جبريل واربوج اهتمام كبير بالسودان وبالسياسة السودانية، وأطروحته للدكتوراه من جامعة لندن عام ١٩٦٨م كانت عن «إدارة الحكم الثنائي بين عامي ١٨٩٩- ١٩١٦م »، ونشر أيضا الكثير من المقالات المحكمة و الكتب عن السودان ومصر ودول عربية وإسلامية أخرى، وعن معظم الطوائف الدينية /السياسية في السودان (كالختمية والأنصار) والأخوان المسلمين. بحسب ما أنبأني به خبير سوداني فإن هذا البروفيسور لم يزر السودان مطلقا رغما عن أنه قد قضى عمره كله، وهو قد تجاوز الثمانين الآن، في دراسة الشأن السوداني. رغما عن ذلك فقد شارك بشكل منتظم في كل المؤتمرات الخاصة بالدراسات السودانية والشرق أوسطية التي تعقد خارج السودان.

سرد المؤلفون في البدء، وبصورة لا تخلو من إيجاز وابتسار، تاريخ الحركة الوطنية في السودان منذ عشرينات القرن الماضي، وقرروا أنها تأثرت بالأحداث في مصر (وربما بدأت بتحريض مصري)، وأدت نظرة البريطانيين لتلك الحركة الوطنية الناشئة على أنها نتاج مصطنع للدعاية المصرية في السودان إلى عرقلة تطور تلك الحركة في مسار «وطني» خاص بها. ومن جانب آخر ظل مركزا المجتمع السوداني التقليدي (زعماء القبائل والشيوخ الدينيين) ينظران إلى تلك الحركة بعين الريبة والشك، وربما العداء أيضا.

كان لبريطانيا في خلال العشرين عاما الأولي من استعمار السودان غرضان لا ثالث لهما نجحت في تحقيقهما بامتياز: أولهما هو استتباب الأمن وتهدئة الأحوال بعد ثورة المهدية، وثانيهما هو تنمية البلاد اقتصاديا بحيث لا يكون عالة على مصر. ولتحقيق الغرضين اعتمد المستعمر البريطاني على القيادات القبلية والدينية التقليدية، إذ أنه ومنذ الحرب العالمية الأولى في عام ١٩١٤م، أيقن المستعمر البريطاني أن محاولته في اجتثاث القيادات الدينية التقليدية المتجذرة في أفئدة وقلوب السودانيين (مثل قيادتي الأنصار والختمية) قد فشلت، فأحتضنهما وقوى نفوذهما، والذي امتد حتى صارت تلك القيادتين هما عماد حركة صفوة المثقفين الشباب (الانتلجنسيا) في مؤتمر الخريجين عام ١٩٣٨م. وعلى هذا النهج أيضا مضى تكوين الأحزاب السياسية بعد الحرب العالمية الثانية فأستند

«حزب الأمة» على طائفة الأنصار، بينما استند «حزب الأشقاء» على طائفة الختمية . بيد أنه وفي العقد الذي سبق استقلال السودان ظهرت قوتان شبابيتان جديدتان (إضافة للحزبين الذين كانت تقف خلفهما زعامة طائفتي الختمية والأنصار) وهما «الأخوان المسلمون» و«الحزب الشيوعي». تزامنت نشأة الحزب الشيوعي مع ظهور النقابات، وخلق ظهور الحزب الشيوعي (والذي كانت أيديولوجيته وولاءاته على طرفي نقيض من المفاهيم التقليدية للإسلام «الشعبوي») وضعا جديدا، إضافة لقيام النقابات والتي نبذت جماهيرها ولاءاتها الطائفية التقليدية لصالح تلك النقابات. يجب تذكر أن الإسلام ظل يحتل مكانا عاليا (ومقدسا) عند كل السودانيين، حتى عند جماهير الحزب الشيوعي والنقابات. في يوليو من عام ١٩٤٦م تكونت جبهة شؤون العمال كمتحدث رسمي باسم نقابة عمال السكة حديد، والتي كانت تضم قيادات شيوعية، وأولاها الحزب الشيوعي عناية خاصة باعتبارها أكبر تجمع عمالي في السودان (بلغ عدد العمال في تلك السنوات نحو أربعين ألفا، يعمل ٩٠% منهم في السكة حديد). لم تعترف الحكومة الاستعمارية بجبهة شؤون العمال إلا بعد مظاهرات ضخمة قام بها العمال في ١٩٤٧/٨/٨م أعقبها إضراب عام واعتقال لقيادات العمال. قويت شوكة نقابة عمال السكة حديد (الشيوعية القيادة) بعد رفض إدارة السكة حديد لمطالب العمال بزيادة الأجور وتحسين ظروف العمل، وصار النضال لتحقيق تلك المطالب جزءا من حركة النضال الوطني ضد المستعمر البريطاني. ارتبط العمل النقابي العمالي بالمنظمات العمالية العالمية مثل الاتحاد العالمي لنقابات العمال ببراغ مما قد يوفر دليلا على تغلغل الحزب الشيوعي داخل النقابات السودانية وكوادرها، ولكن يصعب تقويم نفوذ الحزب على الأفراد من المنضوين تحت لواء تلك النقابات.

يختص هذا الفصل بسرد تاريخي (ينبغي أن تؤخذ بعض أجزائه بشيء من التحفظ) لمسيرة ذلك الحزب خلال فترات تاريخية ثلاث:

١. أولها منذ قيامه في عام ١٩٤٦م وحتى استقلال السودان في ١٩٥٦م، ويشمل هذا الجزء نشوء الحركة العمالية واختراق/ تغلغل الحزب فيها، خاصة في نقابتي عمال السكة حديد والمزارعين.

٢. ثانيها المعالم البارزة في تاريخ الحزب، خاصة مساهمته في مصادمة الحكم العسكري الأول، وفي ثورة أكتوبر ١٩٦٤م

٣. ثالثها: الصراع بين الحزب وبين القوى السياسية التي كانت ترفض الشيوعية بين عامي ١٩٦٥ ــ ١٩٦٩م، ثم فترة انقلاب جعفر نميري في مايو ١٩٦٩م.

يقرر كتاب الفصل في البدء أنهم لن يتطرقوا لنقاش أيديولوجية الحزب الشيوعي السوداني أو علاقته بالأحزاب الشيوعية الأخرى أو بالمعسكر الشيوعي (رغم أن الفصل نشر في كتاب بعنوان «الإتحاد السوفيتي والشرق الأوسط» !)، ويقررون أيضا أنه يصعب عليهم عند الحديث الحزب الشيوعي التفريق بين أعضاء الحزب الشيوعي وبين اليساريين والاشتراكيين الثوريين والتقدميين والمتعاطفين الآخرين من «رفقاء الدرب» في السودان، فالمؤلفين يرون أن الحزب قد ضرب سياجا من السرية على عضويته، ولا يعرف منها غير عدد قليل من القيادات والنشطاء حتى في الأوقات التي كان الحزب يمارس فيها نشاطا علنيا وقانونيا.

١- الفترة الأولى: بدأ تاريخ الحزب الشيوعي السوداني في عام ١٩٤٦م حين أسست حركة التحرر الوطني السوداني كفرع offshoot من الحزب الشيوعي المصري. ويعتقد المؤلفون أن قيام تلك الحركة في السودان (كما هو الحال في بقية أقطار الشرق الأوسط) كان نتيجة مباشرة لفترة ما بعد «استالينقراد» والأثر الذي تركته على النخبة المثقفة (الإنتلجنسيا) السودانية (لعل المقصود بإستالينقراد هو المعركة الأشد دموية في الحرب العالمية الثانية التي جرت في إستالينقراد، ولعبت دورا حاسما أثناء في هزيمة ألمانيا النازية في أعوام ١٩٤٢ و١٩٤٣م، وخلدها الكتاب والروائيون والسينمائيون) ونتيجة أيضا لقرب طوى الإمبريالية البريطانية لعلمها في عدد من المستعمرات ففي أغسطس من عام ١٩٣٦م (وليس ١٩٤٦م كما زعم مؤلفو الكتاب) وقعت بريطانيا مع مصر معاهدة صدقي- بيفن والتي وعدت بريطانيا فيها مصر بجلاء قواتها عنها بعد ثلاثة أعوام.

وكررت بريطانيا في تلك المعاهدة العبارة المحببة لمصر وهي «الوحدة بين مصر والسودان تحت التاج المصري»، وقررت ضرورة بقاء الحكم الثنائي حتى يصبح السودانيون قادرين على ممارسة حقوقهم....وتقرير مصيرهم.« بعد منتصف الأربعينات بدأ النفوذ (الأيديولوجي) السوفيتي في الانتشار في المنطقة العربية، وبلغ ذروته في عامي ١٩٥٤ و ١٩٥٥م، حيث صار الشيوعيون واليساريون وغيرهم يعدون السوفيت هم من سينقذهم من الإمبريالية. تزايد النفوذ السوفيتي بعد نيل السودان لاستقلاله، ويجب فهم هذا النفوذ ضمن إطار المصالح الإستراتيجية الأشمل للاتحاد السوفيتي، خاصة بعد فشله في التغلغل في إيران وتركيا، فغدا العرب هم الهدف التالي، خاصة بعد نجاح الانقلاب في سوريا ومصر، وعقب فشل حلف بغداد (وهو الحلف الذي أقامته بريطانيا عام ١٩٥٥م مع العراق وتركيا وإيران وباكستان للوقوف ضد المد الشيوعي)

وسقوط الحكم الموالي لبريطانيا في العراق عام ١٩٥٨م، وباحتدام الصراع العربي – الإسرائيلي. كانت سياسة الحياد الإيجابي (والتي كان العهد الستاليني يعدها ممالأة للإمبريالية) إطارا مناسبا للحكام السوفيت الذين خلفوا ستالين للتغلغل في العالم العربي.

تزايدت مصالح السوفيت في السودان في بداية ستينات القرن الماضي مع ازدياد نفوذهم في مصر، ولإدراكهم لأهمية السودان الإستراتيجية. ومع تنامي نفوذ السوفيت في منطقتي شرق أفريقيا وشبه القارة الهندية فكروا في أن السودان قد يوفر لهم موانئ وقواعد مهمة وضرورية على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر. بيد أن السوفيت لم يحرزوا نجاحا يذكر في السودان في سنوات ١٩٥٦– ١٩٥٨م ، إذ أن إسماعيل الأزهري، أول رئيس للوزراء، وبعد أن عاد من مؤتمر بادونج كان قد صرف النظر عن الوحدة مع مصر وآثر الاستقلال عن دولتي الحكم الثنائي. أما من خلفه، عبد الله خليل، فلقد اختط سياسة تساير الغرب وتعادي الشيوعية. لم تتحسن العلاقات السودانية السوفيتية إلا بعد انقلاب إبراهيم عبود في ١٩٥٨/١١/١٧م، حيث بدأ السوفيت في تقديم بعض المعونات الاقتصادية للبلاد رغما عن العداء والتضييق والتنكيل الذي مارسه نظام عبود ضد الشيوعيين، فقد جرم ذلك النظام الشيوعية وحرمها، وطرد كل من أتهم بها من العمل في الخدمة المدنية وأعتقل زعماء الحزب. بدا وكأن السوفيت لا يأبهون لمصير الشيوعيين المحلين (في السودان) إن تعارض ذلك مع مصالح الإتحاد السوفيتي العليا، وكانوا يعدون الحزب الشيوعي السوداني مجرد عامل في سلسلة عوامل كثيرة قد تحكم علاقتهم بالنظام الديكتاتوري في السودان، وهو بالتأكيد ليس أهم تلك العوامل. ظلت ألسنة قادة الحزبين الشيوعيين السوفيتي والصيني تلهج بالثناء الجم على نظام عبود، وعلى الصداقة المستدامة معه بينما كان ذلك النظام يعتقل قادة الحزب ويطارد أعضاءه والمتعاطفين معه،

وزار قادة الحزبين الشيوعيين السوفيتي والصيني السودان ووعدوه بالعون في مجالات الزراعة والصناعة، بل قد نشرت صحيفة البرافدا (الناطقة باسم الحزب الشيوعي السوفيتى) مقالا في يوم ١٩٦٠/١١/١٧م (يوم عيد «ثورة» عبود) ورد فيه بأن السودان لم ينل استقلاله حقيقة إلا في عهد عبود!!! وصرح رئيس الوزراء الصيني شوين لاي خلال زيارته للسودان في يوم ٢٨ /١/ ١٩٦٤م بأن إبراهيم عبود «هو من خلص السودان (أخيرا) من براثن الإمبريالية، ووطد لتعاون مستدام بين النظامين التقدميين». استمر العون السوفيتي للسودان في خلال العهد الديمقراطي الثاني، فتواصلت إمدادات السلاح السوفيتي للسودان عقب هزيمة العرب في حرب الأيام الستة في عام ١٩٦٧م، ولم تتأثر بما جرى من تضييق على الشيوعيين في انتخابات ١٩٦٨م (والتي فاز فيها عبد الخالق محجوب بدائرة أم درمان الشمالية، والحاج عبد الرحمن في دائرة بعطبرة). خلص المؤلفون للقول بأن النظام السوفيتي قام – مضطرا- بالتضحية بالسكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني (عبد الخالق محجوب) من أجل المحافظة على علاقات حسنة مع السودان، إذ أن الاتحاد السوفيتي وعقب إعدام عبد الخالق إثر فشل انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١م كان قد قاد حملات احتجاجات ضخمة وإدانة شديدة ضد نظام نميري للإعدامات التي قام بها ضد زعماء الحزب الشيوعي، بيد أن تلك الحملات توقفت تماما عندما هدد نميري بقطع العلاقات الدبلوماسية مع الإتحاد السوفيتي إن لم تتوقف تلك الحملات.

الحزب الشيوعي في فترة ما قبل الاستقلال:

البدايات: بدأت قصة الحزب الشيوعي في مصر في نهايات الحرب العالمية الثانية عندما قام عدد من الطلاب السودانيين في القاهرة بنشر مجلة سموها «أمدرمان» بالاشتراك مع فصيل من الحزب الشيوعي المصري هو الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني (لعل من كان يشرف على تلك المجلة هو عبده دهب، وهو واحد من أوائل السودانيين الشيوعيين. صدرت «أم درمان» بعد جريدة سميت «حرية الشعوب»). سبقت ذلك عدة محاولات لنشر الشيوعية في السودان بعد الحرب العالمية الأولى، بيد أن السلطات الحكومية أفشلت تلك المحاولات ضمن حملاتها ضد حركة «اللواء الأبيض» والمنظمات الوطنية الأخرى. نشأ الحزب الشيوعي في عام ١٩٤٦م أولا تحت مسمى الحركة السودانية للتحرر الوطني (حستو) وكانت غالبية أعضائه من الطلاب والمثقفين من الذين قاموا بمظاهرة ضد الإمبريالية في مارس من ذلك العام. وكما هي شيمة كل الأحزاب الشيوعية، لم يدم التوافق طويلا بين أعضاء وقيادة الحزب، إذ اتهمت عناصر «انتهازية» بالتسلل إلى اللجنة المركزية التي تقود الحزب، وبتأييد إتحاد السودان مع مصر تحت إمرة التاج الملكي (خلافا للموقف الرسمي المعلن بتأييد الاستقلال التام من بريطانيا ومصر). طرد هؤلاء «الشيوعيون الملكيون» من الحزب في صيف عام ١٩٤٧م، وتم تشكيل لجنة مركزية أخرى كانت أكثر تعبيرا عن الطبقة العاملة. حدثت بعد ذلك أزمة أخرى في الحزب عام ١٩٤٩م عندما هجر عدد من أعضاء الشيوعيين من المتعلمين حزبهم نسبة لما أسموه «السياسية الرجعية/التحريفية» التي كان يتبعها ويمارسها سكرتير الحزب وقتها «عوض عبد الرازق». استمر الخلاف قائما حتى عام ١٩٥١م عندما انعقد المؤتمر الثاني للحزب، وفيه تم طرد الجناح «الرجعي/التحريفي» وأطلق الحزب بعد ذلك عددا من التنظيمات في أوساط الشباب والنساء، ونجح – لأول مرة- في جذب أعداد كبيرة من المزارعين. بدا وكأن الحزب الشيوعي السوداني قد نجح في ما فشلت في تحقيقه كثير من الأحزاب الشيوعية العربية الأخرى من التحول لحزب جماهيري، والخروج من قوقعة المثقفين الصفوية.

خاض الحزب الشيوعي السوداني بعد ذلك معركة الانتخابات التي أعقبت الاتفاقية بين بريطانيا ومصر في عام ١٩٥٣م (وقعت الحكومتان البريطانية والمصرية كما هو معلوم في ١٩٥٣/٢/٢١م اتفاقية يتم بمقتضاها منح السودان حق تقرير المصير في خلال ثلاث سنوات كفترة انتقالية، وجرت أول انتخابات نيابية في السودان

في أواخر عام ١٩٥٣م وتم بموجبها تعيين أول حكومة وطنية وذلك في ١٩٥٤/١/٩م) تحت مسمى «الجبهة المعادية للاستعمار، ونجح في انتزاع مقعد وحيد في مجلس النواب (كان من نصيب حسن الطاهر زروق).

كانت تجربة تلك الانتخابات فرصة ذهبية للحزب الشيوعي لم تتحقق منذ تأسيسه في عام ١٩٤٦م للخروج من دائرة السرية، ولتكوين فروع علنية له في الأقاليم.

الحزب الشيوعي من ١٩٥٦م إلى ١٩٦٨م:

١. **فترة حكم الفريق عبود**: ليس هنالك كثير مما يستحق الذكر عن تاريخ الحزب الشيوعي بين عامي ١٩٥٦م و١٩٥٨م غير تكوين «جبهة وطنية» عام ١٩٥٧م لمعارضة حكومة عبد الله خليل الموالية للغرب. تكونت تلك الجبهة من الحزب الوطني الاتحادي (بزعامة إسماعيل الأزهري) والاتحاد العام للطلاب والجبهة المعادية للاستعمار (والتي كان يسيطر عليها الشيوعيون). وبحسب ما جاء في صحيفة «السودان الجديد» يوم ١٩٥٧/١/٢٦م فإن الحزب الشيوعي كان قد اقترح أن تندمج أحزاب تلك «الجبهة الوطنية» في حزب واحد. عندما رفض ذلك الاقتراح أصدر الحزب الشيوعي توجيها لجماهيره للتصويت لصالح الحزب الوطني الاتحادي. ليس من السهل تقدير قوة الحزب الشيوعي في الفترة المذكورة، بيد أنه وضح أن الحزب الشيوعي كان أكثر الأحزاب استعداد وقدرة لمقاومة حكم عبود العسكري، فقد كانت لديه خبرة سابقة (عمرها أكثر من عقد من الزمان) في الصحافة السرية والعمل «تحت الأرض».

قام النظام العسكري باعتقال العديد من زعماء الحزب والنقابات العمالية في السنوات الخمس الأولى من حكمه. بيد أن قيادة الحزب واصلت نشاطها وهي في السجون، وكانت تلك هي الفترة التي تمت فيها كتابة تاريخ الحزب وبرنامجه السياسي المستقبلي، ووضع أسس للتواصل المنتظم مع جيل جديد من القادة يدير النشاط الحزبي خارج السجون.

في الفترة بين ١٩٦١م و١٩٦٢م بدأ الحزب الشيوعي يعلن عن قرب قيام ثورة على نظام عبود، فدخلت نقابة عمال السكة حديد (التي كانت تضم ٢٧٠٠٠ عامل) في عام ١٩٦١م في إضراب عن العمل عده الحزب إيذانا ببدء معركته مع النظام. وفي نهاية ١٩٦٣م كان الحزب يخطط لإضراب سياسي عام بهدف إسقاط النظام. كذلك ازداد نفوذ الحزب في أوساط المزارعين ففاز الأمين محمد الأمين برئاسة اتحاد المزارعين في بداية عام ١٩٦٤م. بالطبع كان للنظام العسكري الحاكم معارضين عديدين من الجماعات والأحزاب السياسية المختلفة كان على رأسهم السيد/ الصديق عبد الرحمن المهدي زعيم طائفة الأنصار، بيد أن هؤلاء لم يكن لديهم برنامج سياسي متكامل عدا المطالبة بعودة الحكم المدني للبلاد. ومع بداية عام ١٩٦٢م كان الشيوعيون (وبدرجة أقل الأخوان المسلمون أيضا) هم أكثر القوى معارضة للنظام العسكري الحاكم، وغدت نقابات العمال والمزارعين واتحادات الطلاب (وقادتها من الشيوعيين والإخوان المسلمين) مجموعات ضغط لا تكف عن محاولة زعزعة النظام الحاكم.

٢. **ثورة أكتوبر والنظام المدني**: في سبتمبر من عام ١٩٦٤م أيقن نظام عبود أن مشكلة جنوب السودان لا يمكن حلها عن طريق القوة العسكرية، فدعا المواطنين لمناقشات علنية عن مشكلة الجنوب وكيفية حلها. في أحد الندوات التي أقيمت في جامعة الخرطوم لمناقشة مشكلة الجنوب قال الدكتور حسن الترابي (زعيم الأخوان المسلمين) إن حل مشكلة الجنوب يكمن في إشاعة الديمقراطية أولا. تراجعت الحكومة عن قرارها بالسماح بالنقاش العلني حول مشكلة الجنوب وهاجمت ندوة في جامعة الخرطوم في ٢١/ ١٠/ ١٩٦٤م مما أدى لمصرع أحد الطلاب (أحمد القرشي). [سرد المؤلفون حوادث ثورة أكتوبر ببعض التفاصيل، وبعضها خاطئة تماما، فقد أسمى «جبهة الهيئات» لجنة السلامة العامة Committee of Public safety !] جاء تشكيل تلك الجبهة في غالبه من الشيوعيين (أو المتعاطفين معهم) وعد المؤلفون ذلك من آيات نجاح تكتيكات الشيوعيين السودانيين. يرى المؤلفون أن الشيوعيين قد سيطروا على تلك الجبهة التي قادت الثورة وعلى الحكومة التي حكمت بعد سقوط عبود، إذ كان عدد ممثليهم يفوق عدد ممثلي الأحزاب الكبيرة مثل الأمة (الأنصار) والشعب الديمقراطي (الختمية) والوطني الاتحادي مجتمعين، ويعتقدون أن الدور الذي لعبه الشيوعيون (ومن يتعاطف معهم) في الشهور الثلاثة التي أعقبت ثورة أكتوبر كان يفوق بكثير حجمهم الحقيقي في الشارع، كما أثبتت بعد ذلك مجريات الأحداث. أحدثت الأحزاب التقليدية «انقلابا داخليا» في يوم ١٨/ ٢/ ١٩٦٥م نتج عنه تكوين حكومة جديدة أكثر تعبيرا عن الأوزان الحقيقية للأحزاب التقليدية، ولا تضم غير شيوعي واحد (أسمى دكتور عبد الله علي إبراهيم ذلك «نكسة أكتوبر». **كاتب المقال**). قاوم الحزب الشيوعي كل ذلك ودعا «لإنقاذ» ثورة أكتوبر بالتهديد بتعبئة مظاهرات والقيام بإضرابات وجلب مزارعين (مسلحين) من مشروع الجزيرة للخرطوم. أثبت فشل تلك المحاولات ضعف الحزب الشيوعي حتى في أوساط قواعده التقليدية (نقابات العمال والمزارعين)، وأقر سكرتير عام الحزب الشيوعي عبد الخالق محجوب في مقابلة له يوم ١٠/ ٦/ ١٩٦٥م مع صحيفة «الإنسانية» *l'* Humanite (وهي صحيفة شبه مستقلة أنشئت عام ١٩٠٤م، وكان لها ارتباط بالحزب الشيوعي الفرنسي. **كاتب المقال**) بالمصاعب التي واجهت أول حكومة بعد ثورة أكتوبر، وبعدم قدرتها علي تنفيذ المهام التي كان عليها انجازها، إذ أنها كانت كما قال: «بعيدة عن الجماهير»، و شدد على ضعف الشيوعيين والحركة الديمقراطية على وجه الخصوص، الأمر الذي كان يراه سببا في قدرة الأحزاب الرجعية (مدعومة بالإمبريالية) على إجهاض الثورة.

تحت تلك الظروف قرر الحزب الشيوعي خوض الانتخابات العامة التي جرت في مايو ١٩٦٥م، ربما بغرض اختبار مدي شعبيته في أو ساط الجماهير أكثر من أيمانه بإمكانية الفوز بمقاعد نيابية كثيرة. في تلك الانتخابات أحرز الحزب نجاحا نسبيا بفوزه بأحد عشر مقعدا في دوائر الخريجين من مجموع خمسة عشر مقعدا، وكان من بين نواب الحزب الشيوعي – ولأول مرة في السودان- امرأة (هي فاطمة أحمد إبراهيم. **كاتب المقال**). نال هؤلاء النواب الشيوعيون ٧٣١٠٣ صوتا (تمثل ١٧,٣٪ من مجموع الأصوات). يعتقد المؤلفون أن ذلك النجاح النسبي للشيوعيين ربما كان مرده مقاطعة حزب الشعب الديمقراطي لتلك الانتخابات، وربما يعزي أيضا للدور الكبير الذي ينسب للشيوعيين في ثورة أكتوبر ١٩٦٤م.

٣. **الهجمات المضادة على الحزب الشيوعي**: أثار نجاح الحزب الشيوعي في انتخابات ١٩٦٥م الأحزاب الأخرى. فعلى سبيل المثال صرح الصادق المهدي عقب الانتخابات في مقابلات له مع صحيفتي الأنوار والنهار في ١٢ – ١٦ شهر مايو ١٩٦٥م بأن حزبه لن يتعاون أبدا مع الشيوعيين في المستقبل (يذكر ذلك بما صرح به الدكتور

حسن الترابي ذات مرة في الستينات من أنه لن يشارك في ندوة يشترك فيها سكرتير الحزب الشيوعي آنذاك. **كاتب المقال)!** شرح الصادق رأيه بأن سبب رفضه للشيوعيين هو موقفهم العقدي ضد الدين الإسلامي، وتبنيهم لسياسة خارجية يرفضها شعب السودان، وتسيسهم لنقابات العمال. كانت علاقة الدين بالسياسة هي ما دعا «الإخوان المسلمون» في ٨/ ١١/ ١٩٦٥م للقيام بمظاهرات ضخمة مطالبة بحل الحزب الشيوعي كان سببها المباشر قيام طالب سوري شيوعي في معهد المعلمين العالي بالقول بأن الإيمان بالله والرسول إنما هي خرافات عفا عليها الزمن (ليس صحيحا بالطبع أن الطالب المذكور كان سوريا، بل هو سوداني اسمه شوقي محمد علي، وقد تحدث عن «حادثة الإفك» وليس كما ورد في هذا الفصل. **كاتب المقال)**. سارعت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي بنفي عضوية ذلك الطالب للحزب، بينما أصدر «مجلس الشريعة» بيانا لعموم أهل السودان أذيع من راديو أم درمان في ١٤/ ١١/ ١٩٦٥م شرح فيه خطر الشيوعية على الإسلام وطالب بالتحقيق في الدعاية الشيوعية في السودان، ودعا زعيما الحزبان الكبيران لحل الحزب الشيوعي. وبالفعل تقدم عدد من نواب الجمعية التأسيسية في ١٥/ ١١/ ١٩٦٥م باقتراح لحل الحزب ومصادرة ممتلكاته (يذكر أن الحاج مضوي محمد أحمد هو من تولى تقديم ذلك الاقتراح. **كاتب المقال)** . صوت ١٦١ نائبا لصالح ذلك الاقتراح بينما عارضه ١٢ نائبا وامتنع ٩ عن التصويت، بينما كانت المظاهرات تجوب العاصمة مرددة شعارات معادية للشيوعية. في تلك الأجواء أصدر زعيم الختمية السيد علي الميرغني بيانا أذيع من راديو أم درمان في ٢١/ ١١/ ١٩٦٥م طالب فيه بقيام دولة إسلامية كان يراها الترياق الناجع الوحيد ضد الشيوعية. قامت الجمعية التأسيسية في ٢٤/ ١١/ ١٩٥٦م بتعديل الدستور لتجريم الدعاية الشيوعية والإلحاد في السودان، وبعد أسابيع من ذلك وفي مرحلة القراءة الثانية لذلك التعديل أضيفت مادة أخرى تم بموجبها طرد نواب الحزب الشيوعي وقفلت دوره وصودرت ممتلكاته.

يعتقد المؤلفون أن الدافع الرئيس لحل الحزب الشيوعي كان سياسيا محضا، وأن ما قام به ذلك طالب معهد المعلمين العالي في تلك الندوة إنما كان ذريعة استغلها خصوم الحزب الشيوعي من قادة الأحزاب الأخرى للتخلص منه.

قاوم الشيوعيون ذلك الهجوم بطريقين: الاحتجاجات الشعبية واللجوء للقضاء. فحسب ما جاء في صحيفة لوموند يوم ٤/ ١٠/ ١٩٦٦م نظم الحزب في بداية أكتوبر مظاهرة قوامها ٣٠ ألفا جابوا شوارع الخرطوم محتجين على حل الحزب. ثم لجؤوا للقضاء، فبدأت المحكمة الدستورية في النظر في القضية التي رفعها الحزب ضد الجمعية التأسيسية والحكومة في ٢٣ / ١٢/ ١٩٦٥م، وتطاولت مداولات تلك القضية لعام كامل حتى أعلنت المحكمة الدستورية أخيرا بطلان الإجراءات التي اتخذتها الجمعية التأسيسية والحكومة. رفضت الحكومة الإذعان لذلك القرار وواصلت في اعتقال زعماء الحزب الشيوعي وإغلاق دوره وفصل كل المتهمين بالشيوعية من العمل بالجيش والخدمة المدنية، بينما ناقشت الجمعية التأسيسية قرار تلك المحكمة ورفضته وأبقت على ما قررته سلفا بشأن الحزب الشيوعي. وفي ذات الشهر أعلنت الحكومة عن إحباط محاولة انقلابية قام بها الملازم خالد حسين عثمان (الكد)، اتخذت ذريعة لاعتقال عبد الخالق محجوب زعيم الحزب مع عدد من زملائه رغم عدم توفر أدلة مباشرة تربط الحزب بتلك المحاولة (يذكر أيضا أن الضابط جعفر محمد نميري كان من بين من اتهموا بالضلوع في تلك المحاولة الانقلابية المفترضة. **كاتب المقال)**.

في تلك الأيام ظهرت بوادر انشقاق في الحزب الشيوعي، فظهر جناح (يقوده النقابي الشفيع أحمد الشيخ) يرى ضرورة تكوين حزب ا شتراكي وا سع القاعدة يـ ضم الـ شيوعيين، ويمكنهم من العمل الـ سيا سي دون مـ ضايقة من السلطات وقوانينها المجرمة للشيوعية، كل ذلك في مقابل جناح آخر يرى ضرورة الاحتفاظ بكيان الحزب (القديم) واللجوء للعمل السري. ظل الصراع القانوني بين الحزب من جهة وبين الحكومة والجمعية التأسيسية من جهة أخرى مستمرا خلال عام ١٩٦٧م، ففي يوم ١٨ مارس من ذلك العام أصدرت المحكمة العليا حكما بعدم قانونية حل الحزب الـ شيوعي، وهو حكم رفـ ضته الحكومة مجددا بدعوى أن الـ شيوعية لا تنافح عن الديمقراطية، وتعادي الإسلام. كانت تلك الأزمة الدستورية بمثابة انتصار من نوع ما للحزب الشيوعي، إذ لم تنجح خطة كل الأحزاب الـ سيا سية لعزل الحزب تماما رغم موجة العداء التي شنتها ضده، وظل محتفظا بـ شعبية وا سعة نـ سبيا و سط أفراد النقابات والمثقفين. قدم رئيس المحكمة العليا بابكر عوض الله استقالته من القضاء احتجاجا على عدم احترام الحكومة والجمعية التأسيسية لقرار محكمته مما زاد تلك الأزمة الدستورية تعقيدا. ومع مقدم عام ١٩٦٨م أصدرت لجنة الانتخابات قرارا بعدم أحقية الشيوعيين وأفراد المنظمات غير القانونية الأخرى في الترشح للانتخابات العامة، وجففت مصادر قوتهم بإلغاء دوائر الخريجين (والتي اكتسحها الحزب الشيوعي في انتخابات ١٩٦٥م) وزادت أعداد الدوائر في الأقاليم (ربما لتقوية موقف القوى التقليدية والقبلية).

قام حزبا الـ شعب الديمقراطي والوطني الاتحادي بالاندماج في حزب واحد (سمي حزب الاتحاد الديمقراطي) برئاسة إسماعيل الأزهري، وقوى ذلك من فرص فوز ذلك الزعيم بالانتخابات منفردا في مقابل مرشح حزب الأمة، والذي انـشطر لجناحين في عام ١٩٦٦م، وقوى أيضا من سلطة قيادة «إسلامية شعبوية». إزاء تلك التطورات أعلن الشيوعيون عن تكوين «الحزب الإشتراكي» في يوم ٢١/ ١/ ١٩٦٧م، والذي كانت قيادته المركزية تتكون من ٦٠ فردا من العمال والمزارعين و المثقفين الوطنيين. عبر الحزب في بيان تأسيسه عن تمسكه بالاشتراكية العلمية، واحترامه للدين كعامل مهيمن في المجتمع السوداني. كان من أبرز قادة ذلك الحزب الأمين محمد الأمين (من قادة مزارعي الجزيرة) والشفيع أحمد الشيخ (من قادة العمال) وأمين الشبلي (من قادة المحامين).

في الانتخابات التي جرت في أبريل ١٩٦٨م كان قوة ونفوذ الحزب الشيوعي تعادل (ولا تتعدى) قوته ونفوذه في عام ١٩٥٣م. في تلك الانتخابات نال الحزب الاتحادي الديمقراطي ١٠١ مقعد من مجموع ٢١٨ نائبا، بينما حصد جناحا حزب الأمة ٧٢ مقعدا، وأكدت تلك النتيجة غلبة الإ سلام في السودان و شعبيته. أحرز الجنوبيون ٢٥ مقعدا، بينما نال البجة والنوبة ٥ مقاعد، وجبهة الميثاق الإسلامي (الإخوان المسلمون) ٣ مقاعد. بهذا يكون مجموع مقاعد القوى التقليدية ٢٠٠ نائب، بينما لم يفز من الشيوعيين (المعروفين) غير عبد الخالق محجوب مما أكد للشيوعيين أن آفاق مستقبلهم في السودان الديمقراطي ليست مواتية ولا مشرقة.

اندلعت مظاهرات طلابية في الخرطوم وبعض المدن الأخرى في نوفمبر ١٩٦٨م قتل فيها أحد الطلاب أعادت عند البعض أجواء ثورة أكتوبر ١٩٦٤م، وقام طالب في أحد تلك المظاهرات بقذف قنبلة كوكتيل مولوتوف على مبنى البرلمان مما دعا إسماعيل الأزهري (رئيس مجلس السيادة) إلى المناداة بطرد عبد الخالق محجوب ممثل الشيوعيين في البرلمان لأنهم – حسب قوله- يهدفون إلى إسقاط حكومة محمد أحمد المحجوب المنتخبة ديمقراطيا. يجدر بالذكر أن عبد الخالق محجوب كان في تلك الأيام في رحلة في شرق أوربا (لعل ذلك كان بعيد زواجه الذي أثار خلافا (محدودا) في صفوف حزبه. **كاتب المقال**).

بحسب بعض المصادر الشيوعية ذكر المؤلفون أن لجنة الحزب الشيوعي المركزية (رغم معارضة سكرتيره العام) ناقشت في مارس عام ١٩٦٨م تأييد فكرة قيام انقلاب عسكري يقوم به «الضباط الأحرار» و«الجبهة الوطنية الديمقراطية» ضد الحكومة الديمقراطية. لابد أن إتحاد جناحي حزب الأمة في ١١/ ٤/ ١٩٦٩م، والحديث عن تحالف عريض بين القوى الحزبية التقليدية (لإقامة دستور إسلامي) أثارت قلقا كبيرا في أوساط الحزب الشيوعي، ولكن تم حسم كل ذلك بانقلاب نميري في ٢٥ مايو ١٩٦٩م.

الحزب الشيوعي ونظام نميري:

يمثل انقلاب نميري مرحلة جديدة، بل حاسمة، في تاريخ الحزب الشيوعي. ففي خلال الأعوام ١٩٦٤ – ١٩٦٩م (وخاصة بعد انتخابات مايو ١٩٦٥م) كان الحزب الشيوعي قليل الخطر والتأثير والأهمية في المشهد السياسي السوداني. بيد أن انقلاب ١٩٦٩م دفع بالحزب الشيوعي إلى مقدمة الحراك السياسي، ومنحه قوة ونفوذا تفوق وبكثير قوته الحقيقية.

كان نظام النميري ومنذ نجاح انقلابه في ٢٥ مايو ١٩٦٩م وإلى ما بعد الانقلاب الشيوعي عليه مباشرة في ١٩ يوليو ١٩٧١م يصارع عاملين مهمين في السياسة السودانية الشمالية هما: القوى التقليدية من جهة، واليسار المتطرف من جهة أخرى، لا يعلم تماما من من الطرفين هو من كان سببا في التعجيل بقيام ذلك الانقلاب. كانت قيادة نميري لمجلس قيادة الانقلاب، وتركيبة مجلس قيادة ذلك الانقلاب (والمكونة من ضباط جيش ومدني وحيد هو بابكر عوض الله) تشي بمن هو الطرف الأقوى في ذلك التحالف بين العسكريين والمدنيين.

ما من شك في أن نميري كان يدرك منذ البداية حاجته لتأييد الشيوعيين واليساريين لكبح جماح القوى اليمينية التقليدية والقوى المتعاطفة مع الغرب عموما، خاصة وأن لهم نفوذا واسعا في أوساط النقابات وصفوة المثقفين والطلاب، وأيضا لأن كثيرا من صغار ضباط الجيش كانوا من اليساريين، وقليل منهم قد يكونوا من المنتمين تنظيميا للحزب الشيوعي. كان نميري يعي أيضا حاجة نظام مايو الجديد لخبرة ومهارة قيادات الحزب الشيوعي المخضرمين. أضاف المؤلفون أيضا قولا جديدا ربما لم يسبقهم عليه أحد من أن نميري لم يتعاون مع الشيوعيين إلا لعلمه بأنهم في حقيقة الأمر ضعفاء لا يشكلون أي تهديد حقيقي له.

في أول بيان لقائد الانقلاب المايوي تم إعلان السودان جمهورية ديمقراطية، ستعمل على المستوى الخارجي على دعم حركات التحرر في كفاحها للامبريالية وستمد يد التعاون العسكري والاقتصادي والثقافي للدول العربية والأفريقية التقدمية، وتؤيد كفاح الشعب الفلسطيني. أما داخليا فستعمل مايو على تنمية البلاد وحل مشكلة الجنوب على أساس الحكم الذاتي، وستقيم حزبا واحدا يتكون تحالف للعمال والزراع والجنود والرأسمالية الوطنية والمثقفين الوطنيين. كان ذلك البرنامج يطابق في كثير من تفاصيله ما ورد في برنامج الحزب الشيوعي السياسي والاقتصادي والاجتماعي الصادر في عام ١٩٦٦م.

يجب ملاحظة أن الحزب الشيوعي كان عند قيام انقلاب مايو في مايو ١٩٦٩م قد تعرض للانشقاق منذ سنوات طويلة نسبيا (لعل الكتاب يشيرون للانقسام الذي حدث في صيف عام ١٩٦٤م وخرج فيه من الحزب «جناح صيني» بقيادة أحمد شامى، ويوسف عبدالمجيد وعلى عمر) ومن المهم أيضا النظر بعناية لسلوك قادة ذلك الحزب تجاه النظام الانقلابي الجديد وللمناقشات الواسعة التي جرت في أروقته بخصوص تأييد الانقلاب والتكامل معه بعيد وقوعه. تنازعت الحزب رؤيتان، تتعلق إحداهما بنظرة الحزب الشيوعية لفكرة الانقلابات العسكرية، والأخرى بخصوص الاستفادة من الانقلاب والتعاون معه للحصول على مراكز في إدارة الدولة لم تكن ميسرة بالطرق الديمقراطية العادية. لذا فإن تحالفا «غير مقدس» قد نشأ بين مركزين سياسيين وقوتين غير متجانستين هما النظام العسكري واليساريين، وكل منهما يتربص بالآخر، ويؤمل في الاستفادة (وحده) من ذلك التحالف من أجل مصالحه الخاصة. بيد أن قادة النظام العسكري كانت بيدهم القوة، ولم يكن يعتمدون على سند الشيوعيين فقط ، بينما كان الشيوعيون يعتمدون على النية الحسنة (goodwill) عند العسكر.

كان و ضع الحزب الشيوعي عشية الانقلاب المايوي جيدا، إذ كان أربعة من أعضاء مجلس قيادة الثورة العشرة إما أعضاء في الحزب الشيوعي أو من اليساريين. لم يستثن الحزب الشيوعي من الحل مع بقية الأحزاب الأخرى عقب انقلاب مايو، وكان بعض الوزراء في أول وزارة مايوية من أنصار عبد الخالق محجوب (مثل جوزيف قرنق) بينما كان هنالك ممن هم ضده مثل فاروق أبو عيسى ومكاوي مصطفى.

حاول نميري في ٣٠ مايو ١٩٦٩م (أي بعد أقل من أ سبوع من الانقلاب) فض أي ارتباط مفترض عند الناس بين انقلابه والحزب الشيوعي، وأن يمحو من الأذهان أي صلة أيديولوجية بين انقلابه والشيوعية فأكد أن «ثورتنا» نبعت من آمال وتطلعات الجماهير... و أنه لن تكون هنالك حكو مة شيوعية في السودان...و أن كل الوزراء قد تم اختيارهم على أساس التعليم والكفاءة والخبرة والالتزام بخدمة مصالح الجماهير دون كبير اعتبار لتوجهاتهم السياسية أو لانتمائهم الحزبي. لا عجب إذن إن عبر عبد الخالق محجوب زعيم الحزب الشيوعي عن تأييده لانقلاب مايو بعبارات مترددة ملتبسة. ففي مقابلة له مع المجلة الروسية الأسبوعية za Ruberzhom يوم ١١/ ٨/ ١٩٦٩م صرح عبد الخالق بأن...« الشيوعيون يؤمنون بأن الحكومة الحالية حكومة تقدمية، وأن حركة ٢٥ مايو قد خلقت أفضل الظروف لمواصلة النضال الجماهيري لتحقيق مهام الثورة الوطنية الديمقراطية. لذا فإن الحزب الشيوعي السوداني يؤيد بصدق وإخلاص سيا سية الحكومة الجديدة... حزبنا ينا ضل تحت هذه الظروف الجديدة لتوسيع (قاعدة) الحركة الجماهيرية الديمقراطية، ولمنح الجماهير حقوقها السياسية، وحل مشاكلها الاجتماعية والاقتصادية العالقة.» وكان عبد الخالق قد صرح في مناسبة أخرى قبل ذلك (تحديدا في يوم ٣/ ٨/ ١٩٦٩م) لصحيفة «السودان الجديد» بأن «إنجاز مهمة تقوية السلطة التقدمية تتطلب مزيدا من العنف الثوري.»

يونيو ١٩٦٩م – نوفمبر ١٩٧٠م: إعادة انتشار القوات:

اشتعل الصراع (الخفي والعلني) على السلطة بين القوى العسكرية والمدنية التي كانت تتولي إدارة البلاد باستخدام مختلف أنواع التكتيكات، ولم تسلم من هذه الصراعات حتى الدائرة الضيقة للمقربين من نميري. كان فريق من هؤلاء يرى الاستفادة من التفاف الشيوعيين واليساريين حول النظام لتقويته وحمايته، بينما كان فريق آخر

يتخوف من «سرقة» الشيوعيين للسلطة والانفراد بها. وانقسم الحزب الشيوعي نفسه لجناحين، أحدهما بزعامة عبد الخالق محجوب، وهو جناح يطالب بالحفاظ على هوية الحزب وكينونته وأيدلوجيته واستقلاليه، بينما كان الجناح الآخر برئاسة أحمد سليمان ومعاوية إبراهيم سورج، ينادي بالتكامل مع إدارة النظام، واستخدامه كقاعدة انطلاق لتمتين الحركة الشيوعية في داخل الدولة. وضح مدى هذا الصراع وأبعاده في أحداث كثيرة جرت في الفترة ما بين يونيو ١٩٦٩م ونوفمبر ١٩٧٠م ذكر المؤلفون منها:

(أ) عين مجلس قيادة الثورة في ٩/ ٦/ ١٩٦٩م عددا من الوزراء الجدد في الوزارة، كان منهم جوزيف قرنق كوزير لشؤون الجنوب. وجوزيف قرنق هو أحد الشيوعيين الجنوبيين ومن أنصار جناح عبد الخالق محجوب. فيما عدا جوزيف كان بقية الوزراء الجدد من المحسوبين على الوسط أو يمين الوسط.

(ب) صرح رئيس الوزراء بابكر عوض الله (في أثناء زيارة له لألمانيا الشرقية في أكتوبر ١٩٦٩م) بأن «ثورة مايو لن تسير بغير الشيوعيين». أثارت تلك التصريحات لغطا وتفاعلات متباينة في أوساط الناس. عجل مجلس قيادة الثورة بالرد المفحم على تلك التصريحات بنفي اعتماد «الثورة» على فصيل بعينه. يعزي المؤلفون مقالة بابكر عوض الله عن الشيوعيين إلى قيام عدة مظاهرات معادية للشيوعيين في عطبرة (في يوليو ١٩٦٩م) والخرطوم (في أكتوبر ١٩٦٩م)، وإلى العداء الذي بدأ يظهر في الأفق بين مؤيدي مايو لتزايد نفوذ الشيوعيين في السلطة وعلو صوتهم. وفي هذا الجانب أشار المؤلفون في ثبت المراجع (وعددها ١١٩ مرجعا) إلى ندوة سياسية لعبد الخالق محجوب في أكتوبر ١٩٦٩م دافع فيها عن الشيوعيين ضد ما يتعرضون له من هجوم من القوى الأخرى المؤيدة لمايو. عقب تصريحات بابكر عوض الله أجرى مجلس قيادة الثورة في ٢٩/ ١٠/ ١٩٦٩م تعديلا وزاريا آخر عين بموجبه نميري رئيسا للوزارة (بديلا لبابكر عوض الله)، وعين الأخير نائبا لرئيس الوزراء ووزيرا للعدل، وللخارجية أيضا. دخل الوزارة هذه المرة أحمد سليمان (الزعيم الشيوعي المناوئ لعبد الخالق محجوب) كوزير للاقتصاد والتجارة الخارجية، وهاشم العطا كوزير للثروة الحيوانية. لعل المقصود من تلك التعديلات هو «تحييد» تأثير بابكر عوض الله (المدني) وتقوية القبضة العسكرية على السلطة، وتقوية الجناح الشيوعي المناوئ لعبد الخالق محجوب. من التعيينات المهمة جدا في ذلك التعديل الوزاري (والتي ستثبت ما جرى من أحداث فيما بعد أهميتها) هو تعين عضو مجلس قيادة الثورة خالد حسن عباس كوزير للدفاع. يرى المؤلفون أن مجريات الأحداث تفيد بأن الدائرة المحيطة بنميري في تلك الأيام، ورغم إدراكها لتكتيكات الشيوعيين ومراميها، كانت ترى أن العدو الأول لنظام مايو ما زال هو القوى التقليدية، وليس قوى اليسار.

(ج) تميزت الفترة بين أكتوبر ١٩٦٩ ونوفمبر ١٩٧٠م بصراعات حادة بين الحزب الشيوعي (جناح عبد الخالق محجوب) ودائرة نميري الحاكمة. كان أساس ذلك الصراع أيدلوجيا ومبدئيا، ولكنه ظهر أيضا في الاختلاف حول كثير من السيا سيات الداخلية (مثل معار ضة إنشاء الاتحاد الا شتراكي السوداني في يناير ١٩٧٠م) والخارجية (مثل معارضة الاتحاد المقترح مع مصر وليبيا). بلغت تلك الخلافات ذروتها حين أعتقل عبد الخالق محجوب في منتصف أبريل ١٩٧٠م ونفي إلى القاهرة (في نفس طائرة الزعيم اليميني المعارض المنفي الصادق المهدي)، وكان ذلك بعد أسابيع قليلة من هزيمة قوات الحكومة للأنصار في مارس ١٩٧٠م. مما لا شك فيه أن نفي عبد الخالق خارج البلاد كان تقوية للحزب الشيوعي الممالئ للسلطة المايوية (جناح أحمد سليمان ومعاوية إبراهيم)، بيد أنه لم يخفف من التوتر والصراع بين دائرة نميري والحزب الشيوعي.

يمكن تذكر تسلسل الأحداث التي تمثل «إعادة انتشار القوات» بعد هزيمة الحكومة عسكريا للأنصار في مارس ١٩٧٠م كما يلي: تأخير إصــدار «الميثاق الوطني»، وعمليات التأميم والمصــادرة لعدد من الشــركات في ٢٥ مايو ١٩٧٠م، والإعلان عن محاولة انقلابية في يوليو ١٩٧٠م زعم أن عبد الخالق كان يؤيدها، وتعديل وزاري في ٢١ يوليو ١٩٧٠م، وأخيرا عودة عبد الخالق محجوب للسودان في ذات الشهر. عقد الحزب الشيوعي في أغسطس من ذلك العام مؤتمره لمناقشة مستقبل علاقته بالسلطة الحاكمة. قرر الحزب في ذلك المؤتمر عدم حل نفسه (منتصرا لرأي عبد الخالق). حاول الحزب الشيوعي السوفيتي التوسط بين الحزب الشيوعي السوداني والسلطة الحاكمة فأوفد للخرطوم عضو المكتب السياسي بولانسكي Poliansky في أكتوبر ١٩٧٠م (لعل المقصود هو Dimitry Polyansky وقد كان عضــوا في المكتب الســياســي للحزب الشــيوعي الســوفيتي بين عامي ١٩٦٠ – ١٩٧٦م) للتخفيف من حدة الصراع ومنع وصوله لنقطة اللاعودة.

نوفمبر ١٩٧٠م – يوليو ١٩٧١م: من علاقة التوتر إلى الصراع

كان الشهر التالي، شهر نوفمبر ١٩٧٠م، شهرا حاسما في العلاقات بين نظام نميري والحزب الشيوعي. ففي يوم ١٦/ ١١/ ١٩٧٠م عزل مجلس قيادة الثورة ثلاثة من أعضائه (أعدموا بعد نحو عام بعيد انقلاب ١٩ يوليو ١٩٧١م) هم الرائد فاروق حمد الله والمقدم بابكر النور والرائد هاشم العطا، وأمر بحبسهم في منازلهم (لعل هذا بحسب أحد الخبراء بتاريخ تلك الفترة ليس صــحيحا. **كاتب المقال**). عين المجلس رئيســه نميري وأثنين آخرين من أعضــائه كوزراء في المناصــب الوزارية التي كان يشــغلها الثلاثة المفصــولين، فتولى نميري وزارة التخطيط بدلا عن المقدم بابكر النور، ودخل كل من تبقى في مجلس قيادة الثورة مجلس الوزراء. صاحبت ذلك حملة تطهير شاملة في صفوف القوات المســلحة، واعتقال لعدد من قادة الحزب الشــيوعي (وشــمل ذلك عبد الخالق محجوب، والذي كان رهن الاعتقال المنزلي منذ عودته من منفاه في القاهرة). ذكر نميري أن من أســباب عزل الضــباط الثلاثة هو تعاونهم مع «عناصر تدعي التقدمية، ولكنها تقف عائقة في طريق الثورة وتحاول وإضعافها» وقال في مناسبة أخرى إن هؤلاء «لم يلتزموا بما توافقنا عليه بالعمل من داخل مجلس قيادة الثورة فقط، وليس من خارجه، وكانوا يســربون أخبار المجلس ومداولاته لخارجه...وكانوا يعملون بوحي من توجيهات عبد الخالق محجوب، والذي ســيطر عليهم بأفكاره الهدامة وغذاهم بنواياه، وهدفه النهائي هو الاستيلاء على السلطة.»

بحسب رأي المؤلفين فقد ساعدت عوامل كثيرة نميري في عزله للضباط الثلاثة، كان من بينها الثقة التي وفرتها له الهزيمة الماحقة التي ألحقها بالأنصار في مارس ١٩٧٠م، والضغوط التي مارسها عليه زملاؤه في المجلس من غير الشيوعيين (مثل خالد حسن عباس)، ولثقته أن مصر وليبيا ستساعدانه في حالة حدوث صراع داخلي في البلاد.

أعقب عزل الضباط الثلاثة موجة احتجاجات في أوساط الطلاب اليساريين في جامعة القاهرة الفرع، حيث وقعت صدامات عنيفة بينهم وبين معارضيهم، بينما أصدر الحزب الشيوعي في ذات اليوم (١٦/ ١١/ ١٩٧٠م) بيانا ندد فيه بما جرى وطالب بإعادة الضباط المعزولين لمناصبهم السابقة وكل «الضباط الأحرار» الذين تم فصلهم من الخدمة العسكرية، وطالبوا بإطلاق سراح عبد الخالق محجوب زعيم الحزب.

رد نميري على بيانات الشـيوعيين واحتجاجاتهم بخطاب حاسـم في يوم ١٢/ ٢/ ١٩٧١م هاجم فيه الشـيوعيين هجوما كاسـحا وانتقدهم نقدا لاذعا، وختم خطابه بالتأكيد على أنه «لن يكون هنالك مكان للشـيوعيين في الثورة السـودانية» وأعاد وكرر مقولة أن الثورة هي لكل الجماهير، وأن من يقف في طريقها سـيعزل فورا، بل وطالب كل أفراد الشعب السوداني بالقضاء على كل من يزعم بأن هنالك شيئًا اسمه الحزب الشيوعي السوداني، وشن بعد ذلك حملة شـاملة للقضـاء على قواعد ذلك الحزب، وعلى كل من يشـتبه بتعاطفه مع الحزب في الخدمة المدنية والجيش والشرطة (يجب ملاحظة أن نميري – وإلى ذلك التاريخ- لم يرفع راية الإسلام كما فعل لاحقا). فشلت محاولات الوساطة بين الشيوعيين والسلطة والتي قادها السادات (بحسب ما جاء في المجلة المصرية «كل شيء» الصادرة في ٤/ ٣/ ١٩٧١م) وو فد سـوفيتي وصـل الخرطوم في ٢٤/ ٣/ ١٩٧١م (بحسـب ما ورد في جريدة النهار في ٢٦/ ٣/ ١٩٧١م). بعد عودة نميري من القاهرة في ٢٠/ ٤/ ١٩٧١م عقب حضوره لمباحثات لمناقشة الاتحاد مع مصر وليبيا ألقى خطابا أعلن فيه أن السودان لن يشترك – حاليا- في الاتحاد المزمع بين مصر وليبيا، وأنه سينشئ حزبا جامعا هو «الاتحاد الاشتراكي السوداني»، وألغى منظمة الشباب السوداني واتحاد المرأة واتحادات الطلاب (وكل هذه المنظمات تعد شـيوعية الهوى والتوجه). وفي خطابه في عيد مايو الثاني (٢٥/ ٥/ ١٩٧١م) أعاد نميري مقولة ضرورة اتحاد «القوى الوطنية» (وليس «القوى الثورية »كما ينادي الحزب الشيوعي) وطالب بتغيير القوانين والنظم الداخلية في النقابات بحيث تكون بالانتخاب العام. بدا واضـحا أن نميري ينفذ خطة إسـتراتيجية محكمة للتخلص المتدرج من الحزب الشيوعي وكل قواعد نفوذه في كل مظانها.

انقلاب ١٩ يوليو الفاشل وعقابيله:

أفلح عبد الخالق محجوب في الهرب من معتقله (في مصـنع الذخيرة بالشـجرة. **كاتب المقال)** في ٢٩/ ٦/ ١٩٧١م، وكان ذلك الهروب مقدمة لأحداث ستجعل من يوليو ١٩٧١م شهرا عصيبا وحاسما لنظام نميري وللحزب الشـيوعي. تصـادمت في الشـهر قوتان تقفان على طرفي نقيض: **جماعة نميري** والتي لطالما حاولت صـد تكتيكات الشـيوعيين للاسـتيلاء على السـلطة، **والحزب الشـيوعي**، والذي كان يسـعى لاسـترداد مكانته وحظوته المفقودة. مثلت تلك المواجهة لنميري وجماعته «ثورة الشيوعيين المضادة».

نجح انقلاب ١٩ يوليو الشـيوعي (بقيادة الضـباط الثلاثة الذين عزلوا من مجلس قيادة انقلاب مايو) دون إراقة نقطة دم واحدة، وكرر البيان الأول لذلك الانقلاب أن السودان جمهورية ديمقراطية مستقلة ستمنح الجنوب حكما ذاتيا، وستلغي كل القرارات والقوانين كانت قد صدرت في عهد نميري، وتحل كل المؤسسات التي أنشأها، وستقوم بثورة صناعية وزراعية (اشتراكية) تنمي السودان على طريق لارأسمالي. في السياسة الخارجية أعلن البيان تأييد النظام الجديد للنضـال الفلسـطيني ولكل حركات التحرر العالمية، وسـعيه للصـداقة مع دول العالم الثالث والدول الصديقة وعلى رأسها الاتحاد السوفيتي.

قام قادة انقلاب ١٩ يوليو باعتقال نميري وزملائه وكذلك بعض الشـيوعيين من الجناح (الآخر) مثل فاروق ابو عيسى ومعاوية إبراهيم. لعل ذلك الاعتقال كان خطأ تكتيكيا للثوار الجدد، إذ أن نميري وزملاءه هربوا من معتقلهم وقاموا في ٢٢/ ٧/ ١٩٧١م بانقلاب مضاد استعادوا به السلطة (لم يذكر المؤلفون صراحة ما كان على قادة انقلاب ١٩ يوليو فعله بنميري وصحبه بعد اعتقالهم! **كاتب المقال)**. يعزي المؤلفون سهولة استعادة نميري للسلطة من

الشـيوعيين وضـعف مقاومة عودته لضـعف جذور الحزب الشـيوعي في أوسـاط السـودانيين وقلة شـعبيته في أوسـاطهم. وخلافا للتسـامح والرفق الذي أبداه قادة انقلاب ١٩ يوليو تجاه معتقليهم: نميري ورفاقه، أصـر نميري على إعدام قادة من انقلبوا عليه (واثنان منهم كانا خارج البلاد عند قيام الانقلاب) وقادة الحزب من المدنيين مثل عبد الخالق محجوب والشفيع أحمد الشيخ وجوزيف قرانق. بذا خسر الحزب الشيوعي في ذلك الانقلاب (والذي لم يدم لأكثر من «ثلاثة أيام عاصـفة») «زهرة قادته» ممن اتهموا بتدبيره، واختتم فصـل من فصـول تاريخ السـودان الحديث. رغم أن محاولات عديدة قد جرت لإعادة الحياة والتنظيم للحزب إلا أن الوضـع الحالي للحزب بعيد كل البعد عن ما كان عليه إبان فتوته القديمة (لعل هذا الرأي قد كتب في أو قبل عام ١٩٧٤م. **كاتب المقال**).

سـجل المؤلفون ما كتبه الصـحفي المصـري الأشـهر محمد حسـنين هيكل في «تشـريح ما بعد الوفاة post mortem analysis » للحزب الشيوعي السوداني (وأذيع من راديو القاهرة يوم ٣٠ / ٧/ ١٩٧١م، ومن البي بي سي يوم ٢/ ٨/ ١٩٧١م). (ليس في ذلك التقرير من جديد يستأهل الذكر هنا. **كاتب المقال**).

اختتم المؤلفون ذلك الفصل في كتاب «الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط» بصفحات خمس دارت حول أهم ما أتوا على ذكره في الفصل. من بين ما ذكر ملخص البحث ما يلي:

١- ظهر الحزب الشـيوعي السـوداني في الخمسـة وعشـرين عاما من عمره (١٩٤٦ – ١٩٧١م) كأقوى حزب شـيوعي في العالم العربي وأكثرها تنظيما، رغم ظروف السـودان الاجتماعية والسـياسـية (والطائفية والدينية) غير المواتية، والتي ساعدت – على عكس ما هو متوقع- على نشر الأفكار الشيوعية.

٢ -كانت طبقة المثقفين (الإنتلجنسـيا) هي الحليف الطبيعي للحزب عند إنشـائه، وربما كان ذلك كرد فعل لسـيطرة الطائفية (تحديدا الختمية والأنصـار) على الحزبين الكبيرين في السـودان. وللهروب من قبضـة الطائفية قام الشيوعيون و«الإخوان المسلمون» بتكوين حزبيهما في ١٩٤٦م.

٣- بدأ انتشـار الشـيوعية في السـودان لأول مرة في العشـرينات عن طريق بعض موظفي السـكة حديد في أتبرا (بحـ سب ما علمت من أحد الخبراء في هذا الـ شأن فإن كل ما حدث في العـ شرينات هو أن موظفاً واحدا فى الـ سكك الحديدة كان يتلقى منـ شورات شيوعية من الخارج، و سرعان ما تم القبض عليه واعترف بنـ شاطه المحدود ولم يكن ثمة نـ شاط شيوعى منظم في تلك الـ سنوات، كما زعم المؤلفون). بعد ذلك بـ سنوات طويلة ساعد تبني قادة نقابات العمال (لأ سباب ايدلوجية) للفكر الـ شيوعي على زيادة نفوذ و شعبية الحزب الـ شيوعي في أو ساط العمال (حتى بين غير المنتمين للحزب) في مدن مثل الخرطوم وأتبرا، ولكن نفوذ قيادات نقا بات العـمال من الشـيوعيين بدأ في الانحسـار منذ منتصـف السـتينات، ففي فبراير من عام ١٩٦٥م مثلا فشـل الحزب الشـيوعي فشـلا ذريعا في دفع نقابات العمال للقيام بإضراب عام كان الدافع من وراءه إسقاط الحكومة (الطائفية).

٤- واجهت محاولات الحزب الشيوعي للتغلغل في اتحادات المزارعين (خاصـة في الجزيرة) مصـاعب فاقت المصـاعب التي واجهها الحزب مع العمال، إذ أن المزارعين يعدون – وعلى وجه العموم- أكثر قطاعات المجتمع تحفظا. غير أن مشروع الجزيرة، وبتركيبته القبلية المتباينة، وبخلقه لنمط جديد من العلاقات بين المزارعين وإدارة

المشروع جعل من الممكن نشوء علاقة احتكاك (وربما صراع) بين المزارعين من جهة، وإدارة المشروع (والتي تمثل الحكومة) من جهة أخرى، وهذه و ضع أحسن الحزب الشيوعي ا ستغلاله. فمثلا في بداية الخمسينات صار ذلك الحزب واحدا من أشـد المدافعين عن قضـايا مزارعي القطن في الجزيرة و جبال النوبة ومناطق أخرى. نجح الحزب في نهاية حكم عبود (تحديدا في يناير ١٩٦٤م) في إيصـال شـيوعي هو الأمين محمد الأمين لقيادة اتحاد المزارعين، رغم أن اهتمام المزارعين – على وجه العموم- بمصالحهم الاقتصادية كان أكبر من اهتمامهم بالسياسة.

٥- حاول الحزب الشيوعي، ومنذ منتصف الستينات أن يجد له موطأ قدم في الجيش (خاصة بين صفوف الضباط)، ربما لفقدانه لأي أمل في أن يصبح قوة يعتد بها في إطار الفصائل السياسية الفاعلة في السودان الديمقراطي. لعل تأييد الشيوعيين لنميري في حملته ضد الأنصار (حتى مارس ١٩٧٠م) قد أعطى الانطباع الخاطئ بأن انقلاب مايو ١٩٦٩م كان من تدبير الشيوعيين، ولكن عندما أنقلب نميري على الشيوعيين قامت قواعد الحزب الشيوعي في الجيش بالانقلاب على نميري في ١٩ / ٧/ ١٩٧١م.

٦- قد يعزى نجاح الشيوعيين في السودان إلى وجود قيادة تتميز بالاستقلالية وبعد النظر، خلافا لما كان عليه الحال عند كثير من الأحزاب الشيوعية في العالم العربي، وهذا ما مكنه من نيل ثقة وتأييد نقابات العمال والمزارعين، وفي وسط الجيش أيضـا، رغم أن الشيوعية ظلت أيديولوجية غريبة / دخيلة عند كثير من المتعاطفين مع الحزب. كذلك تميز الحزب بحسن التنظيم والمرونة السيا سية، وبقدرته على التغلغل في أو ساط المنظمات الأهلية وغيرها. بيد أن للمرونة السياسية التي تلامس حد الانتهازية مضارها بالطبع. وهذا ما وضح جليا عند الخلاف بين الشيوعيين إزاء انقلاب مايو وانشطار الحزب لجناحين بينهما ما صنع الحداد.

إن أكثر ما يميز الحزب الشيوعي السوداني هو موقفه المتكيف/ المرن (flexible) مع الدين لإدراكه لأهميته في حياة المجتمع السوداني. ظلت الأحزاب الشيوعية في عدد من الدول العربية تجاهر بعدائها للدين، أو تتجاهله على أحسن الفروض، وهذا ما تجنب فعله الحزب الشيوعي السوداني. فاللجنة المركزية للحزب الشيوعي تبدأ اجتماعاتها بالصلاة وتلاوة آيات من القرآن (لم يذكر الكتاب خلافا لعادتهم مصدرا شفهيا او مكتوبا لهذه المعلومة، و سعيت لتأكيدها أو نفيها فتبين من قول لمثقف مهتم بتاريخ الحزب أن ذلك ليس صحيحا. **كاتب المقال**)، وتنتشر مفارش الصلاة في ساحة دار الحزب لمن يريد من الأعضاء والزوار أن يؤدي الصلاة في ميقاتها.

٧- هنالك سؤال لم يجد له إجابة شافية بعد: فيم كان يكمن سر قوة الحزب الشيوعي؟ لا يمكن الاعتداد بعدد المنتمين إلي حزب ما، بل على نوعيتهم. قد تكون قوة الحزب الشيوعي (الظاهرية) تكمن في قدرته على التنظيم، وعلى اختراق النقابات والمنظمات الأهلية والتغلغل فيها، وقد يكون أيضا انعكاسا لضعف الأحزاب الأخرى. يعتقد المؤلفون أن قوة الحزب الشيوعي قد تعزي لقدرتهم على المخاطرة واستعمال القوة (ليس بالضرورة قوتهم الذاتية!)، وأن الأدوار التي لعبها الحزب في ثورة أكتوبر ١٩٦٤م الشعبية، وفي انقلابي مايو ١٩٦٩م ويوليو ١٩٧١م كانت أدوارا متواضعة نسبيا لا تتناسب مع ما ينسب له من دور فاعل مهمين.

هل بالفعل تم سـحق الحزب الشـيوعي بعد فشـل انقلاب يوليو ١٩٧١م وإعدام وسـجن كبار قادته ؟ لا توجد إجابة محددة لهذا السـؤال، بيد أنه يمكن الافتراض بأن من تحالفوا مع نميري من الشـيوعيين وانضـموا إلى الإتحاد الاشـتراكي قد يكونون مركزا جديدا لنشـاط شـيوعي، وقد يقوم مناصـروا جناح عبد الخالق (وكثير منهم كانوا قد نجحوا في إخفاء انتمائهم الشيوعي منذ البدء) بتكوين حزب شيوعي سري يجتذب حتى المتعاطفين مع الحزب من «التقدميين» الذين خدعوا في نميري (لا يخفى خطل تنبؤات المؤلفين وإبعادهم للنجعة في تلك التوقعات التي لا تستند على حتى بصيص من دليل. **كاتب المقال**).

ختم المؤلفون بالقول بأنه من عدم الحكمة ومن السـابق لأوانه أن يعد هذا الفصـل في تاريخ الحزب الشـيوعي السوداني هو فصل الختام.

كتعليق عام يمكن القول بأن هذا الفصل يسرد تاريخا مختصرا للحزب الشيوعي لا يخلو – رغم صحة كثير مما جاء فيه من وقائع– من ابتسار وإخلال وتبيسط مخل، إذ يبدو وكأنه صدر على عجل عقب انقلاب ١٩ يوليو الفاشل (والتي لم يأتي المؤلفون لها على تحليل مفصـل على أهميتها بالنسـبة لتاريخ ذلك الحزب!) بصـورة أضـرت بقيمته وجدواه فى تناول قضـية شـديدة التعقيد، واكتنفتها طلاسـم عصـية لازالت حلقاتها، وحتى الآن، مثارا للجدل بين المهتمين بأحداث الفترة الحاسـمة ومآلاتها على مسـار ذلك الحزب حتى الوقت الراهن (يكفي الاسـتماع فقط للشهادات المتضاربة التي وردت في «مراجعات» الطاهر ح. التوم حول حقيقة ما حدث في «دار الضيافة»). ولكن، وعلى الرغم من أن هذا الفصـل يبحث في مرحلة تخطتها الأحداث، إلا أنها بلا شـك ذات فائدة عظيمة للراغبين فى رصد أحداث تلك الفترة ولتاريخ الأحزاب السودانية على وجه العموم.

من مزايا هذا الفصـل في التاريخ الشـيوعي في السـودان أيضـا ذكره لمقتطفات من مقابلات مع زعيم الحزب الشيوعي مع صحف أجنبية، وعادة ما يصرح الناس في بلادنا لو سائل الإعلام الخارجية بنا لا يبوحون به لو سائل الإعلام الداخلية. ولكن نقل المؤلفون، ودون تبصر، بعض ما جاء في كتاب فؤاد مطر «الحزب الشيوعي: نحروه أم انتحر؟» (الذي صدر عن دار النهار في أغسطس ١٩٧١م) بصورة ملتبسة عن التدين في أو ساط قادة الحزب، بينما أغفل ذكر مصـادر أخرى مثل كتاب «ثورة شـعب» والذي أصـدره الحزب الشـيوعي عقب ثورة أكتوبر (رغم أن حياديته بالطبع موضع شك) وما صدر من وثائق حزبية من بعد ذلك. اعتمد المؤلفون كذلك كمراجع بكثير مما جاء في الصحف السودانية والعالمية (ربما لشح مصادره)، بيد أن مصداقية بعض تلك الصحف ليست فوق الشبهات بلا ريب.

كذلك ينبغي أن نتذكر أن هذا الفصل قد صدر في عام ١٩٧٤م، مما يعني أنه ربما يكون قد كتب قبل ذلك بعام أو عامين، ولم يتح للمؤلفين (لأسـباب مفهومة) زيارة السـودان للقاء بعض قادة أو أعضـاء الحزب أو قراءة أدبيات الحزب لمعرفة المزيد عن خلفيات كثير مما كتب هنا، وعلى كل حال لم تكن الأيام أوقاتا مواتية لأي مؤرخ للبحث عن تاريخ حزب كان محظورا ومحاربا، وغالب قادته وأعضائه في حالة اختباء.

مما يلفت النظر أيضا تخبط المؤلفين في بعض الموا ضع، فتراهم أحيانا يضفون على الحزب الشيوعي هالة قوة تفوق بالقطع مقدراته وإمكاناته الحقيقية، وفي مواطن أخرى يقللون من شأنه ومن افتقاره للسند الجماهيري! كذلك تثير الشك بعض النقاط التي سجلها المؤلفون كحقائق، مثل حديثهم عن سعي السادات الى رأب الصدع القائم آنذاك بين نميرى والشيوعيين وذلك اعتمادا على ما جاء في مجلة «كل شيء» المصرية، إذ أن ذلك يجافي منطق الحوادث والأشياء في تلك الأيام. كذلك يجد المرء أنه من الغريب أن علاقة الاتحاد السوفيتى بالصراع بين الشيوعيين ونظام مايو لم تجد حيزاً من التحليل كما يوحى بذلك عنوان الكتاب «الاتحاد السوفيتي والشرق الأوسط»! وكان يمكن لهذا الفصل أن يوجد في كتاب اسمه «أمريكا والشرق الأوسط» لخلوه مما ذكرنا.

ربما كان علينا الانتظار لعقود قبل أن يقوم مؤرخ غربي بموا صلة من انقطع من ر صد لتاريخ هذا الحزب (وغيره من أحزابنا... التي قضت نحبها أو تلك التي تنتظر)!

شكر وتقدير: الشكر موصول لكل من ساهم (من محبي ومبغضي الحزب الشيوعي) في إضافة أو تصويب بعض المعلومات الواردة في هذا العرض، وللدكتور عبد الله جلاب لتوفيره لي هذا الفصل من الكتاب المذكور في هذه المقالة.



حول كتاب «في داخل السودان: الإسلام السياسي والصراع والكوارث»

Inside Sudan: Political Isalm, Conflict and catastrophe

للسفير الأمريكي السابق بالخرطوم دونالد بيتريسون

Donald K. Petterson

هذا عرض مختصر لبعض ما ورد في كتاب لدونالد ك. بيتريسون سفير الولايات المتحدة الأميركية السابق في الخرطوم بين عامي ١٩٩١ – ١٩٩٥م عن أيام سفارته في الخرطوم، وعن بعض آرائه وخواطره ونظرته للأحداث في السودان وما حوله في تلك السنوات. صدر الكتاب في ٢٧٠ صفحة من القطع المتوسط من دار «ويست فيو» في طبعته المنقحة عام ٢٠٠٣م، بعد أن حظي بعدم ممانعة من النشر من وزارة الخارجية الأميركية. قسم المؤلف الكتاب إلى عشرين فصلا صغيرا بدأها بمقدمة عن السودان وما كان يعلمه عنه، وختمها بكلمة وداعه عند مغادرته البلاد.

تشي قائمة فصول الكتاب بما هو متوقع عن مسئول ودبلوماسي أمريكي عمل في السودان في فترة كانت العلاقات بين الدولتين فيها كأسوأ ما تكون. فتجد في عناوين فصوله القصيرة كلمات وتعابير مثل «الإرهاب» و« بدأت المشاكل» و«من السيئ للأسوأ» و«التراجيديا تستفحل في جنوب السودان» و«لا سلام في زمننا هذا» و«مزيدا من الأحداث في الخرطوم» و«عام جديد مع ذات المشاكل». ورغم أنه يقول بأنه كتب ما كتب بصورة «محادية» و«نزيهة» على وجه العموم، إلا أنه يقر بأن مشاعره الشخصية المحبة أو المبغضة قد تكون قد تسللت أحيانا في ما يسجله من أحداث عايشها أو كتب عنها.

تحدث السفير في مقدمة كتابه عن شغفه وهو صغير بالأنهار وبتاريخ الشعوب التي عاشت حولها، ويقول أنه أدمن حب النيل، ولم يمر عليه يوم خلال أعوامه الثلاثة في الخرطوم دون أن يقف على شاطئه أو يقود سيارته بمحاذاته، ولم يكف يوما عن التفكر في استعادة تاريخ من عاشوا حوله منذ آلاف السنين. وذكر بأنه قبل العمل في بلد ارتبط اسمه في المخيلة (الرسمية) الأميركية بصفات سالبة عديدة، وينفر من العمل فيه كثير من الدبلوماسيين الأميركيين خاصة بعد اغتيال السفير الأميركي في الخرطوم عام ١٩٧٣م، بيد أنه لم يتردد حين عرض عليه منصب السفير خلفا لجيمس شيبك، فهو – كما يزعم- يحب الصعاب ويؤمن، ومنذ التحاقه بالخارجية الأميركية في عام ١٩٦٠م بأن أكثر أماكن العمل الدبلوماسي صعوبة هي أشدها إثارة ومتعة. بيد أنه في الصفحات اللاحقة وفي الفصل الثاني يقول بأنه تردد قليلا حين عرض عليه (وهو في هراري بزيمبابوي حيث كان يعمل كقائم بالأعمال) وظيفة سفير في السودان. كان هو وزوجه «جولي» يدركان أن جو السودان وخيم، فالحر فيه لافح وقد تصل درجة الحرارة في الصيف إلى ما يفوق ١١٤ درجة فهرنهايت (٤٦ مئوية)، والخدمات الطبية فيه ليست في المستوى المطلوب، والرياح الرملية (الهبوب) تهب في غالب السنة. علاوة على ذلك فالحياة الثقافية فيه سقيمة، والحكومة تضيق الخناق على الصحافة والإعلام الحر، بل وتمنع دخول بعض المطبوعات الغربية، ووسائل الاتصال الحديثة فيه شحيحة ومتخلفة. كان يدرك كل ذلك، ولكنه وافق بعد قليل من التردد على العمل في السودان – كما يقول- لحبه للمغامرة ولشغفه بتاريخ تلك المنطقة وبأنهارها وبخليط الأجناس فيها من عرب وأفارقة.

خصص السفير الكاتب الفصل الثالث للحديث عن السودان وجغرافيته وتاريخه في إيجاز إلى أن وصل إلى عام انقلاب الإنقاذ (١٩٨٩م) حيث توسع في مآخذ الحكومة الأميركية (والغرب عموما) على السودان في عهد حكمه العسكري الثالث، فذكر أن حكومة جورج بوش، وحتى منتصف عام ١٩٩٠م، رأت أن تنتهج سبيل المفاوضات مع الحكومة السودانية أملا في تسهيل وصول العون الإنساني للمتضررين، وبدأ مساعد وزير الخارجية كوهين ومنذ مارس ١٩٩٠م في محاولة التقريب بين الحكومة السودانية والحركة الشعبية لتحرير السودان واقترح على البشير تخفيض أعداد قواته في الجنوب بمقدار النصف، على أن يسحب جون قرنق قواته مسافة ١٥ كيلومترا بعيدا عن المدن. رفض الجانبان المتحاربان، وبسرعة، المقترح الأمريكي. ثم جاء تأييد السودان لغزو العراق للكويت فتوقفت الجهود الأميركية للتوسط بين الحكومة والحركة الشعبية بالكلية. لم يكن هنالك سبب جوهري للخلاف بين الحكومة الأميركية وحكومة البشير الاسلامية ابتداءا سوى أن الحكومة الأميركية كانت ملزمة بتعليق المساعدات الاقتصادية والعسكرية لكل نظام يأتي عقب انقلاب عسكري على حكومة ديمقراطية منتخبة (مع استثناء المعونات الانسانية)، وكان يمكن التغاضي مؤقتا عن ذلك القانون إن أبدى النظام السوداني أدنى رغبة في إعادة الديمقراطية ونبذ الحكم بالقوة والترهيب.على العكس من ذلك عتا النظام السوداني وتمادى في حربه الأهلية، وفي انتهاك حقوق الإنسان وتصفية خصومه مما أكسبه عداوة الولايات المتحدة ودول الغرب عموما، بل ودول الجوار كمصر ودول الخليج العربي التي كانت تقدم للسودان عونا اقتصاديا مقدرا.

كان «الإرهاب» ودعم الجماعات الإرهابية – بحسب رأي السفير- واحدا من أكبر المآخذ على النظام السوداني. ولم يجد ذلك النظام غير سلاح الإنكار ليدفع عن نفسه التهم التي كانت تكال له، وظل يتهم سفراء الدول الغربية ومنظماتها بتصديق مزاعم المعارضين دون تدقيق أو تحقيق.

ذكر السفير الأمريكي أن عهده في سفارة الخرطوم شهد تدهورا مستمرا ومتعاظما في العلاقات بين البلدين بسبب تعاظم الشكوك فيما كان يقوم به النظام في ما سبق ذكره (رغم طردها لأسامة بن لادن تحت ضغوط سعودية ومصرية وأمريكية بالطبع)، بينما ظل النظام يؤكد وفي كل مناسبة عن رغبته في تحسين العلاقات بينه وبين الولايات المتحدة. ولم تبدأ الولايات المتحدة في التأكد من صدق نوايا النظام السوداني نحو الاتجاه الصحيح فيما يتعلق بالإرهاب إلا بعد عام ٢٠٠٠م. ولكن مع مجيء جورج بوش تزايدت ضغوط من الجماعات الدينية اليمينية (المتشددة) في الولايات المتحدة، ومن مؤيدي الرئيس في مختلف الولايات عليه من أجل مزيد من الضغط على النظام السوداني فقرر الدخول مع ذلك النظام في مفاوضات وعين في ٦/ ٩/ ٢٠٠١م السيناتور دانفوث مبعوثا خاصا له للسودان. لم تمر خمسة أيام على ذلك التعيين حتى قام إرهابيون بالهجوم على برجي مبنى التجارة العالمية وأزهقت في تلك العملية الإرهابية أكثر من ٣٠٠٠ نفس. أعلن الرئيس بوش بعد ذلك الهجوم الإرهابي أن الدول عليها أن تختار بأن تكون «إما معنا أو مع الإرهابيين». أسرع النظام السوداني بعد ذلك الإعلان عن رغبته في أن يصبح «حليفا» للولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب. عاد بعد ذلك الدبلوماسيون الأمريكيون للسفارة في الخرطوم في عام ٢٠٠٢م، وفي العام الذي يليه قامت الولايات المتحدة بجهود كبيرة من أجل بدء مفاوضات جادة بين النظام السوداني والحركة الشعبية.

في الفصـــل الرابع حكى الســفير عن وصــو له لمطار الخرطوم بطائرة الخطوط الهولندية في مســاء يوم ١٣ / ٨/ ١٩٩٢م، وذكر أنه دلف لداره في الساعة الحادية عشـر والنصـف مسـاء، أي بعد نصـف سـاعة على بدء حظر التجول الليلي الذي كان مفرو ضا على المدينة في تلك السنوات المبكرة للانقلاب. أحسن طقس الخرطوم الترحيب بالـ سفير فهبت عا صفتان رمليتان في الأ سبوع الأول له في الخرطوم، وهطلت أمطار غزيرة أيـ ضا. ظل الـ سفير يؤخر تقديم أوراق اعتماده أياما عديدة حتى يرتب بيت الســفارة الداخلي، ولم يقدم أوراقه إلا في ٢٥/ ٨/ ١٩٩٢م حيث أخذ في سيارة رولز رويس فخمة وعتيقة (١٩٥٤م) إلى قاعة الصداقة للقاء الرئيس البشير. ذكر السفير أنه تبادل مع الرئيس (والمولود قرب مدينة شـــندي في عام ١٩٤٤م) بعض عبارات الترحيب والمجاملة باللغة العربية وقدم له أوراق الاعتماد ثم أخذه الرئيس مع وزير الخارجية لغرفة خا صة لمقابلة كان من المقرر أن تـ ستغرق مدة ١٥ دقيقة، بيد أن تلكم المقابلة ا ستمرت لساعة كاملة. خصص السفير بعض السطور لو صف البشير فقال إنه رجل متو سط الطول ولونه «بني فاتح» يرتدي الزي العسكري الأخضر، ويزيد وزنه عن الوزن المثالي بيد أنه يبدو في صحة جيدة. و صفه الـ سفير بأنه كان لطيفا معه وأ صغى بعناية لما يقول، بيد أن أكد أن موقفه من سيا سة الحكومة الأميركية ظل متصلبا.

ذكر السفير أن البشير سوداني نموذجي من حيث أنه شخصية منفتحة وودودة وله حس فكاهة عال، وككثير من السودانيين فهو رجل متدين جدا، بيد أنه وخلافا لكثير من زملائه فهو إسلامي ملتزم، وكان على صلة بحسن الترابي قبل سنوات من الانقلاب. لعل حسن الترابي هو من كان مرشده.

ذكر الســفير أنه لقي مســؤولا كبيرا في الدولة بعد مقابلته للرئيس البشــير فأضــفى ذلك المســؤول على طول تلك المقابلة أهمية تفوق أهميتها الحقيقية، وتنبأ بأنها «فأل حـ سن»! كان الإعلام الـ سوداني حينها يعتقد ويـ صرح أيـ ضا بأن العلاقات السودانية –الأميركية في طريقها للتحسن، ولكن السفير كان قد شرح للرئيس البشير أن تعيين سفير جديد لا يعني بالـ ضرورة تحـ سين تلك العلاقات المتردية دون أن تقوم الحكومة الـ سودانية بخطوات وا ضحة في مـ ضامير حقوق الإنسان، وفي نبذ الإرهاب. أرسل السفير تقريرا لواشنطن مفاده أن تطويل البشير لمقابلته معه دليل على رغبته في تحسين العلاقات، بيد أنه أضاف أيضا أن تلك المقابلة لم تحدث أي اختراق يذكر في العلاقات.

بعد ذلك مضت الأيام رتيبة في بيت السفير الجديد مع زوجته وابنته في شارع الجمهورية (في مكان المركز الثقافي الســوفيتي القديم)، والذي تأكدت الســلطات والســفارة بالطبع من خلوه من أجهزة التنصــت التي قد يكون تركها سلفه. قابل بعد ذلك عددا من الوزراء أهمهم د/ غازي صلاح الدين وزير الدولة للرئاسة والذي اشتكى له من القيود المفروضة على تحركات السفراء في البلاد. وعد غازي بتذليل تلك القيود وأنجز ما وعد بعد أسابيع قليلة.

كان أكبر مشكل يصادف السفير الجديد بعد تعيينه بالخرطوم هو قيام الحكومة السودانية بالا ستيلاء على مكتب الوكالة الأميركية للتنمية الدولية في جوبا بدعوى تعاونها مع متمردي الجنوب (الحركة الشــعبية) واعتقال مديرها أندرو تومبي وزملاء له. لم تجد اتصــالات الســفير بكثير من الوزراء حول هذا الأمر فقرر مقابلة المســؤول الأمني الرفيع د/ نافع علي نافع (والحاصــل على درجة الدكتوراه في علم النبات من جامعة كاليفورنيا في ريفر ســايد) ود/ غازي، والذي قد يظن خطأً أنه إيراني الجنســية من لونه الأبيض وعمامته المميزة ولحيته الكثيفة، وهو طبيب ثوري دلف لعالم الطب إرضاء لعائلته وترقى في مراتب القيادة حتى صار من أهم أعضاء النخبة الحاكمة. أرسل السفير إلى

الرئيس البشـير خطابا يطلب فيه معرفة مصـير أندرو تومبي، وطلب أن يتم العفو عنه إن قدم للمحاكمة، ولكنه صدم حين تلقى ردا بأن السيف قد سبق العزل، وأن تومبي قد تمت محاكمته وأعدم بالفعل. تبين للسفير فيما بعد أن تومبي قد قدم لمحكمة عسكرية وأعدم قبل أسـابيع من خطابه للبشـير. على إثر ذلك أرسـل السـفير للبشـير خطابا يطلب فيه تفسـيرا لما حدث، الأمر الذي عده وزير الخارجية علي سـحلول تدخلا في شـؤون بلاده. زار السـفير بعد ذلك جوبا لمعرفة تفاصـيل ما حدث وعلم من د/ نافع والفاتح عروة أن تومبي قبض عليه وهو يسـتخدم راديو اتصالات وكالته لنقل معلومات مهمة لمتمردي الجيش الشعبي. كان ذلك أول موقف عسير يقابله السفير في سنوات سفارته القليلة المليئة بالمشاكل في السودان. لم يجد السفير بدا (بعد أن فشل في الحصول على موقف متفهم من كبار رجال الدولة) من أن يقابل الحاكم الفعلي للبلاد في ذلك الوقت، ألا وهو حسن الترابي (المولود في عام ١٩٣٢م) في يوم ٣/ ١٠/ ١٩٩٢م ولمدة ساعتين كاملتين. وصف السفير في أحد الفصول الترابي بأنه «راجل جذاب ساحر» و قال: إنه يبدو جذابا جدا «بجلبابه الرائع الناصع البياض وعمامته الأنيقة»، ووصـفه بأنه رجل متأنق يجيد اسـتغلال بسمته المتملقة في المقابلات لصالحه، ولا يعيب تلك المقابلات غير زخات مفاجئة من ضحكات (ربما عصبية المنشأ) لا معنى لها. عاد السفير لداره خالي الوفاض بعد أن لم يسمع السفير من الترابي شيئا غير ما أعاده أمامه من قبل كل من قابله من الوزراء قادة الأمن من أن ما حدث في جوبا كان بسـبب تعاون مكتب الوكالة الأميركية للتنمية الدولية مع الحركة الشـعبية، بل اتهم الترابي أمريكا بالنفاق، ولامها على صـمتها عن سـجناء الرأي في مصـر، وعن تاريخها المخزي في اضـطهاد الأفارقة و«الهنود الحمر» (كما سـماهم) والأمريكيين من أصـل ياباني. قال الترابي للسـفير إن ما يحتاجه السـودان من أمريكا ليس العون الإنسـاني بل العون الاقتصـادي، وإن حال نازحي جنوب السـودان لا يختلف كثيرا ولا قليلا عن حال الملايين من الفقراء المعدمين في السـودان. علق السـفير على طريقة الترابي في الحديث وقال بأنه لا يكاد يتوقف عن الحديث بما يجعل من الصـعوبة لمحاوره أن يرد على ما يقوله، وأنه قدم للترابي أسئلة كثيرة عن سياسة السودان الخارجية لم يحر الرجل جوابا عليها.

كتب السـفير في مذكراته في فصـل أو فصـلين عن زياراته لمعسـكرات النازحين وعن حجم المعاناة التي رآها وأحسـها هنالك. ما يلفت النظر في ثنايا ما قاله من أن سـوء العلاقات بين أمريكا وبعض الدول الأخرى لا ينبغي أن يكون سببا لإحجام الدبلوماسيين عن التصدي للمشاكل العالقة بصراحة ووضوح ونية صادقة. وضرب لذلك مثلا بما شهده هو شخصيا في زنجبار حين أعلن عن استقلالها في ٩/ ١٢/ ١٩٦٣م، وكان هو حينها يعمل دبلوماسيا صـغيرا في سـفارة بلاده في ذلك البلد بسـكانه الذين يقارب تعدادهم ثلث مليون نسـمة (منهم ٥٠٠٠٠ من العرب و٢٠٠٠٠ من الآسـيويين) وظفر – رغم ذلك- العرب بغالب مقاعد الحكومة، الأمر الذي أثار حفيظة السـكان الأصـليين من الأفارقة (البانتو)، ودعاهم للقيام بثورة دموية في ١٢/ ١/ ١٩٦٤م وأدت لمقتل وطرد العرب والآسـيويين من البلاد. في تلك الأيام غضـب «الثوار» من أمريكا وسـفارتها لعدم حصـولهم على الدعم الذي كانوا يتوقعونه، فلجؤوا لإقامة علاقات خاصة ومتميزة مع المعسكر الشيوعي، ورغم كل تلك الغضبة وما تلاها، عملت الدبلوماسية الأميركية بصورة علنية وأخرى أقل علنية حتى نجحت في إصلاح العلاقات مع النظام الجديد. هذا ما كان يؤمل أن يعيد فعله السـيد دونالد بيترسـون تارة أخرى في السـودان، بيد أنه يبدو أن الحظ لم يحالفه هذه المرة! وبالطبع يعزو السفير ذلك الفشل لتعنت النظام الحاكم في السودان. فهو يسجل أنه التقى الرئيس البشير في العاشر من نوفمبر حيث قال له البشير ما معناه إن حكومته تسعى لكسب صداقة أمريكا، وأن أمريكا دولة كبيرة وقوية، بينما

السـودان دولة صـغيرة وضـعيفة ولا يمكنها أن تؤذي أمريكا (القوية والكبيرة)، فلم الخشـية عند الأميركيين من السـودان؟ أجابه السـفير بأن إجابته قد تغضـب سـيادته، فرد عليه الرئيس بأنها لن تفعل. قال السـفير بأن الحكومة السودانية تجد عسرا شديدا في فهم أن قيام انتخابات ومقدم رئيس جديد في الولايات المتحدة لا يغير شيئا من ثوابت السياسة الأميركية (خاصة فيما يتعلق بحقوق الإنسان)، وعدد مرة أخرى مآخذ أمريكا (والغرب عموما) على سودان الإنقاذ وجو الخوف والرعب الذي تشيعه السلطات الأمنية في البلاد لدرجة أن كثيرا من السودانيين يتحاشون – كما قال– السفارة الأميركية خشية أن يصطادهم رجال الأمن. أنكر الرئيس البشير كل ما قاله السفير جملة وتفصيلا وقال إنها «مجرد إشـاعات وأكاذيب يتداولها المعارضـون» وأنكر أيضـا تعذيب أي معتقل في السـودان، وعندما عارضـه السفير في هذا الزعم قال الرئيس: «اعطنى اسم أي فرد تعرض للتعذيب في المعتقل، وسأوقف أي تعذيب. لن يؤذي أحد لأنه أدلى برأي» وأضاف بأنه يعجب لعدم إدراك أمريكا للتقدم (المتدرج) في مضامير الإصلاحات الديمقراطية وحقوق الإنسان الذي حدث في السودان في خلال سنوات حكمه الثلاث. أضاف البشير عرضا أن كل من السودان يتحدث في «السياسة» وقال ضاحكا: «حتى جدتي تتكلم في السياسة!»

في موضـوع آخر كتب السـفير عن أن علاقة السـودان بإيران (والتي ظلت تمثل صـداعا مزمنا لكثير من الدول العربية والغرب عموما) بحسـب رأي دكتور حسـن الترابي ليسـت بالقوة والقرب الذي يظنه الآخرون رغم زيارة الرئيس على أكبر رافسـنجاني للسـودان في فبراير من عام ١٩٩٢م، فعلاقات البلدين قائمة على المصـالح التجارية وليس غير ذلك، وأن السودان – بحسب قول الترابي– محبط من إيران بسبب قلة عونها المالي والعسكري للسودان، و لتشددها في وضع شروط عسيرة لتصدير شحنات النفط له. بالطبع لم يغفل الرجل أن يذكر (كما هو الحال عند كل مسؤول سوداني التقي به السفير) أن كل المسلمين في السودان من أهل السنة، بينما يفوق عدد الشيعة في إيران ٩٠٪ من الـسكان، بيد أن الحقيقة تبقى أن ذلك لم يمنع و صول مئات (وحتى آلاف) من الإيرانيين (وبعـضهم من أعـضاء الحرس الثوري) للسودان كخبراء في مجالات عديدة منها الأمن والدفاع.

كتب السفير في فصل صغير عنوانه «الإرهاب» فقال إنه في فترة وجوده في السفارة الأميركية بالخرطوم ظل موقنا بوجود أعداد (غير محددة) من عتاة الإرهابيين بالسودان، وذكر بأن السفارة ظلت تحاول جهدها رصدهم وتعقبهم. ضرب لذلك مثلا بحالة الإرهابي إيليش راميريز شانسيز(الشهير بكارلوس) والذي ظلت السفارة الأمريكية تجمع المعلومات عنه طوال فترة وجوده في الخرطوم. جاء كارلوس للخرطوم في أغسطس من عام ١٩٩٣م بعد أن فشل في الحصول على ملاذ آمن في ليبيا أو العراق واستقر في الخرطوم باسم مستعار ومضي يعيش حياة سكر وسهر وعربدة (ربما لإخفاء حقيقته!). كشفت السفارة الأميركية – بحسب زعم السفير– سره وبعثت بالمعلومات لفرنسا، إذ لم تكن هنالك ضده أي قضية مرفوعة في الولايات المتحدة، ولكنه كان مطلوبا في عدة قضايا في فرنسا. أبلغت فرنسا الحكومة السودانية برغبتها في ترحيل كارلوس لفرنسا ليحاكم فيما ينسب إليه. ترددت الحكومة السودانية في القبض على الرجل فقامت فرنسـا بتهديد السـودان بـــ «عواقب سـياسـية وخيمة» إن لم يعتقل كارلوس. تحينت الحكومة السودانية فرصة إجراء عملية جراحية للرجل فاعتقلته وهو تحت التخدير وسلمته للفرنسيين الذين طاروا به بأعجل ما تيسر إلى فرنسا حيث ما زال معتقلا في أحد سجونها (يمكن مراجعة قصة كارلوس في مقالات عادل الباز المعنونة «أيام كارلوس في السودان»). سارعت الحكومة السودانية بمحاولة نيل الحمد بما لم تفعل، ونسبت لنفسها الفضل في التعرف على حقيقة كارلوس، وأنكرت على السفارة الأمريكية «جحودها» لجهود السودان في القبض على ذلكم

الإرهابي الخطير، بل قال الترابي للسفير في مقابلة له يوم ٢٨ سبتمبر مع السفير أنه يعتقد أن جهاز المخابرات الأمريكي له يد في إرسال كارلوس للخرطوم. ذكره السفير بأن السفارة الأميركية هي من نبهت حكومة السودان والفرنسيين لوجود كارلوس في الخرطوم.

عاش في السودان في تلك السنوات من هو أخطر، وبكثير، من كارلوس وهو أسامة بن لادن، والذي قدم من السعودية للخرطوم كمستثمر في عام ١٩٩١م وعمره ٣٤ عاما. سجل السفير في سطور كثيرة ما هو معروف الآن للكافة عن الرجل وتاريخه منذ أن كان طالبا في جامعة الملك عبد العزيز بجدة. يعتقد السفير بأنه على الرغم مما تدعيه الحكومة السودانية وأجهزتها الأمنية – بحسب ما أدلى به القيادي الإنقاذي المعروف قطبي المهدي في عام ٢٠٠١م – من أنها ظلت تراقب أسامة بن لادن ونشاطاته في السودان بعين فاحصة، فإن الواقع يقول إن الرجل كان يمارس نشاطا تجاريا واستثماريا كبيرا في السودان من خلال أكثر من ٣٠ شركة، ويمول في الوقت ذاته عمليات شراء أسلحة للنظام السوداني في حربه في الجنوب، ويمول أيضا نشاط «القاعدة» ويقوي من شبكة اتصالاتها، ويحاول ترتيب وتنظيم علاقات عمل مشترك بينها وبين منظمات إرهابية أخرى، ربما بعلم أو مساندة السلطات السودانية. كانت السفارة الأميركية – بحسب زعم السفير – تعلم عن وجود الرجل في السودان وتدرك حجم نشاطاته المختلفة (مثل محاولة اغتيال حسني مبارك في أثيوبيا في ١٩٩٤م وتفجيرات السعودية في ١٩٩٥م)، بل ونجحت بطرق لم يسمها في التصنت على هواتفه وكافة اتصالاته مع غيره ممن تشك فيهم من أعوانه داخل السودان. ظل الرجل في السودان حتى عام ١٩٩٦م حين نجحت الضغوط العربية والأميركية في جعل السودان يطلب منه المغادرة. لم يأت السفير بذكر على ما قيل من رفض أمريكا استقبال او تسلم بن لادن (ربما بسبب أنه لم يكن مطلوبا حينها هناك) رغم أنه ذكر أن السودان زعم أن الدول العربية التي عرض عليها تسلمه رفضت خوفا من انتقام الجماعات الإرهابية.

ذكر السفير في هذا الفصل الصغير المحتشد بالأسماء أن السفارة الأميركية بالخرطوم أرسلت للحكومة السودانية قوائم بأسماء العديد من أعضاء المنظمات الإرهابية مثل جماعة «أبو نضال» و«حزب الله» و«الجماعة الإسلامية المصرية» و«حماس» وآخرين من الجزائر وارتريا وغيرها ممن وفرت لهم الحكومة أوراق ثبوتية كلاجئين، وبعضهم نجح في السفر لخارج السودان بتلك الأوراق.

في أحد فصول الكتاب والتي عنونها بـ«هذه هي الأسباب» كتب السفير عن أن المجموعة الحاكمة في السودان (وذكر تحديدا البشير والترابي وعلي عثمان وغازي صلاح الدين ومحمد الأمين خليفة) يؤمنون بأن الحكومة الأميركية لا تعادي النظام السوداني إلا بسبب توجهه الإسلامي. كان أول من صرح بذلك هو الترابي ثم تبعه الآخرون من النخبة الحاكمة. كانوا يجادلون بالقول إن هنالك من الدول (مثل مصر) من لها سجل في حقوق الإنسان يفوق في السوء سجل السودان، ولا تبادلها أمريكا غير الود والاحترام والعطف، غير أن السودان قرر أن يتخذ لنفسه خطا إسلاميا لا يعجب أمريكا. يقر السفير بأن هذا قول قد لا يخلو من بعض الصحة، ولكنه يرد بأن السياسة الأميركية تجاه أي دولة لا توضع (وتمارس) فقط بناء على وضع حقوق الإنسان في تلك الدولة، رغم أن أمريكا لا تستثني دولة من النقد في تقاريرها السنوية عن حقوق الإنسان في العالم. وفي حالة السودان ذكر السفير أنه

توجد مجموعة من الأسـباب المتداخلة والمحددة التي دعت الحكومة الأميركية لاتخاذ موقف سـالب من الحكومة السودانية لخصها كما يلي:

١ . أن هذه الحكومة أتت للحكم بانقلاب عسكري على حكومة ديمقراطية منتخبة

٢ . وأنها أوغلت في ممارسات ديكتاتورية واستبدادية ضد معارضيها فسجنت وعذبت المئات

٣.احتكرت السلطة وحرمتها على بقية الأحزاب.

٤ . أشعلت الحرب في جنوب السودان وأحرقت في أتونها القرى وقتلت المئات من الأبرياء.

٥ . طردت عشرات الآلاف من نازحي جنوب السودان الذين كانوا يعيشون في أطراف الخرطوم إلى أماكن بعيدة تنعدم فيها وسائل الحياة.

٦ . ساندت الحكومة السـودانية العراق في عدوانه وغزوه للكويت، وعارضـت سـياسـات الولايات المتحدة الخارجية في كل المحافل.

٧ . منذ استيلاء حكومة البشير على الحكم في السودان ظل يؤيد ويساند المنظمات الإرهابية المختلفة والتي تتفق على معاداة أمريكا والغرب عموما.

٨ . أعدمت الحكومة السودانية في سبتمبر من عام ١٩٩٢م أمريكيين مدنيين يعملون في المنظمة الأميركية للتنمية الدولية في جوبا وبمحاكمة عسكرية لم تتوفر فيها شروط توفير العدالة.

ذكر السـفير في معرض حديثه عن مقابلاته مع الترابي رجل النظام الأول في بدايات التسـعينات أن الترابي كان يقول له بأن السودان غاضب من أمريكا بسبب عدائها (غير المبرر) له، وبسبب وقوفها مع إسرائيل ومع دول عربية أيضا (كانت في نظر الترابي – كما زعم السفير – دول استبدادية وليست دول إسلامية حقيقية)، ويكرر بأن أمريكا غدت تمثل للسودان دولة مادية، فاسدة أخلاقيا وغير ذات دين. ذكر المؤلف في آخر صفحات كتابه أيضا أن الترابي أدلى بتصـريح في غاية الحمق عند سـماعه بمحاولة اغتيال حسـني مبارك في أديس أبابا إذ صـرح بما فهم أنه تمجيد لمنفذي تلك المحاولة وقال: «عندما تجرأ حسني مبارك بالذهاب إلى أديس أبابا لحضور مؤتمر القمة الأفريقي فإن أبناء النبي موسى تصدوا له وأفسدوا عليه خططه وأعادوه لبلاده.» وأضاف قائلا:« لقد وجدت الرجل (أي مبارك) يقل كثيرا عن مستوى تفكيري وآرائي، وأغبى من أن يدرك مغزى بياناتي وتصريحاتي»!

أقر السفير في رسالة بعث بها للخارجية الأمريكية في يوم ٢٢/ ٩ بأن كل الضغوط الدبلوماسية والاقتصادية التي مارسـتها الحكومة الأميركية على النظام السـوداني خلال العامين السـابقين لتاريخ الرسـالة لم تأت بالثمار المطلوبة وقال في رسالته أيضا: «ينبغي أن يوضع في الاعتبار أن الإسلاميين الممسكين بالسلطة (في السودان) الآن يحكمون سـيطرتهم عليها، ولا يتوقع أن يزاحوا منها في المسـتقبل القريب، ولتقوية تمكينهم في السـلطة وأسـلمة البلاد كلها، وإعانة الجماعات الإسلامية في الدول المجاورة وغيرها سوف لن يتخلوا عن علاقتهم الوثيقة بالجماعات الإرهابية وعن إستراتيجيتهم لشق صفوف المعارضين لهم والسيطرة عليهم، وسيسعون من أجل الحصول على سند من

مجموعات وأفراد في الولايات المتحدة وغرب أوربا من أجل تليين أو إنهاء السياسات المعادية للسودان». بعد ذلك اقترح السفير العمل على توسيع قاعدة الضغوط على السودان لتشمل أيضا دول العالم المختلفة وتنسيق الجهود من أجل هذه الغاية، والعمل مع دول مختلفة في مجلس الأمن لإيجاد توافق من نوع ما يؤدي لإصـدار قرار يدعو لوقف إطلاق النار وإنهاء الحرب في جنوب السودان، والدعوة لمؤتمر دولي جامع لكل الأطراف (القانونية) التي لها مصلحة في إنهاء الحرب في السودان.

تزايدت بعد ذلك الضغوط السياسية والاقتصادية على السودان من كثير من الدول الغربية، وحتى اليابان التي لم تكن قد قاطعت السودان، بدأت هي الأخرى في تصفية مشاريعها في السودان في نهايات ١٩٩٢م. لم تستفد من كل ذلك إلا الصين والتي بدأت في تعميق علائقها الاقتصادية مع السودان والاستفادة من اختفاء المنافسين المحتملين لها في مجالات الاستثمار والتعدين وغيره.

يدندن السفير في بقية صفحات الكتاب حول زيارته لجنوب السودان، ولمباحثاته المطولة مع دكتور حسين أبو صـالح وزير الخارجية السـوداني عن محادثات دول الإيقاد وغير ذلك مما عرفت نتائجه وآثاره الآن، وعن مقابلته لدكتور نافع في بيت صديق للطرفين وحديثه معه حول عملية السلام في السودان. مما يجدر ذكره هنا أن السفير قد لاحظ أن نافعا أكثر مرونة في المواقف من كثير غيره ممن قابلهم من المسؤولين السودانيين رغم أنه لم يتوقع أن تأتي مثل تلك المحادثات بكثير نفع، خاصة وقد سمع في ذات اليوم مقابلة للرئيس البشير مع «الدستور» الأردنية يصف فيها الولايات المتحدة بأنها الدولة الإرهابية الأولى في العالم لضـربها المدنيين بالطائرات في الصـومال، وقوله بأن إسـرائيل هي أقل الدول في العالم احتراما لحقوق الإنسـان إذ أنها تضـيق الحصـار على الفلسـطينيين وتدمر منازلهم. والأخطر من كل هذا وذاك أنه كشف عن خطة تدبرها الولايات المتحدة لغزو السودان مثلما فعلت في هايتي، بيد أنه قلل من أثر تلك الخطة إذ أن الحكومة السودانية – كما قال- لديها نحو خمسة ملايين متطوع للقتال ضد الأمريكان الغزاة (تطرق أيضا لبيانات الضابط محمود يونس النارية في هجاء أمريكا وسياساتها).

حكى السفير أيضا عن زيارته لبورتسودان في أحد أيام رمضان في رفقة حارس شخصي واحد و سائقين حيث التقي بعدد من المسؤولين في المدينة والميناء. رغم حالة البؤس الشديد التي رآها في المناطق التي مر عليها في طريقه لبورتسودان إلا أنه تنبأ بمستقبل اقتصادي زاهر لتلك المدينة الساحلية وما حولها من القرى في ما سيقبل من سنوات (ولعل توقعه قد بدأ يصدق بعد مرور عقدين من الزمان!) .

قبل مغادرته للسـودان بعد انقضـاء فترة عمله في البلاد، قابل السـفير الرئيس البشـير في حفل أقيم في القصـر الجمهوري بمناسبة عيد الأضحى، وفيه طلب البشير من السفير أن يلتقيه بصورة منفردة قريبا. تم ذلك الاجتماع الأخير في وجود صـديق للرئيس هو الفاتح عروة، وكان بحسـب ما ذكره السـفير اجتماعا وديا للغاية إلا انه لم يخرج بنتائج ملموسة، غير أنه اقترح فيه على الرئيس البشير أن يرسل وفدا عالي المستوى لواشنطن لبحث كل الأمور العالقة بين الدولتين. أعجب البشير بالفكرة ووعد بتنفيذها غير أنها لم تر النور لظروف عديدة أدت لزيادة الاحتقان والسوء في العلاقات بين البلدين.

أبت الخرطوم إلا أن تودع السفير الأميركي بهبوب عاصفة كتب لأصحابه عنها وقال بأنها لم تكن «أم الهبايب» ولكنها كانت أقوى وأطول «هبوب» مرت عليه خلال سنواته الثلاث في السودان!

على وجه العموم فإن كتاب السفير دونالد بيتريسون كتاب متزن نسبيا، ويؤرخ بصورة قليلة التحامل لتاريخ بعض أحداث البلاد التي عمل فيها، وتلك التي كتب عليه فيها أن يواجه بعضا من مبغضي الولايات المتحدة الألداء. يعد الكتاب مصدرا غنيا بالمعلومات المجردة (وأحيانا قليلة التحامل) عن فترة عسيرة حرجة من تاريخ السودان السياسي، بيد أنه من الصعوبة على من عايش تلك الأحداث في السودان أن يجد في هذا الكتاب شيئا جديدا أو ممتعا أو مثيرا بحق. ولكن لا شك عندي أن أهمية الكتاب ستزداد مع مرور السنوات، وبعد أن تغدو أحداث هذا الكتاب بعيدة زمنيا عن القراء خاصة المهتمين بتاريخ السودان الحديث.



بحارة السودان من المهاجرين

مقتطفات من كتاب:

Wanderings: Sudanese Migrants and Exiles in N. America

رقية مصطفي أبو شرف

تقديم: هذا عرض مختصـر لجزء مما ورد في فصـل في كتاب لدكتورة رقية مصـطفى أبو شـرف عن المهاجرين السـودانيين الأوائل في أمريكا يتناول تاريخ هجرة البحارة السـودانيين للعمل في خدمة البحرية الأمريكية والسـفن التجارية. صدر الكتاب بعنوان:Wanderings: Sudanese Migrants and Exiles in N. America عن دار نشر جامعة كورنيل، ايثيكا، بالولايات المتحدة الأميركية عام ٢٠٠٢م.

دكتورة رقية أبو شـرف حاصـلة على الدكتوراه من جامعة كونيتكت الأميركية في علم الإنسـان/ الإناسـة (الأنثربولوجي)، وعملت لسـنوات في مجالي البحث والتدريس في عدة جامعات أمريكية ومراكز بحثية مرموقة منها جامعات هارفارد وبراون وويزلي وتفتس الأميركية، وجامعة دارام البريطانية وغيرها، وتعمل حاليا كأسـتاذ مشـارك في جامعة جورج تاون الأميركية (فرع قطر). للدكتورة اهتمامات بحثية متنوعة تشمل مسائل العرق والهوية وحقوق الإنسان والمهاجرين والمغتربين عن أوطانهم، ودراسات النساء والجندر (في أمريكا والخليج العربي والسودان). كنت قد ترجمت قبل سنوات شذرات لما نشر لها عن الحاج ساتي، أول مهاجر سوداني لأمريكا في هذا الكتاب.

بعد مرور ثمانين عاما على انتهاء خدمة أورطة سودانية في المكسيك، ومرور عقد من الزمان بعد عودة ساتي ماجد إلى مصر، بدأت هجرة مجموعة صغيرة من السودانيين استجابة لزيادة الطلب في أمريكا على البحارة خلال الحلاب العالمية الثانية. وصـلت للموانئ الأميركية مجموعات من البحارة الذين كانوا يعملون في مختلف السـفن البحرية العالمية، وتم تجنيدهم للعمل في البحرية الأميركية. وتحت ظروف مشـابهة تم تجنيد مزيد من البحارة في الخمسينات خلال الحرب الكورية.

في هذا الفصـل نعرض إلى قصـص هجرة بعض هؤلاء البحارة، والتي سـمعتها منهم في سـنوات التسـعينات من القرن الماضـي. يتميز المجتمع الإثني لهؤلاء البحارة المهاجرين بمرونة عالية سـاهمت في إعلاء المبادئ المنظمة للغة والعادات والمعتقدات وروابط القرابة الأسـرية التي أتوا بها لمهاجرهم من وطنهم الأصـلي، وهذا هو «نمط الحياة»، أو ما يعرف بالفرنسـية genre de vie الذي مكن النوبة السـودانيين تاريخيا من تعزيز هويتهم أينما هاجروا وحيثما حلوا.

وخلافا لمن هاجر لأمريكا الشـمالية من المجموعات السـودانية المختلفة الثقافات والتوجهات السـياسـية في السنوات القريبة الماضية، فإن البحارة المهاجرين كانوا من اثنية وهوية واحدة، ووجدوا عند قدومهم لمهجرهم في الولايات المتحدة ظروفا سـياسـية مواتية، وترحيبا اسـتثنائيا. التحق المهاجرون السـودانيون بالبحرية الأميركية في خلال الحرب العالمية الثانية، وأثناء الحرب الكورية، إذ كان هؤلاء مؤهلين لنيل الجنسـية الأمريكية فور التحاقهم بالخدمة العسكرية. إضافة لذلك، فقد كان هؤلاء يتمتعون بمستوى عيش جيد نسبيا، وفرصا عديدة في البحرية

الأمريكية للتدريب وتنمية المهارات في مختلف ضـروب فنون العلوم والتقنية. تم تجنيس البحارة السـودانيين العاملين في الجيش الأمريكي رسميا بعد تأكد وزارة الدفاع من سجل خدمة كل منهم. كانت أحكام النظام الأساسي للتجنيس تفيد بأنه: « يجب توفير الفرصـة لنيل الجنسـية الأميركية لكل فرد أجنبي ......، يقوم بالتعرض للمخاطر والخدمة العسكرية، وذلك قبل غيره، وبشروط أيسر».

تعرض بعض البحارة لإصابات وإعاقات مختلفة نتيجة للمعارك التي خاضوها، وفقد بعضهم حياته.

كانت فرصـة الحصـول على الجنسـية الأمريكية هي الدافع الأسـاس لهؤلاء البحارة للهجرة الدائمة والاسـتقرار في أمريكا. كما أخبرني عدد كبير منهم. ومنذ أربعينات القرن الماضـي شـكل قدامى البحارة في الجيش الأمريكي من المهاجرين مجتمعا سـودانيا أمريكيا في برويكلن (هي من أكثر مناطق نيويورك الإدارية مسـاحة وازدحاما بالسـكان. المترجم).

من بعض تجارب البحارة

١ – خيري

خيري هو من أوائل البحارة الذين هاجروا للولايات المتحدة. أجريت معه مقابلة في «بروكلين» في عام ١٩٩٣م، وكان عمره آنذاك ثمانين عاما، قبل ثلاث سـنوات من وفاته عام ١٩٩٦م. قدم خيري إلى الولايات المتحدة في عام ١٩٤٣م على ظهر سفينة صغيرة اشترتها لاحقا بريطانيا وحولتها لمستشفى عسكري. قال لي خيري في تلك المقابلة:

«بعد أن آلت تلك السـفينة البخارية إلى البريطانيين، خيرنا بين أن نبقى بصـورة دائمة في الولايات المتحدة أو مغادرتها. كانت تجري في تلك الأيام عملية تجنيد للضـباط والبحارة في سـلاح البحرية. لم أكن أريد أن أهجر عملي، أو أن أعود للسودان. آثر بعض البحارة المغادرة، بينما بقي آخرون مثلي لبدء حياة جديدة وفرص عمل ممتازة في هذا البلد. لطالما ارتحل الناس في مناطقنا... خاصـة وأن فرص الالتحاق بأعمال ومهن جديدة كانت متاحة لنا في البحرية الأميركية. كانت مرتباتنا عالية ولدينا تأمين صـحي... كانت بالنسـبة لنا «فرصـة العمر». عملت في البحرية الأمريكية خلال الحرب العالمية الثانية، وبقيت في الخدمة العسكرية لأكثر من خمسة أعوام. وبعد أن انتهت الحرب وحل السلام عملت في مهام وبعثات عديدة أهمها بين الولايات المتحدة وروسيا. لقد سهل لي عملي في البحرية أثناء الحرب العالمية الحصول على الجنسية الأميركية دون موانع أو عوائق.

حافظ كل من بقي منا في الولايات المتحدة على علاقات وثيقة مع زملائه السـودانيين الآخرين، حتى من غير القاطنين ببروكلين، والتي كان يسـكن بها غالبيتهم... كنا أول من كون بدايات مجتمع المهاجرين السـودانيين هنا، كما كنا نرتاد واحد من أقدم المسـاجد هنا وهو «مسـجد داؤود». مجتمعنا مكون من القادمين من دنقلا، ونتحدث ذات اللهجة. عندما أتينا هنا، نجحنا في العيش كمجتمع اثني واحد. من المهم هنا ذكر أنه مر وقت طويل قبل أن يبدأ مهاجرون جدد في الوصول هنا...

رغم أن العيش في بروكلين كان رغدا وسهلا، فإنه لم يخل من بعض المشاكل. لم يكن الأمريكيون يقبلون بالمهاجرين الآخرين. ظهر هذا السلوك تجاه الأجانب في كثير من النزاعات والتمييز العنصري. لا أزال أذكر بعض المواقف التي مرت علي: ذات مرة رفض موظف التذاكر في إحدى دور السينما أن يقطع لي تذكرة دخول. وحتى بعد أن سمح لي بالدخول أخيرا، فقد تضايق كثير من الرواد البيض من دخول رجل أسود لمشاهدة الفيلم معهم، وقام بعضهم بتغيير مقعده. لكم أتوق للعودة لبلادي. رغم كل هذه السنوات فأنا هنا بجسدي فقط. لقد كنت طوال هذه السنوات الفائتة، وسأبقى دوما في السودان بعقلي وروحي... السودان في آمالي وفي أفكاري.»

كانت تجربة «خيري» وتأقلمه على حياته الجديدة قائمة على أساس من انتماءاته العرقية والمهنية والدينية. تبين قصته التي وردت أعلاه أنه، ورغما عن بعض المضايقات التي تعرض إليها أولئك البحارة، إلا أنهم بذلوا جهودا ضخما في سبيل إنشاء موضع قدم لهم في نيويورك معتمدين أساسا على تقاليدهم النوبية الثقافية في شيوع روح التضامن والتكافل والالتزامات المتبادلة. توضح قصة الرجل أيضا إحساس الأمن والثقة الذي كان يتمتع به البحارة كمحاربين قدامى، وكمواطنين أمريكيين. وأخيرا توضح روايته وعيه العميق بالشتات Diasporic consciousness ورغبته في الأوبة للوطن، وإخلاصه ووفاءه لقريته حيث ولد. بعد وفاة خيري في بروكلين، أخبرني أصدقائه البحارة إنه كان مستحقا لمراسم دفن رسمية، إلا أنه كان قد ترك وصية مفادها أنه يرغب في أن يدفن في دنقلا.

٢- بابكر

أتى بابكر (والذي كان يبلغ من العمر ٧٢ عاما في عام ١٩٩٣م) من دنقلا. وصل في عام ١٩٤٢م في ذات الظروف التي مرت بزميله في الهجرة خيري.

كنت أعمل في سفينة إغريقية منتسبة لما كان يعرف بوزارة الحرب البريطانية. بعد وصولنا لأمريكا، عرض علينا خيار الانضمام للبحرية الأميركية لأن الأمريكان في تلك الأيام كانوا يقومون بتجنيد الناس، وكانوا في حاجة شديدة لمجندين للعمل (في البحرية). قررت البقاء في أمريكا لأنني أتيتها عزبا. في الواقع كان أغلبنا عزابا، وكنا نتطلع لحياة جديدة في هذه البلد الواعد. قررنا البقاء بعد أن عرضت علينا فرصة البقاء. رجع عدد من زملائنا البحارة للسودان بعد أن قضوا عددا من السنين وحصلوا على الجنسية الأمريكية. إلى يومنا هذا يحصل هؤلاء البحارة على معاشاتهم من السفارة الأميركية في الخرطوم. الآن يعيشون عيشة مريحة، فلهم أملاك ودخول ممتازة.

كل البحارة الذين استقروا في أمريكا هم ذوي أصل عرقي واحد. كلنا كنا دناقلة (أي من دنقلا)، لذا كان من المنطقي أن نحد من مدى علاقتنا مع المجتمعات الأخرى في بروكلين، عدا المصريين. ولأن لمصر علاقات تاريخية مشتركة مع السودان، فقد كونا سويا منظمة اسمهما «جمعية وادي النيل». لكن بعد نيل السودان لاستقلاله كونا جمعية منفصلة اسمها «الجمعية السودانية الأميركية». كانت لجمعيتنا سمعة حسنة، وتقاطر علينا كل السودانيين طلبا للعون والنصح. كانت لنا علاقات واسعة ورسمية مع ٩٩ جنسية تنتسب إلى الاتحاد الوطني والعالمي لضباط البحرية.... كانت علاقتنا مع الأمريكيين السود ممتازة. وفي الواقع، بفضل تلك العلاقة، تمكنا من عمل علاقات مع السود الآخرين في نيويورك، والذين أخبرونا عن رجل سوداني يفترض أنه هو أول رجل سوداني شمالي في التاريخ يهاجر لأمريكا.

يوضح «بابكر» جيدا كيف ما زال الأميركيون السود منذ عقد أو أكثر يتذكرون بإعزاز وتقدير ومحبة ذلك الرجل «ماجد».(ماجد ساتي هو أول سوداني يهاجر لأمريكا حيث أقام بها لربع قرن من الزمان وعمل في مجال الدعوة الإسلامية خاصة بين الأمريكيين من أصل أفريقي. لمزيد من المعلومات عن الرجل يمكن الاطلاع على كتاب الأستاذ عبد الحميد محمد أحمد المعنون « **ساتي ماجد: الداعية الإسلامي السوداني بأمريكا ١٩٠٤ – ١٩٢٩** » وفصل في كتاب الدكتورة رقية مصطفى شرف (المشار إليه في هذا المقال)، ومقال منفرد لدكتور أحمد أبو شوك نشر في مجلة «الملتقى» في أغسطس ١٩٩٣ بعنوان « ساتي ماجد السوداني الذي أصبح شيخاً للإسلام في أمريكا» ؛ وآخر بالإنجليزية بالاشتراك مع جون هنوك وشون أوفاهي في مجلة Sudanic Africa ، ٨، ١٩٩٧م. المترجم).

كان «ماجد» (كما كان يعرف) قد غادر أمريكا في الثلاثينات. كان الأمريكيون السود يعدونه مثالا نادرا للرجل الصادق والمخلص والفاضل والعطوف، ويشيدون بتسامحه وكرمه الفياض. جعلت صفاته تلك كثيرا من السود يقبلون على اعتناق الإسلام على يديه. ذكر لنا بعض الأمريكيين السود بأن ماجد كان شخصية محترمة في مجتمع هارلم، لدرجة أنهم ألحوا عليه أن يصير إماما لمسجدهم ففعل. ولكن ما حدث بعد ذلك لماجد أثار حيرة وقلق وانزعاج كثير مما رووا قصته، ورفعوه مقامه لدرجة تشابه درجه النبوة. يعزو كثير من قاطني حي هارلم مغادرة ماجد غير المتوقعة لأمريكا للضغوط التي مارسها عليه المبشرون المسيحيون. قيل أيضا أنه كان مطالبا بإبراز شهادة من جامعة الأزهر بمصر تثبت أنه مؤهل للعمل كداعية إسلامي، وقد سافر فعلا للأزهر حيث حصل على تلك الشهادة، ولكنه فشل هناك في الحصول على تأشيرة دخول لأمريكا مجددا. لم يبق له إلا أن يعود لبلاده السودان. قيل أيضا أن المبشرين المسيحيين خدعوه بأن منحوه تذكرة مجانية للسفر للسودان بدعوى أنه لم ير أهله ووطنه منذ سنين طويلة. لا أدري ماذا حدث بالضبط؟ كان الجميع يشعرون بالأسى عند تذكره. ذهب ماجد للسودان ولم يسمح له بالعودة. على كل حال كانت تلك نهاية جهود ساتي ماجد في الدعوة للإسلام.

٣- عثمان

يذكر عثمان (والذي كان يبلغ من العمر ٧٣ عاما حين قابلته في ١٩٩٣م) أنه وصل إلى الولايات المتحدة قادما من الإسكندرية في السادس من ديسمبر من عام ١٩٤١م، قبل يوم واحد من قصف اليابانيين لبيرل هاربر. كان يعمل في البحرية المصرية، وبيعت السفينة المصرية التي كان يعمل بها للصليب الأحمر وحولت لمستشفى عسكري. رجع زملاؤه البحارة من السودانيين والمصريين للإسكندرية، ولكنه آثر البقاء في نيويورك.

انضممت للبحرية الأميركية، وبعد فترة قصيرة حصلت على الجنسية الأميركية. لكن لم يسمح لمن لم ينضم (للجيش) بالبقاء في أمريكا. في الواقع بعد انتهاء مهمتنا، منحنا ٢٩ يوما فقط لنقرر إن كنا سنقبل عرض العمل في البحرية الأمريكية أو نعود من حيث أتينا. عملت مع البحرية الأميركية لمدة طويلة، وشاركت في الهجوم على نورماندي في فرنسا، حيث حاربنا ضد الألمان حتى هزمناهم. قتل كثير من الجنود في تلك الحرب كان من بينهم بعض البحارة السودانيين. عدت بعد انتهاء الحرب إلى بروكلين حيث أسست مع سودانيين مهاجرين آخرين «الجمعية السودانية الأمريكية». عدت إلى السودان في عام ١٩٥٠م لأول مرة منذ أن استقررت في الولايات المتحدة.

كانت مفاجأة ضخمة للأزهري والمحجوب عندما زارا أمريكا ووجدا سودانيين مهاجرين هنا، ولم يكن يعلما ذلك من قبل. أقمنا لهما حفل استقبال ضخم على شرفهما في نيويورك لتكريمهما على المجهود الضخم الذي بذلانه من أجل أن ينال السودان استقلاله.

٤- حامد

كان حامد (والذي كان يبلغ من العمر ٧٥ عاما حين قابلته في ١٩٩٣م) مهاجرا من دنقلا. وصل إلى أمريكا قبيل الحرب الكورية (حرب جرت بين ١٩٥٠ – ١٩٥٣م بين جمهورية كوريا وكوريا الديمقراطية الشعبية. المترجم). وعمله – مثل من سبقه من البحارة- في البحرية الأمريكية، ونال على إثر ذلك الجنسية الأميركية.

لم يتم التوثيق لهجرة البحارة السودانيين للولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الأقطار. قام بعض الشباب في منطقتنا بالمغامرة بالهجرة. كان أهلنا يسكنون قرب نهر النيل، وعمل كثير منهم في صناعة المراكب والعمل عليها كبحارة. عمل بعضهم أيضا في «النقل النهري» بالخرطوم بحري. في تلك الأيام كانت البواخر تجوب كافة مناطق السودان وتصل لجوبا في جنوب السودان. لسكان دنقلا صلات خاصة بمصر، وعمل كثير من شبابها كبحارة في البواخر والسفن المصرية التي كانت تبحر نحو بريطانيا. اقنعوا أهلهم بالسماح لهم بالانضمام لهؤلاء...وكان ذلك قد حدث قبل وقت طويل، حتى أثناء الحرب العالمية الأولى بين عامي ١٩١٤ – ١٩١٨م. قدمت للولايات المتحدة على سفينة سويدية قبيل انتهاء الحرب الكورية. كان الميناء الرئيس الذي أعمل فيه في السويد، وكان البحارة السودانيين يجوبون موانئ العالم المختلفة.، فبعضهم في مصر والآخر في السودان والنرويج والسويد الخ. عندما قدمت لأمريكا، كان الطلب على البحارة عاليا، فالزمن كان زمن حرب. بعد وصولي قررت أن التحق بالبحرية الأميركية، والتي قامت بحملات كبيرة لتجنيد عدد كبير من البحارة. وبمجرد انضمامي للبحرية، تم منحي الجنسية الأميركية. عدت بعد ذلك للسودان وبقيت فيها لعشرة أعوام حتى عام ١٩٦٨م حين قررت العودة لأمريكا.لم أزر السودان منذ ذلك العام. منح البحارة الذين أصيبوا في الحرب العالمية الثانية استحقاقات الإعاقة، ورجع بعضهم للسودان، وبقي البعض الآخر معنا هنا حتى توفوا. لم نعمل في هذه البلاد في غير مهنة البحرية. نعيش نحن البحارة الذين بقينا هنا، أو الذين عادوا للوطن، في بحبوحة من العيش لأننا نتلقى معاشات من البحرية. نتلاقى مع بعضنا البعض في مجتمعنا هنا في الحفلات والمناسبات الاجتماعية، والحفلات التي نقيمها للوافدين الجدد وللساسة السودانيين والدبلوماسيين الذين يزوروننا. لنا علاقات طيبة معهم. المؤسف أن غالب الوافدين الجدد لا يرغبون في الانضمام لجمعيتنا، ويسونها «جمعية الدناقلة» أو «مجموعة دنقلا» رغم محاولاتنا لجعلها جمعية لكل السودانيين بغض النظر عن أصلهم العرقي/ الأثني.

٥- صالح

قدم صالح لنيويورك قبل الحرب الكورية، وعمل في البحرية الأميركية خلال تلك الحرب. هو الآن (عام ١٩٩٣م) في السبعين من العمر، ويقطن بروكلين مع زوجته ميمونة وبناته الأربع. عمل في السفن التجارية التي تجوب العالم، وهو يتحدث العربية والإنجليزية والإسبانية والفرنسية، بالإضافة للغته الدنقلاوية. قال صالح ما يلي عن حياته ووصوله لنيويورك.

أتيت هنا بعد سـنوات من وصـول خيري، ولكن بالطبع كنت على علاقة طيبة مع كل البحارة. عملت في البحرية أثناء الحرب الكورية، وكما تعلمين فقد حصـلت على الجنسـية الأميركية. أصـبت في الحرب الكورية، والآن أتلقى بالإضـافة إلى معاشـي من البحرية اسـتحقاقات الإعاقة. كانت تجربتي في الحرب تجربة دراماتيكية. بقينا في قوارب الإنقاذ لأيام عديدة في المحيط الهندي. بعد أن استقررت هنا تزوجت من زوجتي الأولى ورزقت بولد. انفصلت عن زوجتي بالطلاق. عدت بعد ذلك إلى دنقلا حيث تزوجت مرة أخرى، وأنجبت منها أربع بنات، اثنان منهم في المرحلة الثانوية، والأخريات في المرحلة المتوسطة. أقوم بما أستطيع لأجعل بناتي يدركن أصولهن ومن أين أتين. نعم، هن أمريكيات- فثلاثة منهن ولدن هنا، ولكنهن سـودانيات ودنقلاويات.الآن بناتي يتحدث الدنقلاوية بطلاقة في المنزل، ولا يتحدث بالإنجليزية إلا في خارج المنزل. آخذهم لدنقلا كل عام لقضاء العطلة الصيفية. يحبون دنقلا والحياة فيها، ولديهم كثير من الأصـدقاء والأقارب الذين يخبرونهم عن كثير من أمور الحياة في البلاد وثقافتها. يذهبون إلى المدارس الإسلامية في بروكلين، ويهتمون بالعبادات الإسلامية. يصومون ولا يفوتون فرضا من فروض الصلاة. أرى أننا لا نواجه نفس المشاكل التي يواجهها القادمون لأمريكا من أجل اللجوء السياسي، وينتظرون لعدد من السنوات لمعرفة مصير طلباتهم. ألاحظ أن كثيرا من الشباب لا يدركون ما عليهم مجابهته. هنا عليك العمل بجد واجتهاد لتكسـب عيشـك، خاصـة إن لم يكن لديك ورق (أي أوراق ثبوتية رسـمية. المترجم). تكون حينها عرضـة لضغوط نفسية كبيرة، أو للاعتقال والترحيل لخارج البلاد. لذا يجاهدون فقط كي يكسبوا القليل الذي يكفي الرمق. وكبحار في البحرية الأمريكية لم أقلق أبدا على عيشي، ولا من أين ستأتي وجبتي المقبلة.

لنا جمعيتنا (الجمعية السـودانية الأمريكية)، والتي لا تقبل إلا حملة الجوازات الأميركية وحاملي بطاقة الإقامة الدائمة (القرين كارد). تفرض الجمعية رسوما على أعضائها، وتستخدم أموال هذه الرسوم في مساعدة المحتاجين من أعضاء الجمعية، وفي إقامة الاحتفالات الدينية وغيرها، وفي دفع رسوم الدفن في المقابر الإسلامية. يملك بعض البحارة عمارات سـكنية في بروكلين تدر عليهم دخولا ممتازة. تمكنا من حيازة أرض أقمنا عليها مقبرة إسـلامية، ولدينا مسـجد أيضـا كان يديره السـودانيون والأمريكيون السـود، بيد أن اليمنيين هم من يتولون إدارته. لكننا ما زلنا نصـلي فيه. أنظر إلى نفسـي كشـخص له أكثر من منزل. كأمريكي، فقد قمت بما يجب على كل أمريكي القيام به. لقد خاطرت بحياتي في الحرب. وكسـوداني فقد حافظت على صـلاتي ببلادي وأهلها، وبالبحارة هنا. البلدان (أمريكا والسودان) عزيزان علينا.

يبين ما ذكره صـالح كيف أن البحارة قد حافظوا على الصـلات المتعدية translational linkages بين نيويورك ودنقلا بالحفاظ على الصلات العائلية والاجتماعية الموزعة بين الوطنين. يؤكد ذلك ما كتبه رويجر روس: «خليط من أمزجة قديمة عميقة التجذر لا يمكن طرحها، وأخرى حديثة تم تبنيها كردة فعل للبيئة الجديدة.»

يؤكد ما حكاه صـلاح الدور المهم الذي تلعبه العائلة في الحفاظ على التجربة الذاتية لهوية الفرد وتراثه الثقافي. وكما يقول ميشـيل لاقري :« تعد العائلة موضـعا مهما يمكن فيه أن يتواءم التواصـل الثقافي مع مقتضـيات البيئة الجديدة. عن طريق وساطة العائلة (والتي تؤثر على سلوك أفرادها عن طريق آلية التنشئة الاجتماعية) يكون بمقدور المهاجرين الحفاظ على بعض من تراثهم الثقافي، وأن ينموا من وعيهم بإرثهم العرقي».

مجتمع البحارة:

تكون مجتمع البحارة السودانيين في الولايات المتحدة من نحو خمسين رجلا لا يزيدون، أتى كلهم بلا استثناء من ذات المنطقة في السودان... من دنقلا. إذن كانوا يتشاركون في الأصل والثقافة والدين. ساعدت هذه السمات المشتركة هؤلاء البحارة، رغم صغر عددهم، على تنظيم عيشهم والتأقلم على الحياة في الولايات المتحدة كمجتمع متماسك. وبالنظر إلى خلفيتهم المهنية المشتركة كبحارة، وخصائصهم الديموغرافية كشباب عزاب حينما قدموا للولايات المتحدة، إضافة إلى خبراتهم التاريخية كجنود في الحرب العالمية الثانية والحرب الكورية، فقد كون هؤلاء المهاجرون مجموعة متماسكة متآلفة نجحت في «إعادة اختراع» الوطن في مهجرهم في «بروكلين»، ونجحت كذلك، عن طريق تعزيز منهجي لتراثهم اللغوي والعرقي، في البقاء عبر خمسة عقود.

تميزت تجربة البحارة المهاجرين بخصائص متفردة لا توجد عند من تبعهم من المهاجرين السودانيين في السنوات الأخيرة. عندما حط هؤلاء البحارة الرحالة في نيويورك قدموا ومعهم خبرات مهنية كان الطلب عليها كبيرا. إضافة لذلك فقد كانت هجرتهم هجرة اختيارية، وليس بسبب ضيق اقتصادي أو تضييق سياسي. كان البحارة، وعلى وجه العموم، في وضع مناسب تماما للاستفادة من الفرص المتاحة للعمل في الولايات المتحدة، وجعلت تلك الميزة حياتهم أكثر يسرا ممن خلفهم من المهاجرين السودانيين.

أتيحت للبحارة المجندين فرص عديدة لتحسين حياتهم ولتعلم طرق وأساليب الحياة في المجتمع الجديد. بهذا تحاشى هؤلاء البحارة التدهور الدرامي في حراك موقعهم الطبقي (class mobility) والذي واجه المهاجرين السودانيين في التسعينات[«**الحراك بين الطبقات**» بتبسيط شديد هي الهبوط أو الصعود في سلم الطبقات الاجتماعية متأثرا بعوامل مختلفة منها العرق أو المهنة أو تاريخ العائلة أو التعليم أو الثروة وغير ذلك. المترجم] . وبسبب أن الصعود في سلم الترقيات في الجيش يعتمد (أساسا) على القدرات والميزات التي يبرزها الجندي أو الضابط، فقد حقق هؤلاء البحارة المجندون تقدما وظيفيا في البحرية الأمريكية لم يكن لهم أن يحققوه إن كانوا قد التحقوا بوظائف مدنية. ساهمت فرصهم في انجاز نجاحات اقتصادية واجتماعية بصورة ايجابية في تعزيز استقرارهم وتأقلمهم علي الحياة في أمريكا. فعلى سبيل المثال، وبسبب حصولهم على دخول عالية نسبيا، امتلك كثير من هؤلاء البحارة ممتلكات عقارية في أمريكا وفي السودان. يمتلك كثيرون من البحارة عمارات صغيرة بها عدد من الوحدات السكنية، فصالح مثلا يمتلك عمارة بها ١٠٠ شقة في واحدة من مناطق بروكلين هي «بروكلين هايتس Brooklyn Heights ، وهناك بابكر، ذلك المحسن الكريم الذي قام بعمل كثير من الأعمال الخيرية في السودان، منها بناء مسجد في منطقة العمارات بالخرطوم، حيث يمتلك بعض العقارات.

رغم نجاح البحارة في التأقلم والتواؤم والتوافق مع الحياة في أمريكا، إلا أنهم لم يتغيروا ويتبدلوا تماما بمجتمعهم الجديد. لقد عبرت ثقافتهم النوبية المحيط (الأطلسي) وبقيت معهم حية في أكثر من جانب، وعلى أكثر من وجه. شمل ذلك العناية بالأقارب، وباقتصار الزواج عليهم، والعلاقات الأسرية القوية، والمداومة على أداء الشعائر الدينية بصورة جماعية. حافظ هؤلاء البحارة على أصلهم العرقي وهويتهم النوبية، ويبدو ذلك واضحا جليا في تجذر أنماط الزواج في أوساطهم، وفي تجاربهم الدينية. وكما كتب توليان عن المجتمعات في الشتات، فإن البحارة «حافظوا

بصورة نشطة على ذاكرة جماعية مثلت العنصر الأساس في هويتهم المتميزة». ظل هؤلاء البحارة يحافظون على هويتهم الثقافية رغم مرور ستين عاما على الإقامة في الولايات المتحدة، والحصول على الجنسية الأميركية.

رغم أن البحارة قد قدموا لأمريكا وهم عزابا، فقد ظلوا مخلصين لفكرة الزواج فقط من مجتمعهم الدنقلاوي (السابق) في السودان. عادة ما يكون الزواج هنالك مرتبا سلفا بين عائلتين، ويندر جدا أن تتم أي زيجة دون موافقة ومباركة الأبوين من العائلتين، أو أن يتزوج الشاب منهم من فتاة من غير الأصول النوبية. شرح بابكر الأمر كما يلي: « لقد أتينا لهذا البلد ونحن صغار في السن لم نتزوج بعد. ظل بعضنا عزابا، وتزوج منا عدد قليل فقط في هذا البلد، فقد تزوج واحد منا من امرأة مصرية في بروكلين، وسمعنا أيضا بأن الزيجات التي تمت من أمريكيات لم تدم طويلا. عاد كثير منا إلى دنقلا ليتزوج.»

بينما كنت أجري هذه المقابلات مع البحارة سمعت أن ابن أحد المهاجرين القدامى سيتزوج من ابنة أحد زملائه البحارة، وعلمت أيضا أن احتفالات الزواج ستقام في السودان. و هذا يتسق مع كتبه بهاء أبو لبان في عام ١٩٦٩م عن الكنديين العرب من أن: « الزواج بين العرب وبعضهم البعض (في كندا) يجدد ويطيل من أمد الارتباط بالهوية (العربية) والولاء العرقي». لم يعرف مجتمع البحارة السودانيون في أمريكا خلال عقد التسعينات أي زيجات مختلطة تخترق حواجز الهوية والدين.

التجربة الدينية

كتب كليفورد قيرتز عن الدين كنظام ثقافي (cultural system) فقال: «إن أهمية الدين بالنسبة لعالم الأنثربولجي (علم الإنسان) تتمثل في قدرته على خدمة الفرد أو المجموعة كمصدر عام (لكنه مميز) لتصور ماهية العالم، ولذاتيه، والعلاقة بينهما.» يضيف أيضا أن: «المفاهيم الدينية تمتد إلى أبعد من سياقها الميتافيزيقي لتوفر إطارا لأفكار عامة لمختلف التجارب... الفكرية منها والعاطفية والأخلاقية» . هذه المقولات والأفكار مهمة للكشف عن معاني حياة البحارة الدينية. كيف تسنى للبحارة مواصلة إتباع وممارسة شعائرهم وتقاليدهم الدينية في مجتمع مسيحي في الغالب؟ ما هي العناصر الرئيسة في ممارساتهم الدينية التي تعكس الاستمرارية الهيكلية لحياتهم السابقة؟

لم يواجه المهاجرون البحارة مشاكل اجتماعية عويصة مثل التي كابدها غيرهم من المهاجرين لأمريكا، وذلك بسبب المنافع التي جناها البحارة بنيلهم للجنسية الأمريكية في سرعة فائقة، وبسبب دخولهم العالية نسبيا. بيد أن عزلتهم الثقافية والاجتماعية والدينية دفعتهم إلى الاحتشاد مع جماعتهم، والاكتفاء بصحبتهم مع بعض المسلمين الآخرين (دون غيرهم). لم يكتف البحارة بالمحافظة على ثقافتهم عن طريق الزواج من قبيلتهم فقط، ولكنهم سعوا أيضا للاندماج الديني والاجتماعي مع جماعة المسلمين، ولهذا الغرض انضموا لجماعة مسجد كان يسمى «مسجد داؤود» (يسمى الآن البعثة الإسلامية الأميركية Islamic Mission of America) والذي أسسه الشيخ داؤود أحمد فيصل، والذي هاجر لأمريكا في عام ١٩١٣م من مارتنيك (جزيرة في شرق البحر الكاريبي تتبع لفرنسا. المترجم). أنشئ هذا المسجد في البدء في شارع رقم ١٢٨ وشارع لينوكس في حي هارلم، ثم انتقل إلى بروكلين هايتس Brooklyn Heights في عام ١٩٣٥م. ولمزيد من التقصي حول التجربة الدينية للبحارة قمت بزيارة ذلك

المسجد في أيام الجمع خلال صلاة الجمعة في عامي ١٩٩٦ – ١٩٩٧م. يقع هذا المسجد في منطقة سكنية في بروكلين قرب شارع يسمى «أتلانتيك آفنيو» حيث تكثر المحلات التي يملكها المسلمون المهاجرون. لقد ظل البحارة الذين يعتادون هذا المسجد لعقود من الزمان يمثلون مجتمعا متفردا في أوساط المسلمين في ذلك المسجد، ذلك بسبب هويتهم المتميزة وخبرتهم التاريخية. كانت تلك الجماعة في المسجد هي الوسيط الذي مارس عبره البحارة هويتهم كمسلمين، وكانت لهم بمثابة الملجأ الديني والثقافي و«وطنهم البعيد من الوطن Home away from home»

تأتي للمسجد أعداد كبيرة من المسلمين الآخرين والعرب لأداء صلاة الجمعة وصلاة العيدين (وهما من أهم المناسبات الدينية للمسلمين)، وبأدائهم للصلوات في المساجد يتأكد وجودهم الاجتماعي في مجتمع أمريكا الشمالية على المستويين الديني الفردي والمجتمعي. وكما كتبت منى أبو الفضل فإن صلاة الجمعة « تبقى أكثر من مجرد أداء واجب ديني في مكان (رسمي) للعبادة، فهي حقيقة فعل يتعدى الفرد ويتجاوزه، ويعبر حدود الزمن والمسافة، ويغذي ويقوي من الإحساس بالمجتمع والهوية.»

كتب أوسكار هاندلن عن المهاجرين للولايات المتحدة بأنه: «كلما زاد واكتمل الفصل بين المهاجرين وبين حياتهم القديمة في بلدانهم الأصلية، كلما زاد عندهم تأثير ونفوذ الدين، والدين هو الناجي الوحيد في عملية النقل من الحياة القديمة للحياة الجديدة في أمريكا...». عمل البحارة أكثر من غيرهم من المهاجرين لأمريكا الشمالية قبل ستينات القرن الماضي على إعادة صناعة ما ضيهم في محيط غير مألوف، وجاهدوا – قدر طاقتهم- لا ستنقاذ شيء (عزيز) من حياتهم السابقة في وطنهم الأم هو معتقدهم الديني الذي يربطهم بماضيهم وأصلهم...«. وكما أخبرني عثمان وآخرين فقد عاني البحارة السودانيون المهاجرون أكثر من غيرهم من المهاجرين قبل ستينات القرن الماضي لإعادة صياغة ماضيهم وسط أجواء غير مواتية، ووجدوا في ممارسة شعائر دينهم بصور جماعية بعضا من روح وطنهم الأول والحياة التي ألفوها فيه. في المسجد رمزية واضحة فيما ذكره صالح من حدث عن مسجد داؤود الذي كان يتعاهد البحارة الصلاة فيه. قال الرجل: «تعرفنا في ذلك المسجد على بعض الأمريكيين السود، والذين عرفونا على الحاج داؤود، والذي كان يحب السودانيين حبا جما نسبة لمعرفته الوثيقة بماجد ساتي. ساعدنا ذلك المسجد في الغربة، وسهل لنا معرفة المسلمين الآخرين».

مجتمع مؤسس مستقر:

احتفل البحارة بقدوم عدد من المسؤولين السودانيين للولايات المتحدة، وكان هذا تأكيدا لقوة شبكة علاقاتهم بالسودان وقيادته وأهله، وتأكيدا أيضا على متانة صلاتهم بوطنهم الأم. لعبت شبكة العلاقات تلك دورا مهما في تأقلم وتنظيم حياة من جاءوا في الموجة الأولي من المهاجرين، والطلاب السودانيين، وصفوة المهنيين الذين بدأ كثير منهم في التقاطر على أمريكا في الخمسينات. مد البحارة يد العون لأولئك القادمين الجدد، وحكى بعضهم من أن أهلهم وأصدقائهم ومعارفهم في السودان أوصوهم بالاتصال بهؤلاء البحارة طلبا للعون، وتوفير الإقامة، ولتعريفهم بالمجتمع الأميركي.

توفي في التسعينات كثير من أولئك البحارة المهاجرين الأوائل، وآب بعضهم للسودان، وانتقل قليل منهم للعيش في المناطق الأكثر دفئا في الولايات المتحدة، وبحلول عام ١٩٩٩م لم يبق من البحارة في بروكلين غير ثلاثة فقط.

ساهمت الحركية المهنية (occupational mobility) للبحارة، وتجانسهم العرقي وخبراتهم الفريدة في مجال الهجرة في خلق وجهات نظر مواتية لقرارهم بالبقاء في الولايات المتحدة. تقف هذه التجربة على طرف نقيض من تجربة المهاجرين الجدد، والمهاجرين الذين سنعرض لطرف من قصصهم فيما يلي.

المهاجرون «المؤقتون» بعد عام ١٩٥٦م

كان غالب من قدموا للولايات المتحدة من شمالي السودان بعد نيل البلاد لاستقلالها في عام ١٩٥٦م هم من طلاب الدراسات العليا، ومن الدبلوماسيين في السفارة والقنصلية الذين كانوا يقضون في أمريكا فترات قصيرة نسبيا. كان أولئك بمثابة المقدمة للأعداد الكبيرة من المهاجرين السودانيين الذين هاجروا لأمريكا بعد ١٩٨٩م. كان عبد الرحيم هو واحد من أولئك المهجرين الذين أجريت معهم مقابلة في عام ١٩٩٢م (وكان يبلغ من العمر ٤٦ سنة في ذلك الوقت). ذكر لي عبد الرحيم أنه قدم لنيويورك في عام ١٩٦٣م كعضو في وفد سوداني كان يشارك في معرض فني عالمي يقام في تلك المدينة. كانت مهمة عبد الرحيم (ومهنته نجار) أن يقوم بنصب جناح السودان في ذلك المعرض. بعد انقضاء أيام المعرض آثر الرجل البقاء. الآن يعمل عبد الرحيم كرجل أعمال، ويمتلك عقارا يحوي عددا من الشقق السكنية، ويترأس «رابطة المهاجرين السودانيين» (الجالية) في مدينة نيويورك. تعتبر قصة عبد الرحيم فريدة من نوعها، إذ أن غالب من قدموا للولايات المتحدة بين عامي ١٩٥٦م و ١٩٨٩م بقوا فيها بصورة مؤقتة فقط، مثلهم مثل العاملين في السفارة السودانية، والسياح، والمشاركين في برامج التبادل بين الحكومتين. ورد في تقرير صدر من السفارة السودانية في عام ١٩٩٣م أن غالب من قدموا للولايات المتحدة بعد عام ١٩٦٠م كانوا قد أتوا للالتحاق بالجامعات الأميركية المشهورة، الأمر الذي سهل عليهم التقدم في سلم الوظائف والحراك الطبقي فيما بعد. ثبت بعد عام ١٩٨٢م أن أعدادا كبيرة من السودانيين تحصلوا على درجات عليا من كبريات الجامعات الأمريكية بتمويل من الحكومة السودانية. وبناء على سياسات الحكومة فإنه يجب على السوداني المبتعث للدراسات العليا أن يوقع تعهدا بالعودة للسودان والعمل فيه لعشرة سنوات في خدمة المصلحة التي أوفدته، وإن لم يف بما تعهد به فيجب عليه رد ما صرفته عليه الدولة. رجع غالب المبتعثين الموقعين لذلك التعهد إلى السودان بعد انتهاء بعثاتهم، بينما بقي قليل منهم في أمريكا.

أثبتت الإحصائيات التي جمعها عثمان حسن أحمد الملحق الثقافي لسفارة السودان في واشنطن أن عدد طلاب الدراسات العليا السودانيين الذين تخرجوا في الجامعات الأميركية والكندية بين عامي ١٩٦٠م و١٩٨٢م بلغ ١٣٨٢ طالبا وطالبة. في حالات قليلة ينجح الطلاب (خاصة من المهنيين كالأطباء والمدرسين والمحامين وغيرهم) في تعديل تأشيرة الإقامة (الفيزا) التي يحملونها من فيزا الطلاب (F-1) إلى إقامة دائمة (جرين كارد). بالنسبة لغالب من قابلت من هؤلاء الذين آثروا البقاء في أمريكا بعد انتهاء بعثاتهم كانت الامتيازات المالية وتوفر فرص البحث العلمي والصعود في سلم الحراك الطبقي والحياة الرغدة الميسرة هي من أهم دوافع هؤلاء للبقاء في أمريكا وعدم الرجوع للوطن. يجب ذكر أن قسما من هؤلاء ذكروا أن سبب عدم رجوعهم للسودان هو القمع السياسي والتدهور الاقتصادي وانعدام الحرية العلمية وقلة فرص البحث العلمي المتقدم. لم يعان هؤلاء كثيرا في التعود والتأقلم على

الحياة في أمريكا الشمالية بسبب تأهيلهم العالي ومهاراتهم التي اكتسبوها في العيش لسنوات في هذه البلاد. كمثال على هؤلاء قابلت «خديجة» المولودة في عام ١٩٥٨م في شندي بشمال السودان. قدمت هذه السيدة للولايات المتحدة عام ١٩٨٤م وعمرها ٢٦ سنة للحصول على درجات عليا، بعد أن كانت قد حصلت على درجة البكالوريوس في السودان وعينت كمساعدة تدريس في إحدى الجامعات التي ابتعثتها للدراسة في الولايات المتحدة. الآن تعمل كباحثة أولى وتمتلك منزلا، ولا تعتزم العودة للسودان قريبا. قالت لي: «هنا أشعر بأني أملك زمام أمري، فلي قوة وتأثير ومسؤوليات أكثر (مما كان لدي في السودان)». كان يرافقها في بعثتها «عطا» بعلها، والذي وجد له أيضا عملا في جامعة أميركية.

وهنالك «عزيز»، والذي كان يبلغ من العمر ٤٧ عاما في عام ١٩٩٣م. أتى الرجل من مدينة عطبرة في شمال السودان، وحط رحاله في أمريكا في ١٩٨٠م للالتحاق بجامعة في ولاية ويسكنسن. أتم «عزيز» دراسته العليا في مجال الهندسة، وأنتقل بعد ذلك إلى ولاية مينسوتا. قال مبررا قراره بعدم الرجوع للسودان بعد انتهاء بعثته: «الأسباب الرئيسة التي دفعتني للبقاء في أمريكا هي الرغبة في التقدم المهني، والاستفادة من الموارد اللازمة للبحث العلمي. لا أعتقد الآن بأنني أستطيع الرجوع للسودان.»

كان الاقتصاد السوداني في السبعينات يتصف بالنمو البطيء، وبالتدهور المتواصل في نصيب الفرد من الدخل القومي وفي قيمة العملة الوطنية، وبتزايد الديون الخارجية، وتفشي العطالة، وتدني الإنتاجية. كان الذين آثروا البقاء في أمريكا يدركون كل ذلك، ويعلمون الفروقات الضخمة بين دخولهم في السودان، وتلك التي يحصلون عليها في الولايات المتحدة، حتى إن عملوا فيها في وظائف متواضعة. يرى كثير من المهاجرين السودانيين أن دخولهم من وظائفهم في أمريكا تتيح لهم فرصا لمساعدة أهلهم في السودان لم تكن لتتاح لهم لو أنهم بقوا في البلاد.

كان ذلك الشعور بالإحباط من الحياة في السودان، إضافة لمعرفة/ تصور أن هنالك فرصا متاحة في الولايات المتحدة هو الدافع الرئيس للعدد القليل من المهاجرين الذين وصلوا لأمريكا بعد ١٩٥٦م و١٩٨٩م. تعكس التدفقات المكانية (spatial flows) من بلد لآخر في هذا العالم رحلة بحث الناس المتواصلة عن فرص جديدة لحياة أفضل، وعن ضيقهم بالعيش في أوساط المجتمع في بلدانهم الأصلية. أدى عجز السودان عن توفير فرص معقولة في مجال التعليم والتطور المهني لهجرة أعداد كبيرة لخارجه، وضاعفت الصراعات الأخيرة والحروب الأهلية، وقلة الفرص للابتعاث الخارجي بعد مجيء الحكم العسكري في ١٩٨٩م، من الضغوط على الشباب للسعي للهجرة من السودان.



الثبات على المبدأ: رحلات مع نساء السودان

د/ ليليان كريغ هاريس

تقديم: هذه السطور هي بعض ما جاء في فصل من كتاب متوسط الحجم عنوانه: «الثبات على المبدأ رحلات مع نساء السودان»، صدر عام ١٩٩٩م من دار نشر بولينز-أفريقيا، لامرأة منحدرة من عائلة عمل كل أفراد أجيالها المتعاقبة بالتبشير المسيحي هي ليليان هاريس (والحاصلة على درجة الدكتوراه في تاريخ الصين من جامعة جورج تاون)، والمتزوجة من السفير البريطاني في الخرطوم (الن قولتي)، مع احتفاظها باسمها على غير عادة الغربيين. قضت المؤلفة مع زوجها السفير في السودان أربعة أعوام متصلة (١٩٩٥ -١٩٩٨م). قد يذكر الناس أن ذلك السفير البريطاني كان قد أمر بمغادرة السودان بعد تأييد بريطانيا لعملية القصف الأمريكي لمصنع الشفاء.

تخصصت الدكتورة ليليان هاريس في السنوات الأخيرة في قضايا الدفاع عن المرأة في أرجاء العالم المختلفة، وتقول إنها ملتزمة بأمر حل النزاعات، والتعايش (السلمي) بين المسلمين والمسيحيين، وأنشأت العديد من الجمعيات الخيرية خدمة لقضايا المرأة، إحداها مخصصة لتقديم منح دراسية لنساء النوبة .

في هذا الفصل قامت المؤلفة بتسجيل انطباعاتها عن زيارة قامت بها وزوجها السفير البريطاني في السودان - مع ثلة من الدبلوماسيين الأجانب لمنطقة جبال النوبة، وأنقل هنا بعض انطباعاتها الشخصية دون تعليق. في فصل الكتاب المعنون «الأبيض: زوجة الوالي» قامت المؤلفة بتسجيل انطباعاتها عن زيارة قامت بها وزوجها – السفير البريطاني في السودان – إلى الأبيض، حاضرة كردفان، وأنقل هنا بعض انطباعاتها الشخصية دون تعليق (فالحكم للقارئ). من المفيد في رأيي التأمل في ما كتبته هذه الكاتبة، عملا بالحكمة الأزلية: «اعرف عدوك » لمن يراها «عدوة»، وأضيف أيضا «اعرف صديقك» لمن يعدها «صديقة». آثرت أن لا أذكر هنا أسماء الذين أوردتهم الكاتبة في هذا الفصل لأسباب عديدة. المترجم.

***

نوفمبر ١٩٩٥م

كان الجو العام مفعما بحزن معد عميق. حزن كنت تراه في عيون الناس وفي مبانيهم المهدمة، وتسمعه في أصواتهم، بل وتشمه في ما تبقى من أسواقهم البائسة، وقطاطيهم المهدمة. رغم أن شعلة الغضب لا تزال حية ومتوقدة – كما قيل لنا -في أماكن قليلة هنا وهناك، خاصة في بعض مناطق الجبل الحصينة، إلا أن هذه المنطقة تبدو كأرض محروقة. لا فائدة الآن من التحذير من أن ثقافة النوبة باتت مهددة، أو أن الناس يواجهون خطر الإبادة. لقد خمدت النيران الآن، ونحن الآن نقلب في ما بقي من رماد.

كنا قد يممنا شطر «جبال النوبة» مع خمسة عشر دبلوماسيا أجنبيا (مع مساعديهم)، أغلبهم في رتبة السفراء، وبرفقتنا عدد من «عيون» الحكومة وعسسها ومسئوليها

خطر لي أن أكتب تقريري عن تلك الرحلة التي ضمت أصنافا عديدة متنافرة من البشر على طريقة الروائي البريطاني لورنس دوريل (هو مؤلف بريطاني عاش بين عامي ١٩١٢ – ٢٠٠٠م، وأشهر أعماله هي «رباعية الإسكندرية» المترجم). فعلي سبيل المثال كان معنا ذلك السفير السوداني المسلم المتيم بالويسكي، ومعه قائم بالأعمال، مفرط البدانة، ما كان يطفئ نار سيجارة حتى يشعل أخرى. كان معنا أيضا سفير أجنبي يربط حول وسطه حزاما وضع فيه خنجرا سويسريا ضخما حاد النصل، وبقربه حارسه الشخصي وهو يحمل سيخة حديدية ضخمة. كان هنالك بالطبع أيضا زوجي (السفير البريطاني. المترجم) وهو في بذلته التي كانت تصفها عقيلة أسقف برادفورد بأنها «بذلة مهرج». ماتت ضحكتي في مهدها وأنا أمام مشهد «جبال النوبة» البالغ الحزن.

كاد السفير الكوري يصاب بالإغماء وهو يعلن لنا أن رحلتنا البرية من الأبيض إلى كادقلي كانت أقسى رحلة عذاب قام بها في حياته. لم أشأ أن أسأله لماذا لم يقم أبدا بزيارة الصين! ناولني القائم بالأعمال المغربي -وأنا السيدة الوحيدة في تلك المجموعة من الذكور- بوكيه من أزهار برية قوية الرائحة قطفها من حديقة والي شمال كردفان. لم أضع البوكيه بين أسناني، بيد أني استخدمت صندوقها لوضع غدائنا فيه لتناوله فيما بعد في الدلنج. كان ممكنا أن يكون وضعنا ذاك مدخلا طيبا للروائي لورنس دوريل. لكنا جلسنا دون أن نتمكن من الأكل أو الضحك، فقد كنا محاطين بكثير من العيون والبطون الجائعة .

بدأت الرحلة في ظل أجواء كئيبة. وصلنا للأبيض من الخرطوم بطائرة روسية قديمة ذات مراوح (غير نفاثة) قامت باستئجارها حكومة السودان، ودفع الدبلوماسيون الأجانب قيمة استئجارها. قضينا في مطار الخرطوم، ومنذ الصباح الباكر، أكثر من ساعة كاملة في الانتظار، مما جعل صبر بعض الدبلوماسيين ينفذ، وبدا ذلك واضحا عليهم. ما أن بدأت الطائرة في التحرك في مدرج المطارحتى هتفت عاليا فتاة ضخمة ترتدي اسكيرتا أخضرا وتغطي شعرها :«الله أكبر» ثلاث مرات، مما دعاني لتبادل نظرات خوف وارتعاب مع السفير التركي، والسكرتير الأول الألماني. مرت الرحلة دون حدث يذكر، رغم مررونا ببعض المطبات الهوائية، ولم يمس كثير منا أكوام الكيك والفطائر اللزجة التي أمطرتنا بها مضيفتان جويتان في زيهما الأخضر.

استقبلنا عند باب الطائرة في مطار الأبيض والي شمال كردفان الشاب. لعله كان يعلم أن اليومين القادمين سيكونان «كابوسا» برتوكوليا لنا، بيد أنه – إن سارت الأمور كما يشتهي هو - « فسيكون ذلك «انقلابا» في جانب

العلاقات العامة. كان هدف الحكومة هو أن تذهب تلك الثلة من «الخواجات» وغيرهم من الدبلوماسيين إلى «جبال النوبة» وتعود دون أن تسمع أو ترى أي أثر لفعل شرير أو غير حميد. وإن حدث ذلك ، فلن يستطيع هؤلاء الدبلوماسيون بعد ذلك الحديث بسوء عن أحوال حقوق الإنسان وانتهاكاتها. لابد من إحكام الرباط الأسود حول أعينهم. سيكون هنالك الكثير من الصور التذكارية وشرائط الفيديو لمصافحات حارة، وابتسامات ودودة، ورقصات قبلية، وهدايا تذكارية لإسعاد (وإسكات) هؤلاء القوم المغرورين المتنطعين المحبين للإعلام والشهرة. تلك كانت هي خطة الحكومة .ولضمان نجاح تلك الخطة، بعثت الحكومة أيضا بالقس جبريل ريوك كعين لها علينا، وقد كان وزيرا في الحكومة، وقسيس الكنيسة الأسقفية بالسودان .

من جانبنا توقعنا أن تكون الحكومة قد قامت بسجن من تشك في ولائهم من رجال ونساء القبائل غير الموالية، وهيأت لنا مقابلة عدد مقدر من «الشهود» الذين سيحدثوننا عن السلام والتقدم والاستقرار وحسن النية الذي بدأ يحدث في المنطقة. كانت تلك أشبه بلعبة «القط والفأر» التي كان الدبلوماسيون على كامل الاستعداد لها. كان كثير منهم لم يغادر الخرطوم من قبل، وبعد رحلتنا هذه لا أظن أنهم سيفعلون !

كان الواجب المفروض على والي شمال كردفان، عدا توفير المواصلات بالطبع، أن يطيل بقاءنا في الأبيض لأطول فترة ممكنة، إذ أن ذلك كان سيقلل بالضرورة من فترة بقائنا في جبال النوبة. كانت هنالك فترة انتظار طويلة بعد وصولنا للأبيض قبل ظهور «الإفطار»، والذي أعقبته فترة انتظار أخرى. ما أن بلغ الوقت منتصف النهار، بعد أن فرغت جعبة الوالي من البرامج «الترفيهية» التي يمكن أن يستخدمها لتأخيرنا في الأبيض، حتى لاحت لنا بداية موكب سياراتنا العشر ذات الدفع الرباعي، والتي كان كثير منها «مستلفاً» من المنظمات غير الحكومية العاملة في الأبيض. بدأ الموكب في السير جنوبا نحو كادقلي في طريق «الكابوس». ظللنا بعد ذلك متأخرين دوما عن ما هو مسجل في برنامجنا المعتمد بيوم ونصف، وكان هذا هو المقصود بالطبع حتى لا يتبقى لنا إلا وقت قليل لـ «نتحدث مع أي فرد»، أو«نذهب لأي مكان» أو«نرى كل شيء» كما جرت عبارات الدعوة الرسمية التي وجهت إلينا. مررنا بمناظر طبيعية جميلة ونحن نستمع لدعايات المسئولين الحكوميين المكرورة، ونشارك في تناول ما تقع عليه أيدينا من طعام. رغم كل ذلك لم تفت علينا ملاحظات هامة عن حال الناس في المناطق التي مررنا بها. كانت ملاحظاتنا الشخصية تلك تغني عن كل سؤال.

عندما غادرنا الأبيض، كان حال الطقس، كما هو معتاد، حارا وجافا ، وبدا الجميع (عدا الدبلوماسي الجزائري الذي لم يجد من يتحدث معه سوى اليمني والمغربي، والأفغاني الذي لا يتحدث غير لغته (مستعدين للمشاركة. مضت سياراتنا المكيفة تنهب الأرض في ذلك الطريق البائس، مع تغير المناظر من حولنا؛ فاختفت الأرض المسطحة المغطاة بأشجار الهجليج، ودخلنا في منطقة جبلية بنفسجية اللون أسمها «جبال النوبة». استغرقت رحلتنا ساعتين للوصول إلى مدينة الدلنج (على بعد ١٤٠ كيلومتر من الأبيض)، وبالنظر إلى حالة الطريق كانت تلك معجزة صغيرة. عند وصولنا للدلنج أخذنا مباشرة إلى أكبر قاعة للمحاضرات بجامعتها حيث التقى بنا محافظ المنطقة ومدير الجامعة وبعض شيوخ «الإدارة الأهلية» وغيرهم، وسمعنا كثيرا من الآيات القرآنية في البرنامج الذي قيل إنه لتنويرنا. جلس الدبلوماسيون «المبهورون» في مقاعد الدراسة الخشبية وهم يقاومون الرغبة في الذهاب للحمام! وصلنا أخيرا في البرنامج لبند ما سموه «الاستفسارات»، بيد أنه لم يسأل أحد أحدا! لذا قمت من مقعدي في

الصف الأول والتقطت صورة سريعة لأذن الملحق السويسري اليمنى !أتاح لي ذلك رؤية كل الحضور في تلك القاعة، وتبينت أن هنالك من بين مئات الرجال في القاعة لم يكن هنالك سوى عدد قليل جدا من النساء يعد على أصابع اليدين.

قمنا بعد ذلك بزيارة سريعة للمستشفى ولكنيستين في المدينة، ثم أخذنا إلى حظيرة غابة.. ما أن دخلناها حتى بدأ راقصون قبليون في تقديم عرض بالغ الصخب، صاحبته فقرة مصارعة حرة. صافحنا الكثير من الأيدي الخشنة (في الأصل الجلدية. المترجم) وتجرعنا الكثير من البيبسي كولا، وتقبلنا الكثير من الهدايا التذكارية. تلقي كل واحد من السفراء وممثليهم هدية كانت عبارة عن عصاتين خشبيتين (ربما أملا في أن تستخدم واحدة منهما في الهز والتلويح بها في المناسبات السعيدة، وهي علامة للرضاء والقبول). بصفتي (المحرجة (كالمرأة الوحيدة في الوفد الزائر، فقد أهديت لي محفظة نسائية مصنوعة من جلد جمل، وكثير من الأغراض والأقمشة النسائية، قمت بحشرها جميعا بصعوبة في السيارة لأوزعها فيما بعد على النساء في الخرطوم.

بعد التظاهر بتناول بعض الطعام مع النساء، والرقص معهن، وتبادل القفشات مع بعض العواجيز اللواتي فقدن أسنانهن، خاصة حول قبعتي التي يبدو أنها أثارت فضولهن، عدنا للسيارة. في السيارة بدأت في التفكير في أن السعادة من المشاعر الإنسانية التي يصعب انتحالها أو التظاهر بها.، وأن الفرح المصطنع لا يمكن إخفاؤه .بدا واضحا جدا أن هنالك حزنا دفينا في نفوس النساء، رغما عن كل مظاهر الفرح من رقصات وقفشات وضحكات. تدربنا كل الثقافات على الانتحال والتظاهر والتغطية على الحزن الدفين في داخل سويداء نفوسنا، وتمنعنا من الاعتراف بالألم الذي تقرؤه في عيون طفل أجبره والده على ترديد مقولات ما، وفي سلوك المرأة التي تظل تخدم زوجها رغم قسوته عليها، وفي تحركات دب يرقص على حلبة السيرك وهو مربوط من أنفه بسلسلة حديدية.

لا شك عندي في أن النساء اللواتي كنت أرقص معهن كن يتظاهرن بالفرح، بيد أنهن لم ينجحن في إخفاء خوفهن وحزنهن بكل ما كن يرتدينه من ملابس فاقعة الألوان، ولم تنجح ضربات الطبول وأصوات الأجراس الصغيرة حول كواحل أرجلهن في إدخال المسرة على نفوسهن.

ركب معنا نائب والي جنوب كردفان (وهو من أبناء النوبة) في سيارتنا، ربما كنوع من التكريم لنا، وبدا حريصا على الكلام دون انقطاع طوال وقت الرحلة إلى كادقلي (المسافة بين الأبيض وكادقلي هي ٢٩٠ كيلومتر). أعاد والي جنوب كردفان على مسامعنا فيما بعد نفس كلمات الرجل. أشار نائب الوالي إلى سوء حال الطريق، إذ أنه لم يصن منذ نحو عقدين من الزمان، وقال إنه يأمل في أن يفكر السفراء في حل لهذه المشكلة بعد أن شاهدوا حاله «على الطبيعة»!

لاحظنا قلة عدد السكان في المنطقة بين الدلنج وكادقلي وكنا نرى بين حين وآخر قليلاً من الرعاة والمشاة يحملون على أكتافهم أسلحة أتوماتيكية. على مدى يومين لم نر حيوانا بريا (وحشيا) رغم تأكيد نائب الوالي على أنه ما زالت هنالك فهود تعيش في الجبال. أشتكى نائب الوالي من أن الإعلام الخارجي يقدم دوما صورة قاتمة ظالمة للحال في جبال النوبة، بينما اشتكي مسؤول الأمن الحكومي (والذي كان يجلس خلف مقعدي) وهو يحدث زملائه بالراديو في سيارات وفدنا الأخرى من كثرة الهدايا التي تلقيتها. لم يلق السفير (زوج المؤلفة. المترجم) بالا لذلك، فقد تعود على ألا يناقش حائطا حجريا، وظل يراقب الطيور على الطريق ويتعرف على أنواعها.

تمنى نائب الوالي أن يتوقف «الناس» عن إمداد المتمردين بالسلاح، وقررأنه إن حدث ذلك فإنهم سيهبطون من الجبال، ويعيشون في سلام، إذ ليس هنالك تفريق بين المسلمين والمسيحيين، ولا تمييز بين العرب والنوبة. عزا الرجل كل ما حدث من قتل وتدمير وعدوان إلى المتمردين، ولكنني جادلته – دون جدوى- بالقول إن هنالك الكثير من التقارير التي تشير إلى أن تمييزا يحدث بين النوبة)المسلمين وغير المسلمين) وبين عرب الشمال. رد نائب الوالي في بساطة بأن كل ذلك هو مجرد « كلام فارغ».

وصلنا كادقلي مع حلول الظلام، وكانت استراحتها قصرا منيفا مقارنة بمثيلتها في ملكال. وجدنا فيها غرفا مقبولة، حيث اغتسلنا، وتجمعنا للذهاب لبرنامج المساء. قبيل العشاء قابلنا والي جنوب كردفان الممتلئ الجسم، والذي رحب بنا وتمنى أن نكون رسل سلام عالميين لجبال النوبة، وللحب، والنوايا الحسنة. شدد على أنه بهذه الطريقة سوف نعمل سويا للانتصار على الذين ينشرون على الناس (ربما بدافع الجهل أو سوء القصد) صورة خاطئة ظالمة عن الأوضاع في الإقليم. أعقبه «أمير قبلي» كان -للغرابة- يرتدي زيا عربيا مكونا من جلابية وعمة، بالقول إن أفراد الجماعات المتمردة سوف يقبلون ضمن «النسيج الوطني»، وسيتم العفو عنهم إن أعلنوا توبتهم. كانت كاميرات التلفزيون والفيديو حاضرة بالطبع في ذلك الحفل. تولي بابال نونسيدو مهمة كان الجميع حريصون على تحاشيها، وهي التحدث بالإنابة عن الوفد الدبلوماسي للرد على كلمة الوالي. شكر بابال نونسيدو (وهو ألماني ورجل دين مسيحي) مضيفينا على الدعوة وعلى حسن الضيافة، وأعترف بعدم رؤية الوفد الزائر لأي مظهر من مظاهر الإبادة العرقية أو انتهاكات حقوق الإنسان في المناطق التي سمح لهم بزيارتها، وأكد أن الحكومة مسيطرة تماما – فيما يبدو- على الحالة الأمنية في تلك المناطق. شكا الرجل من أن الوقت المخصص للزيارة كان ضيقا جدا، وأن ما شاهده أعضاء الوفد كان محدودا جدا، ودعا للسماح لمن طرد من الأجانب المسيحيين من الدلنج بالعودة مرة أخرى لها للعمل في المدارس الكنسية والمستشفى.

سبتمبر ١٩٩٥م

كانت اللوحة المعلقة على جدار مكتبي هي لشجرة تبلدي هرمة أصابها الجفاف. مثلت تلك الشجرة كأصدق ما يكون التمثيل الحال في كردفان، فهي ضخمة صلبة ملتفة، وبلا أوراق، وهي أيضا صورة مرعبة ترمز للموت في ذلك القفر البني والأصفر اللون، والذي تصليه الشمس دوما بشواظ لهيبها الحارق. يجدر بالذكر أن شجرة التبلدي هي الرمز الرسمي لأقليم كردفان، وهي تجسد لي بصورة دقيقة أيضا ذكريات زيارتي الأولى للأبيض في عام ١٩٨٨م، حين ضربت المنطقة موجة جفاف مروع. يبدو أن التصحر والموت يلاحقان كردفان ويلازمانها.

بعد سبعة سنوات من زيارتي الأولى، وفي زيارتي هذه لاحظت أن الأمطار قد أعادت بعض الحياة للريف، ولأشجار التبلدي، فغدت الأراضي الجرداء مروجا خضراء ترعي فيها الأبقار والإبل والمعز، وتروح بطانا. تجمعت قبائل البقارة من أجل الاحتفال بنا. لم يكن بمقدور أحد منهم أن يرفض للوالي الشاب القادم من الخرطوم طلبه أن يرقصوا لنا. كان التوصيف الحكومي لذلك الجزء من برنامج زيارة السفير (هو الن قولتي زوج الكاتبة. المترجم)، والمقام على بعد مسيرة نصف ساعة بالسيارة من الأبيض هو «زيارة إلى منطقة رحل».

كانت في مرافقتنا في عصـر ذلك اليوم زوجة الوالي، والتي كانت قد أبلت لتوها من ملاريا أصـابتها قبل أيام. كان الوفد مكونا من خمس سيارات ضخمة (ذات دفع رباعي) تقدمت الموكب سيارة «بك آب» انحشر فيها عدد كبير من حراس الوالي الشخصيين. تبع تلك السيارة سيارة تايوتا (من نوع لاند كروزر) خصصت للوالي والسفير . لاحظت أن سيارة اللاند كروزر هي السيارة المفضلة عند رجالات الجبهة الإسلامية القومية في كل المناسبات والأماكن!

ركبت مع زوجة الوالي، ومعنا المكلفة بمرافقتي (minder) وكانت شـابة مفعمة بالحيوية تعمل موظفة بوازرة المالية. سـارت خلفنا عربة لاند كروزر (بالطبع)، وخلفها عربة لاند كروز أخرى بها عدد من كرام مواطني كردفان من ذوي الشأن والحيثية، وأطفال الوالي. في ذيل الموكب كانت هناك سيارة من نوع آخر تحمل عددا من المواطنين الأقل شأنا، مع عدد من رجال الأمن.

عند وصولنا وجدنا أن المئات قد تحلقوا في ساحة كبيرة، وخصصت لنا (كأصحاب سعادة) كراسي في المقدمة. ظهر أمامنا في «المسرح» شباب في مقتبل العمر، عراة الصدور، مفتولي العضلات، يقفزون ويثبون في مرح. استخدم حراس الوالي عصيهم وسيطانهم ليدفعوا الراقصين على بعد مسافة مأمونة من مجلس الوالي والسفير.

سمعت أحدهم يقول: «هم مصارعي النوبة».

رد عليه أحدهم: «لا لا لا لا...هؤلاء بقارة».

لم يكن بوسـعي أن أدرك الفرق، بيد أني رجحت الاحتمال الثاني. كان الراقصـون الشـباب يمثلون أنهم أبقارا، و يتقدم كل فرد فيهم نحو الآخر وهو يهز قرونه المسـتعارة، ويصـدر خوارا من الحلق، ويتقدم مرة ويتقهقر أخرى. بدأت أدرك أن لا شيء في كردفان يبدو كما هو في حقيقة الأمر. بدت حرم الوالي، وا سمها... وكأنها تعاني من صداع فظيع، ولكنها لم تكن لتعلن عن ذلك. ظلت تلك السيدة صابرة وصامتة وصامدة وهي تجلس بجانبي.

فجأة حدث كل شـيء في وقت واحد.كان الرجال يرقصـون وهم يرتدون قرون الثيران وتنانير (اسـكيرتات) من القش، والنساء يضربن على قرع جاف يطفو على حوض مائي، وعشرات الشباب الصغار من الجنسين وهم يضربون بأرجلهم بطريقة إيقاعية متحمسـة، وينفخون في صـفاراتهم، وبدأ الشـباب يقفون في دوائر، يمسـك كل واحد منهم بالآخر، ويتلوى، ويصـرع صـاحبه ويرميه أرضـا. فجأة قامت زوجة الوالي وألصـقت ورقة مالية على جبين إحدى الراقصات كما هي العادة في مثل هذه الحالات. وفجأة توقف الرقص وهدأت الساحة.

كنت قد شاهدت ذات المجموعة الراقصة من قبل عندما أتت للخرطوم لحفل افتتاح أحد المباني الحكومية. في ذلك الحفل أيضا كانت هوية أولئك الراقصين ملتبسة. قال أحدهم إنهم من «قبائل أفريقية سوداء»، بينما نفى آخر ذلك وقال إنهم «مسـلمون من كردفان». نعم. الاثنان صـحيحان. نعم كانوا من قبائل البقارة. قال لي أحدهم في الأبيض: «لقد كنا دوما مسلمين ... منذ البداية». كان ذلك التصريح بالنسبة له بالطبع «صحيح/ مؤام سياسيا» ليؤكد على تلك الهوية، لكني قدرت له تمسكه بعقيدته.

كان البقارة يعملون، وعلى مدي قرون، لصالح مستعربي شمال السودان كتجار رقيق في أقصى الجنوب. في أواخر ثمانينات القرن العشرين قامت الحكومة، وهي تؤمل في توطيد نفوذها، بتزويد هؤلاء البقارة الرحل بالأسلحة الأوتوماتيكية، وأطلقت أيديهم ضد أعدائهم التقليديين، الدينكا، وهم مثلهم قوم مشاكسون، يرعون الأبقار ويحبونها، ولكنهم وثنيون ومسيحيون. لا يمكن وصف الفظائع التي ارتكبها هؤلاء الناس، فقد أحدثوا شرخا عميقا (وربما دائما) في العلاقات بينهم وبين جيرانهم الدينكا، وربما كان أثر ذلك على ثقافة الدينكا غير قابل للإصلاح.

بعد عودتي من الأبيض سعيت لمقابلة من كان مسئولا عن تسليح قبائل البقارة. كان ذلك الرجل الدمث، قد عمل وزيرا للدفاع بين عامي ١٩٨٦ – ١٩٨٩م في العهد الديمقراطي الذي تلا حكم الرئيس نميري. كان الرجل قد سجن مع بداية هذا العهد الحالي ولم يطلق سراحه إلا قبل فترة وجيزة. كانت الطاقية المدببة المميزة للأنصار تظهر عالية وسط عمامته التي تدلى – في تحد- جزء من أهدابها قرب أذنه اليسرى. لا يمكن لأحد أن ينكر أن الرجل فخور وغير هياب. لكن بالعودة إلى نقطتي الأولى، لماذا قام بمذبحة ضد الدينكا (وهم من القبائل السوداء مثله) خدمة لمصالح «عرب» الشمال النيلي؟ كانت الإجابة بالغة الوضوح: الجنرال... هو من البقارة.

بالإضافة إلى ذلك، فكرت في أنه إن تعود المرء على القتل، فإنه يصعب عليه التوقف. بدا أن حراس الوالي الشخصيين يشاطرونني تلك الفكرة، فما أن آذنت شمس ذلك اليوم بالمغيب حتى أسرع الحراس بوضعنا في سياراتنا التي ستقفل راجعة بنا للأبيض. في منتصف الطريق توقفت السيارات في ساحة خضراء لأداء الصلاة. أصف الوالي ومن معه للصلاة على حصائر و سجادات فرشت على الأرض على ضوء مصابيح السيارات الأمامية. لم يؤد الصلاة الدبلوماسيين الأجانب ولا النساء والأطفال. كان من الممكن ببساطة أن يؤخر الوالي الصلاة لمدة عشرين دقيقة أو نحوها حتى يصل لقصره. بيد أن ذلك التوقف كانت له أسبابه، فهو بيان/ إعلان سياسي political statement كما هو واجب ديني (أضافت الكاتبة هنا فقرة في الهامش تشرح وجهة نظرها بالقول إنها تعد صلاة الوالي في منتصف الطريق، وهو على بعد عشرين دقيقة من داره، نوعا من «الصلاة المتكبرة arrogant prayer » التي يستخدم فيها المرء الصلاة ليبين للناس «من هو معنا» ومن هو ليس كذلك. شبهت ذلك بالمسيحيين الذين يؤدون الصلاة في المطاعم العامة بصوت عال، وأيضا بالمسيحيين في الكنيسة الكاثوليكية بالأبيض الذين قاموا بطرد نسوة مسلمات ساقهن الفضول لدخول الكنيسة من أجل رؤية فسيفساء «القدسية بخيتة» التي كانت قد وصفتها لهن من قبل. ذكرت كذلك حالة أخرى عندما كان أفراد جمعية خيرية من السودانيين يجتمعون في دار السفير البريطاني بالخرطوم، ويصرون على إيقاف الاجتماع من أجل أداء صلاة العشاء جماعة، وتضايقت هي من الأمر فقامت بإقناع السفير بتحويل مكان الاجتماع إلى مكان آخر، فتوقف المجتمعون بعد ذلك عن تعطيل الاجتماع لأداء الصلاة جماعة).

عندما قضيت الصلاة، عاد الموكب للسير مرة أخرى. كانت ... (زوجة الوالي) تحاول الإمساك برضيعها وهي تتجاذب أطراف الحديث معي. كانت لغتها الانجليزية متعثرة قليلا ولكنها مقبولة، وبالقطع أفضل من لغتي العربية. كانت حالتها لصحية ليست على ما يرام، وكأن ذلك لم يكن كافيا، فقد أصيب طفلها بجرح في جبهته عندما وقع في صباح ذلك اليوم، وحرارة جسمه الآن مرتفعة، ولكن رغم كل مصاعبها فقد كان من واجبها أن ترافقني في تلك الزيارة، وإلا ستعد سيدة غير مهذبة. لم تستطع أن تقول هذا فعبرت عن ذلك بطريقة أخرى. قالت: «زوجي يعمل

لساعات طويلة. لا أكاد أراه في بعض الأحايين». ضحكنا معا لهذه الشكوى التليدة المتكررة التي تجمعنا سويا، وتناقشنا (في مودة أخوية نسائية خالصة) في تلك المشكلة التي تتخطى حواجز الثقافة واللغة و الصراع مع السلطة الذكورية. حدثتني عن مشـرعها الخيري لبناء مسـاكن لكبار السـن الفقراء. بدأت العمل في ذلك المشـروع بعد أن أمرت حرم الرئيس زوجات كل الولاة بأن «يبحث لهن عن عمل مفيد يقمن به». وجدت ... أنه يصـعب عليها الإشراف على تربية عيالها الكثيرين والقيام بواجب الضيافة للضيوف الرسميين. أعلم أن وقت المرأة السودانية ليس ملكا لها.

سألت نفسي: من هي ...فعلا؟ ماذا تري؟ وإلى أي مدي تشعر بالأمان؟جذبت تلك السيدة المريضة ثوبها (قطعة القماش التي يبلغ طولها ٩ أمتار) و شدته حول رأسها، وحولت ر ضيعها إلى و ضع أكثر راحة. أحسست فجأة بأنني أجنبية وغريبة جدا (عن عالمها)، وبأني عارية وشديد التطفل، وأحس بأسف عميق لكلينا، ونحن نتجول في الأرياف ومحاطين برجال مسلحين، ونجلس لنشاهد رجالا يمثلون أنهم بقر. لا شك أنني و ... كنا نفضل أن نكون جالستين في المنزل نحتسي كوبين من الشاي.

لا ريب أنه تحت غطاء كردفان النباتي (المؤقت)، وخلف كلمات الوالي المعسولة، تقبع أرض صحراوية جرداء، وشكوك أزلية، وإنكار للحقائق والصعاب، وتخوف سياسي وشخصي متبادل. لم تكن الثماني والأربعين ساعة التي قضيناها هناك كافية لسبر غور كل تلك المشاكل، بيد أنها كانت كافية لنا لندرك أن أهل الأبيض كانوا يتأرجحون بين أمرين: بين الحقيقة والكذب (ومن منا براء من ذلك؟) وبين الحقيقة والخيال، وبين العمل والتظاهر بالعمل.، والدين والسـياسـة، التحديث والتقليد، و أيضـا (وكثيرا) بين الحياة والموت. إن كثيرا مما هو حادث في كردفان هو بالضبط ما يقرر المشاهد أنه كذلك، وإليك بعض الأمثلة:

١. ينكر المســؤولون في الأبيض أن هنالك الكثير من النازحين في المنطقة، رغم أن هنالك الكثير من النوبة ومن الجنوبيين يملؤون ساحة الكنيسة الكاثوليكية. هنالك قسيس عجوز يمكنه أن يحكي عن مضايقات الر سميين له، والتعطيل المتعمد للخدمات الإنسانية لهؤلاء.

٢. تتحدث امرأة شابة عن مشروع حكومي يخص «المساواة بين الجنسين». لما سئلت تلك المرأة عن تفاصيل المشـروع، زعمت – مسـتخدمة عبارات رنانة- أنها تعمل في «مشـروعات تكاملية، ومفاهيم هيكلية ، وتوقعات الميزانية...» ولكن لأن مشـروع المسـاواة هذا ما زال يحبو (في عامه الثالث!)، فإنه لم يحظ بأي تمويل رغم كثرة الاجتماعات التي اتفقت على قيامه.

٣. زعم مسـؤول في إدارة التعليم بأن أعداد الطالبات في مدارس كردفان تفوق أعداد الذكور، بينما تحدث أحد رجال الخدمة الاجتماعية عن جهودهم من أجل ردم الفجوة بين الجنسـين، والتي خلقتها المقاومة التقليدية لتعليم البنات.

٤. قص السـفير (البريطاني) الشـريط التقليدي معلنا عن افتتاح «المركز الثقافي البريطاني- السـوداني». ظل أحد موظفي «المجلس البريطاني» القدامى يتلقى التهاني بهذه المناسبة، فقد كان من الذين حرسوا وحافظوا على ممتلكات ذلك المجلس الذي كان قد أغلق أبوابه في الأبيض منذ ثلاثة أعوام،. شد ذلك الرجل على يد السفير والدموع تكاد

تطفر من عينيه، وهو في غاية الارتياح لإعادة الحياة لذلك المركز. جلس المسـئولون المحليون في المقدمة وهم يزدردون بشهية مفتوحة قبضات التمر التي وضعت أمامهم، وهم يهزون رؤوسهم ويؤمنون على يسمعون ويرون من صفوف المجلات والدوريات البريطانية. لم يأت أحد البتة على ذكر أن المكتبة قد آلت الآن للسودانيين، ولن تحصل بعد الآن على أموال أو كتب أو صـحف أو مجلات جديدة. كان تاريخ المجلات المرصـوصـة أمامهم هو إبريل من عام ١٩٩٢م! (أضـافت الكاتبة في الهامش أن السـفارة البريطانية – وخلافا لما توقعته – اسـتمرت في إمداد ذلك المركز وغيره بالكتب والمجلات الإنجليزية).

٥. أ شاد م سؤول ب«الأعمال الحرة» والبنوك الخا صة التي ساهمت في بناء سوق تعاوني. أمن نائب الوالي على ذلك، وأضـاف بأن الحكومة قدمت منحة كبيرة عند اكتتاب مشـروع البناء. قال مندوب منظمة العون البريطاني الإسـلامي في فخر إن منظمته لا علاقة لها بالحكومة (البريطانية)، ثم أعقب ذلك بحديثه عن العون الذي تلقته منظمته من وكالة التنمية لما وراء البحار *Overseas Development Agency* (*ODA*)

(لعل اسم المنظمة قد تغير الآن إلى Official Development Assistance).

٦. قيل لنا إن الا ستراحة التي تمت ا ست ضافتنا فيها قد تم بنائها مع بداية القرن الع شرين، وقال آخرون إنها بنيت قبل الاسـتقلال بسـنوات عديدة، بينما أكد آخرون إنها بنيت خصـيصـا بمناسـبة زيارة الملكة إليزابيث الثانية في عام ١٩٦٥م.

٧. قدم لنا في وجبة الإفطار أصناف عديدة شملت بيضا مسلوقا وبيضا مقليا، وطماطم وخيار، وكبد غنم، وسلطة باذنجان، وفاصـوليا وزبادي وجبن أبيض شـديد الملوحة، وزيتون وتمر وبرتقال وموز، مع طبق من مربى مخلوطة مع زبد، ومعها خبز. وصـفت لنا تلك الوجبة العامرة بالطعام على أنها «فطور سـوداني نموذجي » a typical Sudanese breakfast« . أضـيف للغداء عدد من الدجاجات (المحمرة) وخروف مشـوي كامل، وسـمي هذا «غداء سوداني نموذجي».

٨. «نأكل مما ننتج». هكذا تحدث أحد المسؤولين لنا بفخر بائن. كان يكرر (كالببغاء) ما قاله رئيسه قبل سنوات، في وقت كانت فيه منظمات الإغاثة تنقل الغذاء للآلف الجياع من السودانيين.

٩. سألنا الوالي عن و ضع إمدادات الغذاء في ولايته فقل لنل إن ح صاد هذا العام (١٩٩٥م) سيغطي نحو ٦٠٪ فقط من إنتاج العام الذي سـبقه، وأن ذلك الوضـع «سـيخلق صـعوبات». قام ذات الرجل بالإعلان لاحقا عن أن ولايته لديها مخزونات من الأغذية تكفيها لمدة ثلاث سنوات على أقل تقدير!

كان الغالب على أجواء زيارتنا تلك هو التناقض والمراوغة وفقدان الأمل والتحدي والشـك والنفاق. كل ذلك ترك أثرا على أفكاري فشوش عليها و شتتها. وقع الوالي نفسه في أ شراك عدد من التناقضات. فبينما عمل جاهدا كي يبرز لنا ما أنجزه (من معجزات) في الولاية خلال عام واحد من حكمه، فإنه سـعى، وبخطة غير محددة المعالم، للحصول على عون من بريطانيا. كان يكرر بأن كردفان لديها كل ما تحتاجه، بيد أنه يقول أيضا إنها في الحقيقة تحتاج إلى المزيد. قال متفائلا: « بما أن السـفير البريطاني قد عاد للخرطوم مرة أخرى، فالعلاقات بين بريطانيا والسـودان ستشهد تطورا أكيدا». رد عليه السفير البريطاني بالقول: «إن سياسة بريطانيا لم تتغير، وأنه لن يكون هنالك أي تطور

في العلاقة بين البلدين، ولن تقدم بريطانيا أي مساعدات حتى تراجع حكومة السودان مواقفها وأفعالها في أمور هامة مثل الإرهاب العالمي، وأحوال حقوق الإنسان، وإيقاف الممارسات المنافية لتلك الحقوق.» لم يحر الوالي جوابا، فلزم الصمت وظل عابسا متجهما لمدة خمسة دقائق يفكر في وقاحة هذا السفير التي يصعب تحملها.

أما بالنسبة لي، فإن الوالي لم يكن لديه من الوقت ليضيعه في الحديث معي، ولعله عجب من أن تسأله امرأة في شأن عام. كان يرد صارخا على أي سؤال اسأله إياه بصوت عال: «ماذا؟ What?». تحدثت مرة فقلت إنه من المؤسف أن حيوانات السودان البرية النادرة معرضة للانقراض. لم يدرك الوالي ما قصدت، وحائط مكتبه «مزين» بجلد فهدين، ولم يفهم أنه قد قتل (بضم القاف) من البشر والحيوانات عدد كبير، وأن التوازن البيئي والسياحة (في المستقبل) وجمال الطبيعة...كل ذلك معرض للخطر.

بالطبع كان من الغرور والاعتداد غير المبرر بالذات أن أحاضر الوالي، لكن صبري كان قد نفذ، وطفح بي الكيل. في نهاية المطاف كانت للوالي الكلمة الأخيرة: «أنا الوالي، وبمقدوري أن افعل ما أريد.»

لا شك عندي إن ذلك صحيح جدا، ولكن لفترة قصيرة، و سيأتي يوم يختار فيه رجل آخر ليلعب دور الوالي، من قبل شخص يلعب دور الرئيس، وهكذا دواليك...ولكن ما هو الجديد في كل هذا؟ لقد رأيت ذات الشيء يحدث في واشنطن ولندن.



فندق الأكروبول بالخرطوم
ليليان كريق هاريس

تقديم: هذه السطور هي بعض ما جاء في مقال نشر في العدد السادس والأربعين من المجلة البريطانية « دراسات السودان» الصادرة في يوليو من عام ٢٠١٢م، للكاتبة **ليليان كريق هاريس**، وهي سيدة منحدرة من عائلة عمل كل أفراد أجيالها المتعاقبة بالتبشير المسيحي. حصلت الكاتبة على درجة الدكتوراه في تاريخ الصين من جامعة جورج تاون الأميركية، وهي متزوجة من السفير البريطاني الأسبق في الخرطوم (الن قولتي)، مع احتفاظها باسمها على غير عادة الغربيين. قضت المؤلفة مع زوجها السفير في السودان أربعة أعوام متصلة (١٩٩٥ –١٩٩٨م). قد يذكر الناس أن ذلك السفير البريطاني كان قد أمر بمغادرة السودان بعد تأييد بريطانيا لعملية القصف الأمريكي لمصنع الشفاء.

تخصصت الدكتورة هاريس في السنوات الأخيرة في قضايا الدفاع عن المرأة في أرجاء العالم المختلفة، وتقول إنها ملتزمة بأمر حل النزاعات، والتعايش (السلمي) بين المسلمين والمسيحيين، وأنشأت العديد من الجمعيات الخيرية خدمة لقضايا المرأة، إحداها مخصصة لتقديم منح دراسية لنساء النوبة.

في هذا المقال المعنون **« فندق الأكروبول بالخرطوم»** تسجل الكاتبة انطباعاتها – بصورة لا تخلو من بعض طرافة مستلمحة– عن معلم هام من معالم العاصمة السودانية، وعن أصحابه الأغاريق، وبعض من عملوا فيه من السودانيين ، ولعقود طويلة. لا تغفل الكاتبة – المهتمة بالسياسة السودانية- بالطبع أيضا أن تشير في ثنايا المقال إلى الأوضاع السياسية في البلاد.

لابد هنا من الإشارة إلى ما كتبه الطيب صالح في أحد مقالاته في مجلة «المجلة»، وشوقي بدري في عدد من المقالات الأسفيرية، عن الجالية الأغريقية ، وتأثرها بالمجتمع السوداني وتأثيرها عليه، ولكن لا علم لي بغير ذلك من كتابات منشورة لسوداني عن هذا الفندق التليد، أو لغيره من معالم وسط الخرطوم القديمة أو عن الجالية الإغريقية. إن صح هذا، فهذا أمر يبعث على الأ سى والأ سف، ودليل آخر على ضعف همة كثير من باحثينا في الكتابة عن معالم البلاد، و/ أو ا ست صغارهم ل شأن مثل هذه الكتابات، وكأنهم في شغل شاغل بالبحث والتنقيب في عظائم الأمور وخطيرها!

قد يرى البعض هذا الفندق القديم، وبسبب كثرة تردد الأجانب من مختلف الجنسيات عليه، وكرا مريبا مثيرا للشبهات والشكوك. وحدث في يوم ١٥مايو ١٩٨٨م أن قام فريق مكون من خمسة فلسطينيين بمهاجمة اثنين من الأهداف في الخرطوم، كان الأول هو «نادي السودان» المخصص للبريطانيين ودول الكومنولث، حيث أمطروه بر صاص المدافع الر شا شة . وكان الثاني هو فندق الأكربول ، حيث ألقيت بداخله قنبلة متفجرة مما أدى إلى مصرع رجل سوداني مدني، ولواء في الجيش ال سوداني، مع خم سة بريطانيين منهم سالي روكت (٣٢ سنة) وهى مدر سة ، وأسرتها المكونة من أربعة أشخاص منها اثنان من الأطفال هما « كريستوفر وكلير».

المترجم

عندما كان زوجي «ألن قولتي» يعمل سفيرا لبريطانيا في السودان في النصف الثاني من تسعينات القرن الماضي كان فندق الأكروبول مسئولا عن تزويد حفلات البريطانيين في الخرطوم بالطعام والمشروبات. وعن هذا الطريق تعرفت على جورج باقويولاتس (صاحب الفندق) وزوجته اليانورا. بيد أني لم أتعرف على الرجل بطريقة أعمق إلا في مارس من عام ٢٠٠١م في أول رحلات عودتي للسودان، بعد أن كنت قد غادرته على عجل (وخشية من أن لا يسمح لي بالعودة له تارة أخرى) في عام ١٩٩٩م. في ذلك العام (٢٠٠١م) ولجت – وللمرة الأولى- فندق الأكروبول الأسطوري في الخرطوم، وصرت منذ ذلك الحين، من زبائنه الدائمين كلما حضرت للسودان.

الوصول لفندق الأكروبول وضيوفه:

في زيارتي الأولى (للسودان) و صلت للأكروبول قادمة من مطار الخرطوم في الساعة السادسة صباحا قادمة من لندن عبر فرانكفورت والقاهرة. كنت في أشد حالات الإعياء والإنهاك، وقدماي تعانيان من تشنج مؤلم. سعدت بغرفتي الواسعة المريحة، والتي ذرعتها جيئة وذهابا لعدد من الدقائق في محاولة للتخلص من تلك الآلام القابضة في قدمي. وأنا أمارس تمريني الرياضي ذاك، لاحت مني التفاتة لإعلان معلق على باب الغرفة يقول: «نأسف لعدم قبولنا بالملابس الداخلية للنساء.» عجبت جدا وقلت لنفسي: «أي نوع من النساء تبلغ بها الحمق والطيش أن تتخلى عن ملابسها الداخلية الحميمة!» دفعني الفضول أن استكشف المزيد في بيتي المؤقت هذا، فمشيت نحو الحمام لأجد مرآة لابد أن أطول رجل من قبيلة الدينكا هو الذي قام بتعليقها. صرت أقفز بكل ما أوتيت من قوة – ودون فائدة- لأري أسناني وأنا أنظفها بالفرشاة، وكان أقصى ما استطعت رويته هو حاجبي. بعد ذلك أقفلت جهاز التكييف، ولففت قدمي المتألمتين بمنشفة، واعتمدت على المروحة البطيئة المخدرة لتأخذني لعالم النوم. أفقت في نحو الثامنة صباحا، حين جاء «السفرجي» العجوز بجلابيته المميزة وهو يحمل طعام الإفطار. في ذلك اليوم وقعت في غرام ذلك الفندق.

كانت تلك بداية لعدد من الزيارات المتتالية لفندق الأكروبول في خلال عدد من السنوات. تعلمت بسرعة أن غرفة الطعام في الطابق الثاني هي كنز لا ينضب للمعلومات، وللتعارف وخلق الصداقات والصلات المفيدة، والا ستثنائية أيضا. رغم أنني من اللواتي يفضلن تناول طعام الإفطار (والذي لا يتعدى عادة قطع القريب فروت) في صمت، إلا أني قد وقعت بسهولة في مصيدة الحديث مع زبائن الفندق وهم يتناولون طعام الإفطار، ومنهم على سبيل المثال عالم نفسي أمريكي يعمل مع القساوسة الكاثوليك المصابين بعلل نفسية، وممثل لرابطة كرة القدم الإنجليزية، وعلماء آثار، وسياح من مختلف الدول، وقساوسة إنجيليين من جنوب لندن، وممثلين لمنظمات إغاثة دولية، وعالم لاهوت دينماركي، ونمساوي كان يعمل على تنمية الجنوب قبل أن يتم طرده من هناك مع ثلة من رفاقه. لم يكن لي أن أقابل كل هؤلاء الرجال – وغيرهم من الرجال والنساء- لولا هذا الأكروبول! كان غالب من ذكرت يريد أن «يفعل شيئا ما» لمساعدة السودان، عدا قلة من المقامرين الذين كانت غايتهم التكسب المادي من المصاعب التي يكابدها السودان. لحسن الحظ، ومع افتتاح مزيد من الفنادق الفخمة في الخرطوم، تناقصت أعداد الفئة الأخيرة في الأكروبول. ظللت أصر على الإقامة في هذا الفندق في أي زيارة لي للسودان لا أكون مدعوة فيها للإقامة في مقر سفارتنا بالخرطوم.

يذكرني الأكروبول بالبنسيونات القديمة في الولايات المتحدة، وربما بعائلتي وهي تجتمع في «حفل لم الشمل» في فندق صغير على الحدود مع ويلز. في ذلك النزل التاريخي سعدت بـ صداقة مخلصة، ومعلومات غزيرة، ونصائح قيمة من مالكيه ومن نزلائه أيضا. في سنوات ما بعد الألفية الباكرة شملت رفقتي في ذلك الفندق كثير من رجال الأعمال الأوربيين والأسيويين، ونشطاء حقوق الإنسان، وعمال التنقيب عن البترول الذين صلت جلودهم حرارت الشموس، ومبشري الإنجيل المتخفين بصورة أقل من مقنعة كمدرسين، ورجال مشبوهين يتحدثون بلغات أوربية شرقية، ويتحاشون محادثة بقية نزلاء الفندق.

ذات صباح، وبينا كنت أتناول إفطاري لمحت في قاعة الطعام شخصين (أجنبيين) يبعث منظرهما على الشك، وخطر لي أنهما قد يكونان من تجار السلاح. فكرت في التعرف عليهما، وكمدخل مناسب لذلك عرضت عليهما أخذ صورة لهما. خلافا لردة فعل السودانيين الطيبين والذين يعشقون التبرع بالظهور في كل صورة، لم تثمر – للأسف– دعوتي للشخصين المريبين للتصوير غير ثورة غاضبة، وتهديد ووعيد بتحطيم آلة التصوير، وعظامي أيضا! رغم أن وجود مثل هذه النوعية من النزلاء قليل نسبيا اليوم، إلا أن عددا أكبر من ضيوف الفندق في السنوات الماضية كان بحاجة ماسة لنصائح أمهاتهم فيما يتعلق بالسلوك المهذب. كنت أعجب أحيانا لإدارة الفندق ... كيف تمد حبال الصبر الجميل تجاه تصرفات أولئك النزلاء الأوباش.

كان من ضمن هؤلاء الضيوف قليلي التهذيب شاب صغير السن يرتدي سروالا قصيرا أسود شديد الضيق ملتصق بجسده، كالذي يرتديه عادة هواة ركوب الدراجات (في حر السودان اللافح!). كان ذلك الحدث الغر يحمل دراجته إلى داخل غرفة الطعام مرتين أو ثلاثة في اليوم، وغالبا أثناء تناولنا للطعام.

مما أذكره أيضا في إحدى زياراتي توقف جميع من كانوا يتناولون طعامهم في قاعة الفندق عن المضغ وهم ينظرون في اندهاش لا يوصف لرجل عربي (أو لعله أفغاني) دلف إلى القاعة وهو يبدو وكأنه مخدر أو مخمور، أو كأنه يسير وهو نائم، لا يستر جسده غير جلباب ناصع البياض يشف عما تحته (دون ملابس داخلية)! لم يرض السفرجي بابكر (وزميله والذي يحمل نفس الاسم) عن ذلك المنظر، أما نحن فقد ألجمت المفاجأة ألسنتنا! (أشارت الكاتبة أن هذين الرجلين، بابكر وبابكر، ظلا يعملان كنادلين في الأكروبول منذ عام ١٩٥٤م، وهناك خادم اسمه «علي» ظل يعمل في الفندق منذ بداية الخمسينات، ولم يتقاعد إلا مؤخرا).

رغما عن ما ذكرت، فإنه يجب التأكيد على أن الإقامة في فندق الأكروبول معقولة الثمن بالمقارنة مع الفنادق الأخرى بالخرطوم، ويفوقها بأنه فندق صغير مريح ولطيف ويرحب بالنزلاء من كل صنف، بل قيل أنه أكثر فندق «صديق للنزلاء» في كل المناطق جنوب القاهرة. ظل الأكروبول، ومنذ عقود، نقطة التقاء (صديقة) لتبادل وتلقي المعلومات، ويعد «واحة» ظليلة للقادمين من حر الخرطوم اللافح، وسمومها المشبعة بذرات الرمال... هو مكان يمكنك أن تعثر فيه على كل ما تريد (تقريبا). ظلت ذكرى هذا الفندق العتيق حية وعبر السنين الطوال، عند الكثير من الصحفيين الباحثين عن قصص وأخبار تصلح لتخفيف الأنباء المؤلمة والتقارير المتواصلة عن الحرب، والخيانة، والمجاعة، وانتهاك حقوق الإنسان في سائر أرجاء السودان. سمعت أحد الصحفيين السودانيين يقول بأنه «قد أفلح عمال الإغاثة، والصحفيون، ورجال الأعمال في تعلم فضائل توفير المال والحفاظ على صحة الجسد والعقل

والروح بهجرهم لفنادق الخرطوم التي تبدو في ظاهرها كبيرة فخيمة، وتفضــيلهم لكفاءة هذا الفندق المتقشــف البسيط: الأكروبول.» فندق الأكربوبل له من اسمه نصيب...مثل سميه، ذلك النصب التاريخي الأغريقي. هو في الواقع نسخة أقل فخامة من سلسلة فنادق تاريخية تضم فنادق بيرا بلاس في اسطنبول، و سانت جورج في بيروت (قبل اشتعال الحرب اللبنانية الأهلية).

كيف بدأت قصة فندق الأكروبول ؟

فر الأغريقي «بيناقهز اثانااوســس باقويولاتس» خلال الحرب العالمية الثانية بجلده من أتون معارك الحرب الأهلية في جزيرته «ســافلاونيا»، وهاجر لمصــر حيث وقع هنالك في غرام فتاة اســمها «فلورا ادريان فانوس» في الإســكندرية وتزوجها. قررا بعد حين أن يهاجرا للخرطوم بحثا عن حياة أفضــل ومعاش أكرم. كانت تلك هجرة منطقية، إذ أنه في تلك الأيام كانت أعداد الأغاريق في الخرطوم قد بلغت آلا فا كثيرة. في البدء عمل بيناقهز باقويولاتس، ولفترة بسيطة، في خدمة السلطات البريطانية كمحاسب. هجر بعدها العمل الحكومي وافتتح ناديا ليليا مقابلا لقصــر الحاكم البريطاني. ســارت أموره حينا من الدهر على أفضــل حال، حتى ضــج جاره (الحاكم البريطاني نفسه) بالشكوى من الضجيج العالي، والموسيقى الصاخبة، التي كانت لا تنفك تشق سكون ليالي الخرطوم الهادئة وحتى ساعات الصباح الأولى. تم بالطبع قفل النادي، وبطريقة تعوزها الكرامة. كان على الرجل الإغريقي أن يبحث له عن عمل آخر يكســب منه عيشــه. أثبتت وظيفة بابا باقويولاتس الجديدة عمق فهم الرجل لبلده الثاني، الســودان. كان الرجل، وبحكم احتكاكه بالســودانيين، قد لاحظ حبهم للحلويات، وغرامهم بالمشــروبات الكحولية، فقام بافتتاح محل لصنع الخبز والحلويات (الباسطة والكنافة الخ)، ومحلا آخر لبيع الخمور. لم يقف طموح باقويولاتس عند هذا الحد، فقد كان رجل أعمال حقيقي، وصــاحب رؤية نافذة وبصــيرة ثاقبة، فأفتتح فندق الأكروبول في مبنى اســتأجره لهذا الغرض وذلك في عام ١٩٥٢م (يجب هنا ذكر أن الأســتاذ/ مصــعب محمد علي كتب في جريدة الصحافة بتاريخ ١٦ أغسطس ٢٠١٢م أن هذا الفندق أفتتح عام ١٩٥٦م.)

توفي بابا باقويولاتس في عام ١٩٦٧م، فانتقلت ملكية الفندق لأولاده الثلاثة: **اثاناثيوس** (وهم أكبرهم) و**جورج** (وكانا في العشــرينات من العمر)، و**قيراســموس**، والذي كان في ذلك الوقت ما يزال طفلا. تزوج **أثاناثيوس** من فتاة أغريقية اســمها إنجيلا،بينما اقترن **جورج** بفتاة إيطالية اســماها اليانورا. لعب أربعتهم أدوارا هامة في تطوير وإدارة الفندق. رغم أن **قيرا سموس** عاش لعدد من السنوات مع زوجته «كوليت» خارج السودان، إلا أنه كان يشارك أيضا في إدارة فندق العائلة. لا شك أن فندق الأكروبول هو «عمل من أعمال الحب «labour of love ومزارshrine على شرف بيناقهز اثانااوسس باقويولاتس وقرينته فلورا فانوس باقويولاتس (والتي رحلت عن الدنيا بسلام في فبراير من عام ٢٠١٠م في بيت ولدها جورج بالخرطوم).

نعود لرصد بدايات إنشاء الفندق... ظل فندق أكروبول يعمل بصورة ممتازة إلى حين قيام الرئيس نميري بإصدار قوانين الشريعة الإسلامية في (سبتمبر) ١٩٨٣م، وكان من مقتضياتها تحريم بيع وتناول المشروبات الكحولية، وكان ذلك سببا لأ سف وحزن نسبة كبيرة من السكان (لا تخلو بعض ما تسطره هذه الكاتبة من تعميم كا سح وجزافية وأحكام قطعية وقيمية لا تعرف التوســط. **المترجم**). وبعد مرور ســنوات طويلة على قيام نميري بإصــدار قراراته الجمهورية تلك، وإراقته لمئات القوارير من «جوني ووكر» وغيرها من «المشروبات النجسة» في مياه النيل، لا يزال

مجتمع الخرطوم يتحدث بعاطفة حزن وأ سف صادقة على ما حدث ذلك اليوم. في ذات المساء أيضا تم إغلاق حانتين ومحلين لبيع المشروبات الكحولية تمتلكهم عائلة باقويولاتس. مما يجدر ذكره أن العائلة لم تعوض أبدا عن ذلك الإغلاق لمحلاتها.

مسيرة الأكروبول عبر السنين

كيف تأتى لهذا «الأكروبول» البعيد والمقام كنصب للحب لوالد رحل منذ زمن بعيد، أن يظل قائما كل هذه العقود؟

بدأت المرحلة الأولي للحرب الأهلية في السودان من عام ١٩٥٥م (قبل عام واحد من إعلان الاستقلال عن بريطانيا ومصر) وحتى عام ١٩٧٢م. انحصر غالب القتال في الولايات الجنوبية، وكان السفر جوا لمعظم ولايات السودان آمنا، وظل مئات من الأجانب يعيشون يعملون في الخرطوم والمدن السودانية الأخرى. كان السودان حينها ما زال يعج بحياة برية غنية يمكن تصويرها و صيدها، وهذا مما أنعش سوق السياحة بالبلاد. بيد أن برنامج التأميم الذي أعلنه نميري، واغتيال بعض الدبلوماسيين (أمريكيان وبلجيكي) في الخرطوم في عام ١٩٧٣م، غير كل ذلك. ومع اشتعال نيران الحرب الأهلية مجددا في ١٩٨٣م ماتت السياحة أو كادت.

أعقبت ذلك في عقد الثمانينات موجات هجرة لكثير من السودانيين من المتعلمين والعاملين المهرة. كذلك تقاعد في تلك السنوات كثير من الطباخين المجيدين الذين تدربوا على يد البريطانيين، أو هاجروا للسعودية وبقية دول الخليج، أو انتقلوا للدار الآخرة. في تلك الفترة بدأ ملاك فندق الأكروبول – وبحنكة تجارية مميزة- في تقديم خدمات تموينية لحفلات الاستقبال والكوكتيل و«البوفيهات» المفتوحة، وما زالت هذه التجارة قائمة حتى الآن (ذكرت الكاتبة أن الصحفية الأميركية «ديبرا ايسكيروقنس» اكتشفت في عام ١٩٨٨م من خلال اتصالاتها في فندق الأكروبول، وهي في طريقها لأثيوبيا لتغطية تأثيرات المجاعة هناك، أن المجاعة تفتك بدارفور وبحر الغزال أيضا. قد تكون – للغرابة- موجة التصحر والجفاف، والمجاعة التي ضربت البلاد في ١٩٨٨م هي التي أنقذت الفندق، و ساهمت بقدر كبير في انعاشه. تقاطر على البلاد المراسلون الصحفيون وعمال الإغاثة من مختلف البلدان، وكان غالب هؤلاء يفضلون الإقامة في «الأكروبول». من ضمن المشاهير الذين أقاموا في الفندق مغني البوب الإيرلندي «بوب قيلدوف، وأفراد فرقة BandAid. لم يؤثر ما حدث في ذات العام (١٩٨٨م) من حادث إرهابي قامت به «حركة سبتمبر الأسود» في الأكروبول على سمعة الفندق، رغم مقتل سودانيين وخمسة من النزلاء، أربعة منهم من أسرة واحدة، وثلاثة منهم من الأطفال.

علق أناثيويس على ذلك الحادث الإرهابي بقالول: «لم يكن ذلك التفجير عملا سياسيا. لقد هوجمنا ببساطة لأن الأكثر عرضة، والأقل استعداد لصد ذلك النوع من الهجوم. فندقنا يعج بالسياح الأجانب.» تحطم تماما جراء التفجيرجزء من الفندق، والذي كان مقاما على مبنى مستأجر، فسياسية عائلة باقويولاتس هي أن تستأجر المبني ولا تشتريه. عقب التفجير شدت إدارة الفندق الحزام، واستغنت عن سطح الفندق، وعدد من الغرف وقاعة الطعام الكبيرة، وركزت العمل على ٤٠ غرفة مستأجرة. سرعان ما بدأ سيل الزوار في التدفق على السودان، وبالطبع على فندق الأكروبول. أستطيع القول بأن معظم نزلاء الفندق اليوم لم يسمعوا بذلك الحادث المفجع الذي حدث قبل ربع قرن تقريبا.

حدثت موجة أخري من تقاطر أعداد كبير من نساء ورجال الإعلاميين الأجانب للسودان في بداية عام ٢٠٠٢م، حين أعلن وقف إطلاق النار في جبال النوبة، وافترض الجميع أن السلام سيعم السودان بأكمله. وزاد معدل زيارة الإعلاميين للسودان أكثر في يناير من ٢٠٠٥م حين وقعت اتفاقية السلام والجنوب بين قادة السودان وجنوبه.

مغامرات في الأكروبول

في واحدة من رحلات عودتي للسودان (وكنت أحسب أني لن أعود إليه بعد أن غادرته في ١٩٩٩م) سافرت من القاهرة في طائرة شبه خالية في رفقة أفراد فريقين، أحدهما من اللجنة الدولية للصليب الأحمر وتعمل في لم شمل الأسر، والآخر للجنة عسكرية لمراقبة حفظ السلام في جبال النوبة قوامها فريق أمريكي – كندي. بينما كنت أقرأ خلال فترة الرحلة كتاب ماري أندرسون المعنون «لا تقوم بعمل ضار: كيف يمكن للإغاثة أن تساند السلام- أو الحرب؟»، سمعت رجلا أمريكيا يتحدث بعفوية وبصوت عال دون اكتراث للآخرين مع زميله الكندي: «هل تعلم كذا وكذا...؟»، وفجأة خفت صوتهما وسأل أحدهما الآخر: «هل هو يحمل معه ...؟»، و«هل أنت تحمل معك ...؟! ازداد قلقي عنما أكد كل واحد منهما للآخر أنه بالفعل «يحمل معه..». لم أصدق عندما هبطنا على أرض المطار بسلام، فأسرعت بالخروج من المطار للذهاب للأكروبول، حيث الأمن والأمان.

خارج مطار الخرطوم انتظرت سائق الأكروبول مع قسيسين من جنوب لندن قدما للسودان ليتفقدا الكنائس التي يمولاها، وأن ينقبا و«يشمشمان» – إن أمكن- ليفهما الوضع أكثر! كانا – بالطبع- سيقيمان مثلي في الأكروبول. نجحنا في حشر أنفسنا وحقائبنا في السيارة التي بعث بها إلينا جورج (أحد ملاك الفندق). جلس القسيسان المرحان بصعوبة بالغة في المقعد الخلفي مع حقيبتين ملئتهما بملابس الأطفال وإطارات النظارات الطبية. كنت قد أقنعت – بعد ممانعة- موظف الطيران الألماني (لوفتهانزا) في لندن بالتساهل معي في وزن أمتعتي التي تفوق الوزن المسموح به. استقبلنا جورج عند المدخل، ثم قدم لنا مشروب الكركدي المثلج، وأمر بمتاعنا فرفع لغرفنا. سرعان ما لاحظت وجود وجوها مألوفة لي، منهم بروفيسورالآثار البريطاني الذي تعرفت عليه لأول مرة عندما كان يعمل في سواكن على البحر الأحمر، ورجل كيني كنت قد قابلته قبل فترة قصيرة في مؤتمر عقد في أكسفورد... ما أحلى الرجعة للأكروبول...كانت عودتي له بمثابة العودة للبيت مجددا.

كان جورج قد أرسل لي قبل وصولي بأسبوع رسالة اليكترونية يقول فيها أن جميع غرف الفندق مشغولة، وأن فريق من « سي إن إن» يسكن الآن بالفندق، وآخر من «نا شونال جيوقرافك» سيغادر بعد أن قضى زمنا في زيارة الخرطوم والشمالية وجبل مرة، وأن هنالك فريقا من منظمة الأغذية والزراعة العالمية سيأتي إلخ إلخ. كان الفندق قبلة لموظفي الأمم المتحدة، والإرساليات الكنسية، ورجال الأعمال، وعلماء الآثار وغيرهم كثير. رغما عن كل ذلك، نجح جورج في تأمين غرفة لي في فندقه.

كلمة في حق «الأكروبول»

يعد الأكروبول بمثابة «حبل النجاة» للكثيرين من الأجانب في الخرطوم... يجلس واحد من ملاك الفندق في الصباح أمام «الاستقبال» وهم يردون على طلبات الرواد...منهم من يريد الحصول على دينارات سودانية، وآخر يريد أذونات بزيارة مكان ما، أو المشاركة في رحلة نيلية، أو أدوية ملاريا أو إرسال فاكس، أو غير ذلك من الأسئلة الصعبة مثل: «لماذا لا يوجد دليل هاتف للخرطوم؟»

سألت أثانيسوس سؤالا أثار حزنه فصمت ولم يجب: «هل ستبقى في السودان بعد أن تتقاعد؟»

قال بعد حين: «حتى عام ١٩٨٣م كان هنالك نحو ١٥٠٠٠ من الأغاريق في السودان، كثير منهم من ذوي الجنسية المزدوجة. لهم كنائس ومدارس في جوبا والقضارف وودمدني وواو، بالإضافة للخرطوم. الآن تناقص عدد الأغاريق إلى أقل من ١٥٠ فردا. لا توجد حياة ثقافية هنا. يوجد فقط العمل والبيت. هز رأسه في حسرة معترفا بالحقيقة المرة: «سترحل العائلة». ستكون تلك نهاية عصر لن يتكرر أبدا.

العيش في الأكروبول

في أول مرة أقيم فيها في الفندق وقفت في بلكونة غرفتي نظرت في الفندق المقام حديثا في الشارع المقابل: فندق صحارى، وهنأت نفسي على اختياري للأكروبول. يفتقد «صحاري» الروح التاريخية لفندقي الأثير. يصدق ذات القول على «الهيلتون»، وعلى «الجراد أوتيل» بعد تجديده. (هنا ذكرت الكاتبة قصة طويلة عن خطأ في ما قدم لها من طعام في أحد الفنادق الفخمة بالخرطوم، وهي تعتقد أن ذلك لا/ لن يحدث أبدا في «الأكروبول»...مع أنه ممكن الحدوث في كل فنادق الدنيا ومطاعمها...ولكن «حبك الشيء يعمي ويصم». المترجم).

من شخصيات الفندق بابكر وبابكر، الشيخان الكبيران الحكيمان اللذان ظلا يعملان في الفندق من نحو نصف قرن من الزمان. هما في غاية التهذيب ، إلا أنهما لا يتورعان عن زجز من يخالف «القواعد». ذات مرة أتى أحد زملائي من السودانيين للغداء متأخرا فوبخه عم بابكر بصورة حادة على جعله لي أنتظر. هذه خدمة فندقية لا نظير لها. لا يريد ملاك الفندق أن يحيلاهما للتقاعد – رغم كبر السن- لأن ذلك « سيكسر خاطرهما» أو كما قالوا...بالإ ضافة لذلك فإن منظرهما بالجلابية أمر مميز اشتهر به الفندق، وهما مجيدان لعملهما، ويعلمان مكان كل شيء، وكيف تسير الأمور كلها في الفندق.

يقف خارج الفندق، وفي ذات المكان يوميا، سائق تاكسي عجوز يقود سيارة «أثرية». لا ينفك العجوز يكرر دوما: «لقد عملت مع الإنجليز... لقد فسد كل شيء بعد خروجهم.»

بعد قاعة الطعام، ستجد أن أفضل الأماكن في الفندق لمقابلة زملاء السكن هي قاعة الا ستقبال في الطابق الأول، واللمرات الضيقة المزينة بالخرائط القديمة واللوحات. في قاعة الاستقبال تجد الصحف والمجلات بعدد من اللغات، وكثير منها أعداد قديما مما يجلبه النزلاء معهم من طائرات «لوفتهانزا» التي قدموا للبلاد بها (بين ١٩٩٥ و٢٠٠٤م بحسب قول الكاتبة كانت الخطوط الألمانية «لوفتهانزا» هي الخطوط الأوربية الوحيدة التي تصل الخرطوم). تجد أيضا أعدادًا من صحيفة «خرطوم مونتر» اليومية، اللهم إلا إذا قرر الرقيب الحكومي – مرة أخرى- مصادرة ذلك العدد (اشادت الكاتبة بعد ذلك بهذه الصحيفة في نحو صفحة كاملة. المترجم).

في آخر يوم لي في الأكروبول في زيارتي الأخيرة دخل قاعة الطعام – ودون سابق موعد- رجل أعمال سوداني مشهور لم أقابله منذ مدة طويلة. جلس أمامي وأنا أتناول طعام الإفطار وقال وهو يغالب الدمع حزنا: «اكتبي عنا وعن السودان الحديث، وعن سوداني اليوم. لقد فقدنا هويتنا بسبب رفضنا للاعتراف بمن نحن. إن جدة الصادق المهدي نوبية مسترقة (هذا ليس صحيحا تماما بحسب ما علمته من عدد من المختصين. المترجم). لقد كان لوالد بونا ملوال أربعين ولدا، وكان يبعث بنصفهم للكنيسة، والنصف الآخر للمسجد! نحن شعب هجين ومختلط

(كالأمريكيين)، وبإمكاننا أن نكون خلاقين مثلهم. لكننا ننكر هويتنا. أكتب عنا! ســاعدينا لنعترف بهويتنا، وبمن نكون.» لقد سمعت ذات الكلمات من كثير من النساء في شمال السودان وجنوبه.

أفكار ختامية:

لأفريقيا تأثيرات عميقة على الناس، ليس أقلها على الأفارقة أنفســهم. يمكننا القول أيضــا أن المآســي والحاجة تخرجان خير ما فينا، وشرها كذلك. لا ريب أن المشاكل والضعف قد تغريان بعضنا لاستغلال حالة البؤس والعوز عند الآخرين والتربح منها. شاهدت في الأكروبول عينات من أمثال هؤلاء المستغلين، ولحسن الحظ فإن هؤلاء هم قلة فقط. في المقابل يوجد آخرون كثيرون يرون في معاناة الســودانيين فرصــة للعطاء. من بين هؤلاء المانحين من تعرضــوا هم أنفســهم لجراحات ومآسٍ ومصــائب، وفي عطائهم للآخرين، يجدون متعة شــخصــية عظيمة وبعض الشفاء لأنفسهم. هذا أيضا مما يساعد فيه الأكروبول.

في ختام زيارتي تلك في بدايات عام ٢٠٠٢م أخذني جورج إلى المطار بـ سيارته. أجاب – أخيرا- على سؤالي الذي ســألته له قبل أيام. «في صــدورنا- أنا وأليانور- شــمعة تتقد. عندما تنطفئ هذه الشــمعة، فســيكون علينا مغادرة السودان.» صليت ودعوت الله في سري قائلة: «ليس بعد يا ربي. دعني أولا آتي ببنتي بالمعمودية goddaughter من أمريكا إلى هنا لتلتقي ببنتي بالمعمودية في الســودان. ســأواصــل في اســتخدم الأكروبول لخدمة «معا من أجل الســودان✱ Together for Sudan». ســاعدني يا إلهي في أن أعود إلى هذا المكان مرات ومرات من أجل البركة التي أحس بها في هذا المكان الآمن المريح الذي أقامته عائلة باقويولاتس.« (✱«معا من أجل الســودان» هي منظمة خيرية تقوم عليها الكاتبة).

بعد عام أو نحوه اســتطعت أن أحضــر ابنتي بالمعمودية ذات التاســعة عشــر عاما (واســمها ســاشــا) من أمريكا للســودان. أخذتها معي لحملة توعية للعناية بالعيون أقمناها تحت حرارة شــمس لاهبة وســموم رملية للنازحين المقيمين في معسكر في « سوبا الأراضي». أصيب الفتاة بـضربة شمس وفقدت الوعي. قامت النازحات الفقيرات بالمســاعدة في إعادتها للوعي ومواســاتها. عندما عدت بها للأكروبول قالت لي ســاشــا: « رأيت في الهند الكثير من الفقراء ولكني لم أتعرف على أي أحد منهم. في الهند كنا نعيش بعيدا عنهم.» رددت عليها بالقول: «عندما ننظر بعين الشــفقة والعطف إلى معاناة الآخرين، فإننا نرى الله أحيانا». وضــعتها في ســريرها في ذلك المكان الآمن (فندق الأكروبول) والذي هو (كما يرى كل من له قلب سليم) قد وضع الله في قلوب بعض نزلائه – ومنذ وقت طويل- بذرة الخير والعطاء).

حاشية ٢٠١٢م

لقد مر نحو عقد من الزمان منذ أن كتبت غالب ما سبق، وما زال فندق الأكربول كالعهد به، يسير قدما للأمام. بيد أن أبناء بيناقهز الثلاثة وفلورا باقولاتوس وزوجاتهم قد قاربوا سن التقاعد، وليس من دليل على أن الجيل التالي لهؤلاء سيدير هذا الفندق، وفي الواقع فإنه من الحكمة والأفضل لهؤلاء أن لا يفعلوا ذلك تحت ظروف السودان الحالية. قد أجد بعض العزاء في أنه – رغم التغير الحادث في العالم- إلا أن مساهمة عائلة باقولاتوس للسودان

الحديث، ولمن يرغب في مساعدة وكسب ود و صداقة الشعب السوداني، مساهمة عظيمة. إن مئات، بل آلاف السودانيين والأجانب لابد أنهم يشعرون بالامتنان لعائلة باقولاتوس التي وفرت المكان الآمن والمريح لمن يعملون لخدمة السودان وأهله.



العنف والسلطة والدولة في جبال النوبة إبان الحكم الثنائي

Violence, Authority, and the State in the Nuba Mountains of Condominium Sudan

بقلم البروفسور جيستن وليس Prof. Justin Willis

تقديم: هذا عرض لمقال من ٢٤ صفحة نشر في «المجلة التاريخية» التي تصدر من دار نشر جامعة كامبردج البريطانية، في العدد رقم ٤٦ في عام ٢٠٠٣م. يعمل البروفيسور «جيستن وليس» أستاذا في قسم التاريخ بجامعة درام البريطانية [وهي من أ شهر المراكز التي تحتفظ بوثائق عن تاريخ الـ سودان، خا صة خلال فترة الحكم الا ستعماري البريطاني- المصري (الحكم الثنائي)]. لهذا البروفسور – بحسب ما جاء في صفحته في موقع جامعته- اهتمام خاص بالتاريخ الأرشيفي والشفاهي لمنطقة شرق أفريقيا (وتشمل كينيا ويوغندا وتنزانيا والسودان) والتغيرات الاجتماعية التي حدثت فيها في المائتي سنة الأخيرة. بحث الرجل أيضا في التاريخ الثقافي للانتخابات في شرق أفريقيا، والتاريخ الاجتماعي للمشروبات الكحولية فيها. يتضح من المقال أن للعنف في جبال النوبة جذورا تعود إلى عـشرات (بل مئات) الـسنين، ومن الـضروري درا سة جذور ذلك العنف قبل الخوض في أمره وكأنه من الأمور التي ظهرت في الأعوام القليلة الماضية. ركز الكاتب على المعاملة الاستعمارية التمييزية على أساس عنصري التي مارسها البريطانيون في جبال النوبة، تماما مثل ما فعل الألمان في أماكن أخرى من أفريقيا، إذ اعتبر هؤلاء «التوتسي» عنصرا «أرقى» من الهوتو، وسار سائر الأوروبيين على نهجهم، مع أنهم اقلية في بورندي ورواندا ولا يمثلون فيهما معا سوى نسبة ١٥٪. تمثل لي كتابة هذا المؤرخ البريطاني عن مخازي بلاده في جبال النوبة في القرن الماضي قمة المهنية والتجرد الأكاديمي الصادق، وأعده رسالة قوية لمن ينادون عندنا ب «إعادة كتابة تاريخ السودان:، ومبلغ فهمهم لذلك هو تحسين (بل تمجيد) صورة من كتب عنه المؤرخون البريطانيون بما لا تشتهي أنفسهم! فالتاريخ ينبغي أن يعتمد الموضوعية في التفسير، والمنهجية العلمية في التحليل، لا أن يكون أسيرا لعامل واحد من العوامل التي تحركه، ولا متأثرا بتيار ما، حتى وإن كان ذلك التيار هو«الوطنية»، فالحق أولى بالاتباع. **المترجم.**

جاء في ملخص هذه الدرا سة أن دعايات الحكم الا ستعماري البريطاني كانت تزعم دوما أن «الأعراف والتقاليد» المحلية هي أس السلطة الشرعية في البلدان المستعمرة. لكن في الواقع الأمر كان ذلك الحكم الاستعماري قد أحدث تغييرات أ سا سية في حكومات البلدان التي يـسيطر عليها، تمثلت في إنشائه لمؤ سسات و«أ صحاب سلطة» جدد وفقا لاحتياجاته الخاصة المطلوبة لإدارة تلك البلدان المستعمرة. يختص هذه البحث بدراسة مثل تلك التحولات في جزء من السودان إبان خضوعه للحكم الثنائي الا ستعماري (وقد كان حكما شبه خالص للبريطانيين) هو منطقة (جبال) النوبة. لم تحظ تلك المنطقة في الماضي بدراسات كثيرة في هذا الجانب، بيد أن الحرب الدموية الأخيرة في تلك المنطقة قد لفتت أنظار الباحثين لدرا سة أ صول المـشاكل الراهنة فيها، والتي قد تعزى للـسيا سات البريطانية التي شجعت استعار الصراعات العنصرية. يزعم الكا تب إن الإرث الحقيقي للحكم البريطاني الاستعماري في النوبة (كما هو الحال في سائر القارة الأفريقية) هو خلق أنواع جديدة من الحكم المحلي لم تتوافق جيدا مع الأعراف والسلطات التقليدية والزعامات الروحية فيها.

استهل الكاتب مقاله بما ذكره حاكم عام السودان السير جون مافي في عام ١٩٢٧م عن الهند: «لقد شهدت الجيل السابق في الهند يفسح المجال للجيل الجديد، و شهدت أيضا السهولة التي سرى بها في أوساط الجماهير المتخلفة عدم استقرار سياسي مبهم، وذلك لأننا تركنا الأشكال القديمة (في الحكم) تنهار. بيد أن حكم الولايات في الهند ما زال مستقرا وفي أيد أمينة...أيدي الحكام الوراثيين.»

درج البريطانيون في حكمهم للبلدان المستعمرة على إتباع سياسة «الحكم غير المباشر» (وكانت تلك سياسة كان اللورد فريدريك ليو قارد هو أول من تبناها في هونج كونج بين ١٩٠٧ – ١٩١٢م ونيجيريا بين عامي ١٩١٤-١٩١٩م. المترجم)، وهي سياسة تميل على وجه العموم للتحفظ في الأمور السياسية. قال أحد كبار الإداريين البريطانيين في عام ١٨٩٨م: «من المهم جدا أن يدرك الأهالي أن تقاليدهم المحلية، ونظام حكمهم الأبوي القديم سيظل محل احترامنا». كان البريطانيون في أفريقيا، و ضمانا لتقليل تكلفة إدارة مستعمراتهم، وا ستنادنا لتجربتهم في الهند يعتمدون على «وكلاء محليين» من المتعلمين في حكم مستعمراتهم. كان هدفهم أيضا تحاشي تلك الشخصية المكروهة في شرق أفريقيا، ألا وهي شخصية «لابس البنطلون »Man in trousers، والمعروف في السودان ب«الأفندي». وصف ذلك الحكم غير المباشر بأنه «محافظ في الأصل، بيد أنه راديكالي/ جذري التأثير». كانت الإدارة الاستعمارية تعمل بمفهوم «سلسلة القيادة العسكرية» التي لا تقبل بغير الطاعة المطلقة بديلا. كان على الإداريين البريطانيين أن يعطوا بعض السلطة لمن كانوا على استعداد على تحدي آداب المجتمع وتقاليده وأعرافه عند احتياج مفتش المركز للعمالة أو الضرائب إلخ. وكنتيجة لهذا الو ضع نشأت أنواع متعددة وجديدة من السلطة تختبئ تحت ستار الإصرار المحموم على «أصالة» مستمدة من التقاليد والأعراف.

أغفلت الدرا سات حول إعادة خلق السلطة الأفريقية تحت ستار «السيا سة المحافظة الا ستعمارية» أكبر أقطار أفريقيا: السودان. ولهذا الإغفال دلالة، إذ أن السودان من الناحية التاريخية والجغرافية «طفل مختلف awkward child»، فهو ليس بمحمية (أو مستعمرة لدولة واحدة)، بل حكم ثنائي بين بريطانيا ومصر. لقد زادت مرارات الحرب الأهلية التي عقبت ا ستقلال السودان من الإحساس بالتميز. يبقى السؤال البسيط قائما: هل ر سخت إدارة الحكم الثنائي الصراعات الاثنية والعنصرية مما دفع بالسودان في أتون صراعات (دموية)؟ كانت الاهتمامات والعقلية البريطانية الحاكمة في السودان تشابه لحد المطابقة اهتمامات وعقلية الإداريين المستعمرين البريطانيين في باقي أفريقيا، فقد كانوا يواجهون ذات الصعوبات والمشاكل، ويطبقون ذات السياسات- بل ويصنعون ذات التناقضات والمفارقات (أشار الكاتب هنا لرأيين مختلفين في هذه النقطة. أحدهما لمدثر عبد الرحيم في مؤلفه «الإمبريالية والوطنية في السودان» ودي واي في مقاله «السلام البريطاني وجنوب السودان»). ليس السؤال (الحقيقي) هو: «هل بذر البريطانيون بذور الصراع العرقي في السودان؟»، بل هو : «لماذا أثبتت أشكال السلطات المحلية التي تكونت إبان الحكم الثنائي أنها غير مستقرة، وغير متوافقة ولا ملائمة لمتطلبات للدولة التي أعقبت الاستعمار؟»

في عام ١٩٣٤م أوصى الإداري البريطاني المخضرم آرثر فيكرز مايلز الموظفين (البريطانيين) الذين تم تعينهم حديثا في جبال النوبة بمديرية كردفان فكتب ما معناه: «يجب أن نتذكر أنه منذ نحو عقد واحد فقط كان كثير من أ شد المكوك (جمع «مك») تأييدا للحكومة ينظرون إليها بعين الريبة والشك، هذا إن لم نقل أنهم كانوا يعدون الحكومة عدوهم الأول...كنت أسمع بعض الموظفين الجدد (من محبي السلام) يتعجبون لكثرة الدوريات (الأمنية) الدائمة

في المنطقة. في كل بلد «جديد» يجب عليك أن تفرض النظام والقانون قبل أن تبدأ في تطوير التجارة أو الثقافة، وفي هذا المسعى «لابد لبعض البيض من أن ينكسر» كما جرى المثل.

كانت قبضة الحكومة الأمنية عنيفة جدا في جبال النوبة، ولا ريب أن تلك الدوريات فيها قد تسببت في الكثير من حوادث القتل والتدمير. كان العنف على أشده بين عامي ١٩٠٥ – ١٩١٢م، مع اشتعاله مرة أخري بين عامي ١٩١٧ – ١٩١٩م، ولم يتوقف مرور تلك الدوريات الأمنية إلا في ١٩٤٥م. إن تغاضينا عن المدارة لإخفاء العنف الاستعماري، فإنه يبقى إشكال من نوع آخر في تقرير الإداري البريطاني المخضرم آرثر فيكرز مايلز. لقد قلت بالفعل حوادث العنف التي كانت شائعة على نطاق واسع. فمثلا جاء في أحد التقارير الأمنية الصادرة في عام ١٩١٨م أن مغامرة الإداريين (البريطانيين) بالذهاب إلى منطقة معينة في جبال النوبة كانت تعني أنهم يحملون رؤوسهم على أكفهم. ولكن في عام ١٩٣٠م كان الإداريون البريطانيون يطوفون ذات المنطقة آمنين، لا يرافقهم غير ثلاثة من الحراس، مهمة اثنين منهم هي حمل أعلام الحكم الثنائي!

حكى آرثر فيكرز مايلز عن مصالحة حدثت (مؤخرا) بين الحكومة والمكوك في جبال النوبة. كان القصد من تلك الخطوة هو إضفاء «شرعية سياسية» على القيادات التقليدية. لقد ضاعت سدى عشرات السنوات من الاعتماد على «مستجدي السلطة» من المنبتين ثقافيا، والذين أخطأت الحكومة حين نصبتهم «مكوكا»، مما ترتب عليه إحداث عنف مزمن. بيد أنه، ومنذ عام ١٩٣٠م بدأت الحكومة في التعاون مع القيادات الشعبية التقليدية وثيقة الصلة بالثقافة النوبية. هنالك من فسر ذلك الموقف الحكومي الداعي ل «صحوة نوبية Nuba renaissance بأنها دعوة جائرة للتناحر السياسي والانقسام العنصري اشتهر به الاستعمار الثنائي، وامتدت آثارها المدمرة على بناء الدولة القومية (الموحدة) في السودان حتى بعد استقلاله. وهنالك من يعتقد أن تلك الفترة (في جبال النوبة) قد رسخت لقيام صورة من صور الدولة المحلية (local state) كان طابعها المركزية والاستبداد، والتي استمرت في السودان بعد الاستقلال وأشعلت حربا ضروسا استمرت لسنوات، هلك بسببها وتشرد ونزح خلق كثير بلغ عشرات الآلاف من الضحايا.

كلما ورد نقاش عن سياسة الحكومة الخاصة بجبال النوبة في العشرين عاما الأولى من عمر الحكم الثنائي تكرر ذكر عبارة واحدة قالها اللورد كرومر (قنصل بريطانيا في مصر، وحاكمها الفعلي) في عام ١٩٠٥م، وهي أنه ينبغي أن «يدرك الشعب قوة الحكم» وأن «أي محاولة للعصيان إن هي إلا إشارة إلى أن الجماهير ليس لديها أي فكرة عن قوة الحكومة.» يجب الاعتراف بأن وراء تلك العبارة إحساس بأن «قوة الحكومة» المذكورة هي في واقع الأمر قوة «محدودة»، إذ أن الحكومة كانت تجد عسرا شديدا في نشر قوات ضاربة بعدد كاف لفرض سيطرتها على بعض المناطق. كانت للحكومة الاستعمارية جيش كبير نسبيا يبلغ عدد أفراده ١٣٠٠٠ – ١٤٠٠٠ فردا، بيد أنه كان عدد صغير نسبيا للحفاظ على الأمن في أرض تبلغ مساحتها ٢ مليون كيلومتر مربع. كان الإداريون البريطانيون (وكثير منهم كانوا ضباطا منتدبين للعمل في الإدارة) يعلمون أن كثيرا من أبناء النوبة يمتلكون الآلاف البنادق، ويخشون من استخدام القناصة منهم – وهم في الكهوف وأعالي الجبال- لأسلحتهم في اصطياد جنود الحكومة قليلي العدد.، لذا آثروا عدم المواجهة معهم. قال أحد هؤلاء الإداريين: «لقد أخذت الحكومة ما تريد دون قتال». بيد أن جميع

الإداريين كانوا يجمعون على أن ذلك «الحذر القسري» لم يجلب إلا الكوارث، إذ أنهم كانوا قد اعتادوا على أن أي تفريط في الأمن – ولو قل شأنه- سيقود لا محالة إلى تمرد خطير، وأن أي حادثة سرقة لأبقار إن هي إلا النذر الأولى لثورة قادمة. شاع بين الإداريين في السودان خوف عظيم من أن أي عصيان للسلطة يمر دون عقاب سيقود، وبسهولة، إلى تمرد وثورة. فالثورة (التمرد) المهدية لم يكن لها أن تنتصر، وهي التي بدأت ك «تمرد مزارعين jacquerie» إن تم إخمادها في مهدها. هذا ما قر في عقل كل إداري بريطاني في السودان، إضافة لمقولة وينجت (حاكم عام السودان بين عامي ١٩٠٠ – ١٩١٦م الشهيرة التي يتذكرها كل إداري منهم: «من يستهين بالحكومة يجب أن يلقى أشد العقاب». قال ذات الرجل في عام ١٩١٠م، معلقا على التمرد في جبال النوبة: «هذا النوع من عدم الولاء والسخط (الشعبي) ينتشر كالنار في الهشيم. يجب الحفاظ على سلطة الدولة وهيبتها. ليس هناك مفر من فرض ذلك الأمر. يجب بالطبع، أن ننفذ مهمتنا العقابية (على من تمردوا) وأن نريهم أننا ننوي أن نكون (ونبقى) السادة هنا». استغل وينجت وضع السودان الاستثنائي (كونه تحت الحكم البريطاني المصري)، وعدم مراقبة لندن لما يجري فيه، وحجب كل المعلومات عن ما يجري على أرض النوبة من عنف و«تفا صيل دموية»، ومنع الصحف حتى عن مجرد السؤال عنها.

لعبت التقسيمات العرقية في السودان – كما يفهمها البريطانيون- دورا خاصا في اشعال نار العنف، فقد كانوا يؤمنون بأنه يسهل قيادة وتوجيه (والتلاعب) ب «العرب» في السودان عن طريق قياداتهم الدينية مثل المهدي. بيد أن القمع الفوري لهؤلاء القادة الدينيين سوف يجعل كل من يسمع يدرك قوة الحكومة الضاربة. لكن، وكما جاء في تقرير لمفتش بريطاني ا سمه لويد في مديرية كردفان صدر في عام ١٩٠٨م، فإن سكان جبال النوبة ليسوا «عربا» بل هم من «السود»، وزعم أنه من المعلوم أن «السود» لا يلقون بالا لما يسمعون، ولا يقتنعون إلا بما يرونه أو يحسونه. جاء في ذلك التقرير (الشديد العنصرية والفوقية. المترجم) ما نصه: «هؤلاء قوم جهلاء متوحشون لا تستطيع أن تقنعهم بأمر لا تستطيع مخيلتهم المحدودة تصوره. يجب اقناعهم عن طريق علامة ملموسة بقوة الحكومة وهيبتها، وذلك من أجل فرض سيطرتها الإدارية عليهم حين يلزم الأمر... لهذا السبب، فإني أرى أن زيادة حامية جنوب كردفان، ومضاعفة عدد الدوريات وتقويتها أمر ضروري لإرهاب عقول الأهالي والسيطرة عليهم (overawe the native mind)». بقيت فكرة هذا «الفرق العنصري» حية عند الإداريين البريطانيين، فقد كتب أحدهم (واسمه أوين) في رسالة خاصة لوالده بعد أربعين عاما مما سبق ذكره (أي في عام ١٩٤٤م) ما يفيد بأنه لن يفكر أبدا في إرسال دورية و شن حملة عسكرية على «العرب»، ولكن وبحسب نص رسالته- فإن «أمر النوبة مختلف جدا، فهم أغبياء dull-witted وتعوزهم الحساسية، وبدائيين وعنيدين، ولغتهم العربية ضعيفة (هكذا! المترجم). لا يمكن للمرء أن يعاملهم كالعرب... لا يمكن إنجاز الأشياء هنا دون استخدام (أو إظهار) القوة.»

لقد نشأ وتنامى العنف الا ستعماري البريطاني – مثله مثل الا ستعمار الفرنسي- جزئيا بفعل الطموح الشخصي لمرتكبيه. كان الضباط البريطانيون في بداية عهد الحكم الثنائي (البريطاني –المصري) يعدون - فنيا ورسميا- ضباطا في الجيش المصري منتدبين من حامياتهم البريطانية للعمل في خدمة الحكم الثنائي، حيث رحلة البحث عن المغامرة والأوسمة. كان هنالك طابور طويل من الضباط المنتظرين للانتداب للعمل في السودان وللالتحاق بالدوريات الأمنية التي كانت تجوب جبال النوبة، بل وسعى بعضهم لتوسيط ونجت لتخطي الصفوف والظفر

بالعمل في حملات جبال النوبة. سـجلت الوثائق أنه بحلول عام ١٩١٠م، كانت دوريات جبال النوبة تعج ب«المتطوعين» من الضباط البريطانيين، وكان من يظفر من هؤلاء بميدالية أو وسام يسخر ممن العاطلين عن تلك الميداليات والأوسـمة. كان المتعطشـون للدماء من أولئك الضـباط الباحثين عن المغامرة والميداليات والأوسـمة يقومون بدوريات هجومية غير ضـرورية أمنيا، ولكنهم كانوا يحصـلون بسـببها على مزيد من الترقيات والميداليات والأوسـمة والتقارير الممتازة، مما أثار غيرة وغضـب الضـباط في مناطق أخرى كالهند. يمكن القول بأن الإداريين البريطانيين في سنوات الحكم الثنائي الأولى كانوا يحاولون – وبكل الوسائل والطرق- إثبات وجودهم وتفانيهم في أداء واجباتهم، ويدخل في باب هذه الواجبات اسـتخدام العنف المفرط – بسـبب وبلا سـبب- ضـد الأهالي. كان المفتش منهم يطوف مع ثلة من جنوده على منطقة ما، ويستدعي مكوكها و سكانها المحليين للقاء القصد الأساس منه هو التخويف والإرهاب. كان كل من يرفض الحضور لتلك اللقاءات أو يتأخر عنها يتعرض لبأس تلك الدورية، والتي «تزوره» حيث هو، حيث تحرق داره أمام عينيه وتقتل بهائمه إن لم يبد مقاومة. أما إن أظهر مقاومة فالقتل هو مصيره. لخص أحد المفتشين موقفا مشابها حدث في منطقة «نيمة Nyima» وهو يستعرض رأسي مكك «نيمة» وحليف له بعد قتلهما بقوله: «الأعمال الفجة هي وحدها التي تؤثر على العقول/ الأدمغة الفجة» («نيمة » هي مجموعة من ٨ جبال في الركن الشـمالي الغربي لمنطقة جبال النوبة، ويسـمى سـكانها نيمج Nyimng. حدثت في ١٩٠٨م حالات نهب لأبقار قبيلة عربية في تلك المنطقة، ومواجهة دموية مع دوريات عسكرية بسببها).

أثبتت الدراسات الإثنوغرافية منذ عام ١٩٤٠م أن فكرة هوية وثقافة موحدة لسكان جبال النوبة فكرة غير آمنة، إذ ليس هنالك ما يجمع بين المجموعات السكانية التي كانت تسكن في جبال النوبة في بدايات القرن العشرين غير أنها مختلفة ثقافيا عن المتحدثين باللغة العربية في السهول.

أدخلت في منتصف عشرينات القرن الماضي بعض المحاكم في جبال النوبة إتباعا لسياسة عامة في سائر أرجاء القطر، وتم تعيين بعض القادة المحليين في القرى كشيوخ كقضاة في محاكم ابتدائية لها سلطة إصدار أحكام بالغرامة، وعين بعض المكوك في محاكم أعلى يرأسـها رجال متقدمين في السـن تحكم في قضـايا أكثر تعقيدا. كانت هنالك محاكم يقضي فيها عدد من المكوك مجتمعين، وهي تفصل في قضايا تخص المجتمعات النوبية ككل. بهذا المحاكم (الشـعبية) تخلصـت إدارة المركز من عبء الفصـل في القضـايا الصـغيرة عديمة الخطر، وتفرغت للقضـايا الكبيرة والهامة.

ظل البريطاني جيلان مهندس «الصـحوة النوبية Nuba renaissance» يؤكد أن نظام المحاكم في جبال النوبة قد أعاد الحياة ل«السـلطة القبلية»، رغم أن محاكمه تلك كانت بعيدة تماما عن النظام المحلي السـابق (أو ما كان يسـميه هو «ثقافة النوبة الحقيقة »Authentic Nuba culture) والتي كانت تتميز بأنها متعددة المراكز polycentric . كانت النزاعات المحلية في جبال النوبة تسـوى عادة عن طريق تدخلات العائلات والأقرباء والمجتمع، لا يستثنون منها أحدا، بل إن حتى بعض الممسوسين كان يجلسون على كرسي القضاء ويفصلون في بعض القضايا، بينما كانت بعض النزاعات تحسم بالعنف، أو بتدخل من أي فرد في المجتمع مها كانت مرتبته، حتى إن كان حارسا أو بوابا.

كانت نظرة الإداريين البريطانيين لشعب جبال النوبة هي أنهم مجرد «ما تبقى من مجموعات بشرية محاصرة، تطوقهم شعوب من المستعربين الرحل القاطنين في السهول المحيطة بجبال النوبة»، وكانوا يؤمنون بأن حكمهم خلال عقده الأول قد نجح في ايقاف الحملات التي كان «المستعربون» يشننوها ضد النوبة في الجبال، بيد أن النوبة قد جحدوا تلك «النعمة» فصاروا يشنون الحملات العسكرية ضد بعضهم البعض، و ضد المستعربين من حولهم بغرض نهب الأبقار وأخذ الأسرى كعبيد، إذ كانوا يستخدمون الرجال منهم للأعمال (الشاقة)، والنساء كزوجات، أو يبعون من يسترقون من أجل الحصول على الأبقار أو البنادق. كذلك لم يكن البريطانيون متأكدين تمام التأكد من أمر «النوبة»: أهم قبيلة أم عنصر؟ فالنوبة يتحدثون بلغات مختلفة، وقد لا يفهم بعضهم لغة الآخر، بيد أنهم كانوا متأكدين من أولئك «الزنوج الأبروجيني Negro aborigines» هم بقايا مجموعة بشرية من زمن طالوت (ا ستند الكاتب هنا على ما ورد في كتاب بعنوان «القبائل الوثنية في السودان النيلي» لمؤلفه سيلجيمان، صدر عام ١٩٣٢م).

لجأت السلطات الاستعمارية في مرحلة معينة من حكمها لاستغلال «الأرواح» في جبال النوبة مثل ما يعرف بأرو (Arro)، و«الكجور» من أجل بسط الأمن في كل جبل من الجبال. كان على الحكومة أن ترى في هذا «الكجور» قوتها الضاربة، فالكجور هو ما يخشاه النوبة. كان المستعمرون في سنين حكمهم الأولى يعدون الكجورعدوهم الأول، كانوا يحرصون على أن يري النوبة أنهم قادرون على إخضاعه وإرهابه وتقليم أظفاره. تغير كل ذلك منذ بداية العشرينات من القرن الماضي، فصاروا لا يعدون الكجور «عرافا/ طبيبا ساحرا» أو طاغية مستبدا. كانت «إعادة التأهيل» تلك التي مارسها المستعمرون للكجور تتماهي مع سياستهم الرامية لاحترام التقاليد والأعراف القبلية، وإسناد قيادة المجموعات البشرية والقبائل المختلفة للقوي التقليدية (الروحية) فيها من خلال «الحكم غير المباشر»، إذ تبين لهم أن كثيرا من المكوك الذين نصبوهم لا يتمتعون بأي سلطة حقيقية، مما استلزم «إحياء» القيادات التقليدية القديمة للمارسة دورها في القيادة المحلية. سمى البريطانيون تلك السياسة ب «الصحوة النوبية Nuba renaissance». كان من لوازم تطبيق تلك السياسة الفصل (الثقافي والعنصري) بين العرب والنوبة فصلا تاما. كتب أحدهم عن مزايا هذا الفصل فقال: «يجب أن أشدد هنا على أضرار اختلاط العرب بالنوبة. نتيجته دوما هي شاب هجين عديم أصل، غير منضبط، ولا هم له غير السكر والعربدة، وليس له من خلفية تراثية يستند عليها». كان العري عند النوبة مصدرا لإعجاب بعض البريطانيين، فقد أثار خيالهم برومانسيته وبفلسفة ال essentialism الكامنة فيه. أعجبت سيدة إنجليزية بعري النوبة فقالت مهمهمة: « ياله من منظر وحشي وجذاب!». كتب مفتش المركز معلقا على قول السيدة تلك ما نصه: «لعل زائرتنا سرت مما رأت من عري الناس هنا».

أجبر الكساد الاقتصادي المستعمر البريطاني في ثلاثينات القرن الماضي على نبذ أحلامه الرومانسية في تنفيذ الحكم غير المباشر، وترك أمر القيادة المحلية للقادة التقليدين في المنطقة، وعزل العرب عن النوبة، فقد اشتدت الحاجة لمزيد من الضرائب والأموال، وتسهيل التجارة وتنميتها. لم يكن هنالك إذن من بد من فتح منطقة النوبة للعرب (وغيرهم) مثل الدعاة المسلمين والحرفيين من أجل تنشيط التجارة والتقدم في المنطقة. كذلك دخل منطقة جبال النوبة حتى عام ١٩٣٣م نحو ١٠٠٠ مهاجر من غرب أفريقيا، للعمل وكسب بعض المال وهم في رحلتهم البطيئة لمكة والحج. وبدأ الإداريون البريطانيون منذ عام ١٩٣٤م في عقد مؤتمر سنوي لمناقشة التجارة والتنمية في جبال النوبة.

في رأي الكاتب أن الإداريين الاستعماريين قدموا خلال فترة حكمهم روايتين متتاليتين لموقفهم من حوادث جبال النوبة تلخصت في الآتي:

١ .**أهمية العنف** كوسيلة من الوسائل التي تستعرض بها الحكومة قوتها وهيبتها، ولتلقين هؤلاء «النوبة المشاكسين» أن لا طائل من المقاومة. قال وينجت في هذا الخصوص: «إن الحملات المختلفة التي شنتها قواتنا في المنطقة نجحت، على الأقل، في إقناع السكان بأن محاربة الحكومة عبث غير مجدي».

٢. **قوة التقاليد والمقاومة الثقافية**. ذكر الإداري البريطاني المخضرم فيكرز مايلز ما نصه: «لقد نجحت سياستنا الهادفة لجعل النوبة يحكمون أنفسهم بأنفسهم، إذ تماهى وعزز ذلك من تقاليدهم التليدة».

بيد أن الإدارة الفعالة التي تبلورت من خلف هاتين الروايتين لم تعكس تماما «قوة الحكومة» ولا انتصار «إعادة الحياة للتقاليد التليدة». أدركت الحكومة عجزها عن توفير قوات كافية لفرض هيبتها فقامت بحملات «مسرحية» زادت من وتيرة العنف حتى عشرينات القرن الماضي.

خلص الكاتب أن الحكم الثنائي في السودان قد شهد نفس السياسات والإجراءات التي اتخذت في كثير من الأقطار التي استعمرتها بريطانيا في أفريقيا، حيث كان الحديث عن «التقاليد» و«التراث» مجرد غطاء لمزيد من عنف الدولة المركزي centralized state violence. انتقلت ثقافة السلطة التي أسسها المستعمر إلى تركيبة سودان ما بعد الاستقلال، واعتمد التوازن بين سلطة «الدولة» وسلطة «القادة المحليين» على توافق غير مؤكد وقابل للانهيار.



من تاريخ الممارسات والمخالفات الانتخابية في السودان منذ عام ١٩٥٣م

We changed the laws: Electoral practices and malpractices in Sudan since ١٩٥٣

جستن ويليس وعطا البطحاني justin Willis and Atta El Battahani

تقديم: نشر هذا البحث المشترك بين بروفيسور جستن ويليس ود/ عطا البطحاني في مجلة «الشؤون الأفريقية» في عددها رقم الصادر في عام ٢٠١٠م، وهي مجلة محكمة تصدرها «الجمعية الملكية الأفريقية». يعمل البروفيسور «جيستن وليس» أستاذا في قسم التاريخ بجامعة دارام البريطانية [وهي من أشهر المراكز التي تحتفظ بوثائق عن تاريخ السودان، خاصة خلال فترة الحكم الاستعماري البريطاني- المصري (الحكم الثنائي)]. لهذا البروفيسور - بحسب ما جاء في صفحته في موقع جامعة دارام- اهتمام خاص بالتاريخ الأرشيفي والشفاهي لمنطقة شرق أفريقيا (وتشمل كينيا ويوغندا وتنزانيا والسودان) والتغيرات الاجتماعية التي حدثت فيها في المائتي سنة الأخيرة. بحث الرجل أيضا في التاريخ الثقافي للانتخابات في شرق أفريقيا، والتاريخ الاجتماعي للمشروبات الكحولية فيها. يعمل (أو عمل) د/ البطحاني كأستاذ في قسم العلوم السياسية بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الخرطوم، وله عدة أبحاث عن مواضيع تتعلق بالسياسة السودانية. للمؤلفين كتاب يدندن حول ذات الموضوع صدر في عام ٢٠٠٩م بعنوان «الانتخابات السودانية: التعلم من التجربة» بالاشتراك مع بروفيسور بيتر وود، الخبير البريطاني بالشأن السوداني. **المترجم**

جاء في ملخص هذا البحث أنه يدور حول تاريخ الانتخابات التي أجريت في السودان بالاقتراع السري منذ خمسينات القرن الماضي، ويتطرق إلى الدروس والعبر التي يمكن الاستفادة منها في الانتخابات العامة القادمة (والمقصود بالطبع هي الانتخابات العامة التي أجريت في أبريل ٢٠١٠م طبقا لما قررته اتفاقية السلام الشامل الموقعة في نيفاشا بكينيا في ٩ يناير ٢٠٠٥م. المترجم) أشار المؤلفان للاستخدام المتكرر للاقتراع السري كمؤشر لمشروع أوسع لما قامت به الدولة من مشروع للتحديث، إذ أن الاقتراع السري يوفر تقنينا للعلاقة بين دولة فاعلة ومواطنية منضبطة disciplined citizenry.

يركز المقال على الممارسات الفعلية في الانتخابات وليس على «السياسة العليا»، ويخلص إلى أنه بالرغم من التأكيد الرسمي المستمر على ثبات واتساق إجراءات الانتخابات، إلا أن الممارسات الفعلية كانت دوما تنحرف (قليلا أو كثيرا) عن اللوائح والقواعد الموضوعة. كان التلاعب السياسي هو واحد من أسباب هذه الانحرافات والمخالفات في بعض الحالات، بينما كان عوز المصادر وقلة الإمكانات هو السبب في حالات أخرى. كان المسؤولون يتسترون على تلك الانحرافات والمخالفات لعلمهم بالأهمية التي يعلقها الناس على ضرورة أن تكون (وتبقى) الانتخابات مبينة على مبدأ «الاقتراع السري». يبدو أن الانتخابات القادمة (المقصود هو الانتخابات التي أقيمت في ٢٠١٠م. المترجم) لن تخلو من مثل تلك الانحرافات والمخالفات والمشاكل، ويغلب الظن أن هذه الانتخابات لن تحقق الغرض المرتجى في تطوير ثقافة سياسية شاملة... تشمل الجميع ولا تستثني أحدا.

بدأ المؤلفان بحثهما بقصة حكاها للكاتبين إداري (اسمه محمد بشير فضل) عمل مع وزير للتربية والتعليم كان مسؤولا عن الاستفتاء في الإقليم الشمالي، ذلك الاستفتاء على الرئاسة الذي أجراه (الرئيس السابق) جعفر نميري في عام ١٩٨٣م، وقيل أنه حظي بإقبال «لم تشهد له البلاد مثيلا» وانتهي بفوز ساحق غير مسبوق لنميري. ذكر ذلك الإداري أن الوزير استدعاه وقال له: «يا محمد...توجد بعض مراكز الاقتراع التي كانت نسبة «نعم» فيها أقل من ٩٠٪...نحن ننافس الآخرين. لابد لنا من أن نحرز ٩٦٪ ...كل واحد يريد أن تحرز ولايته ٩٦٪ أو أكثر». سألته: «و ماذا أفعل؟ لقد انتهى التصويت». رد في هدوء أن القوانين يصدرها مجلس الثورة، وأنه قد غير القوانين بالفعل...».

لم يجد محمد بدا من الانصياع للأمر فجمع مرؤوسيه وقال لهم إن «القوانين تغيرت» وأن عليهم جمع مزيد من الأصوات. تفرقوا وعادوا بعد ساعات وهم يحملون صناديق الاقتراع وهي مليئة بأوراق التصويت. ذهل محمد وسألهم عن كيفية حصولهم على تلك الأصوات بتلك السرعة، وبعض مراكز الاقتراع على بعد مسيرة أيام. ردوا عليهم بأنهم هم أيضا قد غيروا القوانين!

كانت الانتخابات في السودان – كغيره من الأقطار الأفريقية – وحق الاقتراع (السري) للبالغين هما من ابتكارات الحكم الاستعماري في سنواته الأخيرة. لا شك بالطبع في أن ضغوط الساسة الوطنيين كان لها أيضا أثر في نيل ذلك الحق، فقد كانوا يرون في«الاقتراع السري» علامة على نضج الأمة وقدرتها على تحملها المسؤولية، وهجمة قوية على آخر حصون الحكم الاستعماري. لكن تلك الانتخابات كانت أيضا آخر مهام الاستعمار التأديبية / الانضباطية في تسجيل وترتيب وعد الناخبين، وأشدها طموحا.

تعلم التصويت: انتخابات الخمسينات: كان التنافس السياسي الحاد والمعقد بين طرفي الحكم الثنائي (البريطاني والمصري) واحد من أسباب التعجيل بتبني الاقتراع السري في السودان، إذ كان كل طرف منهما يسعى لكسب تأييد المتعلمين السودانيين عن طريق منحهم بعض الامتيازات، ومن ضمنها إعطائهم «امتياز» حق التصويت. وكنتيجة لذلك نال السودان استقلاله عن الدولتين في عام ١٩٥٦م، بعد «انتخابات الحكم الذاتي» في نهاية عام ١٩٥٣م. أجريت تلك الانتخابات عن طريق الاقتراع السري (وضد رغبة بعض المسئولين البريطانيين). جعلت تلك الانتخابات السودانيين باقتراعها السري يشعرون بأنه قد بلغوا فعلا مرحلة النضج السياسي في دولتهم الوطنية المستقلة. جاء في صحيفة الرأي العام في ٢٤ نوفمبر من عام ١٩٥٣م أن السيد/ الصديق المهدي ذكر في لقاء له مع رئيس لجنة مفضوية الانتخابات (الهندي سوكومار سن): «عندما تكون أعين كل العالم مصوبة نحو بلادنا، فإنه ينبغي علينا أن نثبت لهم أن بمقدورنا حكم أنفسنا بأنفسنا». كان ذلك الحس الوطني والفهم لتلك الانتخابات قائما في ذهن كل من عمل في تلك الانتخابات من السودانيين. كانوا يصرحون في فخر كبير كيف أن التصويت جرى في «هدوء وسكينة وتنظيم محكم»، وكان موعد انتهاء التصويت في دائرة ما سببا لتبادل التهاني والتبريكات، ليس بين المتنافسين، بل بين موظفي الانتخابات أنفسهم! لعل ذلك الشعور بنزاهة الانتخابات و صدق نتائجها هي ما أعطي النواب الثقة لإعلان الاستقلال بعد نحو عامين من ذلك التاريخ رغم أن غالبية النواب المنتخبين كانوا قد انتخبوا على أساس أنهم من دعاة الوحدة مع مصر!

كانت العمليات (الميكانيكية) الإجرائية في تلك الانتخابات، وسـلامتها، وخلوها من شـبهة الفسـاد، هي عند مسـئولي الانتخابات أكثر أهمية من أن تمارس مجموعة معينة من المواطنين حقها في التصـويت. اشـتكى بعض المسـؤولين البريطانيين من أن بعض المواطنين في جنوب السـودان قد لا يسـتطيعون المشـاركة في عملية الاقتراع السـري كما ينبغي. ردت مفوضـية الانتخابات على هذا التخوف بالقول: «بالنظر إلى الأحوال في جنوب البلاد، فإنه من المشكوك فيه أن تقوم هناك انتخابات ناجحة نجاحا تاما مهما اختلفت طرق التصويت... ولا نرى فائدة تذكر في تكرار مقولات التشكيك التي تحذر من تعذر قيام انتخابات سليمة في بعض أنحاء البلاد». كانت الر سالة وا ضحة: يجب قيام الانتخابات تحت أي ظرف حتى وإن تم ا ستبعاد بعض الـسودانيين منها. لهذا الـسبب تغا ضت مفو ضية الانتخا بات عن عد يد الشـكاوى والتظلمات التي أتتها من كل الأحزاب والطوائف بخصـوص الانحرا فات والممارسـات الخاطئة في تلك الانتخابات (مثل الرشـاوى وتهديد ضـباط الانتخابات)، ولعل مرد ذلك هو خوف مـ سؤولي الانتخابات من أن اتخاذ أي إجراء عقابي على حزب ما قد يدفع به للانـ سحاب من الانتخابات برمتها، وبذا يفسد مرام المفوضية من أن تتم العملية الانتخابية تماما كما خطط لها، دون مشاكل ولا محاكم ولا إلغاء.

أدى إقصـاء مجموعة كبيرة نسـبيا من المواطنين الجنوبيين من المشـاركة في تلك الانتخابات إلى تنامي أسـباب الشقاق بين شطري البلاد. كذلك حذت تلك الانتخابات حذو بريطانيا في تخصيص نسبة من عدد النواب لخريجي الجامعة (بدأ ذلك التقليد في إنجلترا عام ١٦٠٣م وتم التخلي عنه في عام١٩٥٠م. المترجم) فتم في أول انتخابات سـودانية عام ١٩٥٣م تخصـيص خمسـة دوائر للخريجين (الذين أكملوا تعليمهم الثانوي، ولم يكن عدد المسـجلين منهم لانتخابات ذلك العام يفوق ٢٤٠٠ خريج) بينما بلغ عدد الدوائر الجغرافية ٩٢ دائرة انتخابية (وكان يصـوت في كل دائرة منها نحو ١٠٠٠٠٠ فرد بالغ). كان تخصـيص دوائر للخريجين يؤكد عندهم شـعورهم الحاد بأنهم فئة قليلة من «صـفوة مختارة» لها واجبات وحقوق مخصـوصـة. كتب سـكرتير مؤتمر الخريجين لرئيس مفوضـية الانتخابات في ٦/ ٥/ ١٩٥٣م ما يفيد بأن الخريجين «يصـوتون في الانتخابات وفقا لفكرهم ومعتقدهم، وليس وفقا لما تمليه عليهم طائفة من الطوائف... إن تصـويت الخريجين في هذه الانتخابات يعطيها «دعما فكريا»...». كان التخوف عندهم أن يقوم «العامة» بالتـ صويت وهم تحت تأثير قادتهم القبليين أو الطائفيين، و سيكون معروفا إلى أن سيؤدي هؤلاء بالبلاد. ربما كان تخوف الخريجيين هذا هو ما جعلهم يحر صون على التـ صويت أكثر من غيرهم، إذ صوت منهم نحو ٨٠٪ من المسجلين، بينما كانت نسبة من صوتوا من «العامة» أقل من ذلك بكثير.

كان الإحـساس بأن الانتخابات هي «واجب وطني» أكبر في انتخابات عام ١٩٥٨م منه في انتخابات عام ١٨٥٣م. كتب حسن علي عبد الله رئيس مفوضية تلك الانتخابات (وكان من كبار موظفي الخدمة المدنية، ومن الذين شاركوا في إدارة الانتخابات السـابقة) إلى موظفيه ما يلي: « أتقدم لكم نيابة عن كل المفوضـية ولكل الموظفين التوفيق والنجاح في المهمة العظيمة الملقاة على عاتقنا....لا شـك عندي في إننا سـننظر بعد سـنوات من الآن بكل فخر لما سننجزه في هذه الانتخابات، وللخدمات التي سنسديها لبلادنا».

غمرت مفوضية تلك الانتخابات موظفيها بسيل من التلغرافات والرسائل التي تدعوهم لبذل مزيد من الجهد لتسجيل أكبر عدد من الناخبين، وكررت عليهم مرارا خطوات العمل الانتخابي من الألف للياء. كانت بعض توجيهات تلك المفوضية مستحيلة التنفيذ (بسبب شح الإمكانات وقلة عدد الموظفين)، بل قد تكون قد أتت بنتائج عكسية، وشجعت بعض الموظفين على تجاوز القواعد التي كان من الواجب إتباعها!

انتخابات الستينات: بعد سنوات من انتخابات عام ١٩٥٨م استولى العسكر على السلطة (في يوم ١٧/ ١١/ ١٩٥٨م) بطلب من رئيس يالوزراء الذي خشي من أن يفقد أغلبيته في البرلمان (في هذا القول أخذ ورد لم (ولن) يحسم كما هو معتاد! المترجم). وضح فشل «العمليات الانتخابية electoral processes» في الحصول على تأييد واسع حين مر الانقلاب كما كتب أحد الغربيين «دون صدور حتى همهمة احتجاج من الشعب» (هل هذا صحيح؟ المترجم). شهدت السنوات الست التالية تزايدا في الحرب في جنوب البلاد حتى غدت حربا أهلية، وتزايدا في التضييق الديكتاتوري على الحريات العامة. اندلعت ثورة قادتها الطبقات المتعلمة من الطلاب والمثقفين في حضر شمال السودان (وليس ثورة شعبية في كافة أرجاء البلاد) في ٢١/ ١٠/ ١٩٦٤م قامت بإسقاط الحكومة العسكرية، وتم بعدها الإعلان عن انتخابات عامة لاختيار جمعية تأسيسية تقوم بعمل دستور دائم للبلاد. كان ارتباط الفئة التي قادت ثورة أكتوبر الوثيق بالإداريين والساسة يؤكد وضع السودان كدولة عصرية، ويظهر قدرتها على الحياة والنمو.

طالبت بعض الجهات بتأجيل الانتخابات حتى تحل مشكلة الجنوب، بيد أن الغالبية العظمى من أحزاب الشمال أصرت على قيام انتخابات مبكرة، ونشب من بعد ذلك صراع مرير بين الأحزاب السياسية حول أمور أساسية في العملية الانتخابية مثل حق التصويت للنساء، وعدد دوائر الخريجين. حسم الأمر في النهاية بتنازلات متبادلة بين المتخاصمين حول من له حق الاقتراع وزيادة عدد مقاعد الخريجين. لم تخل تلك الانتخابات من حالات غش ومخالفات أخرى كثيرة أشار إليها أبو شوك (المقصود هو ما كتبه د/ أحمد إبراهيم أبو شوك عن الانتخابات البرلمانية في السودان (١٩٥٣ – ١٩٨٦م)، وللمؤلف أيضا كتاب صدر في عام ٢٠١٠م عن «الانتخابات القومية في السودان». المترجم). لم تجر انتخابات في غالب أنحاء الجنوب وذلك لأسباب عدة منها انعدام الأمن، وصعوبة المواصلات وقلة عدد الموظفين، والشكوك الكثيرة عند الناخبين الجنوبيين من العملية برمتها. صاحبت الانتخابات كذلك في الشمال (خاصة في مناطق الرحل وشبه الرحل) مشاكل تتعلق بقوائم الناخبين، والتي كانت تعتمد على ما يقدمه رجال الإدارة الأهلية ومندوبي الأحزاب من قوائم. من الطريف ذكره أنه كان على موظفي الانتخابات وضع كل أسماء الذين يحق لهم التصويت في قائمة واحدة بحسب الترتيب الهجائي، وهنا علق أحد الكتاب الغربيين الخبراء في شؤون السودان (وهو أ.د/ بيتر بيشتولد مدير دراسات الشرق الأوسط في جامعة بورتلاند بالولايات المتحدة، والمجيد لأربعة لغات من بينها العربية. المترجم) بأن غالب المتعلمين السودانيين ليسوا متأكدين من ترتيب الحروف الهجائية العربية!

أقيمت انتخابات فرعية (By-elections) في جنوب البلاد في عام ١٩٦٧م، رغم أن الأحوال الأمنية لم تتحسن، بل زادت سوءا، ولكن جاء تقرير رئيس مفوضية تلك الانتخابات ليؤكد ببساطة وببرود شديد أن الانتخابات جرت في الجنوب «في هدوء».

فاز حزب الأمة بانتخابات عام ١٩٦٥م، ولكن دون أغلبية تتيح له إمكانية تكوين حكومة بمفرده. من العجيب أن نتذكر (بحسب ما زعمه تقرير للسفارة البريطانية في الخرطوم) أن ذلك الحزب (بسهولة وبثمن بخس) فاز ب ١٥ دائرة من مجمل ٣٦ دائرة من الدوائر في الجنوب في الانتخابات الفرعية عام ١٩٦٧م، حيث كان من سجل و صوت في تلك الانتخابات هم الموظفين ورجال الجيش والشرطة!

انتخابات الحزب الواحد: قام في ٢٥/ ٥/ ١٩٦٩م انقلاب عسكري بقيادة جعفر محمد نميري أطاح بالحكومة المنتخبة دون أن يثير ذلك أي احتجاج شعبي. كان نميري ومن ساندة من المثقفين الراديكاليين يرفضون «الديمقراطية الليبرالية والرجعية والعمالة»، كما جاء في وثائق الاتحاد الاشتراكي السوداني/ «ميثاق العمل الوطني» في ٢/ ١/ ١٩٧٢م. أقام نميري خلال فتره حكمه (١٩٦٩ – ١٩٨٥م) ثلاثة استفتاءات (تتطلب اختيار كلمة **نعم** أو **لا**)، أولها لاختيار أول رئيس للجمهورية. من ما كان ملاحظا على تلك الاستفتاءات أن صناديق «نعم» و«لا» كانت توضع بحيث يرى المشرفون على الانتخابات لأي صندوق يذهب الناخب. شهدت فترة حكم نميري أيضا عددا من انتخابات «مجلس الشعب» (أتى الكاتبان هنا بمرجع هو كتاب د/ منصور خالد الصادر عام ١٩٩٠م The government they deserve). اعتمدت تلك الانتخابات على توزيع الشعب لقطاعات «قوى الشعب العامل» والقطاعات المهنية كالأطباء البيطريين والمهندسين والمحاسبين وغيرهم. فمثلا في عام ١٩٨٠م تم انتخاب ممثل للاقتصاديين بأصوات ٧٣٢ فردا منهم ٥٨٦ في الخرطوم وحدها!

تمت الإطاحة بنميري في (أبريل) من عام ١٩٨٥م بثورة شعبية، وعاد السياسيون والإداريون للانتخاب عن طريق الاقتراع السري. قبيل انتخابات ١٩٨٦م اختلفت الأحزاب السياسية كثيرا حول النظام الذي يجب اتباعه في هذه الانتخابات، واستقر الرأي أخيرا على أن يتكون البرلمان من ٢٦٣ نائبا من الدوائر الجغرافية و٢٨ من دوائر الخريجين (هذه المرة يقصد بالخريجين الذين أكملوا عامين أو أكثر في المعاهد والجامعات)، وهم بحسب مقولة محمد أحمد سالم (أحد مسؤولي مفوضية الانتخابات) لصحيفة «الصحافة» يوم ١٠/ ٤/ ١٩٨٦م: «يمتلكون فهما سيا سيا أو سع (من غيرهم)». كانت مفوضية انتخابات ١٩٨٦م تتكون من ٣ أفراد أحدهم كان عضوا في مفوضية انتخابات ١٩٦٨م، وكعادتها انشغلت المفوضية الأخيرة بإصدار قرارات وتوجيهات لموظفيها (انظر ما قيل عن تلك التوجيهات فيما سبق أعلاه. المترجم).

قاطعت الحركة الشعبية انتخابات عام ١٩٨٦م بدعوى أن مطلبها للتفاوض حول مشكلة الجنوب وتقرير مصيره يجب أن يسبق قيام أي انتخابات. لم يجر أي تصويت في ٣٧ دائرة من ال ٦٨ دائرة المخصصة للجنوب، وظلت نسبة المصوتين في بقية الدوائر الجنوبية ضعيفة جدا، تماما كما كانت في الانتخابات السابقة (في انتخابات ١٩٨٦م كانت النسبة المئوية للمصوتين هي ٣٩٪ في الشمالية و ٣٥٪ في الخرطوم، بينما كانت النسبة هي ٦٪ في الاستوائية و٢٪ في أعالي النيل).

بقيت ذات المخالفات والانحرافات التي شابت الانتخابات النيابية السابقة في انتخابات عام ١٩٨٦م، وكثر منتقدوها. كان من أبرز هؤلاء هو الشريف الهندي (والذي صار وزيرا للخارجية في الحكومة التي تولدت عن ذات الانتخابات! المترجم).

وكما حدث من قبل، أطيح بالحكومة المنتخبة في يونيو ١٩٨٩م بانقلاب عسكري، وكالعادة أيضا لم يجابه ذلك حتى الآن.



اغتيال في الخرطوم

Assassination in Khartoum

كتاب بقلم: ديفيد أ. كورن David A. Korn

عرض : دانيال بابيرز Daniel Pipers

تقديم: هذا عرض لكتاب عنوانه «**اغتيال في الخرطوم**» بقلم الدبلوماسي الأمريكي السابق ديفيد أدولف كورن نشر في عام ١٩٩٣م عن حادثة اغتيال دبلوماسيين أمريكيين اثنين، وآخر بلجيكي في دار السفارة السعودية بالخرطوم في عام ١٩٧٣م بواسطة فلسطينيين ينتسبون إلى الفصيل المسمى «أيلول الأسود». هاجم هؤلاء الفلسطينيون السفارة السعودية أثناء حفل استقبال أقامته السفارة، وأمسكوا بالأمريكيين والبلجيكي كرهائن، وطالبوا بإطلاق سراح الفلسطيني/ الأردني (والمسيحي) « سرحان بشارة سرحان»، قاتل شقيق الرئيس الأمريكي جون كينيدي، المدعي العام والسيناتور والمرشح الرئاسي روبرت كينيدي (١٩٢٥ -١٩٦٨م)، والفلسطينيين المعتقلين في الأردن وإسرائيل. رفضت الحكومة الأميركية دفع أي فدية مقابل إطلاق سراح الرهائن (وقيل إن بلجيكا عرضت دفع فدية، ولكن دون فائدة)، وقتل الفلسطينيون الدبلوماسيين الثلاثة.

عمل ديفيد كورن (والمجيد للإنجليزية والعربية والفرنسية والعبرية) كدبلوماسي في عدد من البلدان منها المغرب ولبنان وإسرائيل وإثيوبيا وتوجو وغيرها، ونشر ما لا يقل عن ١٥ كتابا في مختلف الشؤون العالمية، منها هذا الكتاب الذي نترجم عرضه هنا. **المترجم**

قبل حلول الساعة السابعة مساءا بدقائق في يوم الفاتح من مارس ١٩٧٣م، انفض سامر حفل استقبال روتيني في السفارة السعودية بالخرطوم، عاصمة السودان. تفرق السفراء وهم يبحثون عن سائقي سياراتهم، وفجأة دوت في المكان أصوات زخات متتالية من الطلقات الرصاصية، وتحول مشهد المكان الهادئ لما يشبه ساحة الحرب. فجأة برز من بين ظلام أشجار السفارة ثمانية فلسطينيين ملثمين يتبعون منظمة سرية سموها «أيلول الأسود»، وهجموا على غرفة حفل الاستقبال الرئيسة، ومنعوا من فيها من الخروج. أجبروا الموجودين في الغرفة على تعريف أنفسهم وجنسياتهم، وعلى الجثو أرضا. بعد التعرف على جنسيات الدبلوماسيين بدؤوا في إطلاق سراح من أرادوا (وكانوا هم الغلبة)، وأبقوا على خمسة رجال فقط [هم أمريكيين (هما السفير **كليو ألان نويل**، والقائم بالأعمال **جورج كيرتس موور**، والذي كان ضيف الشرف في الحفل) وبلجيكي (قاي ايد)، وأردني (عادل الناصر)، وسعودي (هو السفير عبد الله الملحوق وزوجته وأطفاله) المترجم].

أعلن الخاطفون عن مطالبهم في منشور صغير كان معهم، وتلخصت المطالب في إطلاق سراح المعتقلين الفلسطينيين في الأردن (وكان بينهم أبو داؤد، زعيم فصيل «أيلول الأسود»)، والإفراج عن سرحان سرحان، قاتل روبرت كينيدي، من محبسه في كاليفورنيا، وتحرير «النساء الفلسطينيات في سجون إسرائيل».

بدأت بعد ذلك جولات محمومة من المفاوضات، استمرت لستة وثلاثين ساعة متصلة. وفي مساء اليوم الثاني (٢/ ٣/ ١٩٧٣م) أصدرت قيادة منظمة التحرير الفلسطينية نداء وأمراً (بثته عبر الراديو) للإرهابيين الخاطفين بإعدام الرهائن. جاء في النداء: «ماذا تنتظرون؟ إن دماء القتلى في نهر البارد تدعوكم للانتقام» . كانت كلمتا «نهر البارد» هما كلمتا السر (كود) لإعدام الرهائن. اختفت فيما بعد، ومن كل السجلات – وبصورة غامضة- كل تسجيلات ذلك النداء. يبدو أن من دعا المختطفين لقتل الرهائن كان هو ياسر عرفات – قائد منظمة التحرير الفلسطينية- شخصيا. بعد توجيهه لذلك النداء مباشرة، قام الخاطفون بتقييد الرهينتين الأمريكيتين، والقائم بالأعمال البلجيكي، وأوقفتهم مستندين لحائط في «البدروم»، وأطلقوا عليهم الرصاص على طريقة رجال العصابات، حيث أطلق المختطفون الثمانية الرصاص على جميع الرهائن في وقت واحد.

أما وأن المهمة قد انتهت بنجاح، فقد استسلم الخاطفون الثمانية للسلطات السودانية، ومرت شهور عديدة من المراوغة لم يقدم فيها الجناة للمحاكمة (لابد من تذكر أنه في بداية السبعينات لم يكن هناك من يجرؤ على إغضاب منظمة التحرير الفلسطينية). ولكن في نهاية المطاف انعقدت محكمة سودانية بتاريخ ٢٤ يونيو ١٩٧٤م قضت بسجن الجناة الفلسطينيين الثمانية بالسجن المؤبد. كان ذلك الحكم (العادل) مثيرا للإعجاب في الظاهر، بيد أنه كان في واقع الأمر حكما صوريا زائفا، إذ لم تمر ساعات على إصداره حتى أمر الرئيس السوداني نميري بتخفيض الحكم إلى سبعة أعوام، ولم يكتف بذلك، بل وضع الجناة في طائرة متجهة إلى القاهرة حيث رئاسة منظمة التحرير الفلسطينية حينها (ذكرت السلطات آنذاك أن المحكومين سيقضون مدة محكوميتهم في سجون منظمة التحرير الفلسطينية. المترجم). اختفى ثلاثة من الجناة، وما تركوا أثرا، بينما قضى الخمسة الباقون مدة محكوميتهم بعد خصم عدة شهور منها لحسن السلوك، ثم أطلق سراحهم جميعا – وكان مثل هذا الإجراء نادر الحدوث في البلدان العربية.

يقدم المؤلف في كتابه «اغتيال في الخرطوم» تقريراً وافياً ومثيراً عن ما حدث في تلك الأيام، وعن تداعياته، لاسيما وأنه قد لعب دوراً (صغيراً) في تلك الدراما. كان المؤلف قد عمل في منتصف الستينات تحت إمرة جورج كيرتس موور (القائم بالأعمال الأميركي، وأحد ضحايا حادثة السفارة السعودية)، وكان في ذلك اليوم المشهود من عام ١٩٧٣م يعمل في مركز العمليات بوزارة الخارجية الأميركية، ويبذل غاية جهده في سبيل تخليص زميليه الرهينتين في الخرطوم. لم تنجح بالطبع جهود الرجل، بيد أن تلك الحادثة ظلت محفورة في حافظته، وانقضت عشرون عاما قبل أن يقوم بنشر حوادثها، تخليداً لذكرى زميليه ضحيتي الإرهاب. لا يكتفي كتاب «اغتيال في الخرطوم» بذلك، بل يكتسب أهمية لم يكن للكاتب كورن أن يتوقعها. فمع توقيع اتفاقية السلام بين إسرائيل و منظمة التحرير الفلسطينية، أوضحت تحقيقات الكاتب الشديدة التدقيق، أهمية عدد كبير من الأسئلة حول منظمة التحرير الفلسطينية كمؤسسة، وطبيعة شخصية قائدها، وحول السياسة الأمريكية أيضا.

تعيد حادثة مقتل نويل وموور إلى الأذهان الحقيقة المؤلمة التي تقرر أن منظمة التحرير الفلسطينية قد أزهقت أرواح العديد من المواطنين الأمريكيين. لا يشير المؤلف لهذه النقطة بالذات، بيد أن اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ الأمريكي قامت في ١٩٨٦م بنشر وثيقة هامة عنوانها :«الفرص المتاحة للإجراءات الجنائية والمدنية ضد منظمة ياسر عرفات لتحرير فلسطين». توفر هذه الوثيقة قائمة تتضمن ما لا يقل عن ٤٢ حالة تعرض فيها مواطنون أمريكيون ما بين عامي ١٩٦٨ – ١٩٨٥م إلى هجوم من نوع ما على يد منظمة التحرير الفلسطينية. ربما كان قتل تلك

المنظمة للأمريكي العجوز المعاق جسـديا (ليون كلينقهوفر) في أكتوبر ١٩٨٥م، ورميه من على ظهر السـفينة الإيطالية «آشـلي ليرو» هو أحد أفظع تلك الحوادث الإرهابية التي قامت بها تلك المنظمة. وفي المقابل، كانت أكثر الحوادث التي فقدت فيها أرواح مواطنين أميركيين (وهي للغرابة حادثة لا يتذكرها الكثيرون) هي حادثة تفجير طائرة تي دبليو إي في سبتمبر من عام ١٩٧٤م فوق البحر الأيوني (يقع بين البحرين: الأبيض المتوسط والأدرياتيكي. المترجم) وهي في طريقها من تل أبيب إلى نيويورك. قتل في ذلك الحادث ٨٨ فردا. شـملت حالات الهجوم كذلك إرسال رسائل مفخخة للرئيس الأمريكي نيكسون واثنين من وزرائه (لم تصب أحدا من المقصودين بالطبع)، وقتل دبلوماسي في عاصمة الأردن، وتفجير قنبلة في مطار لوقان بمدينة بوسطن. بالطبع لم تتعرض قائمة اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ الأمريكي إلى كل الحوادث الإرهابية المنسوبة لمنظمة التحرير الفلسطينية، فهي كثيرة. نخلص من هذه الحالات إلى أن للأمريكيين مشكلتهم الخاصة مع منظمة التحرير الفلسطينية بصورة مستقلة عن إسرائيل. لا يأتي الكثيرون – للغرابة- على ذكر لهذه النقطة الهامة، بل نسمع عوضا عن ذلك من يقول من الأمريكيين: «إن كانت إسرائيل على استعداد للتفاهم مع منظمة التحرير الفلسطينية، فلم نقوم – نحن الأمريكيون- بعرقلة ذلك؟».

يتماهى هذا السؤال مع منطق (قد لا يخلو من غرابة) يسود بين الأمريكيين، ينظرون فيه لمصالحهم في الشرق الأوسط من خلال ما فيه الخير لإسرائيل. ليس هذا مستغربا بالطبع من أصدقاء إسرائيل من الأمريكيين المتعاطفين مع الدولة اليهودية، والمؤيدين لقضاياها، والمدافعين عنها. من الحقائق المذهلة أن الأمريكيين المعادين لإسرائيل هم أيضا ينظرون لسياسات الشرق الأوسط من خلال «منظار إسرائيل». فصاروا، وبحسب عبارة الدبلوماسي الأميركي جورج بول الشهيرة فإنهم «يودون إنقاذ إسرائيل رغما عنها». من أمثال هؤلاء السفير الأمريكي في سوريا (تالكوت إستيال) والمعروف بعدائه للصهيونية، والذي كان يجاهر بمعارضته لسياسات مناحم بيجن، ليس لأنها تضر بالمصالح الأميركية، بل لأنه يجد تلك السياسات « مناقضة لمصالح إسرائيل طويلة الأجل». بل أن نائبا أمريكيا هو «جون براينت» قدم لمجلس النواب قبل عدد من السنوات اقتراحا بوقف تقديم أي عون لإسرائيل، لأنه يرى في ذلك حماية لشعب إسرائيل من سياسية الليكود المتطرفة.

حاول بعض مناصري إسرائيل في أمريكا – دون كبير نجاح- توجيه اتهام لياسر عرفات، وتقديمه لمحكمة أميركية بتهم جنائية لدوره في مقتل الدبلوماسيين الأمريكيين في الخرطوم. قاومت الخارجية الأميركية هذا الاتجاه بدعوى أنه قد يكون لعرفات ورفاقه دورا في المستقبل في عملية تسوية ما بين إسرائيل والفلسطينيين. في هذه الحالة تغلبت الدعوة للحفاظ على سلامة إسرائيل على المصالح الأمريكية المباشرة الهادفة لحماية دبلوماسييها. كان هذا أمرا يفتقر للعقلانية. إن قوة عظمى كالولايات المتحدة يجب أن تشكل لنفسها سياساتها الخاصة في الشرق الأوسط. إن كان لإسرائيل أسبابها الخاصة للتغاضي عن تاريخ منظمة التحرير الفلسطينية الدموي، فإن ذلك لا ينبغي أن ينطبق أيضا علينا (أي الأمريكيين). إن تكرار تلك المنظمة للهجوم على الأمريكيين يؤكد أن لتلك المنظمة قضية معنا، ويستدعي الأمر منا الرد. لا ينبغي لنا أن ندع ياسر عرفات يقترب من شواطئنا، وينبغي ألا نخفف من الإجراءات المتخذة سلفا ضد منظمته. كل هذا يتسق مع حادث الخرطوم التراجيدي، ويراعي المصالح الأميركية.

وبالعودة إلى كتاب «اغتيال في الخرطوم»، فنقول إن هذه الدراسة (مثلها مثل غالب الدراسات عن شخوص أجنبية) تحكي لنا عن الجانب الأمريكي أكثر منها عن وجهة النظر الفلسطينية أو السودانية. نعرف الكثير عن الأمريكيين القتيلين، وعن شخصياتهما، بينما لا نعلم حتى أسماء قاتليهم. يمكن فهم هذا الميل في التناول، ولكن لا يمكن فهم السبب الذي صب من أجله الكاتب غضبه على الرئيس نيكسون وهنري كيسنجر (واللذين كلف إصرارهما على عدم القبول بالتفاوض مع المختطفين الدبلوماسيين حياتهما)، بينما لم يهاجم بذات القدر السودانيين (والذين استبعدوا خيار اللجوء إلى القوة من البداية)، ولا الأردنيين (والذين رفضوا الإذعان لشروط المختطفين لإطلاق سراح «أبو إياد» من سجنه الأردني، ثم أطلقوا سراحه بعد نصف عام!)، ولا الفلسطينيين (من قاموا بعملية القتل فعلا).

انتبه الكاتب لمفارقات ذلك الحادث التراجيدي... فالقتيل كيرت موور هو من المدافعين الأقوياء عن العرب، والمهاجمين لإسرائيل. لخص المؤلف رأيه في الموقف العربي الإسرائيلي: « أؤمن بأن للعرب مظالم مشروعة، وبأن إسرائيل تظلمهم بأكثر مما يفعلون هم بها». كذلك انتقد الكاتب الإسرائيليين ووصفهم بالغرور، وبانتهاج سياسة عنيفة ضيقة الأفق ومتطرفة في «القومية»/ «الوطنية».

من الغريب أن الإرهابيين العرب كثيرا ما صوبوا سهامهم نحو أصدقائهم من الأمريكيين المضادين لإسرائيل (وشمل ذلك كل الذين اختطفهم أو قتلهم العرب في لبنان من الأمريكيين).



لمحة من تاريخ اليهود في السودان
مقتطفات من كتاب «قاموس السودان التاريخي»

Historical Dictionary of the Sudan

نشـرت بعض سـطور مختصـرة عن تاريخ اليهود في السـودان في كتاب عنوانه «قاموس السـودان التاريخي» قام بتأليفه ريتشارد لوبان وروبرت كرامر وكارولين فلور لوبان، وصدر عام ٢٠٠٢م من دار نشر سكير كرو في الولايات المتحدة الأميركية. أ شار المؤلفون لكتاب «اليهود في الـسودان» للياهو سولومون ملكا Eli Solomon Malka والصـــادر في عام ١٩٧٩م ، ولعله أشـــهر ما كتب عن تاريخ اليهود في الســـودان (وترجمه مكي أبو قرجة للعربية عام ٢٠٠٤م)، ومن غنائم الشـبكة الإسـفيرية قد يجد الباحث عددا من المقالات عن هذا الكتاب وعن الأسـر اليهودية بالسودان منها مقال بالانجليزية لإبراهيم م. عمر عن الجالية اليهودية في السودان إبان الحكم التركي.

يحاط تاريخ اليهود في الســودان (ربما لأســباب دينية أو ســياســية أو غير ذلك) بكثير من الغموض والســرية والجهل، ولهذه الأسـباب رأيت أن أعرض في لمحة سـريعة بعضــا من تاريخ هؤلاء الناس في السـودان مما ورد في «قاموس الســودان التاريخي»، وهو كنز محتشــد بكثير من المعومات الموثقة والمختصــرة عن التاريخ والجغرافيا والسياسة والأدب في هذا البلد الواسع.

كان أول رحالة يهودي يصـل إلى السـودان بعد دخول الإسـلام هو ديفيد روبيني (حوالي ١٤٩٠ - ١٥٤٠م) وقد قام بتسـجيل مشـاهداته في رحلته تلك التي قام بها من سـاحل البحر الأحمر إلى سـنار ودنقلا في عام ١٥٣٠م. ما أن حلت أعوام نهايات القرن السـابع عشـر الميلادي حتى كان التجار اليهود من ضـمن مجموعات التجار الأجانب في سـنار. قدم للسـودان أيضـا يهود من بلاد السـلطنة العثمانية إبان حكم التركية السـابقة، وكانوا يعملون كممثلين تجاريين لبعض الشـركات المصـرية الطامحة للتوسـع جنوبا في أراضـي السـودان. وصـل بعض هؤلاء إلى الأبيض وا ستقر عدد منهم على وادي النيل وظلوا يتبادلون البيع والـشراء بين مـصر والـسودان. عمل قليل من الرجال اليهود الذين اسـتقروا في السـودان مع إدارة الحكم التركي، كان أبرزهم أمين باشـا (حاكم الاسـتوائية بين عامي ١٨٧٨ – ١٨٨٩م) والذي ولد لأبوين مـسيحيين تهودا ثم أ سلما، وأمين الرجل الـصيدلي، وفيتا حـسن (المتوفى في ١٨٩٣م). من أمثلة اليهود في السـودان أيضـا موشـي بن زيون كوشـتي (١٩١٢ – ١٩١٧م) والذي ولد بفلسـطين وعاش في السودان كممثل لشركة تجارية مصرية وظل يعمل بين الخرطوم والمسلمية حتى جاءت المهدية. عرف ذلك الرجل بأنه قام بتسليف الجنرال غوردون بعض المال لشراء الأغذية والمؤن أثناء حصار جيش المهدي للخرطوم بين عامي ١٨٨٤ – ١٨٨٥م. بعد سقوط الخرطوم تم القبض عليه وأمر بالدخول في الإسلام وغير المهدي شخصيا اسمه إلى موسـى بسـيوني. قضـى الرجل الثلاثة عشـر عاما التالية كبيرا لقومه من القاطنين في حي المسـالمة بأم درمان. عرف موسـى بسـيوني بقربه من الخليفة عبد الله، والذي كان يوليه ثقة كبيرة لدرجة أن زوجه بسـودانية (كغيره من رجال المسالمة) وسمح له بالسفر إلى شمال السودان بقصد التجارة في طوال سنوات حكمه. بعد سقوط حكم الخليفة على يد الغزاة البريطانيين والمصريين بقي بسيوني في أم درمان واحتفظ باسمه، وقام بتشييد معبد صغير ومقبرة يهودية.

عند احتلال البريطانيين لأم درمان في ١٨٩٨م وجدوا فيها ٣٦ يهوديا كان معظمهم من يهود العراق ومصر. عاد غالب هؤلاء إلى دينهم القديم، بينما بقيت قلة منهم على دين الإسلام مثل داؤود منديل (المتوفى في عام ١٩٠١م) وإسرائيل داؤود بينايمي (المتوفى في ١٩١٥م) ربما عن إيمان حقيقي بالإسلام، أو خوفا على وضع عائلاتهم الاجتماعي وأولادهم المولودين من زوجات سودانيات مسلمات.

تقاطر على السودان بعد ذلك عدد كبير من اليهود، خاصة من مصر، للعمل في مضمارهم المفضل ألا وهو التجارة في مجالي الاستيراد والتصدير، بينما عملت قلة منهم في مجال الصناعات الصغيرة وتصنيع الأغذية. تم الإعلان رسميا عن تكوين جالية يهودية في ١٩٠٨م بوصول الحاخام سولومون مالكا من مصر، والذي عمل ككبير الحاخامات إلى حين وفاته في عام ١٩٤٩م، بينما ظل موسى بسيوني (مؤسس أول معبد يهودي في أم درمان) كرئيس للجالية اليهودية حتى وفاته في ١٩١٧م.

بعد عام ١٩١٨م حولت الجالية اليهودية مركزها من أم درمان إلى الخرطوم حيث أكملت معبدها الجديد في عام ١٩٢٦م، ووفد على السودان عدد كبير من اليهود من مختلف أقطار الشرق الأوسط (وفيما بعد من أوربا) بقصد الاستقرار، وعملوا في مجالات المصارف و التجارة والتصنيع والتعليم والقانون والطب.

كانت حياة أفراد الجالية اليهودية في السودان (والذين بلغت أعدادهم حوالي ١٠٠٠ فرد بين الأربعينات والخمسينات) تدور حول المعبد والنادي الترفيهي اليهودي. كان معظم هؤلاء يقطنون العاصمة بمدنها الثلاث، وبعضهم سكن في واد مدني وبورتسودان. كان اليهود في السودان في العهدين الاستعماري والوطني يعدون أقلية مستوعبة وواثقة، بيد أن ثقتهم في الأوضاع تضعضعت بعد قيام دولة إسرائيل في عام ١٩٤٨م، وتزايد مشاعر العداء ضد الصهيونية في السودان وفي الدول العربية. وتضاعفت تلك المشاعر السالبة ضدهم بعد الغزو الفرنسي البريطاني الإسرائيلي لمصر في عام ١٩٥٦م. أدى كل ذلك لخروج اليهود من السودان واستقرارهم في أوربا وإسرائيل والولايات المتحدة، بيد أن عددا قليلا منهم آثر البقاء بالسودان، وكانوا لا يزيدون على عدد أصابع اليدين.

تم هدم العبد اليهودي بالخرطوم في عام ١٩٨٧م، بعد أن استولى مصرف سوداني على الأرض المقامة عليه ذلك المعبد في صفقة عقارية شابها بعض الغموض، وبذا أسدل الستار على وجود الجالية اليهودية بالسودان.



الطباعة في قرن: الصحافة العربية والحركة الوطنية في السودان (١٨٩٩- ١٩٩٩م)

A century in Print: Arabic Journalism and nationalism in Sudan, ١٨٩٩ -١٩٩٩

Heather J. Sharkeyهيثر شاركي

تقديم: هذا عرض وتلخيص مختصـر لمقال من نحو ٢٠ صـفحة صـدر في عام ١٩٩٩م في «المجلة الدولية لدراسات الشرق الأوسط » في عددها رقم ٣١ / ٤ للدكتورة هيثر شاركي عن تاريخ الصحافة الصادرة باللغة العربية في السودان بين عامي ١٨٩٩ و١٩٩٩م. والمؤلفة حاصلة على درجة البكالوريوس في علم الإنسان (الأنثروبولجي) من جامعة ييل الأميركية، ودرجتي الماجستير والدكتوراه من جامعتي درام البريطانية وبريستون الأميركية، على التوالي. تعمل الدكتورة شاركي الآن أ ستاذة م شاركة في ق سم ح ضارات ولغات ال شرق الأدنى في جامعة بن سلفانيا الأميركية ولها اهتمامات بحثية بشؤون الثقافة والسياسة والأديان والتداخلات بينها في مصر والسودان ودول أخرى. نشـرت المؤلفة كتابها الأول في عام ٢٠٠٣م عن «**العيش مع الاستعمار: الوطنية والثقافة في السـودان الإنجليزي المصري**»، وقد عرضنا لبعض أجزائه قبل سنوات. للتعرف على كامل سيرتها الذاتية يمكن الاطلاع على هذا الموقع:

http://www.sas.upenn.edu/~hsharkey/Home.html

ضمنت الكاتبة مقالها ٨٨ مرجعا في مو ضوع بحثها، مما يجعل هذا المقال م صدرا غنيا بالم صادر والمعلومات لمن أراد (أرادت) الا ستزادة في هذا المو ضوع. من أهم تلك المراجع كتاب محجوب محمد صالح عن ال صحافة السودانية في نصف قرن: ١٩٠٣ – ١٩٥٣م، والذي نشرته دار نشر جامعة الخرطوم في عام ١٩٧١م، وكتاب حسن نجيلة الشـهير «ملامح من المجتمع السـوداني» ،وكتاب محمد عمر بشـير «تطور التعليم في السـودان» الصـادر بالإنجليزية عام ١٩٦٩م، وكتاب عبد القادر حسنين «تاريخ الصحافة في السودان بين ١٨٩٩ -١٩١٩م» الصادر عن دار النهضة العربية عام ١٩٦٧م، وكتاب محمد سيد أحمد الحسن «شخصيات صحفية عرفتها» الصادر في ١٩٨٥م.. نذكر هنا أيضـا أن لبروفيسـور عبد الله حمدنا الله أطروحة للماجستير عن «المقال الصـحفي» قيل أنها **«أثارت جدلاً متعاظماً لجهة كونها انتهت إلى نتائج تخالف في بعض جوانبها بعضاً مما ا ستقرَّ عند مؤرخي الصحافة السودانية من الوطنيين والأجانب.»**

أكملت الصـحافة العربية في السـودان في عام ١٩٩٩م قرنا من الزمان، إذ أن حكومة العهد الثنائي (والذي سـيطر البريطانيون فيه على مقاليد الأمور) قامت وبعد عام واحد فقط من هزيمتها للحكم المهدوي في السـودان في عام ١٨٩٨م بإصـدار جريدة رسـمية (Gazette) تصـدر باللغتين العربية والانجليزية. وبعد أربعة سـنوات من ذلك التاريخ أن شأ صحفيون لبنانيون أول صحيفة م ستقلة في المنطقة موجهة أ سا سا للم صريين واللبنانيين العاملين في خدمة الحكومة ال سودانية الجديدة. أ شعل وجود أولئك الأجانب من العرب حماس المتعلمين في شمال ال سودان، والذين بدؤوا بعد صـدور الصـحيفة بسـنوات قليلة في الكتابة لها والاشـتراك فيها. غدت الصـحافة بعد ذلك بوتقة للوطنية عند الشـماليين المتعلمين الناطقين بالعربية، فصـاروا – في البدء - يسـتوحون إلهامهم من القصـائد والمقالات المصرية التي يعاد نشرها في صحف السودان، ثم بدأوا يدخلون عبر مقالاتهم رسائل اجتماعية «عصرية» عن التعليم والتقانة والتقدم. ما لبثت النقاشات حول «الوطنية المصرية» أن تسللت إلى الصحف السودانية، مقرونة

بما كان يدور من نقا شات مع الموظفين المصريين حول «الوطنية» في البلدان المستعمرة. بلغت تلك النقا شات ذروتها في أخريات العشـرينات وبدايات الثلاثينات من القرن الماضـي حين بزغت بصـورة واضـحة معالم الأدب والهوية الوطنية السودانية القائم على أسس عربية وإسلامية.

الصحافة والصحف بين ١٨٢٠ – ١٩٢٠م

غزا محمد علي با شا الجزء الشمالي من السودان (الحالي) وضمه إلى الإمبراطورية المصرية- التركية في ١٨٢٠م. وخلال سـنواته السـتين التي حكم فيها البلاد جلب مطبعة حجرية إلى الخرطوم لطباعة الدفاتر والوثائق الحكومية. صـادر المهدي تلك المطبعة بعد انتصـاره على الترك واسـتغل ما تبقى فيها من ورق في طباعة الراتب والمكاتبات الرسـمية. لم تدخل للسـودان أي مطبعة بعد ذلك حتى عام ١٨٩٩م حين أحضـر البريطانيون معهم مطبعة عربية متحركة متابعة للتقليد الذي سنه نابليون في مصر والأتراك في السودان، واستخدموها في طباعة القوانين والسياسات وكل الأمور البيروقراطية الأخرى من خلال الجريدة الرسمية التي بدأت في الصدور في عام ١٨٩٩م واستمرت حتى نهاية عام ١٩٨٩م.

دخلت بعد ذلك الصحافة التجارية للسودان عن طريقة ثلاثة لبنانين (هم فارس نمر ويعقوب صروف و شاهين ماكراييس) كانوا قد مهدوا الطريق من قبل للصحافة العربية في لبنان ومصر، فأنشأوا «المقتطف» و«المقطم». ولما كانت «المقطم» في مصـر تتبع سـياسـة تمالئ البريطانيين فقد وافق لورد كرومر (حاكم مصـر الفعلي بين ١٨٨٣ – ١٩٠٧م) على السـماح لأصـحابها بإصـدار أول صـحيفة في السـودان في ٢٨ سـبتمبر من عام ١٩٠٣م وكان اسـمها «السودان». كانت تلك الصحيفة ذات الصفحات الأربع تصدر مرتين في الأ سبوع، وتباع فقط للمشتركين الذين يدفع كل منهم ا شتراكا سنويا يبلغ ٦٠ قر شا، وتطبع على ورق بوا سطة مطبعة متحركة تعمل بطاقة البخار حتى عام ١٩١١م حين صـارت المطبعة تعمل بالكهرباء. كانت الصـحيفة تحصـل على الأخبار العالمية من وكالة رويترز تلغرافيا من القاهرة، وعلى الأخبار المحلية من مندوبين لها في مختلف المصـالح الحكومية، وكانت تنشـر أحيانا مقالات سبق نشرها في «المقطم» أو تنشر مقالات إرشايدة في مجالات الزراعة وتنشر أحيانا قصائد شعرية.

اعتمد توزيع «السـوداني» على خدمات البريد والتي توسـعت خلال سـنوات الحكم الثنائي الأولى، وكذلك على وجود الطرق المعبدة والسكك الحديدية والبواخر. كانت تلك الصحيفة تنشر رسائل تزعم أنها من القراء بينما تعتقد الكاتبة أن بعضها رسائل مفبركة يكتبها محررو الصحيفة نفسها، وتنشر لبعض الموظفين مقالات بأسماء مستعارة إذ أن الحكومة كانت تحرم على الموظفين الكتابة في الصحف، ولكنها كانت تشجع تلك الصحيفة الأولى على اعتبارها و سيلة مهمة لنشر أخبار الحكومة، خا صة عندما قامت «السوداني» بإ صدار صفحتها الرابعة باللغة الإنجليزية، مما وسع من دائرة قرائها، وكافأت الحكومة أصحاب الصحيفة بمنحهم حق طباعة بعض المنشورات والتقارير السنوية الحكومية. لم تكن «السودان» لتستمر في الصدور لولا ذلك العون الحكومي السخي، وذلك لارتفاع تكلفة الإصدار وشح الدخل من الاشتراكات والتي كانت قليلة بسبب ارتفاع مستوى الأمية بالبلاد. الجدير بالذكر أن نسبة الأمية في السـودان بين الذكور حتى عام ١٩٣٩م كانت تفوق ٩٩٪، بينما بلغت تلك النسـبة قرابة ١٠٠٪ وسـط النسـاء، وأن مصففي الحروف في تلك الصحيفة الأولى كانوا من الأميين! تجنبت الصحيفة الإفلاس فيما أقبل من سنوات بفضل العقود التي أبرمتها الصحيفة مع المصالح الحكومية والإعلانات التي بدأت في الظهور في الصحيفة.

في عام ١٩٠٨م انشـأ رجال أعمال بريطانيون وأغاريق ولبنانيون وأرمن «غرفة الخرطوم التجارية»، وبعد عامين من ذلك أ صدرت تلك الغرفة مجلة شهرية (صارت سنوية فيما بعد) أ سموها «مجلة الغرفة التجارية الـ سودانية» باللغتين العربية والانجليزية، وكانت تختص فقط بأخبار المال والأعمال والسلع والمحا صيل كالسمسم والصمغ العربي في الـ سودان، ولم تكن تنـ شر أي مقالات، ولم تبدأ في نـ شر «افتتاحيات» إلا في الثلاثينات. أنـ شأ رجال الأعمال السـودانيون في عام ١٩١١م غرفة تجارية موازية لتلك التي أنشـأها الأجانب في السـودان، وأصـدروا – وبصـورة متقطعة– نشـرة إعلامية بالعربية عن غرفتهم، قبل أن ينضـموا للغرفة التجارية الأقدم في البلاد. ثم صـدرت في عام ١٩٢٨م صـحيفة اسـمها «التجارة السـودانية» تهتم أسـاسـا بأمور التجارة والمال عند القطاع التجاري السـوداني. سـرعان ما توقفت تلك المطبوعة وبعد عامين (١٩٣٠م) صـدرت مطبوعة أشـمل هي «مجلة الغرفة التجارية السودان» وازدادت أعداد المشتركين فيها مع زيادة أعداد رجال الأعمال السودانيين وازدهار تجارتهم.

أنشأ تاجران إغريقيان مطبعة تجارية ثانية في السودان اسماها «مطبعة فيكتوريا» لطباعة صحيفة باللغتين الإغريقية والإنجليزية صدرت في عام ١٩١١م با سم «The Sudan Herald»، وأتبعوها بعد عامين بـ صحيفة عربية كانت تنشـر الأخبار والتعليقات وأخبار الأدب والأدباء وصـدرت في ٤/ ١/ ١٩١٣م باسـم «رائد السـودان». وضـمانا لتوزيع عال، خفـ ضت الـ صحيفة قيمة الا شتراك إلى النـ صف للعلماء والمدر سين والطلاب والعمد (أيـ ضا) فـ صار الاشتراك ٢٥ قرشا سنويا. كان الإقبال على تلك الصحيفة كبيرا نسبة لنشرها ما تجود به قرائح السودانيين من قصائد شعرية، ولتنظيمها مـ سابقات وجوائز لـ شعراء أفـ ضل القـ صائد، وكما ذكر حـ سن نجيلة في كتابه الـ شهير «ملامح من المجتمع السوداني» كان واحدا من تلك المسابقات عن تشطير قصيدة شوقي بمناسبة هبوط أول طائرة تركية يقودها مسلم في القاهرة عام ١٩١٤م (والتي قال فيها: «يا أدرميدُ ألا طيري مبلغةً *** رسائل الشوق من عمروٍ إلى عمرِ») وقصـائد شـعراء آخرين مثل محمود سـامي البارودي وحافظ إبراهيم. كانت تلك الصـحيفة تنشـر أيضـا مقالات لـ سودانيين يكتبون عن البعث الحـ ضاري الإ سلامي، وعن محاربة الخرافات والعادات «غير الإ سلامية» والـ ضارة (مثل الختان الفرعوني) وعن عروبة السودان. وبعد عشرين عاما ظلت نفس هذه المواضيع تشغل بال القراء (مثل ما نشره في عام ١٩٣١م أحدهم في صحيفة «النهضة» تحت اسم «ابن السودان» من مقالات عن شرب الخمر (المريسة تحديدا!) والميـ سر والـ شلوخ والختان الفرعوني والمـ شاط (لا تزال الـ صحف تكتب وإلى يومنا هذا عن مـ ضار ختان البنات!!!).

غضب حكام السودان من البريطانيين على الصحافي اللبناني عبد الرحمن قليلاتي محرر«رائد السودان» وطردوه من البلاد لنـ شره مقالا في عام ١٩١٣م عن المجاعة التي ضربت البلاد وا ضطرت الـ سلطات لا ستيراد الذرة من الهند، فكتب مقالا عنوانه بيت الشـعر المشـهور: « تموت الأسـد في الغابات جوعا ولحم الضـأن تأكله الكلاب» وفهم البريطانيون أنه يقصدهم نسبة لحياتهم المرفهة التي لم تتأثر سلبا بالمجاعة. بعدها أغلقت تلك الصحيفة أبوابها. كان ذلك أول مثال لتغول السـلطات على حرية الصـحافة السـودانية، وأوضـح ذلك المثال ضـرورة محافظة الصـحف السـودانية على «علاقة طيبة» بالسـلطات الحاكمة لضـمان اسـتمرارية صـدورها (وهو أمر ما زال سـاريا حتى يومنا هذا... فتأمل!).

قبل إغلاق «رائد الســودان» بقليل انضــم لها حفيد الإمام المهدي حســين شــريف (١٨٨٨ – ١٩٢٨م) كأول صحافي سوداني. كان حسين شريفا محبا للصحافة شغوفا بها، إذ كتب في عام ١٩١١م (ودون التعريف باسمه كاملا) خطابا إلى محرر «السودان» طالب فيه بصدور صحيفة تحتفي بأعمال الكتاب والشعراء السودانيين، وظل يردد بأن بلدا بلا صحافة مثل قلب ليس له لسان، وأتبع القول بالعمل فأصدر صحيفة أسبوعية اسماها «حضارة السودان» في ١٩١٩م (قيل أن ملاكها الأوائل هم عبد الرحمن المهدي ومحمد الخليفة شريف وعثمان صالح وعبد الرحمن جميل وحســن أبو، ثم انتقلت ملكيتها بعد عام إلى الســيد عبد الرحمن المهدي والســيد علي الميرغني والشــريف حســين الهندي)، وكتب عن «الخدمة الوطنية الجليلة» التي ســتقدمها تلك الصــحيفة عبر تركيزها على القضــايا الاجتماعية وتطوير المجتمع والتعليم وغير ذلك. ساهمت تلك الصحيفة في حشد الجهد الشعبي لإكمال جامع أم درمان الكبير وإدخال صــنابير المياه النظيفة للبيوت في أم درمان وإنشــاء جمعيات خيرية لفتح مدارس أهلية ولمســاعدة الطلاب المعوزين. نجحت حملة «حضارة السودان» في جمع ما يلزم من مال لبناء وافتتاح المدر سة الأهلية الأولى في أم درمان في ١٩٢٦م، وكان لذلك الحدث أهمية كبرى في حينه لازدياد شــغف الآباء بتعليم أبنائهم تعليما أكاديميا «عصــريا» وليس تعليما حرفيا (ولا يزال هذا هو ديدن الآباء والأمهات حتى الآن!).

عانت «حضــارة الســودان» من مصــاعب مالية كادت تؤدي لإغلاقها في عام ١٩٢٤م لولا منحة مشــروطة من الحكومة أنقذتها من وهدتها المالية، ولكنها أفقدتها اســتقلالها عن الحكومة، وظل الســيد عبد الرحمن (وهو ثالث ثلاثة من ملاك الصحيفة) هو المهمين على سياسة الصحيفة وتوجهاتها، وهو من جعل الصحيفة تنادي بشعار حزب الأمة (والأنصــار) الرافض للاتحاد مع مصــر والمنادي بأن يكون «الســودان للســودانيين».، وهذا مما حبب تلك الصحيفة للبريطانيين أيضا. لعل ذلك مما أ شعل جذوة الصراع بين الطوائف المنافسة مثل طائفة الختمية، خا صة بعد قيام الأحزاب السيا سية في ١٩٣٨م. بحسب ما ذكره البروفيسور حمدنا الله عبد الله في مقابلة مع «أوراق جديدة» في ٣/ ١١/ ٢٠١١م فإن شعار «السودان للسودانيين» أسبق تاريخيا من شعار «الوحدة مع مصر» حيث أنه قد ورد في مقالة لمحمود القباني في عام ١٩٠٣م بعنوان« السودان للسودانيين لا للشيخ شاكر وصهره»!

سنوات الرقابة ١٩١٩ – ١٩٢٤م:

لم يصــدر في الســودان قانون للصــحافة حتى عام ١٩٣٠م، بيد أنه كانت هنالك نظم ولوائح صــارمة (تستند على الأحكام العرفية السائدة في البلاد منذ «ا ستعادة السودان») تقضي بضرورة انصياع الصحف لرقابة قسم المباحث. وبعد الحرب العالمية الأولى ازدادت الرقابة على الصــحف الســودانية تشــددا بعد ازدياد المشــاعر الوطنية المعادية للا ستعمار في مصر، والتي كان البريطانيون يخشون من تأثيرها على الصحافة السودانية وعلى السودانيين. لما كانت اللغة العربية تقف عائقا أمامهم، فقد نصــبوا بعض المســيحيين اللبنانيين كرقباء على الصــحف، ليس فقط بســبب إجادتهم للعربية، بل لحيادهم التام تجاه ثقافة أهل مصر والسودان.

شهد عام ١٩١٩م مظاهرات و صدامات في مصر ضد المستعمر البريطاني، واغتيل السير ا ستاك في مصر عام ١٩٢٤م، وأدت الصراعات التي حدثت في البلاد بين عامي ١٩١٩ – ١٩٢٤م لإيقاف صحيفة «السودان» المملوكة لرجل لبناني. في المقابل ســلمت «حضــارة الســودان» من الإيقاف بســبب وقوفها إلى جانب البريطانيين (وضــد المصريين) في أحداث عام ١٩٢٤م، إذ وقع مناصرو بريطانيا من السودانيين على بيانات نشرتها «حضارة السودان»

تحض على تأييد بريطانيا مع مصـر، فكافأتها الحكومة بإسـقاط ديونها المتراكمة، وابتاعت لها مطبعة، ووعدتها بعون سنوي منتظم يغطي كل خسائرها.

كانت سنوات ١٩٢٤ – ١٩٣٠م عصيبة على الصحافة السودانية، إذ شددت عليها الرقابة، وظلت المطبوعات المصـرية المعادية لبريطانيا مثل «البلاغ» و«السـياسـة» تجتذب أعدادا كبيرة من متعلمي شـمال السـودان مما دعا الإدارة البريطانية للتشدد في دخولها البلاد، بل وحظر تداولها بالكلية في كلية غوردون التذكارية.

الدعوة لأدب «سوداني»:

لعل مسـاعد المأمور حمزة الملك طمبل (١٨٩٧ -١٩٥١م) كان أول من فكر في الدعوة لأدب سـوداني الهوية. فقد نشـر ذلك الأديب عدة مقالات في «حضـارة السـودان» في عام ١٩٢٧م نبه فيها إلى ضـرورة وجود «أدب عربي سوداني»، وحض رفاقه من الكتاب والشعراء على تناول موضوعات « سودانية» في منتوجهم الأدبي. ولد الداعي ل « سودنة» الأدب العربي في السودان، للغرابة، في أسوان بمصر لعائلة أصلها في أرقو، ونشأ وهو يتحدث بالنوبية وليس بالعربية. لذا فإن طمبل يجسد بحق حالة «السيولة» التي اعترت الهويتين «السودانية» و«المصرية» في ذلك الوقت، خاصة بين العائلات التي كانت تعيش حول الحدود بين الدولتين.

أغضبت الدعوة ل«سودنة» الأدب بعض المتحمسين للعربية الذين يحسبون أنفسهم «عربا» وليسوا «سودانيين»، فكلمة « سوداني» في تلك السنوات كانت لها ظلالا سالبة تشير إلى أصل جنوبي أو مسترق. كان للمعترضين على دعوة طمبل أيضا رأي سالب يتعلق بدعوته لسودنة الأدب في وقت كانت المطالبة بالاتحاد مع مصر عالية الصوت والتأثير.

النهضة والفجر والوطنية «السودانية»:

في عام ١٩٣٠م أعلنت الحكومة عن أول قانون للصـحافة في السـودان ينظم توريد وبيع وتوزيع المطبوعات في البلاد، ويشترط على الناشرين الحصول على تصريح للصحيفة ولمن سيعمل فيها من المحررين، وأن يقدم نسخة من كل عدد يصدر من الصحيفة ليراجع في قسم المخابرات، وأن يدفع ضمانة «أمنية»، ويقدم معلومات عن من يكتب في الصحيفة إن طلب منه ذلك.

ظهرت في بداية الثلاثينات صحيفتان هما «النهضة» لصاحبها محمد عباس أبو الريش (وهذه لم تعمر سوى عامين من ١٩٣١ -١٩٣٢م) و«الفجر» والتي ظهرت بصـورة متقطعة بين ١٩٣٤ – ١٩٣٧م وكان رئيس تحريرها عرفات محمد عبدالله. كان المحرران من شـباب خريجي كلية غوردون، وتوفي الأول عن ٢٧ عاما والثاني عن ٣٩ عاما، وعزت المؤلفة (ربما دون دليل) وفاتهما المبكرة لما بذلا من جهد خارق وعمل شاق في إصدار الصحافة لا بد أنه أضر بصحتهما.

أدخلت الصحيفتان أبوابا جديدة لم تكن معهودة في الصحافة السودانية وقتها مثل نشر قصص ومسرحيات قصيرة ومقالات نقدية، كلها تعبر عن روح وطنية سودانية جديدة، خا صة وأن غالب قراء الـ صحيفتين كانوا من الموظفين السودانيين من خريجي المدارس الحكومية الذين حلوا محل الشوام والمصريين الذين طردوا بعد حوادث ١٩٢٤م. نشرت الصحيفتان أيضا مقالات طبية وعلمية عديدة، وأخرى اجتماعية عن الزواج والمرأة وحقوقها وواجباتها.

من أشهر من كتاب «النهضة» و«الفجر» المهندس والمحامي والشاعر والسياسي محمد أحمد المحجوب (١٩٠٥ – ١٩٧٦م)، والذي كتب عدة مقالات تدعو لتقوية العصبية للوطن وللغة والثقافة العربية (والشعر القومي)، و(إعادة) كتابة تاريخ السودان وتلقينه للنا شئة من شباب السودان. كان هنالك أيضا كاتب مغمور أر سل من كادقلي لصحيفة «النهضة» في عام ١٩٣١م قصة غرامية قصيرة تدور أحداثها في فرنسا، بينما نشر طالب في كلية غوردون قصة عن عائلات أرستقراطية تدور أحداثها في الإسكندرية. نبه عرفات محمد عبد الله من ير سل له أعمالا للنشر بأن يتوخى الواقعية المحلية، خا صة في الأمور العاطفية بين الرجل والمرأة، وأتبع النصح بالعمل، فنشر هو قصة قصيرة من أعماله بعنوان «المأمور» عن موظف كبير متزوج من قريبة له اتخذ لنفسه زوجة حبشية ثانية رغم حب وإخلاص زوجته السودانية له.

ظهور الصحافة اليومية بين عامي ١٩٣٥ – ١٩٤٥م:

ظهرت في عام ١٩٣٥م صحيفة منافسة لصحيفة «الفجر» الأسبوعية هي الصحيفة اليومية «النيل» والتي استحوذ السيد عبد الرحمن المهدي على غالب أسهمها، وبالتالي غدت هي صوت «المهدية الجديدة». يعتقد بعض المؤرخين أن فكرة إصدار صحيفة النيل لم تأت من السيد عبد الرحمن بل أتت من رجل أعمال و صحفي مصري اسمه حسن صبحي (وقد ذكرت المؤلفة لهذه المعلومة مرجعا واحدا باسم واحد هو بابكر مؤلف كتاب «الصحافة والسياسة في السودان دون ذكر سنة الإصدار، ولعله دكتور يوسف عمر بابكر، أستاذي في المدرسة الثانوية، والذي قدم رسالته للدكتوراه من جامعة أدنبرا عام ١٩٧٩م عن «حركة الفجر» وموقعها في الأدب السوداني الحديث»). عندما طلب حسن صبحي من الحكومة السماح له بإصدار «النيل» اختارت له الحكومة مجموعة من رجال الأعمال كملاك للصحيفة منهم أغريقي وبريطاني ومصري وأضافت لهم السيد عبد الرحمن المهدي. ترأس حسن صبحي تحرير تلك الصحيفة لعدة أعوام نجح خلالها من التقليل من تأثير مد «المهدية الجديدة» فيما ينشر فيها. وفيما أقبل من سنوات غدت «النيل» صحيفة شعبية تطبع ما يزيد على ٢٥٠٠ نسخة (ولم يكن ذلك مألوفا في تلك الأيام، علما بأن الصحيفتين الأقدم «الفجر» و«حضارة السودان» لم تكونا توزعان أكثر من ١٥٠٠ – ١٧٠٠ نسخة بين عامي ١٩٣٥ و ١٩٣٨م). رغم توزيعها العالي فقد تعرضت «النيل» لمصاعب مالية جمة تجاوزتها بفضل العون المالي السخي الذي كانت تتلقاه من السيد عبد الرحمن المهدي ومن إعلانات الحكومة ومنحها المجانية أيضا.

ومع عقد الاتفاقية بين بريطانيا ومصر في عام ١٩٣٦م وقيام مؤتمر الخريجين بعد عامين من ذلك، وبدء تكوين الأحزاب في عام ١٩٤٣م، نشط كتاب الصحف و صحيفتي «النيل» و« صوت السودان» على وجه الخصوص في الخوض في الصراعات الطائفية والكتابة السياسية بعد أن تمايزت صفوف دعاة «المهدية الجديدة» المنادين بشعار

«السودان للسودانيين» من صفوف الختمية ومن يناصرهم الذين كانوا يدعون للوحدة مع مصر. وفي عام ١٩٤٣م أنشأ السيد عبد الرحمن صحيفة «السودان الجديد» برئاسة الصحفي (المهدوي الهوى رغم عشقه لمصر وأدبها) أحمد يوسف هاشم، وبعد عام من ذلك أنشأ ذات السيد صحيفة «الأمة» لسان حال حزب الأمة لمجابهة «صوت السودان» صحيفة الختمية التي أنشأها وظل يمولها السيد علي الميرغني منذ عام ١٩٤٠م.

ظهرت في عام ١٩٣٩م صحف «محايدة» منها صحيفة «المؤتمر» الصحيفة الشهرية (والأسبوعية فيما بعد) حاولت النأي بنفسها عن الصراعات الطائفية، ودعت للمصالحة الوطنية. لم يعجب ذلك كثير من القراء الذين كانوا يؤثرون المقالات المثيرة والحماسية في تأييد أو معارضة هذه الطائفة أو تلك، فلم يقبل الناس كثيرا على صحيفة «المؤتمر» حتى أدارت ظهرها للحياد وساندت الاتحاديين من «الأشقاء». بيد أن هنالك من الصحف من التزم جانب الحياد ونجح في الاحتفاظ بعدد معقول من القراء. من تلك الصحف كانت الأبرز الصحيفة الإقليمية «كردفان» (التي كانت تهتم بأخبار كردفان ودارفور) وصحيفة «الرأي العام» لمحررها المحاسب الغردوني إسماعيل العتباني (والتي لا أزال أذكر وصف محمد يحيي عبد القادر له في كتاب قديم له عن «شخصيات السودان» صدر قبل نحو نصف قرن أو يزيد بأن كتاباته: «لا تغضب ولا تعجب»!). كانت للعتباني محاولات صحفية في بداية الثلاثينات عندما نشر في «النهضة» مقالا عن « صوت الشباب»، ثم عمل رئيسا لتحرير « صوت السودان» بين عامي ١٩٤١ – ١٩٤٤م. أنشأ العتباني صحيفته المستقلة– بحسب ما ورد في مقابلة له مع الكاتبة في عام ١٩٩٥م– بعون شعبي من المتعلمين السودانيين حيث دفع بعضهم اشتراكات عدة سنوات مقدما، بينما تبرع بعضهم بالعمل مجانا في الصحيفة كمحررين ومحاسبين، وجاد عليه تاجر كبير – لم يسمه- بمكتب للصحيفة.

تطور الصحافة بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٩٩م:

بدأ المهتمون بالتعليم في السودان في أربعينات القرن الماضي يدركون أهمية المطبوعات الصحفية كوسيلة تعليمية. وقبل ذلك كان ا ساتذة وطلاب كلية غوردون قد بدأوا في عام ١٩٣٣م في إ صدار مجلة أدبية تـ سمى «مجلة كلية غوردون». وبعد عقد من الزمان أنشأت مصلحة المعارف مكتبا للنشر لتركيز التعليم ومواصلته عند من هجروا مقاعد الدراسة باكرا. أصدر ذلك المكتب المجلة الشهيرة «الصبيان» والتي كانت تباع في المدارس والمكتبات وأكشاك الصحف والمجلات. كانت لتلك المجلة صفحات للقصص والرسومات الملونة والفكاهة (مثل «عمّك تنقو»، وليس «عم تنقو» كما ذكرت المؤلفة) وأيضا صفحتين مخصصتين للبنات عن أمور الطبخ والخياطة. وبحسب ما جاء في كتاب قريفث الصادر في عام ١٩٥٣م الموسوم : «تجربة في التعليم» بلغ من شغف الصغار والكبار بشخصية «عمّك تنقو» أنه عندما أبرزت المجلة في أحد الأعداد أنه توفى، انهمرت عليها قصائد الرثاء من كثير من القراء ومنهم شاعر شهير. بلغ توزيع «الصبيان» في الخمسينات ٢٠٠٠٠ نسخة، بينما لم يتعد توزيع صحف كبرى مثل «الرأي العام» و« صوت الـسودان» و«الـسودان الجديد» حتى عام ١٩٥٦م ٤٠٠٠ نـسخة لكل صحيفة. يذكر أن نسبة الأمية في ذلك العام كان قد انخفض إلى ٧٧٪ عند الذكور و٩٤٪ عند الإناث (بينما كانت نسبة الأمية في السودان حتى عام ١٩٣٩م كما ذكرنا آنفا بين الذكور تفوق ٩٩٪، بينما بلغت تلك النسبة قرابة ١٠٠٪ وسط النساء) وهذا ما زاد من توزيع المطبوعات وسط السكان العاديين (وليس المثقفين فقط). وبحلول عام ١٩٦٧م

كانت هنالك العديد من المجلات المتخصصة في مواضيع مختلفة مثل الرياضة والدين وشؤون المرأة والشباب وغير ذلك (لسبب ما أغفلت الكاتبة ظهور مجلة «بنت الوادي» في عام ١٩٤٦م، و« صوت المرأة» في عام ١٩٥٥م، ثم مجلتي «القافلة» و«المنار» في العام ١٩٥٦م، و«حواء الجديدة» في عام ١٩٦٩م و«المرأة الجديدة» في عام ١٩٧٤م و«نساء السودان» في عام ١٩٧٤م. لمزيد من المعلومات عن الصحافة النسائية السودانية يمكن الرجوع إلى كتاب «الصحافة النسائية في السودان» لبخيتة أمين).

مثل ظهور الإذاعة السودانية (راديو امدرمان) في عام ١٩٤٠م والتلفزيون في عام ١٩٦٣م عنصر منافسة قوية للصحافة المقروءة في السودان، وترك أثرا سالبا – كما حدث في أقطار العالم المختلفة- على شعبيتها عند كافة السكان خاصة بين الأميين، علما بأن نسبة الأمية في السودان عام ١٩٩٥م بحسب إحصائيات منظمة اليونسكو بلغت أكثر من ٤٢٪ بين الذكور وأكثر من ٦٥٪ وسط الإناث.

تعرضت الصحافة السودانية لتغيرات عديدة مع تغير الأنظمة الحاكمة، خاصة في ظل الأنظمة العسكرية الديكتاتورية بين عامي ١٩٥٨ – ١٩٦٤م، و١٩٦٩ – ١٩٨٥م و١٩٨٩م إلى الآن. فعلي سبيل المثال عطل النظام العسكري الأول بقيادة إبراهيم عبود صحيفة «النيل» (أول صحيفة سودانية يومية) لنقدها سياسة الحكومة، وأمم النظام العسكري الثاني بقيادة جعفر نميري الصحف كلها في عام ١٩٧٠م. انتعشت سوق الصحف بعد الانتفاضة في عام ١٩٨٥م فظهرت نصف درزينة من الصحف الجديدة دفعة واحدة. وبعد الانقلاب العسكري بقيادة عمر البشير في ١٩٨٩م عادت الرقابة المشددة على الصحف مرة أخرى (وهي بحسب رأي المؤلفة تشابه الرقابة المشددة التي فرضها البريطانيون في بداية حكمهم الاستعماري للبلاد) وبقيت في البلاد خمس صحف سياسية فقط حتى عام ١٩٩٥م. عبر التربوي المخضرم سر الختم الخليفة (ورئيس وزراء السودان في أول حكومة ديمقراطية بعد سقوط نظام عبود) في مقابلة له مع الكاتبة في عام ١٩٩٥م عن حزنه وأسفه على اختفاء مجلات الأطفال التي كانت خير معين في القضاء على الأمية في الخمسينات وما بعدها.

اختتمت الكاتبة مقالها بالقول إن الصحافة السودانية اجتذب في العهد الاستعماري خير متعلمي السودان من كتاب وأدباء وأكاديميين وشعراء، وعملوا في الصحافة كمتفرغين، أو عملوا في الصحافة كهواة بينما ظلوا يمارسون أعمالهم الأصلية الأخرى. لعبت الصحافة السودانية دورا مهما في تنمية الوعي والشعور الوطني عند قطاع كبير من السودانيين رغم ارتفاع نسبة الأمية في البلاد. قسمت الكاتبة مراحل تطور الصحافة السودانية لأربعة أقسام:

١. من عام ١٩٠٣- ١٩١٩م حين بدأ أغاريق وبريطانيين ولبنانيين ومصريين في إنشاء صحف موجهة أساسا للجاليات الأجنبية في السودان ولقلة قليلة من متعلمي السودان مثل «السودان» و«مجلة الغرفة التجارية» وغيرهما.

٢. من عام ١٩١٩ – ١٩٣٥م غذت الصحافة السودانية في هذه الفترة (مثل «حضارة السودان» و«النهضة» و«الفجر») مبادئ الوطنية السودانية في أوساط شباب ومتعلمي السودان، وشجعت النشر في مجالات الأدب «السوداني» بضروبه المختلفة.

٣. من عام ١٩٣٥ – ١٩٥٦م انتعشت في هذه الفترة الصحف السودانية اليومية على حساب المجلات الأدبية، وانتعشت فيها أيضا كثير من الصراعات السياسية والطائفية.

٤. بعد عام ١٩٥٦م دخلت الصحافة السودانية مرحلة ما بعد الاستقلال. وفي هذه المرحلة مارست كل الأنظمة «الوطنية» (خاصة العسكرية منها) ذات الرقابة والتضييق الذي مارسه الحكم الاستعماري. تعتقد الكاتبة أنه ورغم انخفاض معدلات الأمية وازدياد أعداد القراء، إلا أن معدل الانتشار الجغرافي للمطبوعات قد تضائل جدا. فبينما كانت المجلات في العشرينات تصل إلى القراء في أبعد الأماكن في البلاد، لم تعد الصحف في السبعينات وبعدها تغادر الخرطوم، ربما لزيادة نسبة عدد السكان في العاصمة مقارنة مع سكان السودان على وجه العموم، أو لضعف وسائل الترحيل والاتصال (لا يخفى خطل هذا التفسير الأخير!).

قربت الصحافة المكتوبة السودان من العالم العربي، خاصة وأن مؤسسيي الصحافة السودانية كانوا من المصريين والسوريين واللبنانيين، والذين أدخلوا وغذوا فكرة «النهضة» في أذهان السودانيين، وجعلوا من اللغة العربية لغة وطنية/ قومية في سائر أنحاء البلاد ولعل هذا ما أثار حفيظة غير المتحدثين بالعربية من غير العرب وغير المسلمين (لم تتطرق الكاتبة إلى أن العربية هي اللغة المشتركة/ المتداولة الآن في جنوب السودان حتى بعد انفصاله عن السودان الشمالي!).

رغم أن مقال دكتورة شاركي يعد تلخيصا جيدا لمسيرة الصحافة السودانية في قرن من الزمان إلا أن الجزء الذي تناولت فيه الكاتبة تطور الصحافة بين عامي ١٩٤٥ – ١٩٩٩م جاء في نظري المتواضع ضعيفا جدا ومختصرا اختصارا مخلا، فتلك كانت أخصب سنوات الصحافة السودانية، ولا يجوز المرور عليها بتلك الخفة. كذلك لم تخصص الكاتبة - للغرابة- كبير عناية لتاريخ الصحافة النسوية السودانية، والحديث عنها ذو شجون، ويرتبط بالسياسة السودانية ارتباطا عضويا وثيقا.

يتضح من مقال الدكتورة أن تاريخ الصحافة السودانية ما زال مجالا خصبا لمزيد من الدراسات، خاصة في مجال الصحافة المتخصصة كصاحفة المرأة، أو تلك المرتبطة بالأحزاب والحياة السودانية، مثل «تاريخ الصحافة الإسلامية السودانية» أو «تاريخ الصحافة اليسارية في السودان» وغير ذلك من الموضوعات المتخصصة التي تنتظر البحث والتأليف.

الشكر موصول للكاتبة لمدي بنسخة من مقالها. **كاتب المقال**



ذكرى أيام امتحانات الشهادة في الإقليم الشمالي

إيان مارشال

تقديم :هذه محاولة ترجمة مختصرة لمقال كتبه مدرس اللغة الإنجليزية الأسكتلندي إيان مارشال عن أيام امتحانات الشهادة السودانية في مدرسة بعبري وأخرى بالغابة بشمال السودان. نشر المقال في مجلة « دراسات السودان» العدد رقم ١٨، والصادر في شهر أغسطس من عام ١٩٩٦م.

عمل السيد مارشال مدرسا في مدارس ثانوية عديدة في مختلف مدن السودان (مثل سنار وعبري وغيرهما)، وخرج من عمله بقصص ونوادر كثيرة، ثم عمل بعد مغادرته للسودان في مركز فيتنامي بمنطقة سري (من أعمال لندن). كتب ونشر بعض حكاياته عن فترته في شمال السودان في بعض المجلات المتخصصة في السفر والرحلات، وقمت بترجمة قليل من تلك الحكايات..

ذكر المؤلف أن الأسماء الواردة في المقال ليست هي الأسماء الأصلية. المترجم

أخذت حمى «الحصار» برقاب أساتذة المدرسة في ميز المدرسين بعبري. ملأ أستاذ عبد الرحيم، ذلك الرجل الخلوق دمث الأخلاق، الفراغ تحت سريره بزجاجات المولوتوف الحارقة، بينما جلب أستاذ محمود – القادم من الدامر- سيخة حديد طولها ثلاثة أقدام دسها بحرص تحت مرتبة سريره، قريبة من متناول يده.

كان منشأ تلك «الاحتياطات الأمنية» في أوساط زملائي شائعات بغيضة صدرت من داخليات الطلاب. كانت امتحانات الشهادة السودانية قد دخلت يومها الثاني، وكان طلابنا في غاية الضيق والغضب. كانوا قد جلسوا لأول امتحان، وكان في مادة التاريخ، وكان في ظنهم أن المراقبة ستكون ضعيفة متساهلة. خاب ظنهم، فلم تمر عشرة دقائق على بدء الامتحان حتى تم القبض على أحد الطلاب وهو يغش.

أعقب ذلك اكتشاف عدد من حالات الغش بين عدد من الطلاب، وتمت مواجهتهم بما فعلوه. قام أحد الطلاب من الذين قبض عليهم وهو يحمل «بخرة /برشامة crib» برفع كرسيه عاليا في الهواء، وهدد بتحطيمه فوق رأس مراقب الامتحان الذي كشف أمره. لم يكن أمام الطلاب من بد – وقد فوجئوا بتشديد المراقبة- من تغيير التكتيك، فطلب عدد كبير منهم السماح لهم بالذهاب إلى المرحاض... لاشك بغرض الإطلاع العاجل على «بخرة /برشامة» مخبوءة بعناية بين طيات الثياب أو في أماكن أخرى. تم اعتراض بعض هؤلاء الطلاب المحصورين قبل مغادرتهم لصالة الامتحان، ونزع بعض ما هو مخبأ في ثيابهم وأجسادهم من مذكرات صغيرة. ثبت فيما بعد نجاح عدد من هؤلاء الطلاب الذين طلبوا زيارة مراحيض المدرسة في الدخول لتلك المراحيض بمذكرات صغيرة...إذ تم العثور على عشرات من قصاصات الورق وبها تلخيصات وافية في مواد الجبر والتاريخ واللغة الإنجليزية...ونشرت رياح الصيف اللافحة بعضا من تلك المذكرات بعيدا في حوش المدرسة.

ما أن آذنت شمس ذلك اليوم الأول بالغروب، حتى كنا قد صادرنا مئات «البخرات»، وفي ذات الوقت تلقينا عددا مقدرا من التهديدات من الطلاب .كان التهديد موجزا وحاسما: إن مضيتم في تشديد المراقبة كما فعلتم اليوم فسوف ترون ما يسوؤكم.

مر اليوم الثاني للامتحان مثل اليوم الأول. أتانا نجار المدرسة فزعا في مساء ذلك اليوم ليخبرنا عن قرب هجوم وشيك للطلاب على «ميز» المدرسين. كان ذلك هو ما دعا أستاذ عبد الرحيم لينشغل على عجل بتحضير كوكتيل مولوتوف، ومواد أخرى لا تعد عادة من ضمن ما يربط الطلاب بأساتذتهم!

تناهت إلى أسماعنا بعد قليل أصوات خلناها أصوت أقدام قطة تسعى في الحوش. تلاشي ذلك الشعور الكاذب مع وصول عدد من مقذوفات الحجارة والحصى والصخور الصغيرة عبر حائط الدار لتستقر في كل مكان. خطف أستاذ محمود سيخة الحديد ، وتأكد من إحكام إغلاق باب الحوش. لزم بقية الأساتذة أماكنهم في مأمن نسبي من مقذوفات الطلاب التي توالي وصولها، مصحوبا بصيحات غضب شبابي عالي النبرة .دام الهجوم الطلابي خمس دقائق، وتفرق بعدها الجمع الغاضب، ولكن فقط لملاحقة أستاذين شاء حظهما العاثر أن يهربا من الميز عبر النافذة، غير أن عيون الطلاب اليقظة كانت قد رصدتهما.

تصادف أن كانت سيارة الطبيب (والتي تعمل أيضا كسيارة إسعاف) تقف خارج دارنا، فتناوشتها مقذوفات الطلاب الحجرية، فهشمت زجاجها وأصابتها بتلف عظيم. لحسن الحظ لم يسفر الهجوم الطلابي عن إصابات بشرية.

كانت شدة رد فعل الطلاب على تشديد المراقبة في الامتحانات مثيرة للدهشة وصادمة جدا بالنسبة لي. لكن سرعان ما زالت دهشتي عندما بدأ زملائي في الاعتراف بأن تصميمهم على عدم التساهل في مراقبة الامتحان يأتي على عكس ما اعتاد عليه الناس في عبري، وضد ما يشتهون.

اشتهرت عبري – فيما يبدو- ومنذ سنوات، بعدم التشدد في مراقبة الامتحانات. كان أولياء أمور الطلاب والمدرسون يعزون ذلك لبعد البلدة، ويقولون إن أبناءهم يحتاجون لدفعة ومساعدة لينافسوا طلاب المناطق الأخرى التي تنعم بمزايا وبموارد تفتقدها عبري. كانت المدرسة تغلق كثيرا أثناء العام الدراسي، إما بسبب شح المياه، أو وسائل النقل، أو إضرابات الطلاب المتعددة، أو لأسباب أخرى متنوعة. يحاجج أولياء أمور طلاب عبري بأنه ينبغي على المسؤولين مراعاة «ظروف» هؤلاء الطلاب، وأن يمارسوا معهم «تمييزا إيجابيا» يضمن لهم بعض المساواة مع طلاب المدن الأكثر حظا في الخدمات والإمكانات، وقد يشمل ذلك السماح بقدر من الغش الصريح في الامتحانات. يجب التأكيد هنا على أن شح الإمكانيات في عبري لا يختلف كثيرا عنه في باقي مدن السودان الصغيرة.

لم يترك لنا الهجوم الطلابي أي خيار غير أن نتوقف عن مراقبة الامتحانات، وأن نضع أنفسنا في لوري متجه صوب مكتب التعليم المحلي في دنقلا لتقديم عريضة احتجاج (بالتضامن مع نقابة المعلمين). عند مغادرتنا للبلدة هكذا فجأة، لم يجد مدير مدرسة عبري من بد من الاستعانة ببعض موظفي الحكومة المحليين، ومدرسي المدرسة الابتدائية لسد الفجوة الكبيرة التي تركناها. علمنا فيما بعد أن من قبضنا عليهم متلبسين بتهمة الغش في اليومين الأولين للامتحانات قد تمت عملية «معالجة» من نوع ما لأمرهم، وكانت النتيجة في آخر العام محترمة بما فيه الكفاية!

وجدت أنه من المستحيل علي العمل في الإقليم الشمالي في العام التالي. افترضت أن السبب هو أنني غادرت عبري وسافرت لدنقلا تضامنا مع بقية زملائي من الذين توفقوا عن مراقبة الامتحانات .تصادفت تلك الأيام مع تقسيم إدارة التعليم لشق أكاديمي، وآخر فني، فحولت رحلي للشق الفني، حيث نقلت من مدرسة عبري للبنين (وهي مدرسة أكاديمية) إلى مدرسة الغابة التجارية (تتبع للقسم الفني). بقيت إذن في الإقليم الشمالي!

كانت بلدة «الغابة» أقل بعدا من «عبري» الواقعة في قلب بلاد النوبة، وأقرب إلى دنقلا. حسبت أن أيامي هناك ستكون أكثر يسرا. هذا ما حدث فعلا، إذ استقررت هنالك في غضون أيام قليلة، وكان معي من زملاء عبري السابقين أستاذ عبد الرحيم. كنا كثيرا ما نتسامر ونذكر حوادث تلك الأيام العصيبة في عبري، والتي انتهت بطردنا منها. فكرت في سبب كراهية الطلاب (في عبري) للامتحانات، وتبين أن لا علاقة لذلك بنقص الإمكانات، وإنما بالنقص الحاد في فرص القبول بالجامعات، حتى لأولئك الذين يحصلون على درجات جيدة. لخص لي أحد جيراني في عبري كل ذلك عندما سألته عن ما سيفعله عند انتهاء دراسته بالمدرسة. قال لي في بساطة: إنه لا يفكر في الاستمرار في الدراسة، وأنه سيبذل قصارى جهده ليحصل على فيزا (تأشيرة دخول) لإحدى دول الخليج، حيث يؤمل أن يجمع مالا كثيرا حتى وإن عمل في وظيفة يدوية بالغة التواضع.

سارت علاقتنا بطلاب «الغابة» على خير ما يرام، ولكن إلى حين! ما أن حل موسم الامتحانات حتى تقاطرت علي دارنا سيول من المقذوفات الحجرية. سقط أحد تلك المقذوفات على طاولة تحلق حولها عدد من الأساتذة يلعبون الورق في حوش الدار. لحسن الحظ لم تصب تلك المقذوفة أحدا بسوء، إذ سقطت تحت أقدامهم، غير أنها أثارت ذعرا كبيرا. بالمقارنة مع تلك الليلة الليلاء في عبري، فلقد كانت تلك الحادثة أمرا هينا بسيطا قليل الخطر. تعايشنا مع ذلك النوع من المضايقات حتى انتهت الامتحانات بسلام، إلا في تلك الليلة التي سقط فيها على سقف غرفتنا (والتي كنت أتقاسمها مع خمسة آخرين) شيء ما محدثا صوتا هائلا. في الصباح تفحصنا ما سقط علينا ليلا. كانت هنالك زجاجة ضخمة مهشمة، وكان بداخلها قطن طبي مبلل بسائل محروقات كدر. كان من الواضح أن ما قذف به علينا كان كوكتيل مولوتوف! كان ذلك إعلانا بأن الزمن قد دار دورته، وأذن بانتهاء العام الدراسي، ودخولنا لأول يوم من أيام امتحانات الشهادة السودانية.

